الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

محبطات العمل الصالح وآثارها كما يصورها القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة
رضا نصر الله جندي القدرة

إشراف الدكتور
وليد محمد حسن العامودي

1423هـ – 2003 م

بسم الله الرحمن الرحيم



الجامعة الإسلامية - غزة
THE ISLAMIC UNIVERSITY OF GAZA

هاتف داخلي 1150

الرقم: ....ج س غ/38/ Ref

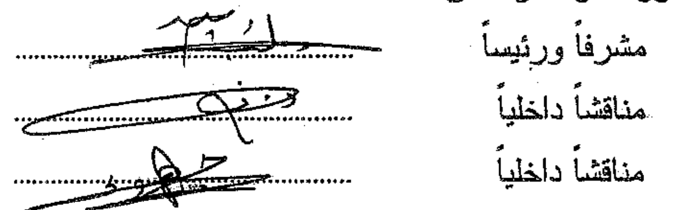
التاريخ: ....2003/5/18 Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بـــناء على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحـــثة رضا نصرالله جندي القدرة المقدمة لكلية أصول الدين لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

محبطات العمل الصالح وآثارها كما يصورها القرآن الكريم

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأحد 17 ربيع أول 1424هـ الموافق 2003/5/18م الساعة 10 صباحاً، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:



د. وليد العامودي	مشرفاً ورئيساً	....
د. زكريا الزميلي	مناقشاً داخلياً	....
د. جمال الهوبي	مناقشاً داخلياً	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله ولزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد الدراسات العليا

د. صالح حسين الرقب

نتيجة الحكم 140

ص.ب108 الرمال-غزة-فلسطين فاكس P.O.Box 108, Rimal,Gaza, Palestine Tel:(+970/8)286 3554-2823311هاتف Fax: (+970/8)2863552

Web Site:www.iugaza.edu e-mail: public@mail.iugaza.edu


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

الحمد لله أولاً وآخراً ، وأثني عليه الخير كله ، فهو الهادي إلى سبيل الرشاد ، والموفــق للخير والسداد ، ولولا توفيقه –جلَّ وعلا– لما خرج هذا البحث إلى النور ، فهو أهل للشكر والثناء .

ومن منطلق قول المصطفى –ﷺ– فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري – رضي الله عنه – : (**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**)[2].

وقولـــه –ﷺ– فـيما رواه عنه ابن عمـر – رضـي الله عنهمـا– : (**من صـنع إليكم معروفـاً فكافئـوه ، فإن لم تجـدوا ما تكافئونــه ، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**)[3].

فإننـــي أتقدم بالشكر والثناء إلى **مشرفي أبي خالد فضيلة الدكتور / وليد محمد العــامودي** الــذي تبنى هذا البحث ورعاه، وكان دائماً متفهماً للأوضاع، متحملاً طول غيابي وانقطاعي عن الجامعة فبارك الله فيه، وجزاه خير الجزاء.

كما وأتقدم بالشكر إلى أستاذيَّ الفاضِلَيْن عُضْوَيْ لجنة المناقشة .

الدكتور / جمال الهوبي .

والدكتور/ زكريا الزميلي .

على قبولهما مناقشة هذه الرسالة ، وإثرائها بتوجيهاتهما السديدة ، وملاحظاتهما القيمة – بإذن الله تعالى– لإخراج هذا العمل في أحسن صورة .

وأتقــدم بالشكر والدعاء بالخير إلى الجامعة الإسلامية ، والدراسات العليا التي أتاحت لنا هذه الفرصة ، وأتقدم بالشكر لكلية أصول الدين ، بجميع أساتذتها ، وأخص بالشكر أساتذتي في قسم التفسير ، حفظهم الله جميعاً من كل سوء .

---

(1) إبراهيم /7.

(2) أخــرجه (ت) ، ك(البر) ، ب/35 (ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك) ، 299/4 ، ح(1955) ، وقال : حسن صحيح

(3) أخـرجــه (د) ، ك(الــزكاة) ،ب/39(عطـيــة مــن سأل الله) 725/2 ،ح(1672) ، وقال : صحيح ، وصححه الألباني :1041/2 ، ح(6021) .

وأتقدم بالشكر الجزيل الذي يعجز لساني عن وصفه **للأستاذ الدكتور الفاضل محمد شبير رئيس الجامعة ، والأستاذ الدكتور الفاضل أحمد أبو حلبية عميد الدراسات العليا سابقاً** على مساندتهما لي ، ومساعداتهما إياي في الحصول على المنحة الدراسية من الجامعة الإسلامية، بعد أن أخلف التعليم العالي وعده ، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر الجزيل ، **للدكتور الفاضل / جمال الهوبي** حيث قَدَّم لي في بداية هذا البحث نصائح ، وتوجيهات عامة أسير إليها ، بالاتفاق مع المشرف فبارك الله فيه.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل **لفضيلة الدكتور / يونس الأسطل** حيث حمل معي مسؤولية لم يجبره عليها أحد سوى أخلاقه العالية ، وضميره الحي ، وإحساسه بالمسؤولية العامة ، بالرغم من عظم مسؤولياته ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما وأتقدم بالشكر والتقدير **للزوج الفاضل / أبي خميس** الذي تحملني طوال فترة الدراسة في مرحلتي البكالوريوس والماجستير ، وخصوصاً فترة كتابة هذا البحث فقد تحمل تقصيري تجاهه وتجاه بيته ، كما كان دائماً نعم العون ، ونعم الزوج المساند، فقد تحقق فيه قول المصطفى – صلوات ربي وسلامه عليه – فيما روته عائشة – رضي الله عنها– : (**خيركم خيركم لأهله**) [1] فبارك الله فيه ، وجزاه عني خير الجزاء، وجعل هذا العمل في ميزان حسناته إنه ولي ذلك والقادر عليه .

كما وأتقدم بالشكر والثناء **لجمعية دار الكتاب والسنة بخان يونس** متمثلة في رئيسها وجميع العاملين بها على مساهمتهم في تذليل بعض العقبات ، وذلك بفتح أبواب المكتبة أمامي حتى في أوقات الراحة ، والإجازات الرسمية ، ومحاولتهم توفير الكتب غير المتوفرة في المكتبة ، فبارك الله فيهم جميعاً .

وأتقدم بالشكر الخالص ، والنابع من أعماق القلب المشتاق **للأخت الشقيقة الحبيبة/ أنوار** خريجة نفس الكلية ، والتي طالما ساندتني وسهرت معي الليالي الطوال

---

(1) أخرجه (ت) ، ك(المناقب) ، ب/64 (فضل أزواج النبي -ﷺ-) ،521/5 ، ح(3895) ، وصححه الألباني في صحيحه 626/1 ، ح(3314) .

وقامـــت بتبيـــيض معظم تلك الرسالة ، كما وساعدتني في تخريج الأحاديث النبوية ، فبارك الله فيها ، وجعلها نوراً، بل أنواراً تضاء بها ظلمات الجهل والضلال .

ولا يفوتني أن أشكر كل من قدَم لي عوناً من قريب ، أو بعيد ، وأسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء .

وبالله التوفيق ، وصلي اللهم على سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه وسلم .

مقدمـــة

إن الحمـــد لله نحمـــده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِـــنْهَا زَوْجَهَـــا وَبَـــثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [2] .

وقـــال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3] .

أما بعـــد :

فقـــد جعـــل الله – سبحانه وتعالى – كتابه العزيز لرسوله ﷺ معجزة عظمى ، وحجةً خالدة على الخلق ، ونبراساً دائماً للدعاة إلى يوم الدين ؛لذا فقد حظى بكثير من جهـــود العلمـــاء علـــى مَرِّ التاريخ ، ومنهم علماء التفسير ، حيث اهتموا منذ عصر الرسول الكريم –ﷺ– ببيان معانيه وأحكامه ، ثم ظهر في العصر الحاضر علم جديد فـــي التفســـير ، هـــو التفسير الموضوعي ، قُدِّم فيه الكثير من موضوعات القرآن ، وعلومـــه ، ومعانـــيه ، وحقائقـــه ، وصـــدرت عـــنه دراسات كثيرة تلقاها الباحثون والدارسون بالنظر والتمحيص .

ومـــن هذه الدراسات بيان مدى اهتمـــام القـــرآن الكريـــم بالإنسان ، حيث إنه لم يترك الناس يتخبطون في ظلمات الجهل ، والضلال ، بل أرســـل لهم الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام– مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب السماوية ؛ لتخرجهم من الظلمـــات إلى النـــور ، ومع كـــل ذلك فقد منحهم قلوباً واعية ، وعقولاً مفكرة ؛

---

(1) آل عمران / 102 .

(2) النساء / 1 .

(3) الأحزاب / 70 ، 71 .

ليستطيع كل منهم اختيار طريقه ، ومن ثمَّ يكون مسئولاً عن اختياره .

قال تعالى : ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[1]. ولكنَّ كلَّ إنسان مجازىً عن عمله ، محاسبٌ عليه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [2] .

وكذلك قال – عزَّ وجل – : ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [3] .

فإذا كان الإنسان عاقلاً ، فطناً ، ووفقه الله إلى اختيار الطريق الصحيح ، ومن ثمَّ إلى فعل الأعمال الصالحة ، فقد فاز ، وسعد في الدارين ، ونال رضا الله – عزَّ وجل– ، ورضا نبيه –ﷺ–.

أما إذا عطل الإنسانَ عقلَه ، وسار وراءَ أهوائه وشهواته ، فإنه يكون حقيقة قد ضلَ الطريق ، وسار في انحرافات ، ومتاهات ، وضلالات ، لا يعرف لها آخر ؛ وتكون نتيجة ذلك أن يرتكب ذنوباً وخطايا أمر الشارع الحكيم بالابتعاد عنها ، وتجنبها ؛ لأنها كفيلة بأن تحبط جميع الأعمال الصالحة ، وتجعلها هباءً منثوراً ، لا فائدة ترجى من ورائها ، في نفس الوقت الذي يظنها خيراً ، ويحسب أنها ما نعته من عذاب النار .

قال تعالى : ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ [4] .

ففي هذا اليوم – يوم القيامة – يكون المرء مشغولاً بنفسه ، ذاهلاً عن غيره ، حتى إنه ليفر من أقرب المقربين إليه .

---

(1) الإنسان / 3 .

(2) غافر / 40 .

(3) الزلزلة / 7 ، 8 .

(4) الكهف / 103 – 105 .

قــال تعالى : **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** [1] .

كما يكون في ذلك اليوم مستشعراً للعذاب ، مشفقاً أن يكون مصيره إلى النار ، فهو لا يدري أيقبل عمله ، أم يرد ، وهنالك تظهر ثمرة العمل الصالح ، الخالص لوجه الله -عــزّ وجل - حيث ينفع صاحبه في الآخرة ، ويكون دليلَه إلى الجنة - بإذن الله تعالى- .

وبالمقــابل تظهر مساوئ المعصية ، وآثار ارتكاب المعاصي والقبائح ، حيث تكون دليلَ صاحبها إلى النار - والعياذ بالله - .

وإنطلاقاً من مجموع هذه الأمور ، وحباً في خدمة هذا الدين ، ورغبةً في بيانِ الحقِ ، وتفنيدِ الباطل ، عقدتُ العزمَ ، واستعنتُ بالله ، وكتبتُ هذا البحث ، وسميته:

(محبطاتُ العملِ الصالح وآثارُها كما يصورها القرآن الكريم)

وأنـــا أعلـــم يقيناً أن مثلي لا يعطى هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة ؛ نظراً لقلة البضاعة ، وسعة الموضوع ، ولكنني بذلتُ جهدَ المقل ، واجتهدتُ أن أصلَ به إلى الصورةِ التي تليقُ به ، فإن أصبتُ فذاك ما أردتُ والفضلُ لله أولاً وأخراً .

وإن كانت الأخرى فأستغفرُ الله لذنبي ، وحسبي أني بذلتُ طاقتي ووضعتُ لبنةً في طريقِ من يريد إكمال البناء، هذا وقد وقعت هذه المقدمة في الفقرات الآتية :

أولاً : طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه

هذا الموضوع يبحثُ في بيان الخطايا والذنوب التي ذُكَرت في القرآن الكريم ، ويرتكبها الناس ، فتؤثر في خفة موازينهم ، قالَ تعالى : **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾** [2].

وقد تبين أن هذه المحبطات تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1. **محبطات قلبية**
2. **محبطات قولية**
3. **محبطات فعلية .**

---

(1) عبس / 34-37 .

(2) هود / 15 ، 16 .

ولْـــنعلمْ أن آثارَ هذه المحبطات ليست على درجة واحدة من الإثم ، **بل تنقسم إلى قسمين :**

1. **محبطات تخرج من الإسلام**
2. **محبطات لا تخرج من الإسلام .**

وقـــد تَبيَّنْتُ أثر هذه الذنوب والخطايا على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة ، وَوَضَّـــحْتُ مـــنهج القرآن الكريم في عرض هذه المحبطات للتنفير منها ، والترغيب بالصالحات .

ثانياً : أسباب اختيار الموضوع

يمكن ذكر أبرز هذه الأسباب في البنود التالية :

1. انتشار هذه الذنوب والخطايا في البلاد الإسلامية بشكل واسع ، حتى صارت أمراً مألوفاً ، بل تجاوز الأمر ذلك ، فسميت تلك الخطايا والذنوب بأسماءٍ محببةٍ للنفس ترويجاً لها ، وتضليلاً للناس ، مثل تسمية التبرج والسفور موضة وأناقة .
2. إن خطورة المعاصي المحبطة للأعمال تكمن في جلالة مَنْ يُعصى بها ، وهو الله الـــرازق ذو القوة المتين ، فكان التنبيه عليها منقذاً لأصحابها من التعرض لسخط المنتقم الجبار ، أو لبطش ذي العرش المجيد ، الفعال لما يريد .
3. ثـــم إن مصير الإنسان مرهون بعمله ، وقد يقع الإنسان في محبطات الأعمال ، وقد زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسناً ، فيكون ممن ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأفضل هدية تُقَدَّمُ له تنبيهه على ذلك .
4. إن كثـــيراً مـــن المعاصـــي قد جرت سنة الله –عزَّ وجل– أن يذيق أصحابها من العـــذاب الأدنـــى إضافة إلى العذاب الأكبر ، وبذلك يكون أهلها ممن خسر الدنيا والآخـــرة ، وذلك هو الخسران المبين ، فكان الواجب يقتضي تبيان ذلك للناس ، لتقوم به حجة لله عليهم، ولعلهم يتقون .
5. تشجيـــع أســـاتذتي الأفاضل في القســـم ، حيث إنهـــم اعتبروه موضوعاً دعوياً لم يطرق من قبل وهو حري بالبحث والدراسة .
6. أمنيتـــي مـــنذ دخولي برنامج الماجستير أن تكون رسالتي من الأهمية والسهولة والوضوح بحيث يستفيد منها العامة والخاصة .

7. وأخيراً فإنني أعتقد أن الأمة الإسلامية على أعتاب مرحلة الخلافة التي هي على منهاج النبوة ، وهو ما تبشر به الصحوة الإسلامية ، ودخول الناس يومياً في دين الله، وإن استشراف هذا المستقبل القريب يحتم علينا أن نعد الدراسات اللازمة لمرحلة التمكين ، وتأتي هذه الرسالة لتكون بمثابة عاصم من الانزلاق في أسباب الهلاك ، التي تحول دون تحقيق وعد الله ، أو تعجل بضياع ثمرة قرنٍ كامل من الدعوة والتربية والجهاد.

ثالثاً : أهداف البحث

1. ابتغاء مرضاة الله -عزّ وجل- أولاً وآخراً ، وهو أعظم هدف وأسمى غاية يمكن أن تُرجى من وراء هذا البحث .

2. إثراء المكتبة الإسلامية برسالة علمية متخصصة ، تجمع الخطايا والذنوب التي تحبط العمل الصالح ، وتتناولها بالدراسة والتحليل ، وكل ذلك من منظور قرآني .

3. بيان أنه ليس كل ذنب يرتكبه الإنسان يخرج صاحبه من الإسلام ، كما يقول بعض الذين يستهينون بتكفير الناس لأتفه الأسباب ، **قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** [1] .

4. بيان أن آثارَ هذه الذنوب والخطايا لا تقع على الأفراد فقط ، بل قد تَحُلُّ بالمجتمعات أيضاً ، فقد قال تعالى **﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ،وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾** [2] .

5. بيان أن عقوبات هذه الذنوب والخطايا لا تقع في الآخرة فقط ، بل منها ما قد يقع في هذه الحياة الدنيا ، قال تعالى: **﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾** [3] .

---

(1) النساء / 94 .

(2) الأنفال / 25 .

(3) النحل / 26 .

6. محاولة إيقاظ الغافلين حتى يذروا ماهم عليه من ارتكاب المعاصي ، ويعودوا إلى الله تائبيـــن ، نادمين ، مستغفرين ، وذلك لأن بعض آثار هذه الذنوب قد تزول بالتوبة الصادقة النابعة من القلب ، فهؤلاء لا يتوب الله عليهم فحسب؛ بل يبدل سيئاتهم حسنات أيضـــاً ، قـــال تعـــالى :﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[1] .

رابعاً : الدراسات السابقة

بعـــد البحـــث والاطلاع تبين أن هذا الموضوع لم يتناوله أحد من قبل بالبحث والدراســـة فـــي قسم التفسير وعلوم القرآن ، ولكني وجدت رسالتين علميتين إحداهما بعنوان : (**نواقض الإيمان القولية والعملية**) للدكتور : عبد العزيز بن محمد بن على العـــبد اللطـــيف ، وهـــي ممـــتازة جداً، ولكنها بعيدة عن مجال بحثي ، فهي تتناول الموضـــوع من زاوية عقدية ، وأنا تناولته من زاوية قرآنية تفسيرية بالدرجة الأولى ، كما أنها لم تتناول إلا الذنوب التي تخرج من الإسلام فقط ، ولكني زدتُ عليها الذنوب التـــي لا تخرج من الإسلام ، ثم قمتُ ببيان آثار هذه الذنوب على الفرد والمجتمع ، ثم وَضَّحْتُ منهج القرآن في محاربة تلك الذنوب والخطايا ، وكل ذلك بعون الله وتوفيقه . وأمـــا الرسالة الثانية فهي بعنوان : (**نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف**) للدكتور : محمد بن عبد الله الوهيبي ، وهي لم تتناول إلا النواقض الاعتقادية التـــي تخـــرج مـــن الإســـلام فقط، أما أنا فتناولت الحديث عن المحبطات التي تتعلق بالاعـــتقاد ، وباللســـان ، وبالجوارح والأركان ، كما أنها تركز على التحذير من أهل البدع والأهواء؛ كالأشاعرة ، والماتريدية ، والمرجئة .... وغيرهم – من وجهة نظر كاتـــبها – ، ثـــم تبيـــن فساد اعتقادهم ، ومن ثمَّ تقارن بين معتقدهم ومعتقد أهل السنة والجماعة، وهذا بعيد عن مجال بحثي .

خامساً : منهجي في هذا البحث

كان منهجي في هذا البحث ملخصاً في النقاط التالية :

1. استقراء الآيات القرآنية التي تدل بمنطوقها على حبوط الأعمال ، وقد بلغت ستَّ عشرةَ آية، وتوثيقها بذكر اسم السورة ، ورقم الآية في الحاشية .

---

(1) الفرقان / 70 .

2. اســتقراء الآيات التي تدل بمفهومها على حبوط العمل ، والسير على نفس المنهج[1] .
3. تصنيف الآيات حسب موضوعاتها .
4. تتبع تفسير الآيات من كتب التفسير القديمة والحديثة .
5. الاعــتماد في بعض المطالب على نفس كتاب التفسير، بحيث يتكرر النقل منه أكثر من مرة ، إذ يكون قد أجاد وأفاد في هذا الموضوع أكثر من غيره .
6. جمــع الأحاديث الشريفة التي تتمم الموضوع ، وتخريجها حسب الأصول، مع الحكم عليها، وهذا لا ينافي كون البحث دراسة قرآنية ، فما كان دليله من القــرآن الكــريم أخذت به ، وما لم يكن دليله مباشراً من القرآن ، بحثت في السنة النبوية الشريفة .
7. الاقتصـــار في الاستدلال علـــى الأحاديث الموجودة في الكتب الستة فقط ، ومـــا كان في البخاري أكتفي به ، وما كان في البخاري ومسلم أذكره أحياناً ، وأحـــياناً أكتفـــي بالبخاري، وما لم يوجد فيهما ، أتجه لباقي كتب السنة ، مع الحكم عليها جميعاً .
8. بـــيان معانـــي المفردات الغريبـــة فـــي الآيـــات الكريمـــة ، والأحاديث النبويـــة الشريفة ، في الحاشية، وذلك بالرجوع لكتب التفسير ، وكتب شروح السنة .
9. بـــيان معانـــي المفـــردات الغريبة في النقولات من الكتب المختلفة ، وذلك بالرجوع إلى كتب اللغة المختلفة .
10. عنونت في داخل الرسالة لجميع الفصول ، والمباحث ، والمطالب.
11. استخدمت في التوثيق منهجية واحدة ، وهي ذكر البيانات الخاصة بالكتاب حين وروده أول مرة كاملة ، ثم بعد ذلك اقتصرت على ذكر اسم الكتاب دون المؤلف اختصاراً ، ماعدا كتب التفسير؛ فإنني في كل مرة أذكر اسم التفسير ، مع ذكر المؤلف ؛ لأن الدراسة تفسيرية بالدرجة الأولى، فأردت التركيز على كتب التفسير بذكر مؤلفها.

---

[1] مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾ البقرة /264.

12. عند النقل الحرفي أضع المنقول بين علامات تنصيص وعند أخذي للمعنى فقط ، وصياغة ذلك بأسلوبي أقول : انظر ، أما عند التغيير من تقديم وتأخير وحـذف : أقـول بتصرف ، وعند تغيير شئ يسير جداً ، حتى لو كان تغيير كلمة ، أو حرف أقول : بتصرف يسير .
13. كتبت ملخصاً للرسالة باللغة الإنجليزية .

سابعاً : الرموز المستخدمة في الرسالة

خ : البخاري

م : مسلم

ت : الترمذي

د : أبو داوود

س : النسائي

جه : ابن ماجه

حم : مسند الإمام أحمد

ك : كتاب

ب : باب

ح : حديث

ص : صفحة

ط : الناشر أيْ الطبعة

د. : دكتور

أ.د : أستاذ دكتور .

ثامناً : خطة البحث

تحقـيقاً للأهداف والغايات المرجوة من وراء هذا البحث ، قسمت هذه الدراسة على النحو التالي: مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثةَ أبواب ، وخاتمة .

المقدمة : وتناولت فيها الموضوعات التالية :

1. طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه .
2. أسباب اختيار الموضوع

3. أهداف البحث
4. الدراسات السابقة
5. منهجي في هذا البحث
6. الرموز المستخدمة في البحث
7. خطة البحث
8. الشكر والتقدير

التمهيد: وقد اشتمل على مبحثين

المبحث الأول : سأتناول فيه الحديث عن العمل الصالح ، من حيث تعريفه ، وضربُ أمثلة عليه، والدعوة إليه، والحث عليه ، وبيان آثاره في حياة الفرد والجماعة ، ثم تناولت أهمية الإخلاص في العمل، وذلك في خمسة مطالب .

المبحث الثاني : وسأتناول فيه الحديث عن محبطات العمل الصالح ، من حيث تعريفُها وبيانُ أسباب الوقوع في الذنوب التي تؤدي إليها ، ثم بيان كيفية التخلص من آثار الذنوب بعد وقوعها، وذلك في ثلاثة مطالب .

الباب الأول : محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناولت فيه الحديث عن المحبطات القلبية

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : المحبطات القلبية التي تخرج من الإسلام

ويشتمل على سبعة مطالب

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

المطلب الثاني : كفر الجحود والتكذيب

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله – عزَّ وجل –، أو خبر من أخباره .

المطلب الرابع : النفاق الاعتقادي

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

المطلب السادس : إنكار البعث والنشور

الفصل الأول : الترغيب بالصالحات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثـــال

المبحث الثاني : ســـرد القصص .

الفصل الثاني : الترهيب من المحبطات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثـــال

المبحث الثاني : ســـرد القصص .

الخـــــاتمـــــة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

الفهـــــارس

وسأقوم بوضع الفهارس التالية :

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأحاديث النبوية
3. فهرس المصادر والمراجع
4. فهرس الموضوعات .

الفصـــل التمهيــدي

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : العمل الصالح

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف العمل الصالح لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : أمثلة على العمل الصالح

المطلب الثالث : الدعوة إلى العمل الصالح ، والحث عليه

المطلب الرابع : بيان آثار العمل الصالح في حياة الفرد والجماعة

المطلب الخامس : الإخلاص في العمل .

التمهيــــد

المبحث الأول

العمل الصالح

يــدور هذا المبحث حول تعريف العمل الصالح وإيضاحه بالأمثلة ، ثم الدعوة إلــيه والحــث علــيه ، وبيان الآثار المترتبة عليه على مستوى الفرد والجماعة ، ثم ضرورة الإخلاص فيه ، وذلك في المطالب الخمسة الآتية :

المطلب الأول : تعريف العمل الصالح لغة واصطلاحاً

لمعــرفة معــنى هذا المركب الوصفي في اللغة ، لا بد من تعريف طرفيه كلٍ على انفراد كما يلي :

أولاً : العمل الصالح في اللغة

(أ) العمل لغة :

المهــنــة ، والجمــع أعمال ، يقال عَمِلَ عملاً ،وأعمله ، واستعمله ، واعتمل الرجل : عمل بنفسه ، وأعمل رأيه وآلته، واستعمله : عمل به [1].

(ب) الصالح لغة :

الصــاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال: صَلُحَ الشيء يصلُح صلاحاً وصُلُوحاً ، ويقال: صلَحَ – بفتح اللام – صلاحاً .

والصــلاح – بالكســر– : المصــالحــة، وهــي المسالمة بعد المنازعة، والاسم : الصُلْحَ[2].

---

(1) انظــر لسان العرب لابن منظور، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت/لبنان، ط2 1413هـ–1993م ، 400/9 . والقاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، دار الجيل بيروت / لبنان – بدون تاريخ – 22/4.

(2) انظــر معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن احمد بن فارس بن زكريا، (ت) عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل/بيروت، ط1 1411هــ، 303/3. ولسان العرب 384/7، والمصباح المنير للعلاّمة أحمد بن محمد ابــن علي الفيومي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط2، 1418هــ – 1997م، ص180 ، والقاموس المحــيط 243/1 ، وتــاج العروس من جواهــر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهدايــة، ط1 1400هــ– 1980م، 547/6، والصــحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل حماد الجوهري دار العلم للملايين ، بيــروت لبنان –بدون تاريخ– 383/1.

ثانياً : العمل الصالح اصطلاحاً

وهــنا أيضاً لا بد من معرفة معنى طرفي المركب قبل الوقوف على معناه بعد التركيب :

(أ) العمل اصطلاحاً :

هو فعل الشيء عن قصد .

(ب) الصالح اصطلاحاً :

هو النافع ، مأخوذ من الصلاح وهو الاستقامة ، والسلامة من العيب (1).

(ج) العمل الصالح اصطلاحاً:

الخالص من كل فساد (2).

وعــرّفه الزحيلي بقوله : هو كل خير أقره العرف والشرع والعقل والفطرة السليمة ، وهو الذي يبوئ أصحابه الجنات (3).

مــن خــلال المعنى الاصطلاحي يتضح أن العمل الصالح هو: **العمل الموافق لشــرع الله ، ولــيس فيه مخالفة شرعية ، وهو الذي يحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة .**

ثالثاً : معاني العمل الصالح في القرآن الكريم

قوبل العمل الصالح في القرآن الكريم تارة بالفساد قال تعالي **﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْـدَ إِصْـلاَحِهَا﴾** (4). وتارة بالسيئة ، **قال تعالى : ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾** (5) .

---

(1) المعجـم الوسـيط ، مجمع اللغة العربية ، ط1 – بدون بيانات نشر – ص539، وحقائق التنزيل وعيون الأقـاويل فـي وجـوه الـتأويل –المسـمى بالكشاف–لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، مكتبة مصطفي البابلي الحلبي /مصر – بدون تاريخ – 255/1.

(2) القاموس الفقهي لغة وإصطلاحاً لسعدي بن أبي حبيب ، دار الفكر – بدون تاريخ – ص215.

(3) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ.د وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر بيروت/لبنان ، ط2 1418هـ 1998م،107/1بتصرف يسير.

(4) سورة الأعراف / 56 .

(5) التوبة / 102 .

وصلاح الله للإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً ، وتارةً بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، وتارةً يكون بالحكم له بالصلاح ، قال تعالى: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم﴾ [2] . ،وقال أيضاً: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي[3]﴾ [4] .

رابعاً : شروط صلاح العمل :

وضح الشنقيطي –رحمه الله– عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [5] ، شروط صلاح العمل فقال :

((دلت هذه الآية على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور:

الأول : أن يكون العمل شرعياً :

فكل عمل مخالف لما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فليس بصالح ، بل هو باطل ، ويدل على ذلك المعنى عدة آيات كريمة أذكر منها :

(أ) قال – تعالى– :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [6] .

(ب) وقال – جلَّ وعلا– :﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾ [7] .

(ج) وقال – تبارك وتعالى– :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾[8] .

(د) وقال – جلَّ ذكره– : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّه ﴾[9] إلى غير ذلك من الآيات .

---

(1) محمد / 2 .

(2) الأحزاب / 71 .

(3) الأحقاف / 15 .

(4) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ، المكتبة العلمية ، بيروت / لبنان – بدون تاريخ – 43/3 .

(5) الكهف / 2 .

(6) الحشر / 7 .

(7) النساء / 80 .

(8) آل عمران / 31 .

(9) الشورى / 21 .

الثاني : أن يكون العامل مخلصاً لله

(أ) قـــال – تعالى– : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّه الدين . وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِه**﴾[1] .

(ب) وقال تعالى : ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء**﴾[2] .

الثالث : أن يكون العمل من مؤمن

فـــالعمل لا يقبل من الكافر وذلك أن العمل كالسقف ، والعقيدة كالأساس ، قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [3] ، فجعل الإيمان قيداً في ذلك)) [4] .

فهـــذه الشروط الثلاثة لا بد من توافرها مع كل عمل يقوم به الإنسان ، ليحكم علـــيه بالصلاح والقبول عند الله تعالى ، أما إن لم تتوفر هذه الشروط فإن العمل يكون باطلاً ، ويحكم عليه بعدم القبول .

المطلب الثاني : أمثلة على العمل الصالح

إن العمـــل الصـــالح هو صلة الإنسان بربه ، وبه ترتفع درجات صاحبه حتى يصـــل إلى أعلى المراتب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وقد بيَّن الحق – سبحانه وتعالى– أنه يحفظ هذا العمل لصاحبه ولا يضيعه أبداً . فقال تعالى : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾ [5].

وللعمل الصالح أمثله كثيرة أذكر منها ثلاثة عامة على سبيل التذكير لا الحصر :

1. إن أول ركائـــز العمـــل الصـــالح تتمثل في أركان الإسلام كالصلاة ، والزكاة ، والصـــيام ، والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع ذلك والجهاد في سبيل الله ، فهذه أفضل الأعمال الصالحة بشـــرط أن يُتَوِّجَ ذلك كله صدقُ الإيمان بالله ، والاستقامة في

---

(1) الزمر / 11–15 .

(2) البينة / 5 .

(3) النحل / 97 .

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط1 1421هـ–2000م ، 7/4 بتصرف .

(5) آل عمران / 195 .

العمــل ، وإخلاص النية لله تعالى . قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [1] .

2. الإحسان :

(أ) فقد قال تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2].

(ب) وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [3] .

(ج) وقال أيضاً : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [4].

3. طاعة الله –تعالى– وطاعة رسوله– ﷺ– وأولي الأمر :

قــال تعــالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْــرِ مِــنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [5] .

يقول السعدي – رحمه الله– : ((أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما ، وأمر بطاعة أولي الأمر ، وهم الولاة على الناس من الأمراء ، والحكام ، والمفتين ؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده)) [6].

ولكن ليس كل العمل الصالح يتركز في مثل هذه الأعمال ؛ بل إنه متسع الدائرة إلــى حــد يشــمل كل شيء في الحياة بشرط النية الخالصة الصادقة لله – تعالى– ، فالإنســان يستطيع أن يجعل جميعَ أعماله الدنيوية المباحة طاعاتٍ يتقرب بها إلى الله – عزّ وجل– إذا أراد بها وجهه الكريم ، فيستطيع أن يجعل قيامه ، وجلوسه ، وأكله ،

---

(1) البقرة / 277 .

(2) البقرة / 112 .

(3) النساء / 125 .

(4) لقمان / 22 .

(5) النساء / 59 .

(6) تيســير الكــريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 1415هــ–1995م ، 334/1 .

ونومـــه عباداتٍ يتقرب بها إليه سبحانه إذا كان ينوي التقوّي بها للطاعة ، والعكس إذا أراد بهـــذه الأمـــور المـــباحة التقوي للمعصية – والعياذ بالله – فإنها تكون من أعظم الذنوب .

قـــال تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْـــبِرَّ مَـــنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّـــلاةَ وَآتَـــى الـــزَّكَاةَ وَالْمُوفُـــونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [1].

يقول القرطبي : ((البر هنا اسم جامع للخير)) [2].

وقد ذكر رسول الله -ﷺ- أمثلة للأعمال الصالحة يظنها الناس أعمالاً بسيطة لا ترتقي إلى درجة الأجر والثواب ، ولكنه -ﷺ- أكّد أنها عظيمة عند الله تعالى ، بل إن منها ما يكون سبباً لمغفرة الذنوب ، ودخول الجنة .

(أ) عـــن أبـــي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي -ﷺ- قال :(**كل سُلامي [3] عليه صـــدقة كل يوم يعين الرجل في دابّته يُحَامِلُه عليها ، أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ودلُّ الطريق صدقة**) [4].

(ب) عـــن أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن النبي -ﷺ- أنه قال :(**ما من مسلم يغـــرس غرســـاً** ، أو يزرع زرعاً ، **فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة**) [5].

---

(1) البقرة / 177 .

(2) الجـــامع لأحكـــام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الحديث/ القاهرة ، ط2 1416هـــ–1996م،243/2.

(3) السلامي : مفصل وعظم الأصبع . انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ بن حجر العسقلاني ، دار الحديث / القاهرة ، ط1 1419هـــ–1998م ، 378/5 .

(4) أخرجه (خ) ، ك (الجهاد والسير)، ب/72 (فضل من حمل متاع صاحبه في السفر)، المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت، ط1 1417هـــ – 1997م ، 891/2 ، ح (2891).

(5) أخـــرجه (خ) ، ك (الأدب)، ب/27 (رحمة الناس والبهائم)، 1902/4 ، ح(6012) . وأخرجه (م) في صـــحيحه ، ك(المســـاقاة والمـــزارعة) ، 164/10، ح(12) واللفظ له ، دار المنار للطبع والنشر ، ط1 1418هـــ – 1998م .

(ج) وقـــال أيضاً :(**بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصنَ شوكٍ على الطريق فأخَرَه ، فشكرَ الله ُله ، فغفر له**) [1].

ولا تقتصــــر الأعمــــال الصالحة على الواردة في الأحاديث الشريفة ، بل هي مجــرد أمــثلة ؛ لأنهـــا لا نهاية لها ، فكل إنسان يخفف عن محزونٍ ويمسح دمعته ، ويقضـــي الديــن عن غارم ، وينصر مظلوماً ، ويقيل عثرة مغلوب ، ويدفع الشر عن الـــناس ويدافـــع عنهم ،.... فكل ذلك يعتبر أعمالاً صالحة إذا كانت النية فيها خالصة لوجه الله الكريم . ولذلك يجب على كل مسلم ألا يستهين بالعمل الصالح مهما قلَّ ، فإن القليل إلى القليل كثيـــر ، وأول الغيث قطرة – كما يقولون– والجبال الضخمة ما هي إلا حصىً متراكم .

المطلب الثالث : الدعوة إلى العمل الصالح ، والحث عليه

إن العمـــل الصــــالح هو نتيجة الإيمان بالله ، وثمرة مهمة جداً من ثماره ، قال تعـــالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [2] ، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً به، فحيـــثما ذُكر الإيمان أو المؤمنـــون في القرآن الكريم تبعه ذكر العمل الصالح ؛ لأنه تـــرجمة واقعية له قال تعالى : ﴿**وَالْعَصـــرْ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [3].

وقال تعالى : ﴿ **وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ**﴾ [4].

مـــن أجـــل ذلك حثَّ القرآن الكريم على العمل الصالح ، ودعا إليه في مواطن كثيرة ؛ لبيان أهميته ، وعظيم أثره بدءاً بأمر الرسل أنفسهم ، وانتهاءً بأمر العباد على ألسنة الرسل ، وهاك الدليل:

1. أمـــر تعـــالى الرســـل الكــــرام –عليهم الصلاة والسلام – بالعمل الصالح ، وهم المعصومون عن ارتكاب الأخطاء والمعاصي .

أ– قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [5] .

---

(1) أخرجه (خ) ، ك (الأذان) ، ب/32 (التهجير إلى الظهر) ، 207/1 ، 208، ح(652).

(2) الذاريات / 56 .

(3) العصر / 1–3 .

(4) إبراهيم / 23 .

(5) المؤمنون / 51 .

ب- وقال أيضاً -جلَّ وعلا-: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

فـإذا كان الأمر بالعمل الصالح متوجهاً للأنبياء المغفور لهم ما تقدم من ذنبهم ومـا تأخر ، فهو في حقنا آكد وألزم ؛ لأننا نحن من يحتاج إلى مثل هذا العمل وذلك الجـزاء ؛ لكـثره ذنوبنا ، وطول مسيرنا ، وقلة زادنا ، فنحن بحاجة إلى أقل حسنة توصلنا إلى بَرِّ الأمان بعد رحمة الله – عزَّ وجل-.

2. كمـا أمـر تعالى عباده المسلمين على لسان نبيه- ﷺ- بالعمل الصالح في عدة مواضع .

(أ) قـال تعالى : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [2].

(ب) وقال أيضاً:﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ [3] وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ [4] وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [5].

(ج)وقال أيضاً : ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [6].

ففـي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن عمل الإنسان لا يخفى عليه تعالى ، سـواء كـان خيراً أم شراً ، وسيرى الله هذا العمل ورسوله والمؤمنون بإطلاعه إياهم علـى هـذه الأعمال ، لذا وجب على المؤمن الراغب في الكمال أن يزيد من الأعمال الصـالحة ليجبر ما فاته من ارتكاب السيئات ، وفيها أيضاً ترغيب وتنشيط ، فإن من علـم أن عملـه لا يخفى -سواء كان خيراً أو شراً- رغب في أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير بن أبي سلمى حين قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم [7]

---

(1) سبأ / 13 .

(2) الأنعام / 135 .

(3) أي : الدروع الواقية .

(4) أي : يقدره حلقات ، ثم يدخل بعضها في بعض ، انظر تفسير السعدي : 414/2 .

(5) سبأ / 11 .

(6) التوبة / 105 .

(7) انظـر فـتح القديـر الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ط عالم المعرفة – بدون تاريخ- 400/2، والتحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ، دار سحنون/تونس ط 1997م ، 25/11، والتفسير المنير للزحيلي : 30/11.

فتلك الآيات القرآنية الكريمة ، وغيرها كثير تحث على العمل الصالح ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، فحين يعلم الإنسان أن الله مطلّع على عمله مهما كان في الخفاء ، وسيُطلع الناس عليه ، فإن هذا يعطيه دفعة قوية ليبذل قصارى جهده ؛ لتكون أعماله صالحة ، وكذلك يحاول أن يبتعد عن كل الأعمال السيئة التي تغضب الله ورسوله والناس الأحياء منهم والأموات .

المطلب الرابع : بيان آثار العمل الصالح في حياة الفرد والجماعة

وعد الله – سبحانه وتعالى– عباده الذين يعملون أعمالاً صالحة موافقة لمنهاجه حال كونهم مسلمين موحدين أن لا يضيع سعيهم ، وألاّ يبطل ثواب أعمالهم ، بل يشكرها لهم ، ويوفيهم الجزاء الأوفى عليها مهما صغرت ودقت.قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾** (1).

وقال أيضاً : **﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾** (2).

كما وضح – جلّ وعلا– أن لهذه الأعمال الصالحة أهميةَ عظمى وآثاراً حسنةً في حياة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة ، على النحو التالي :

أولاً : آثار العمل الصالح في حياة الفرد

للعمل الصالح آثار في حياة الفرد في الدنيا والآخرة ، لذا فإنني أذكر ثلاثة آثار له في الدنيا ، وأكثر من ضعفها من الفضائل في الآخرة :

أ. آثاره في حياة الفرد في الدنيا :

إن من رحمةِ الله تعالى بعباده أن جعلهم يتمتعون بآثار أعمالهم الصالحة في الدنيا قبل الآخرة ، ومن هذه الآثار :

1. التمتع بحياة طيبة :

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (3).

---

(1) الكهف / 30 .
(2) الإسراء / 19 .
(3) النحل / 97 .

وأمـا الرأي القائل بأن الحياة الطيبة معناها الجنة ، فإني أرى بُعدَه ؛ لأن بقية الآية ، وهي قوله تعالى : **﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** تعني الدار الآخرة بلا شك – كما قال الطبري [1]–، فبذلك يكون أول الآية يتكلم عن الحياة الدنيا ، وآخرها يتحدث عن الحياة الآخرة – والله أعلم–.

2. تيسير الأمور :

قـال تعالى :**﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾** [2].

يقـول الزحيلي – رحمه الله– في بيان معنى الآية : ((أي وأما من آمن بالله ووحدانيته ، وصدق دعوته وعمل عملاً صالحاً مما يقتضيه الإيمان ، فجزاؤه الجنة ، وسـنطلب منه أمراً ذا يسر غير صعب ولا شاق ؛ ليرغبَ في دين الله ، ويحبَّ فعل أوامر الله من صـلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ونحوها، فلا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل الميسر)) [3].

3. المحبة والقبول :

قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾** [4].

يقول ابن كثير – رحمه الله– في بيان معنى هذه الآية :(يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات – وهي الأعمال التي ترضي الله –عزَّ وجل– لمتابعـتها الشـريعة المحمدية – يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه .

وقـد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ومنها ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه– أن رسـول الله –ﷺ– قـال :(**إن الله إذا أحـب عبـداً دعا جبريل ، فقال : يـا جـبريل إنـي أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، قال: ثم ينـادى في أهل السماء : إن الله يحب فلانـاً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول**

---

(1) انظر نفس المرجع : 226/14 .

(2) الكهف / 88 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 25/16 .

(4) مريم / 96 ، والود : محبـة ووداد فـي قلـوب أوليائـه ، وأهل السماء والأرض ، تفسير السعدي : 1065/1

في الأرض) [1] [2].

(ب) آثاره في حياة الفرد في الآخرة :

مـن منطلق قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْـرَ مَـنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [3]. ،فإن الإنسان المؤمن الذي يعمل الصالحات لا بد وأن يرى آثار عمله الصالح في الآخرة ، ومن هذه الآثار :

1. دخول الجنة والتمتع بها :

وهذا هو أفضل الآثار ، وغاية كل مؤمن وهدفه الذي يسعى إليه ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً ، منها :

(أ) قـال – عـزَّ وجل – :﴿ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [4].

(ب) وقوله تعالى أيضـاً واصفاً حال المؤمنين الذين يعملون الصالحات فى الجنة : ﴿ أُوْلَـئِكَ لَهُـمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَـبٍ وَيَلْبَسُـونَ ثِـيَابًا خُضْـرًا مِّن سُندُسٍ [5] وَإِسْتَبْرَقٍ [6] مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [7] .

(ج)وقولـه –عـزَّ مـن قائل– :﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [8].

---

(1) أخرجـه (خ) ، ك (التوحيـد) ، ب/33 (كلام الرب مع جبريـل ونـداء الله الملائكـة) ، 2336/4 ، ح (7485) .

(2) تفسـير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، المكتبة القيمّة /القاهرة ، ط1 1411هـ – 1991م ، 143/3-144 .

(3) الكهف / 30 .

(4) البقرة / 25 .

(5) أي : ثياب رفاع رقاق كالقمصان ، وما جرى مجراها .

(6) أي : غليظ الديباج وفيه بريق . تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 84/3 .

(7) الكهف / 31 .

(8) النساء / 124 ، والنقير : قَدْرَ النقرة في ظهر النواة . جامع البيان للطبري : 401/5 .

يقــول الزحــيلي فــي بيان هذه المعاني : ((بشر يا محمد -أنت وورثتك من العلمــاء- المؤمنيــن والمتقيــن الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات والحسنات أن لهم حدائق ذات أشجار ومساكن ، تجرى من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها – كما ورد في الصحيحين – ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو معنى **قوله تعالى :﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّــا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾** [1]، فيها الأرزاق الدائمة ، والــثمار الشــهية المتنوعة ، كلما قدمت لهم ثمرة منها في أول النهار وآخره ، قالوا متعجبيــن : هــذه الثمرة كالتي رُزقناها في الدنيا ، فإذا أكلوها وجدوا لها طعماً غير الطعــم المعــتاد، وأدركــوا أنها تشبه ثمار الدنيا في المنظر والشكل والجنس فقط ، وتختلف في الذوق والطعم والحجم ، فهي مما لم يروه أبداً)) [2].

كما كنى – سبحانه وتعالى- في سورة الأنعام وغيرها عن الجنة بدار السلام ، فقال تعالى :**﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** [3].

وقد بيَّن السعدي – رحمه الله – سبب هذه التسمية فقال : ((وسميت الجنة دار الســلام ؛ لســلامتها مــن كــل عيب ، وآفة ، وكدر ، وَهَمٍ ، وَغَمٍ ، وغير ذلك من المنغصــات . ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال ، ونهاية التمام بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون من نعيم الروح والقلب والبدن ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون)) [4].

2. نزع الغل وغيره من أمراض النفوس :

قــال تعالى : **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَــالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [5].

---

(1) السجدة / 17 .
(2) التفسير المنير للزحيلي : 105/1 .
(3) الأنعام / 127 .
(4) تفسير السعدي : 542/1 .
(5) الأعراف / 43 .

يقــول الزحــيلي : ((ومــن نعم الله على أهل الجنة صفاء نفوسهم ، وسلامة صــدورهم ، لا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم ، ولا يحزنهم فزع ، ولا يحــدث بينهم شــر ؛ لأن الله نــزع ما في صدورهم من حسد ، وحقد ، وعداوة ، وغل ونحوها من أمراض النفوس في الدنيا)) [1].

3. حفظ المساعي وعدم جحودها :

قــال تعالى : **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾** [2].

ومن حكمة الله تعالى وعلمه بعباده الضعفاء أنه جعل من يأتي ببعض الأعمال الصــالحة لــه الأجر والثواب ، ولم يطالبهم بأن يأتوا بها جميعاً ، فهو العالِم بطبيعة الــنفس البشرية وقدراتها، لذا قال -ﷺ- **(ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتهم عن شيء فدعوه)** [3].

يقول القرطبي – رحمه الله – : ((والمعنى من يعمل شيئاً من الطاعات ، سواء كانــت فرضاً أو نافلة – وهو موحد – فلا جحود لعمله ، ولا يضيع جزاؤه ؛ بل هو محفوظ ، سيجازى عليه – بإذن الله–، وذلك نظير قوله تعالى : **﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾**)) [4].

4. نيل المغفرة والأجر العظيم :

فالعمل الصالح سبب في مغفرة الذنوب ، ونيل الدرجات العلا ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها :

(أ) قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[5].

(ب) وقوله أيضاً:**﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾**[6].

---

(1) التفسير المنير للزحيلي : 209/4 .

(2) الأنبياء / 94 .

(3) أخرجه (م) ، ك (الحج) ، 447/9 ، ح(412) .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 356/11 ، 357 بتصرف ، والآية / 195 من آل عمران .

(5) المائدة / 9 .

(6) هود / 11 .

فالذيـــن آمنوا ، وصبروا وعملوا الصالحات ، إن أصابتهم شدة في الحياة الدنيا لا يثنـــيهم ذلـــك عن طاعة الله ، بل يصبرون لحكمه وقضائه ، وإن أصابتهم سعة ، ورخاء ، ورغد شكروا الله ، وأدوا حقه عليهم ، فهؤلاء لهم من الله مغفرة ذنوبهم ثواباً على أعمالهم الصالحة التي يعملونها في دار الدنيا ، ولهم جزاء عظيم [1].

5. **حصول الاستقرار النفسي :**

وقد دلت عليه العديد من الآيات ، اكتفي منها بإثنتين تخفيفاً :

(أ) قـــال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُون** [2] **وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [3].

(ب) وقـــال أيضـــاً :﴿**وَمَن يَعْمَـــلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾ [4] .

يخبر تعالى أنه من آمن بالله ، واليوم الآخر ،وعمل صالحاً من واجب ومسنون فلهـــم الـــنجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون بســـبب خوفهـــم مـــن زيادة سيئاتهم ، أو نقصان حسناتهم ، بل تُكَفَّر ذنوبهم، وتُطَهَّر عيوبهم، وتضاعف حسناتهم [5].

وإذا تحققت هذه الأمور للإنسان فهو في قمة الاستقرار النفسي .

6. **تكفير السيئات وصلاح البال :**

(أ)قـــال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [6].

(ب) وقـــال أيضـــاً : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾ [7].

---

(1) انظر جامع البيان للطبري / 13/12 .

(2) جمـــع صـــابيء ، وهـــو كل خارج عن دين كان عليه إلى آخر غيره ، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه . نفس المرجع : 455/1 .

(3) المائدة 69 .

(4) طه / 112 .

(5) انظر تفسير السعدي : 462/1 ، 463 ، 33/2 .

(6) العنكبوت / 7 .

(7) محمد / 2 .

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة بأنه سوف يغفر ويكفر سيئاتِ عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، كما أنه سوف يجزيهم ثوابَ أحسنِ ما كانوا يعملون .

7. تبديل السيئات حسنات :

لـم يقتصر المولى – جلّ ثناؤه – على تكفير سيئات الذين يعملون الصالحات بعـد التوبة والإنابة ، وإزالتها من صحائفهم بالمغفرة ، بل زاد على ذلك بأن بدّل تلك السيئات حسنات ، قال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِـي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِـيَامَةِ وَيَخْلُـدْ فِـيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** [1].

يقول القرطبي – رحمه الله – في بيان معنى الآية : ((اختلفت أقوال العلماء في معنى التبديل على خمسة أقوال :

فمنهم من قال : أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع .

وقيل : يبدلهم الله من الشرك إلى الإيمان .

وقـيل : إن التـبديل فـي الدنيا ، يبدلهم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصاناً من الفجور .

وقيل : ليس بجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ، أيْ يغفر الله تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات [2].

ثـم بعد أن أورد –رحمه الله – تلك المعاني عقب قائلاً ((فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد قال –ﷺ– لأبي ذر رضي الله عنه :"**أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن**"))[3] [4].

---

(1) الفرقان / 68–70 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 84/13 بتصرف .

(3) أخـرجه (ت) فـي سـننه ، ك (البر والصلة) ، ب/55 (ما جاء في معاشـرة الناس) دار الحديث/القاهرة ، ط1 1419هـ–1999م ، 125/4 ، ح(1987) ، وأخـرجه (حم) ، 299/5 ، ح(22052) .وقال الترمذي : حسن صحيح .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 84/13 . وانظر جامع البيان للطبري : 61/19.

وأنـــا أوافقه – رحمه الله – الرأي ،ولا أرى صارفاً يصرف الآية عن مدلولها ومعـــناها المباشر ،ولا أرى مانعاً يمنع رحمة المولى –عـــزَّ وجـــل– والتي ليس لها حـــدود– مـــن أن يـــبدل سيئاتِ عباده التائبين توبة نصوحاً بحسنات من باب الرحمة والمغفـــرة والفرحة منه تعالـــى بتوبـــة عبـــده ، دون أن يكون له تعالى حاجة إلى تلك التوبة .

والأحاديث التي تؤكد هذا المعنى كثيرة أيضاً ، أكتفي منها بواحد صحيح :

ورد فـــي الخـــبر عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله –ﷺ– قال : **(ليتمنيـــن أقـــوام أنهم أكثروا من السيئات)، فقيل : ومن هم ؟ قال: (الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات)** [1].

ومن كل ما سبق يتقرر أن العمل الصالح لا يكون بذاته سبباً مباشراً في دخول الجـــنة ، فلـــيس للإنسان الذي يعمل الصالحات أن يطمئن ويركن إليها ، بل لا بد من عدل الله ورحمته وفضله الذي يتفضل به على عباده فيدخلهم الجنة .

قال تعالى :**﴿لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [2].

فهـــذه الآيـــة الكريمة دليل على أن الإنسان يرث منازل الجنة بعمله ، ودخوله إياها يكون برحمة الله وفضله ، كما قال تعالى : **﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ ﴾** [3].

وقال أيضاً : **﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾** [4].

وكذا روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله –ﷺ– أنه قال :**(لن يُـــنجى أحداً منكم عملُهُ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة)** [5] **الحديث .**

---

(1) أخـــرجه (كـــم) ، ك (التوبة والإنابة) ، دار المعرفة ، بيروت/لبنان ، ط(1) –بدون تاريخ–،252/4 . وصححه محمـــد ناصر الدين الألباني في صحيحه ، المسمى : صحيح الجامع الصغير وزيادته –المسمى بالفتح الكبير– ، المكتب الإسلامي /جمعية إحياء التراث الإسلامي ، ط3 1421هـــ–2000م، 946/2، ح(5359).

(2) الأعراف / 43 .

(3) النساء / 70 .

(4) النساء / 175 .

(5) أخرجه (خ) ، ك (الرقاق) ، ب /18 (القصد والمداومة على العمل) ، 2028/4 ، ح (6463) .

ويذكــر الزحيلـــي خلاصة لهذه المسألة قائلاً : ((العمل الصالح في رأي أهل السنة لا بد منه لدخول الجنة في ميزان العدل ، ولإيجاد تكافؤ الفرص بين جميع الناس ، لكـــن لا بد أن ينضم إليه رحمة الله وفضله ، فإنه جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمـــة ، وكافـــأ علـــى القليل بالكثير فضلاً منه ورحمة ؛ لا أن ذلك مستَحقٌ عليه وواجب لعبـــاده وجـــوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، كما فهم المعتزلة [1] ؛ لأنه يستحيل عقلاً إيجاب شيء على الله تعالى)) [2].

ثانياً : آثار العمل الصالح على الجماعة

كما أن للعمل الصالح آثاراً يتمتع بها الأفراد ، كذلك له آثار تنعم بها الجماعات أو المجتمع بكامله ، ومن هذه الآثار :

1. **الاستخلاف في الأرض :**

وهو من أهم الآثار المترتبة على العمل الصالح ، قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** [3].

يقول ابن كثير رحمه الله– في بيان معنى هذه الآية الكريمة : ((يخبر تعالى في هـــذه الآيـــة عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض فـــي الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : **﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَـــادِهِ وَالْعَاقِبَـــةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [4] . وأخبر سبحانه أن هذا مسطور في الكتب الشرعية

---

(1) المعتزلة : رأس المعتزلة واصل بن عطاء (ت 1315هـــ) ، وهم فرق متعددة تجمعهم الأصول الخمسة التـــي تتضـــمن تعطيلاً للصفات ، ونفي القدر، وتخليد عصاة الموحدين في النار ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وتجويز الخروج على أئمة المسلمين .

انظـــر : مقـــالات الإســـلاميين لأبي الحسن الأشعرى ، (ت) محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية / القاهرة، ط2 1389هـــ ، 235/1.

– والتنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي ، –بدون بيانات نشر – ص35.

– والملل والنحل للشهرســـتاني ، (ت) محمـــد ســـيد الكيلانـــي ، شـــركة مصطفى الحلبي / القاهرة ، ط 1396هـــ ، 43/1.

(2) التفسير المنير للزحيلي : 211/8 .

(3) الأنبياء / 105 .

(4) الأعراف / 128 .

والقدرية ، وهو كائن لا محالة)) [1].

ولقد اختلف المفسرون في بيان المراد بالأرض على ثلاثة أقوال ذكرها الإمام الرازي في تفسيره ، وهي :

الأول : أنها أرض الجنة ، بدليل قول الله تعالى : **﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾** [2].

الثاني : هي الأرض المقدسة [3].

الثالث : هي أرض الدنيا بدليل قول الله تعالى :**﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾** [4].

ويقول الطبري – رحمه الله– في تأويل الأرض : ((إنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد –ﷺ–، وهذا القول عن ابن عباس –رضي الله عنهما–)) [5].

ولا مانع من إرادة جميع الأقوال السابقة ، حيث يمكّن الله لعباده الصالحين في الدنيا، فيورثهم الأرض بما فيها ، أرض الأمم الكافرة ، ثم في الآخرة يورثهم الجنة.

2. التمكين في الأرض :

قال تعالى : **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾** [6].

يقول الشوكاني – رحمه الله – : ((المراد بالتمكين هنا : التثبيت والتقرير أي يجعله ثابتاً مقرَّراً ، يوسع لهم في البلاد ، ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام كما في قوله تعالى :**﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾** [7]....

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 206/3 .

(2) الزمر / 74 .

(3) ولكن لا دليل على ذلك القول .

(4) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين العلاّمة ضياء الدين ، دار الفكر، لبنان/بيروت ، ط 1401هـ – 1981م ، 229/2 وما بعدها بتصرف ، والآية في النور / 55 .

(5) جامع البيان للطبري : 139/17 .

(6) النور / 55 .

(7) المائدة / 3 .

ثم يجمع بين الأثرين السابقين قائلاً : ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً وهـو جعلهـم ملوكاً ، ثم ذكر التمكين ثانياً ، فأفاد ذلك أن هذا المُلك ليس على وجه الفـرض والطرّوء ، بل على وجه الإستقرار والثبات ، بحيث يكون المُلك لهم ولعقبهم من بعدهم)) [1].

3. **تبديل الخوف أمنا :**

قال تعالى : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [2].

يقـول الطبري – رحمه الله– : ((أي وليغيرن حالهم عما هي عليه من الخوف إلى الأمن)) [3].

المطلب الخامس : الإخلاص في العمل

أبدأ أولاً بذكر معاني الإخلاص في اللغة والاصطلاح ، وفي القرآن الكريم ، ثمَّ أثني بذكر مزاياه ، وأختم بالإخلاص في الدعاء وقت الشدة:

أولاً : معاني الإخلاص :

(أ) الإخلاص لغة :

خَلَص الشيء – بالفتح – يَخلُص خُلُوصاً وخَلاَصاً ؛وأخلص الشيء: اختاره ، والمُخْلَـص : الذي أخلصه الله، وجعله مختاراً خالصاً من الدنس ، والمخلِص : الذي وحد الله تعالى خالصاً [4].

(ب) الإخلاص اصطلاحاً :

عـرّفـه الزحـيلـي بقوله : ((هو القصد في العبادة إلى أن يُعبد بها المعبود وحده))[5].

وعـرّف ابن عاشور معنى الإخلاص في العبادة فقال : ((أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور ، وإلى ترك المنهي إرضاءَ الله تعالى ، وهو معنى قولهم : لوجه الله ،

---

(1) فتح القدير للشوكاني : 4/55-56 .

(2) النور / 55 .

(3) جامع البيان للطبري : 18/211 ، وانظر التفسير المنير للزحيلي : 18/284 .

(4) انظر لسان العرب : 4/173 ، والقاموس المحيط : 2/312 .

(5) التفسير المنير للزحيلي : 16/114 .

أي القصد والامتثال ، بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة ، مثل أن يعبد الله ليمدحه الناس ، بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة)) [1].

مما سبق يتضح أن :الإخلاص مقابل الرياء ، وهو يعني : إفراد المعبود وحده بالقصـــد في كل أمرٍ أمر به أو نهيٍ نهى عنه ؛إرضاءً لله تعالى ،وبعيداً عن كل سمعة ورياء ومدح من قِبَل الناس.

(ج)معاني الإخلاص في القرآن الكريم :

جاءت كلمة الإخلاص في القرآن الكريم لعدة معانٍ ، منها :

1- الصفاء من الشوائب :

قال تعالى :**﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ [2]وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾** [3].

أيْ لا يخالطه دم ولا فرث [4].

2- عدم الاختلاط :

قال تعالى عن إخوة يوسف – عليه السلام- :**﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾** [5].

أي انفردوا وتميزوا عمن سواهم ، فلا يختلط بهم غيرهم [6].

3- عدم المشاركة :

قال تعالى فيما حكاه عن المشركين :**﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾** [7].

أي لا يشاركهم الإناث [8].

4- التمتع بالزينة والطيبات خاص بالمؤمن في الدنيا والآخرة :

قـــال تعـــالى فـــي الزينة والطيبات : **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِـــي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [9].

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 318/23 .

(2) الفَرْث : هو ما في الكرش من الزبل . انظر فتح القدير للشوكاني : 174/3 .

(3) النحل / 66 .

(4) انظر جامع البيان للطبري : 175/14 .

(5) يوسف / 80 .

(6) انظر جامع البيان للطبري : 43/13 .

(7) الأنعام / 139 .

(8) انظر نفس المرجع : 65/8 .

(9) الأعراف / 32 .

أي لا يشاركهم فيها الكفار [1].

مـــن خـــلال مـــا ســـبق يتضح أن هناك صلة بين المعنى اللغوي ، والمعنى الاصـــطلاحي يوضـــحه د.عمر الأشقر بقوله : ((الإخلاص يهدف إلى تخليص القصد المـــتوجه إلـــى الله تعالى من الشوائب، والأخلاط ، والفساد الذي يزاحمه ويخالطه ، بحيث يتصفى القصد لله – عزّ وجل – دون سواه في جميع العبادات)) [2].

وباســـتعراض معاني الإخلاص في القرآن الكريم نلاحظ أنه ليس كل إخلاصٍ يعنـــي إخـــلاصَ العـــبادة لله ، بل من معانيه أيضاً ما يكون خاصاً بالمخلوقات بمعنى الـــتمايز والـــتفريق وعدم الاختلاط ، ولكن إذا أطلق الإخلاص فالمقصود به إخلاص العـــبادة لله في جميع الأقوال والأفعال، وعدم توجيه شيء منها لأحد سواه ، سواء كان مَلَكاً أو مَلِكاً ، أو شجراً ، أو حجراً، أو شمساً أو قمراً، ..... فالعمل الذي لا يقصد به وجهه الكريم لا يتقبله ، وليس له قيمة، ولا فائدة تُرجى من ورائه ، قال تعالى :**﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [3].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((والمعنى هو : اقصدوا بكل عبادة ، ودعاء ، وعمـــل، وجـــهَ الله ؛ فإن الإخلاص هو المأمور به ، كما **قال تعالى :﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾**))[4].

ويقـــول الشـــوكاني – رحمه الله – : ((هذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات ؛ لأن الإخلاص من عمل القلب)) [5].

ثانياً : مزايا الإخلاص

للإخلاص مزايا عديدة ، ألخِّص أهمها في ثلاث نقاط :

---

(1) انظـــر الـــدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 1411هـ–1990م : 151/3 .

(2) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين ، د. عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس / الكويت ، ومكتبة الفلاح / بيروت ط2 1411هـ–1991م ، ص 360 .

(3) غافر / 65 .

(4) تفسير السعدي : 573/2 ، والآية في البينة / 5 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 476/5 .

1. إن الإخلاص في جميع الأعمال هو مهمة الرسل الأساسية التي أرسلهم الله – عزّ وجل – من أجلها .

(أ) قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [1].

(ب) وقال أيضاً : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ** ﴾ [2].

فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان أن مهمة جميع الرسل الإرشاد إلى الإخلاص في العبادة لله تعالى كي تؤتي العبادة ثمارها المرجوة منها.

2. والإخلاص في العبادة هو شرط من شروط صلاح العمل ، لا يصح ولا يُقبل إلا به [3].

3. كما أن الإخلاص سبب في عدم تسلط الشيطان على النفس وقد دلت عليه بعض الآيات ومنها :

(أ) وقوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [4].

(ب) قال تعالى﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[5] .

يقول ابن عاشور – رحمه الله– عند تفسير هذه الآية الكريمة : ((إن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً أو مائلاً للغواية مكتسباً لها، دون من كبح نفسه عن الشر ؛ فإن العاقل إذا تعلق به وساوس الشيطان علم ما فيه من إضلال ، وعلم أن الهدى في خلافه ، فإذا توفق وحمل نفسه على اختيار الهدى ، وصرف إليه عزمه ، قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان ، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه ، واختار إرضاء شهوته ، صار متهيئاً إلى الغواية ،

---

(1) الأنبياء / 25 .

(2) النحل / 36 .

(3) انظر شروط العمل الصالح ص 4 من هذا البحث .

(4) الحجر / 39 ، 40 .

(5) ص / 82 ، 83 .

فأغواه الشيطان فغوى)) [1].

ثالثاً : الإخلاص في الدعاء عند الشدائد فطرة إنسانية

والإنسان بطبعه مفطور على الإخلاص في الدعاء والتوجه إلى الله وقت الشدائد ، فيتجه إلى الله -عزّ وجل- بكل جوارحه ، يدعوه متضرعاً ، متذللاً ، مستسلماً ، ولكنه غالباً إذا ما فرّج الله تعالى كربه ، نسيه ، وعاد إلى الغفلة والعصيان والبعد عنه -جلّ وعلا- -والعياذ بالله- ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي :

(أ) قال تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾** [2].

(ب) وقال أيضاً : **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾** [3] .

يقول السعدي – رحمه الله- عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((ألزم الله تعالى المشركين بالإخلاص له منهم في حال الشدة عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم الهلاك ، يتركون وقتذاك أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له ، فلما زالت عنهم الشدة ، ونجّى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به من لا نجاهم من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة ..... فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاوة والشدة ، واليسر والعسر ؛ليكونوا مؤمنين حقاً ،مستحقين ثوابه ، مندفعاً عنهم عقابه)) [4].

من كل ما سبق يتضح أن الإخلاص في العمل ليس أمراً هيناً ، بل هو من أشق الأمور على النفس ، لا يستطيعه إلا من استقر الإيمان في قلبه ، وقويت عزيمته ، فقد ورد عن رسول الله -ﷺ- أنه كان دائماً يدعو فيقول :**(يا مقلب القلوب ثبت قلبي**

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور / 52/14 .

(2) يونس / 22-23 .

(3) العنكبوت / 65 .

(4) تفسير السعدي : 324/2 .

المبحث الثاني

محبطات العمل الصالح

أبدأ في هذا المبحث بتعريف المحبطات ، وأذكر أسباب الوقوع فيها ، مع التعريج على التوبة والاستغفار كأسباب للتخلص من آثار الذنوب بعد وقوعها ، وذلك في المطالب الثلاثة التالية :

المطلب الأول : تعريف المحبطات لغة واصطلاحاً

أذكر هنا المعنى اللغوي والاصطلاحي والعلاقة بينهما، ثم أسرد الضروب الثلاثة لحبوط العمل.

(أ) المحبطات لغة :

يقول ابن فارس : الحاء والباء والطاء أصل واحد يدل على بطلان أو ألم ، يقال : أحبط الله عمل الكافر : أي أبطله ، وحَبَطَ العمل حَبُوطاً : فسد وهدر ، وحَبِطَ حَبْطاً : عمل عملاً ثم أفسده ، والحَبَط – محركة – : آثار الجرح ، أو السياط بالبدن بعد البُرء ، وفعل حَبِطَ يؤذن بأن الحابط كان صالحاً فانقلب إلى فساد [1].

ويقول المفسرون : الحَبَط هو : فساد المواشي في بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها ، وربما تموت من ذلك [2].

(ب) المحبطات اصطلاحاً :

يقول ابن عاشور : ((حَبَطُ الأعمال : زوال آثارها المجعولة مرتبةً عليها شرعاً ، فيشمل آثارها في الدنيا ، والثواب في الآخرة)) [3].

---

(1) انظر معجم مقاييس اللغة : 129/2 ، والمصباح المنير ص65 ، والقاموس المحيط: 366/2 ، ولسان العرب : 23/3 ، وتهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، مكتبة ابن تيمية ، الدار المصرية / مطابع سجل العرب ، (ت) أ .عبد الكريم الغرباوي 395/4، والعين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت/لبنان ،– بدون تاريخ – 174/3 ، وتاج العروس: 192/19 ، والصحاح للجوهري : 1118/3 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 482/2 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 50/3 ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ، دار الفكر /بيروت –بدون تاريخ– 110/1 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 ، 125/6 ، وفتح القدير للشوكاني : 218/1 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 .

ثـــم يستأنف موضحاً ذلك فيقول : ((فالآثار التي في الدنيا هي ما يترتب على الإســـلام مـــن خصـــائص المســـلمين ، وأولها آثار كلمة الشهادة من حرمة الأنفس ، والأموال ، والأعراض ، والصلاة عليه بعد الموت ، والدفن في مقابر المسلمين ،..... وأمـــا الآثار التي في الآخرة : فهي النجاة من النار بسبب الإسلام ، وما يترتب على الأعمال الصالحات من الثواب والنعيم)) (1).

مما سبق يتضح أن محبطات العمل الصالح هي : المعتقدات والأقوال والأفعال التي تفسد ثواب الأعمال الصالحة ، وتوجب العقوبة .

(ج)علاقة المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي :

حـــبط العمـــل مأخوذ من حبط البطن ؛ لأن صاحب البطن يهلك، وكذلك عمل المـــنافق يحـــبط ، فالإبل تأكل نوعاً من الخضرة شهوة فيؤول عليها بالموت؛ لانتفاخ بطونها بسببه انتفاخاً قاتلاً، وذلك يشبه حال المنافق الذي يعمل الأعمال الصالحة لنفعها في الآخرة، فلم يجد لها أثراً (2).

ضروب حبوط العمل :

حبوط العمل على ثلاثة أضرب ، هي :

الأول : أن تكون الأعمال دنيوية ، فلا تغني في القيامة غناءً ، كما أشار إليه –تعالى– بقوله : **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾** (3).

الثانـــي : أن تكون أعمالاً أخروية ، ولكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله – تعالى– ، كمـــا روى : أنـــه يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له : بمَ كان اشتغالك ، قال : بقراءة القرآن ،فيقال له: قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار)(4).

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 332/2 ، 333 .

(2) انظر نفس المرجع: 332/2 .

(3) الفرقان /23.

(4) الحديـــث ذكـــره المؤلف بالمعنى ، وهو عن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضـــي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟، قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقـــرأ القرآن ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ، ولكـــنك تعلمـــت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل وســـع الله علـــيه وأعطـــاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى في النار). أخرجه (م) ، (ك) الإمارة ، 42/13 ، ح (152) .

(ب) وعن ثوبان – رضي الله عنه– قال : قال رسول الله –ﷺ– : **(يوشك الأمم أن تداعـــى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل :ومن قلة نحن يومئذٍ ؛ قال : بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفَنَّ في قلوبكم الوهن ، فقال قائل :يا رسول الله وما الوهن ؛ قال :حب الدنيا وكراهية الموت)** [1].

2. الغفلة وعدم الاعتبار :

غـــرَّت الحـــيـــاة الدنـــيا وطول الأمل كثيراً من الخلق ، فتركوا سبيل الهدى والرشـــاد ، ووقعوا في شَرَكِ الردى والشيطان ، وظنوا أن يُتركوا سُدىً ، وغفلوا عن العديد من الآيات ، ومنها :

(أ) قوله تعالى :**﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾** [2].

(ب) وقوله – جلَّ وعلا – :**﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾** [3].

(ج)وقوله أيضاً :**﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** [4].

وبذلـــك استمروا في غفلتهم التي تؤدي بهم إلى ارتكاب ما حرَّم الله ، وبالتالي إلـــى ضـــياع حســـناتهم ، وهـــم لاهون غافلون لا يعلمون شيئاً مما حولهم ، إلى أن يستيقظوا بعد فوات الأوان ، وحينها لا ينفع الندم .

3. تزيين الشيطان للمعصية وإلقاء الشُّبهة في النفوس :

إن الشيطانَ حريصٌ أشد الحرص على إهلاك الإنسان ، لذا يعمل جاهداً ليكون مصيره إلى النار ، وسوء العاقبة والقرار ، وذلك بتزيين المعصية له ، وإلقاء محبتها في قلبه، ودليل ذلك بعض الآيات ، ومنها :

(أ) قال تعالى :**﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [5].

---

(1) أخرجه (د) في سننه ،ك (الملاحم) ،ب/5 (تداعي الأمم على الإسلام) ،1838/4 ،ح(4297)، دار الحديث /القاهرة ط 1420هـ – 1999م ، (ت) السيد محمد الشهد ، وصححه الألباني في صحيحه ، 1359/2 ، ح(8183).

(2) القلم / 45 .

(3) المؤمنون / 55، 56 .

(4) الحجر / 3 .

(5) فاطر / 6 .

(ب) وقال أيضاً :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [1].

كما ويسعى جاهداً لصده عن فعل الخير ، ويدفعه لفعل الشر ويُحسِّن في نظره الحرام والمنكر.

(ج)قال تعالى :﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾[2].

لـذا فالواجب على الإنسان العاقل أن يحاول التعرف على حكمة الله في خلقه ، ولـيعلم جـيداً أن مـا يصيبه في هذه الحياة الدنيا من شر أو مرض إنما هو امتحان واختبار من الله تعالى ؛ ليرى أيصبر أم يجزع . كما يجب عليه ألا يغفل عن خالقه ، ويركن إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها الزائلة ، وليحذر من الشيطان فلا ينصاع لأوامره ، بل يتخذه عدواً .

قال تعالى :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [3].

المطلب الثالث : كيفية التخلص من آثار الذنوب

يجـب على المسلم أن يحذر من الذنوب والمعاصي ، وأن يفر منها فراره من الأسـد ؛ لأنها إن تراكمت على القلـب أماتته ، وأبعدته عن خالقه ، وبالتالي عن كل خير ، وعليه ألا يستهين بها مهما كانت صغيرة في نظره ؛ لأن الصغائر تتراكم حتى تصبح كبيرة مهلكة .

وقد ورد عن رسول الله -ﷺ- أنه قال : (**إياكم ومحقراتِ الذنوب كقوم نزلوا فـي بطن وادٍ ، فجاء ذا بعودٍ ، وجاء ذا بعودٍ ، حتى أنضجوا خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبه تهلكه**) [4].

كما يجب عليه أن يسعى جاهداً وبكل الوسائل الممكنة للتخلص مما ارتكبه من الذنـوب أولاً بأول ؛ كي يلقـى ربه – عزّ وجل- وصحيفته خالية من تلك الذنوب ، وكأنه لم يرتكبها.

---

(1) يوسف / 5 .

(2) النمل / 24 .

(3) فاطر / 6 .

(4)أخـرجه (حم) ، 414/5 ، ح(22804) . وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، وشيء من فقهها وفوائدها ، المكتب الإسلامي/بيروت ط4 1405هـ-1985م ، 673/1 ح(389) بنحوه .

ومن هذه الوسائل التي تزيل الذنوب وتنجي منها :

1. التوبة :

((وهي الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً)) (1).

أي أنها تعني ترك الذنوب استشعاراً بقبحها ، وخوفاً من الله – عزّ وجل- والعمل بما يرضيه – جلّ وعلا- في الظاهر والباطن .

حقيقة التوبة :

إن حقيقة التوبة هي الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره ، وهي شعور وجداني بالندم على ما وقع ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل ، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور ، فاستحق التائب أن يكون حبيب الله ؛ لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ فهم خواص الخلق لديه (2).

والتوبة أمر هام في حياة المسلم ؛ لأن الذنوب والمعاصي إذا توالت على القلب، وطال ليلها عليه اسودّ وابتعد عن خالقه ، فكانت التوبة هي الطهور الذي يعيد إليه نقاءه ، ويرد إليه ضياءه ، وهي النور الذي يضيئ معالم الطريق ، وهي الهداية الواقية من اليأس والقنوط ، وهي الينبوع لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة ، وهي من أعظم الحسنات ، وقد أمر الله – تعالى- المؤمنين بها .

قال تعالى :﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (3).

وقد فتح لعباده أبواب الرجاء في عفوه ومغفرته فجعل باب التوبة مفتوح لكل إنسان حتى يغرغر ، وحتى تخرج الشمس من مغربها ، وحذرهم من القنوط من رحمته ، قال تعالى :﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (4).

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ، (ت) عماد عامر ، دار الحديث/القاهرة ، ط1 1416/هـ-1996م ، 279/1.

(2) انظر نفس المرجع : 278/1 ، ووجوب التوبة إلى الله ، د.صالح بن غانم السدّلان – بدون بيانات نشر- ط1 1408/هـ-1988م ، ص10-11.

(3) النور / 31 .

(4) الزمر / 53 .

فمن تاب تاب الله عليه ، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء .

قال تعالى :**﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** (1).

والتائب من ذنوبه محل رعاية الله وأهل لحفظه ورعايته .

قال تعالى :**﴿أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** (2).

وباب التوبة مفتوح على مصراعيه ، يدخل فيه من يشاء ، لا يطرده من رحمة الله طارد، ولا يُوصد بينه وبين الله باب .

قال تعالى :**﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾** (3).

فعلى كل مسلم الرجوع إلى الله تعالى ، والتوبة من ذنوبه توبة نصوحاً ، وعقد النية على عدم الرجوع إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي والآثام مرة أخرى عسى الله أن يكفر ذنوبه ، ويحط عنه خطاياه ، ويبدله عنها حسنات ، قال تعالى :**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** (4).

وقد ورد عن رسول الله -ﷺ- أنه كان يقول :**(رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم)** (5).

فإذا كان رسول الله -ﷺ- دائماً يطلب المغفرة من الله ، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فنحن أولى بذلك منه صلى الله عليه وسلم .

2. الاستغفار :

وهو طلب المغفرة من الله بمحو الذنوب وستر العيوب .

---

(1) آل عمران / 135 .

(2) آل عمران / 136 .

(3) مريم / 60 ، 61 .

(4) التحريم / 8 .

(5) أخرجه (د) ، ك(الصلاة)، ب/361(الاستغفار) ، 654/2 ، ح(1516) . وأخرجه (جه) ، ك(الأدب) ، ب/57 (الاستغفار) ، 321/2 ، ح(3075). وصححه الألباني في صحيحه : 656/1 ، ح(3486).

البـــــاب الأول

محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : محبطات قلبية

الفصل الثاني : محبطات قولية

الفصل الثالث : محبطات فعلية .

البـــاب الأول

محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم

ثبـــت عـــن أهل السنة أنهم عرَّفوا الإيمان بقولهم :(**هــو معرفة بالجنان وقول باللسان، وعمل بالأركان**) [1].

ومـــن مفهــوم المخالفـــة [2] فإن الأمور التي تؤدي إلى نقص الإيمان أو زواله ، وبالتالي إلى حبوط عمل الإنسان الصالح هي أيضاً وليدة اعتقاد، أو قول، أو فعل .

ولكن من الضروري أن نعلم أن الآثار المترتبة على ارتكاب شيء من تلك الذنوب والمعاصي ليست على نفس الدرجة من الإثم ، بل هي على درجات متفاوتة ، فمنها ما يُخْرِجُ صاحبَه من دائرة الإسلام بالكلية ، وبذلك يصبح مرتكبها كافراً – والعياذ بالله – ومـــنها مـــا هو دون ذلك ، فقد يبقى مرتكبها في دائرة الإسلام ، ولا يخرج منها بتلك الذنـــوب ، بـــل ينقص إيمانه، ويحبط عمله أو بعضه ، فلا يصبح له فائدة تُرجى من ورائه ، وما ذلك إلا بسبب الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها .

قال تعالى :**﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَـــا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُـــونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** [3].

وانطلاقـــاً مـــن ذلك قمت – بعون الله وتوفيقه– بجمع جملة من الأسباب التي تؤدي إلى حبوط العمل الصالح، وصنفتها ، فوجدت أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1. منها ما يتعلق بالقلب وهي المحبطات الاعتقادية .
2. ومنها ما يتعلق باللسان وهي المحبطات القولية .
3. ومنها مل يتعلق بالجوارح والأركان وهي المحبطات الفعلية .

وبذلـــك كان هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول ، كل فصل عبارة عن قسم من هذه الأقسام الثلاثة .

---

(1) انظـــر التمهــيد لمـــا فـــي الموطـــأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر بن عبد البر ، ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/المغرب – بدون تاريخ – ، 248/9. ومجمـــوع الفتاوى 308/7 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 40/1.

(2) مفهـــوم المخالفـــة : هـــو ما يخالف حكمه المنطوق . الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ،بيروت/لبنان ط3 1415هـ–1995م ، 69/2 .

(3) هود / 15 ، 16 .

الفصـــل الأول
محبطـــــات قلبيـــة

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : محبطات قلبية تخرج من الإسلام

ويشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

المطلب الثاني : الكفر بالله وأنواعه

المطلب الثالث : الشك في حكم من أحكام الله – عزَّ وجل– أو خبر من أخباره

المطلب الرابع : كفر النفاق (النفاق الاعتقادي)

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

المطلب السادس : إنكار البعث

المطلب السابع : إنكار حكم معلوم من الدين بالضرورة

الفصل الأول

محبـــــطات قلبيـــــة

لقــد تقــرر أن الإيمان **هو معرفة بالجنان وقول باللسان ، وعمل بالأركان ،** ولكــن أصــل الإيمان موجــود في القلب ، وقد شهد بذلك العديد من النصوص ، ومنها :

(أ) قال – عزّ وجل– :**﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [1].

(ب) وقال :**﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾** [2].

(ج)وقال :**﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** [3].

(د) وقال أيضاً :**﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [4].

(ه) وقال –ﷺ– :**(يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه)** [5].

لــذا كان إيمان القلب شرطاً في قبول الإيمان ، ولا يصح بدونه ، قال –ﷺ–: **(ألا وإن فــي الجســد مضغــة إذا صلحت صلح الجسد كله ؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)** [6].

ولكن قد يعتقد القلب أحياناً اعتقادات باطلة فيصدق بها ، ويطمئن إليها ، فتكون ســبباً فــي حبوط عمله الصالح إما بالكلية ، وبذلك يخرج من الإسلام ، إن مات وهو مصر عليها ، أو دون ذلك فيحبط عمله ، ولكنه يبقى في دائرة الإسلام .

وقــد قمت – بعون الله تعالى– في هذا الفصل بجمع جملة من المعتقدات التي تحبط عمل القلب ، وقسمتها إلى مبحثين :

المبحث الأول : يتضمن المحبطات التي تخرج من الإسلام .

المبحث الثاني : يتضمن المحبطات التي لا تخرج من الإسلام .

---

(1) الحجرات / 7 .

(2) المجادلة / 22 .

(3) النحل / 106 .

(4) الحجرات / 14 .

(5) أخــرجه (د) ، ك (الأدب) ،ب/40 (فــي الغيبة) ، 2081/4 ، ح(4880) ، وقال صحيح ، وصححه الألباني في صحيحه : 1322/2 ، ح(7984).

(6)أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) ، ب39/ (فضل من استبرأ لدينه) ، 41/1، ح(52).

المبحث الأول

محبطات قلبية تخرج من الإسلام

وتناولت فيه سبعة معتقدات ، كل منها يحبط العمل الصالح ، ويخرج من الإسلام – إن مات الإنسان وهو مصرٌ عليها– .
علماً بأن كل معتقد يمثل مطلباً .

المطلب الأول : الشرك بالله تعالى

أستهل هذا المطلب بتعريف الشرك ، ثم أذكر أنواعه ، وأرصد قبضةً من مظاهر خطورته في الدنيا والآخرة .

أولاً : تعريف الشرك

هو جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته (1).

ثانياً : أنواع الشرك

الشرك نوعان :

النوع الأول : شرك أكبر يُخْرِجُ من الملة ، ويخلد صاحبه في النار ، إذا مات ولم يتب منه ، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه في هذا المطلب .

قال تعالى : **﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (2).

النوع الثاني : شرك أصغر لا يُخْرِجُ من الملة ، لكنه ينقص التوحيد ، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر (3).

---

(1) عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها او ينقُضُها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك للشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، دار العاصمة ، السعودية /الرياض، ط1 1420هـ 1999م ، ص92 ، وانظر لسان العرب : 100/7 .

(2) يونس / 18 .

(3) عقيدة التوحيد وما يضادها : ص 95 ، 96 .

وهـــو مـــا سأتناوله في المبحث الثانـــي من هـــذا الفصل تحت عنوان الرياء بمشيئة الله – تعالى– .

إن من أصول الإيمان أن يؤمن الإنسان إيماناً قاطعاً بأن الله وحده هو الخالق ، والـــرازق، والنافع ، والضار ، والمحيي ، والمميت ، وهو المتصرف في جميع شئون الكون . وقد وردت هذه المعاني في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة :

(أ) قـــال تعـــالى موجهاً نبيه ﷺ :**﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾** [1].

(ب) وقال :**﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه﴾** [2].

(ج) وقال أيضاً :**﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [3].

وهـــذه الأمور والقضايا من الوضوح والبيان بحيث أقرَّ بها الكفار والمشركون الأوائل فيما حكاه القرآن الكريم عنهم :

(أ) قال تعالى :**﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ﴾** [4].

(ب) وقال أيضاً :**﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾** [5].

فقـــد كـــان الكفار والمشركون الأوائل يعتقدون أن الله هو الخالق ، والرازق ، والعليم ؛ لذا كانوا يصرفون بعض العبادات إليه تعالى .

قال – عزَّ من قائل– :**﴿ فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾** [6].

فقد كانوا مؤمنين ولكن إيمانهم مشوبٌ ، بالشرك ، قال تعالى واصفاً حالهم :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [7].

---

(1) الأعراف / 188 .
(2) آل عمران / 154 .
(3) الأنفال / 10 .
(4) يونس / 31 .
(5) المؤمنون / 88 ، 89 .
(6) الأنعام / 136 .
(7) يوسف / 106 .

فكانوا بالرغم من تيقنهم من هذه الحقائق وإدراكهم لها إدراكاً تاماً يشركون معه غيره – جلَّ وعلا – مما لا ينفعهم ولا يضرهم .

قـال تعالى : **﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾** [1].

يقـول ابن عاشور : ((أفادت هذه الآية الكريمة التوبيخ على شكر مالا يستحق الشـكر ؛ فـإن العـبادة شكر، فهـم عبدوا مالا يستحق العبادة، ولا بيده نعمة، وهو الأصـنام ؛ لأنهـا لا تملـك ما يأتيهـم من الرزق لاحتياجهـا، ولا تستطيع رزقهم لعجزها .... وملك الرزق المقدرة على إعطائه)) [2].

ثالثاً : مخاطر الشرك

1. بيَّـن – سبحانه وتعالى– أن هذا النوع من الشرك هو ظلم عظيم لله قبل أن يكون للنفس؛ بل هو أظلم الظلم ، فقال تعالى :**﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾** [3].

يقـول السـعدي – رحمه الله – : ((ووجه كونه ظلماً عظيماً أنه لا أفظع ولا أبشـع ممَّـن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب ، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شـيئاً بمالك الأمر كلَّه ، وسوَّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بـالخلق مـن نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو ، فهل أعظم من هذا الظلم شيء)) [4].

2. كمـا أخـبر –سبحانه وتعالى– أنه لن يغفر للمشركين إلا إذا تابوا ، بالرغم من مغفرة ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده ولم لم يتب .

قال تعالى :**﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** [5].

يقـول السعدي – رحمه الله – : ((يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب صغائرها وكبائرها ، وذلك عند مشيئته مغفـرة ذلـك ، إذا اقتضـت حكمته مغفرته ، فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله

---

(1) النحل / 73 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 221/14 .

(3) لقمان / 13 .

(4) تفسير السعدي : 351/2 ، 352 .

(5) النساء / 48 .

إخلاص التوبة لله .

إذن فالشرك ممكن أن يغتفر بالتوبة الصحيحة ، الصادقة .

3. كما أخبر تعالى أنه حرَّم الجنة على المشرك ، وبيَّن أن مأواه في نار جهنم – والعياذ بالله –. قال تعالى :﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [1].

4. وقد ورد في القرآن أن الشرك يحبط جميع الأعمال .

قال تعالى :﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [2].

وقال أيضاً :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [3].

بينت هذه الآيات الكريمة أن الشرك بالله يحبط العمل الصالح ، ويخرج الإنسان من الإسلام بالكلية ، وتنطبق عليه أحكام الكافر .

يقول السعدي – رحمه الله– في معنى هذه الآيات : ((فإن الشرك بالله محبط للأعمال ، مفسد للأحوال ، ..... ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال)) [4].

وقال المرداوي : ((من أشرك بالله ، أو جحد ربوبيته ، أو وحدانيته ، أو صفة من صفاته .....كفر بلا نزاع في الجملة)) [5].

5. وطالما أن الشرك يحبط العمل ، ويخرج من الإسلام فإن المشرك حلال الدم والمال ، حيث أمر تعالى بقتل المشركين .

قال تعالى :﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [6].

---

(1) المائدة / 72 .

(2) الأنعام / 88 .

(3) انظر تفسير السعدي : 519/1 ، 542/2، وجامع البيان للطبرى :342/7، 343، وأضواء البيان للشنقيطى :154/2 والآية في الزمر /65.

(4) تفسير السعدي : 329/1 .

(5) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد المرداوى، دار إحياء التراث العربي، بيروت /لبنان، ط1 1377هـ–1957م،326/10.

(6) التوبة : 5 .

(أ) تعريف الكفر لغة واصطلاحاً :

الكفر لغة :

التغطية والستر [1].

الكفر شرعاً :

((ضـد الإيمـان)) [2]. فالكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن، بل كان مجرد شك وريب ، او إعراض ، أو حسد ، أو كبر ، أو اتباع لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة ، وإن كان المكذب أعظم كفراً ، وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل [3].

(ب) أنواع الكفر : الكفر نوعان

النوع الأول :

كفر أكبر يخرج من الملة ، وهو خمسة أقسام : كفر جحود وتكذيب ، وكفر استكبار وإباء مع التصديق [4] ، وكفر إعراض [5] ، وكفر شك [6] ، وكفر نفاق [7] .

فأما كفر التكذيب : فهو اعتقاد كذب الرسل ، وهذا القسم قليل في الكفار ، فإن الله أيَّد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام الحجة ، وأزال به المعذرة [8].

قال تعالى عن فرعون وقومه :**﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾**[9]، وقال لرسوله -ﷺ-:**﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾**[10].

---

(1) انظر لسان العرب : 118/12 ، والمصباح المنير : 196/2 .

(2) مجموع الفتاوى : 335/12 .

(3) نفس المرجع ونفس الصحفحة .

(4) نحو كفر إبليس ، فإنه لم يجحد أمر الله ، ولا قابله بالإنكار ، إنما تلقاه بالإباء والاستكبار .

(5) كأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ، لا يصدقه ، ولا يكذبه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه ، ولا يصغي إلى ما جاء به . مدارج السالكين : 305/1 .

(6) سيأتي تعريفه في المطلب الثالث من هذا المبحث ص 52 .

(7) سيأتي تعريفه في المطلب الرابع من هذا المبحث ص 56 .

(8) مدارج السالكين : 305/1 ، وعقيدة التوحيد : ص 100 ، 101 .

(9) النمل / 14 .

(10) الأنعام / 33 .

يقـــول تعالى مسلياً لنبيه -ﷺ- في تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه : قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، ولكن الحقيقة أنهم لا يكذبونك فيما أتيتهم به مـــن وحـــي الله ، فهـــم لا يتهمونك بالكذب ، بل يعلمون صحة ما جئت به ، ولكنهم يجحدون حقيقته ، فلا يؤمنون به، ويعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم [1].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن رسول الله -ﷺ-مرَّ بأبي جهل وأصـــحابه، فقالوا : يا محمد والله لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به فنزلت [2].

يقول ابن القيم – رحمه الله- : ((وكفر الجحود نوعان :كفر مطلق عام ،وكفر مقيد خاص.

فالمطلق : أن يجحد جملةً ما أنزله الله ، وإرسال الرسل .

والخاص المقيد : أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام ، أو تحريم محرم من محرماته أو صـــفة وصف الله بها نفسه ، أو خبراً أخبر الله به عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض)) [3].

(ج)مخاطر الكفر الأكبر :

يترتب على الكفر الأكبر عدة أمور ، منها :

1. أنه يخرج من الملة ، ويحبط الأعمال : قال تعالى :﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**﴾ [4].

وقال أيضاً :﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**﴾ [5].

يقول القرطبي – رحمه الله – : ((أي ومن يجحد الإيمان فقد بطل عمله)) [6].

وقـــد بيَّـــن الله – سبحانه وتعالى- أن أعمال الكافرين كالسراب لا حقيقة لها ، وأنها كالرماد في مهب الريح لا تثبت ولا تستقر ، وبالتالي لا تنفع أصحابها .

---

(1) انظر جامع البيان للطبري : 238/7 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 132/2 .

(2) انظر أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان، ط1 1402هـ–1982م ص123.

(3) مدارج السالكين : 306/1 .

(4) البقرة / 217 .

(5) المائدة / 5 .

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 81/6 .

قـال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [1].

وقـال أيضـاً :﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [2].

يقـول السـعدي – رحمه الله– : ((يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها ..... بأنهـا في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفهـا إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيء ، ولا يقـدر مـنه علـى شيء يذهب ويضمحل ، فكذلك أعمال الكفار ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾ ، ولا على مثقال ذرة منه ؛ لأنه مبني على الكفر والتكذيب)) [3].

2. أنـه يبـيح الـدم والمال : قـال تعالى :﴿فَإِذا لَقِيتُـمُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا فَضَرْبَ الـرِّقَابِ﴾ [4]، وقـال أيضـاً :﴿فَقَاتِلُـواْ أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [5].

3. أنـه يخلـد صاحبه في النار : قال تعالى :﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [6].

وبذلـك أصبح واضحاً أن الكفر الأكبر يخرج من ملة الإسلام ، ويحبط أعمال صـاحبه – إن مـات وهو مصرٌّ عليه – ، وقد أجمع العلماء على ذلك ، وحكى ذلك الإجمـاع القاضـي عياض – رحمه الله – حين قال : ((وكذلك من أنكر القرآن ، أو حـرفاً مـنه ، أو غيَّر شيئاً منه ، أو زاد فيه ،.... وكذلك من أنكر شيئاً مما نَصَّ فيه القـرآن – بعد علمه– أنه من القرآن الذي في أيـدي النـاس ومصاحف المسلمين ، ولـم يكن جاهلاً به ، ولا قريب عهدٍ بالإسلام ، .... وكذلـك من أنكر الجنة والنار ،

---

(1) النور / 39 .

(2) إبراهيم / 18 .

(3) تفسير السعدي : 892/1 .

(4) محمد / 4 .

(5) التوبة / 12 .

(6) البقرة / 39 .

أو البعـث أو الحساب أو القيامة ، فهو كافر بإجماعٍ للنص عليه ، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً...)) [1].

وكذلـك قال ابن بطة – رحمه الله – : ((فكل من ترك شيئاً من الفرائض التي فرضـها الله –عـزّ وجل– في كتابه ، أو أكدها رسول الله –ﷺ– في سنته على سبيل الجحـود لهـا والتكذيب بها ، فهو كافر بيِّن الكفر ، لا يشك في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر)) [2].

أما النوع الثاني من أنواع الكفر : فهو كفر أصغر لا يخرج من الملة ، ويُسمى الكفر العملي ، وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفراً ، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر ، مثل كفر النعمة المذكور في قوله تعالى :﴿ **وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ**﴾ [3].

ومثل قتال المسلم المذكور في قوله –ﷺ-:(**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**) [4].

وفي قوله –ﷺ- :(**لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**).

فلم يُخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أخاً لولى القصاص ، فقال :﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ [5].

والمراد : أُخوة الدين بلا ريب .

وقال تعالى :﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [6]، إلى قوله : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ [7][8] .

---

(1) الشـفا بتعريف حقـوق المصطفى ، للقاضي عياض ، (ت) على محمد البجاوي مكتبة الإيمان –بدون تاريخ– ، 1076/2، 1077.

(2) الإبانـة عـن شريعة الفرقة الناجية ، للحافظ ابن بطة العكبرى ، (ت) رضا معطى ، دار الراية/الرياض، ط1 1409هـ : 764/2.

(3) النحل / 112 .

(4) متفق عليه ، أخرجـه (خ)، ك (الإيمـان) ، ب/36 (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) ، 40/1 ، ح(48) ، وأخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 242/2 ، ح(16).

(5) البقرة / 178 .

(6) الحجرات / 9 .

(7) الحجرات / 10 .

(8) شرح العقيدة الطحاوية لعلى بن على بن محمد بن أبى العز ، (ت) جماعة من العلماء ، خرَّج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي/بيروت ، ط 8 1404هـ–1984م ، ص321،320 .

فقــد ســماهم – ســبحانه وتعالى– مؤمنين ، بالرغم من اقتتالهم ، مع بعضهم البعض .

المطلب الثالث : الشك في حكمٍ من أحكام الله – عزَّ وجل–، أو خبر من أخباره

الشك لغة : نقيض اليقين ، وهو التردد بين شيئين [1].

وكفر الشك هو القسم الثالث من أقسام الكفر الأكبر ، وهو كفر الظن فلا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك في أمره [2] .

قــال تعــالى موضــحاً معنى كفر الشك ، أو الظن :**﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِــهِ قَــالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّــي لأَجِــدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَــا مُنقَلَبًا . قَالَ لَــهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَــكَ مِــن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُــلاً. لَّكِنَّا هُــوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾** [3].

يحكــي تعــالى فــي هذه الآيات الكريمة قصة رجل أعطاه الله ما يشتهى من الأمــوال والثمرات، فدخل بستانه يوماً وهو ظالم لنفسه بكفره بالبعث ، وشكه في قيام الســاعة ، وإنكــاره المعــاد إلى الله تعالى ، فاغتر لما رأى فيه من الزروع والثمار والأشــجار والأنهــار ، فظن أنها لن تفنى ، ولن تهلك، ولن تتلــف أبداً ؛وذلك نتيجة كفــره ، وتمــرده ، وتكــبره ، وتجبره ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينــتها، فشــك في رجوعه يوماً إلى الله تعالى، ثم منَّى نفسه أمنية، وافترض فرضاً مبنيين على الظن والشك بأنه لو عاد يوماً إلى الله تعالى سوف يجد أفضل منها ؛ لأنه تعالى لم يعطِهِ هذه الجنة في الدنيا إلا لأنه صاحب فضل عند الله – عزَّ وجل–.

(وكلامه هذا لا يخلو من أمرين : إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال ، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء ، فيكون زيادة كفر إلى كفره ، وإما أن يكون هذا ظنَّه في الحقــيقة ، فــيكون من أجهل الناس ، وأبخسهم حظاً من العقل ..... والظاهر أنه يعلم الحقيقة ، ولكنــه قال هذا الكلام ، على وجه التهكم والاستهزاء ، بدليل قوله تعالى :

---

(1) انظر لسان العرب : 174/7 .

(2) عقيدة التوحيد : ص 101 ، ومدارج السالكين : 306/1 .

(3) الكهف / 35–38 .

﴿ وَدَخَـلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ . فإثبات أن وصفه بالظلم في حال دخوله ، بسبب الذي جرى منه من القول ، ، يدل على تمرده وعناده) [1].

وأنـا أؤيـد اختيار السعدي –رحمه الله- بأنه يعلم الحقيقة ، ولكنه قال ما قال بدافـع الغـرور، والتكـبر، والتجبر، والكفر، والعناد، والتهكم والسخرية ، بدليل قول صاحبه له بعد ذلك :(**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ....**)الآية .

فصـاحبه يعلم تمام العلم أنه كافر معاند، وإلا لو كان سبب قوله الجهل لحاول أن يوضـح له الحقيقة ، ويصحح له مفاهيمه وعقيدته ،ولكنه وصمه مباشرة بالكفر ، مما يدلل على كفره .

ويوضح ابن القيم – رحمه الله- معنى كفر الشك في معرض كلامه عن أنواع الكفر الأكبر فيقول : ((أما كفر الشك : فإنه لا يجزم بصدقه –أي رسول الله ﷺ- ولا يكذبه ، بل يشك في أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فـي آيات صدق الرسول –ﷺ- جملة ، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك ....)) [2].

كفر الشك يخرج من الإسلام ، ويحبط للأعمال :

وقـد أجمع العلماء – رحمهم الله- على أن كفر الشك مخرج من الملة ، محبط للأعمال ، في معرض ذكرهم أمثلة عليه ، منها :

1. ذكـر الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله- من نواقض الإسلام :((الثالث : من لم يكفّر المشركين ، أو شكّ في كفرهم ، أو صحح مذهبهم ، كفر إجماعاً)) [3].
2. وقال ابن سحمان – رحمه الله- : ((وقد دلّ القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر والشـك :هو التردد بين شيئين ، كالذي لا يجزم بصدق الرسول –ﷺ- ولا كذبه ولا يجزم بوقـوع البعث ولا عدم وقوعه ، ونحو ذلك كالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوبها أو لا يعتقد تحريم الزنا ولا عدم تحريمه ، وهذا كفر بإجماع العلماء)) [4].

---

(1) تفسير السعدي : 1010/1 بتصرف يسير .

(2) مدارج السالكين : 305/1 .

(3) مجموعة التوحيد (عشر رسائل) لابن تيمية، وابن عبد الوهاب ، وأئمة الدعوة ، دار الإفتاء/السعودية ، ص213 .

(4) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق ، لسليمان بن سحمان ، (ت)عبد السلام بن برجس عبد الكريم ، دار عليان ودار العاصمة ، ط4 ، 1412هـ ، ص374.

ومعلـــوم أن الكفـــر يحـــبط العمل ، كما مرَّ في المطلب الثاني – كفر الجحود والتكذيـــب – [1] لذا يجب على المسلم أن يؤمن إيماناً يقينياً بكل أمر أو حكم قضى به الله – سبحانه وتعالى– ؛ لأن ذلك الإيمان واليقين يعتبر شرطاً من شروط كلمه التوحيد – لا إله إلا الله – ، حيث إن من شروطها : اليقين المنافي للشك .

يقـــول ابـــن القيم – رحمه الله– موضحاً منزلة اليقين وأهميته ، ومعارضته لكل شك وريـــب : ((فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصديقية ، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره ،...... ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً ، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط)) [2].

وقد بيَّن الله – عزَّ وجل– أن من صفات المؤمنين : الإيمان بالله ، وعدم الشك والريـــبة في أمور الدين ، فقال تعالى :﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [3].

وفي المقابل بيَّن – سبحانه تعالى– أن الريبة والشك من صفات المنافقين ، قال تعـــالى :﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾ [4].

يقـــول الشوكاني – رحمه الله– : ((والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنيـــــن ، بل مرتابيـــن ، حائرين ،لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق)) [5].

ويقـــول ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وفي هذه الآية تصريح للمنافقين بأنهم كافرون)) [6].

أي أن الله تعالى نفى صفة الإيمان عن هؤلاء الشاكين المرتابين ، وبذلك يتأكد كفرهم وحبوط أعمالهم – والعياذ بالله– .

---

(1) ص 49 .

(2) انظر مدارج السالكين : 374/2 .

(3) الحجرات / 15 .

(4) التوبة / 45 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 366/2 .

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور : 214/10 .

وقد أكدَّ رسول الله – ﷺ - أن اليقين وعدم الشك ليس لها جزاءٌ إلا الجنة ، فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– قال – ﷺ - :(**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**) [1].

وقـــال أيضاً لأبي هريرة – رضي الله عنه– :(**اذهب بنعليّ** [2] **هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط** [3] **يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة**) [4].

ومن مفهـــوم المخالفـــة (5) : أن من شكَّ في كلمة التوحيد – لا إله إلا الله– ، أو شـــكَّ في أي أمـــر من أمـــور الديـــن ، فإنه لن يدخـــل الجنـــة ، والنـــار مثواه – والعياذ بالله – .

وفي نهايـــة هـــذا المطلب لا يسعني إلا أن أذكـــر فائـــدة ذكرها شيخ الإسلام – ابـــن تيمـــية – رحمه الله – في التفريق بين الشك والريبة ، فإنهما وإن اتحدتا في المعـــنى الإجمالـــي ، إلا أنه ذكر فرقاً دقيقاً بينهما ، فقال : ((والريب يكون في علم القلـــب وفي عمل القلب ، بخلاف الشك ، فإنه لا يكون إلا في العلم ، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً)) [6].

المطلب الرابع : كفر النفاق (النفاق الاعتقادي)

أشـــرع فـــي هذا المطلب بتعريف النفاق ، ثم أبين أنواعه ، وأرصد العديد من مخاطره .

أولاً : تعريف النفاق

(أ) النفاق في اللغة :

يطلق النفاق في اللغة على عدة معاني متشابهة :

- قيل إنه نسبة إلى النفق، وهو السرب في الأرض ؛ لأن المنافق يستر كفره ويغيبه .

---

(1) أخرجه (م) ، ك(الإيمان) ، 179/1 ، ح(44).

(2) علة إعطائه النعلين ؛ لتكون علامة ظاهرة معلومة عندهم ، يعرفون بها أنه لقي النبي ﷺ ويكون أوقع في نفوسهم لما يخبرهم به عنه ﷺ .

(3) الحائط : هو حائط للأنصار ، وهو عبارة عن بستان ، وسمى بذلك ؛ لأنه حائط لا سقف له .صحيح مسلم بشرح النووي ، (ت) رضوان جامع رضوان ، مؤسسة المختار/القاهرة ط1 2001م ، 276/1، 277 .

(4) أخرجه (م) ، ك(الإيمان) ، 188/1 ، ح(52).

(5) سبق تعريف مفهوم المخالفة ص 39 .

(6) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ، المكتب الإسلامي/بيروت ط4 1413هـ–1993م ، ص267.

- وقيل : نسبة إلى نافقاء اليربوع ، له جحر يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء،فإذا طلب من القاصعاء قصع ، فخرج من النافقاء ، كذلك المنافق يخرج من الملة والإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه) [1].

(ب) النفاق في الاصطلاح الشرعي :

هو إظهار القول باللسان ، أو الفعل ، بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد [2].

ثانياً : أنواع النفاق : النفاق نوعان :

النوع الأول :

النفاق الاعتقادي : وهو النفاق الأكبر : وهو إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر [3].

أي أنْ يظهرَ المنافق الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كلَّه ، أو بعضَه ، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله -ﷺ-، ونزل القرآن الكريم بذم أهله وتكفيرهم [4].

يقول ابن كثير – رحمه الله- : ((النفاق أنواع منه : الاعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبرَ الذنوب)) [5].

وبالتالي يتضح الفرق بين النفاق الاعتقادي ، والنفاق بمعناه الاصطلاحي ، فالنفاق الاصطلاحي يطلق على النفاق الاعتقادي ، كما يطلق على النفاق العملي ، وهو صفة للمنافقين، كما قد يكون أيضاً صفة للمؤمنين ، فهم قد يعملون بعض أعمال المنافقين التي لا تُخْرِجُ من الملة ، أما النفاق الاعتقادي فلا يوصف به المسلمون أبداً .

---

(1) انظر لسان العرب : 358/10 ، 359 ، ومفردات غريب القرآن ص502، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، (ت) طاهر الزاوى ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية/عيسى البابلي الحلبي ، ط1 1383هـ ، 98/5، والقاموس المحيط :296/3 .

(2) عارضه الأحوذى لشرح صحيح الترمذي ، بشرح الإمام ابن العربي المالكي ، دار الكتاب العربي ، – بدون طبعة – ، 97/10، 98.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير :47/1 ، وانظر مدارج السالكين : 313/1.

(4) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي (ت) أبو معاذ ، دار ابن الجوزي، ط1 1415هـ-1995م،538/2.

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 47/1 .

ثالثاً : مخاطر النفاق

1. النفاق الاعتقادي مخرج من الإسلام محبط لجميع الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :

(أ) بيَّن تعالى أن المنافقين أقرب للكفر منهم للإيمان ، ومعلوم أن الكفر يخرج من الملة ويحبط العمل.

قال تعالى :﴿**وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ [(1)].

يقول القرطبي – رحمه الله– عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((أي بيَّنوا حالهم وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون ؛ فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال ، وإن كانوا كافرين على التحقيق)) [(2)].

(ب) وبالرغم من أن الآية الكريمة السابقة تعني حبوط جميع أعمال المنافقين، إلا أن الله – سبحانه وتعالى– نَصَّ وأكدَّ على حبوط بعض الأعمال التي يقومون بها مراءاةً وخداعاً؛ كالصلاة والإنفاق.

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ [(3)].

فهذه الآية الكريمة صريحة الدلالة على كفر المنافقين ، وبالتالي كان العقاب العادل أن لا يقبل الله – سبحانه وتعالى– منهم الإنفاق ؛ لأنهم ينفقون وهم كارهون لذلك الإنفاق معتبرين ذلك ضياعاً للأموال ، وكذلك لا تقبل صلاتهم ؛ لأنهم يصلون خوفاً من المسلمين فقط ، أما إذا خلوا إلى أنفسهم فإنهم لا يصلون ، وبذلك يكون قد حبط أجر الصلاة والإنفاق .

---

(1) آل عمران / 167 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 277/4 .

(3) التوبة /53 ، 54 .

(ج)ومما يدل صراحة على حبوط أعمالهم قوله تعالى :﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴾[1].

(د) وقال أيضاً :﴿ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ [2] فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ [3] كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [4].

يقول ابن عاشور : ((هذا الخطاب للمنافقين لقصد التقريع والتهديد بالموعظة ، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال بأن آخر ذلك حَبَطُ الأعمال في الدنيا والآخرة ، وأن يحق عليهم الخسران .... ومعنى حبطها في الدنيا : استئصالها وإتلافها بحلول مختلف العذاب بأولئك الأمم ، وفي الآخرة : بعدم تعويضها لهم)) [5].

2. النفاق الاعتقادي لا يصدر من مؤمن : فقد بيَّن – سبحانه وتعالى– أن المنافقين لا يرضون بحكم الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [6].

عندئذٍ أقسم الحق – تبارك وتعالى– بنفسه المقدسة أنهم غير مؤمنين ، وبين أن شرط الإيمان منهم الرضا بحكم الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [7].

---

(1) المائدة / 53 .

(2) أي استمتعوا بما قُدر لهم من حظوظ الدنيا ، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه ، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف ، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم .

(3) أي وخضتم بالباطل والزور ، وجادلتم بالباطل لقد حضوا به الحق . تفسير السعدي : 709/1 ، 710 .

(4) التوبة / 68 ، 69 .

(5) التحرير والتنوير لابن عاشور : 256/10 ، 259 بتصرف يسير .

(6) النساء / 61 .

(7) النساء / 65 .

الحكم على المنافق بالكفر :

3. النفاق الأكبر يوجب الخلود في النار .

قال تعالى : **﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾** [1].

وقـال : **﴿وَعَـدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾** [2].

وقـال أيضـاً : **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيـنَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾** [3].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركـات مـن العـذاب ، وأشرِّ الحالات من العقاب ، فهم تحت سائر الكفار ؛ لأنهم شـاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله ، وزادوا عليهم بالمكر والخديعة ، والتمكين من كثـير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس ..... فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب)) [4].

وما ذلك العذاب الأليم للمنافقين ، وخلودهم في الدرك الأسفل من النار ، إضافة إلى خروجهم من الإسلام وبطلان أعمالهم ؛ إلا لأن عداوتهم للمسلمين أشدُّ خطراً من الكفـار ؛ لأن الكفار أمرهم واضح مكشوف لكل مسلم ، أما هؤلاء المنافقون فينتسبون إلـى المسـلمين ظاهراً، ويخالطونهـم ، ويطّلعون على عوراتهم ، ثم يرشدون العدو إلـيها ، يتربصـون بالمسـلمين الدوائر، دون علم منهم ، فألسنتهم ألسنة المسالمين ، وقلوبهم قلوب المحاربين ، **قال تعالى : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾** [5].

وقـد وصـف ابـن القيم – رحمه الله – مدى خطورة المنافقين على الإسلام والمسلمين ، فأحسن وأجزل – جزاه الله خيراً –، وكان مما قاله : ((فلله كم من معقلٍ للإسـلام قد هدموه ، وكم من حصنٍ له قد قلعوا أساسه وخربوه ، وكم من عَلَم له قد

---

(1) النساء / 138 .

(2) التوبة / 68 .

(3) النساء / 145 .

(4) تفسير السعدي : 396/2 .

(5) المنافقون / 4 .

طمســوه ،..... فــلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ، ولا يزال يطرق من شبههم سرِّية بعد سرية ، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون **﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾**))[1].

4. الــنفاق الأكبر في الغالب لا يتوب صاحبه ، ولو تاب فقد اختُلف في قبول توبته عند الحاكم ، قال تعالى واصفاً حالهم : **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾** [2].

يقول السيوطي – رحمه الله– : ((لا يرجعون إلى هدى ولا إلى خير)) [3].

وقــال تعــالى فــيهم : **﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾** [4].

يقــول ابن تيمية – رحمه الله– : ((وقد اختلف العلمــاء في قبول توبتهم في الظاهر ؛ لكون ذلك لا يُعلم ؛ إذْ هم دائماً يظهرون الإسلام)) [5].

النوع الثاني من أنواع النفاق :

النفاق العملي :

وهو عمل شيء من أعمال المنافقين ، مع بقــاء الإيمــان فــي القلب ، وهذا لا يخــرج مــن الملة، ولكنه وسيلة إلى ذلك ،وصاحبه يكون فيه إيمان ونفــاق ، وإذا كثُر صار بسببه منافقاً خالصاً.

والدلــيل عليه : قوله –ﷺ-: **(أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصــلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر)** [6].......

ومنه التكاسل عن الصلاة مع الجماعة في المسجد ، فإنه من صفات المنافقين .

فالنفاق شر خطير جداً ، وكان الصحابة يتخوفون من الوقوع فيه .

---

(1) انظر مدارج السالكين : 313/1 والآية في : البقرة /12 .

(2) البقرة / 18 .

(3) الدر المنثور للسيوطي : 72/1 .

(4) التوبة / 126 .

(5) مجموع الفتاوى : 434/28 ، 435 .

(6) أخرجه(خ) ، (ك) الإيمان ، ب/24 (علامة المنافق) ، 35/1 ، ح (34) ، وأخرجه(م) ، (ك) الإيمان ، 236/2 ، ح(106).

قال ابن أبي مليكة : ((أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله -ﷺ- كلهم يخاف النفاق على نفسه)) [1].

فإذا كان أصحاب رسول الله -ﷺ- رضوان الله عليهم أجمعين- يخافون النفاق على أنفسهم وهم خير القرون ، وجميعهم عدول ، فنحن من باب أولى أحق بذلك منهم. كما أن له صور عديدة ، ذكرها سعيد حوى ، فقال : ((والنفاق العملي أن تكون له أخلاق المنافقين في موالاة الكافرين ، أو في مودتهم ، أو في ربط المصير معهم ، أو إخلاف الوعد ، أو في اعتياد الكذب ، أو في الخيانة والغدر .....)) [2].

المطلب الخامس : إنكار وجود الملائكة أو الجن

إن الإيمان بالغيب يُعتبر من أهم صفات المؤمنين ، وبه يتميز المسلم عن الكافر ؛ لأن من مستلزمات الإيمان أن يؤمن الإنسان بكل ما أخبر به الله – عزّ وجل- أو أخبر به رسوله -ﷺ-، سواء شاهده أو لم يشاهدْهُ ، وسواء عقله أو لم يعقلْه .

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالملائكة -عليهم السلام- ، والإيمان بالجن أيضاً ، وذلك ركن من أركان الإيمان لا يتحقق إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم ، ومنكرهم جاحد كما سيأتي .

أولاً : إنكار وجود الملائكة – عليهم السلام –

إن الإيمان بالملائكة هو الركن الثالث من أركان الإيمان ، لذا يجب الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة مخلوقين من نور ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم بالقيام بها ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ولا يتناكحون ، إنما هم عباد مكرمون ، مقربون من ربهم [3]. ووجودهم ثابت بالكتاب والسنة .

1. بيَّن الله – سبحانه وتعالى- أن الإيمان بهم من البر ، بل هو من أصول الإيمان ، فقال – عزّ وجل – : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ**

---

(1) عقيدة التوحيد : ص 108 .

(2) المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى دار الأرقم/عمان ، ط1 1403هـ-1983م ، ص186 .

(3) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / بيروت، ط2 1399هـ-1979م، ص279.

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [1].

2. كمـــا وضَّـــح – سـبحانه وتعـــالى– أن الإيمان بالملائكة هو من صفات الأنبياء وأتــباعهم المخلصين، قال تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...﴾** [2].

3. وكذا بيَّن –جلَّ وعلا– أن الإيمان بهم هو من صفات المتقين ، **قال تعالى : ﴿الم ذَلِـكَ الْكِـتَابُ لاَ رَيْـبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾** [3].والإيمان بالملائكة هو جزء من الغيب.

4. كمـــا ورد ذكرهم في الأحاديث النبوية الشريفة ، فقد ورد في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– ، عندما سأل جبريلُ –عليه السلام– رسولَ الله –ﷺ– عن الإيمان، فقال : **(أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)** [4].

وبذلك يكون وجود الملائكة ثابتاً بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه شك ، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بنص القرآن العظيم :

قال تعالى : **﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾** [5].

يقــول الألوسي – رحمه الله– : ((أي ومن يكفر بأي شيء من ذلك فإن الحكم المـــتعلق بالأمور المتعاطفة بالواو قد يرجع إلى كلٍّ واحد ، وقد يرجع إلى المجموع، والتعويــل على القرائن ، وههنـــا قد دلت القرينة على الأول ؛ فالإيمان بالكل واجب ، والكل ينتفي بانتفاء البعض)) [6].

---

(1) البقرة / 177 .

(2) البقرة / 285 .

(3) البقرة / 1–3 .

(4) أخــرجــه (خ) ، ك(الإيمان) ، ب/37(سؤال جبريل النبي –ﷺ– عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة) ، 40/1 ، ح(50).

(5) النساء / 136 .

(6) روح المعاني للألوسي : 170/5 .

وأيضاً فقد نص العلماء على كفر جاحد وجودهم –عليهم السلام– .

يقول البهوتي : ((إن من جحد الملائكة ،أو أحداً ممن ثبت أنه مَلَك،كفر لتكذيبه القرآن)) [1].

حيث إن وجودهم ثابت بالقرآن العظيم ، لذا فإن منكرهم يعتبر مكذباً للقرآن ، ومن كذب بالقرآن فإنه يعتبر كافراً .

وبذلــك يتقرر حبوط عمل منكر وجود الملائكة ؛ لأن الكفر من دواعي إحباط العمل .

بعض صور الكفر بالملائكة عند أهل الجاهلية :

اختلف المنكرون الجاحدون في كيفية إنكارهم وجود الملائكة –عليهم السلام–، وإن اتفقوا جميعاً في الحكم عليهم بالكفر :

1. فمــنهم من كان يؤمن بوجودهم كقريش وبعض مشركي العرب ، كما حكى الله –تعالى– عنهم ذلك في كتابه المجيد بقوله : ﴿**وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**﴾ [2]، **وقوله** ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا**﴾[3]، ولكنهم كــانوا يــنكرون بعضهم ، كما قال أبو جهل لقريش حين أنزل الله – تعالى– في شأن جهــنم : (**عَلَــيْهَــا تِسْعَةَ عَشَرَ**)[4] :(أسمع ابنَ أبي كبشة [5]يخبركم أن خزنة النار تســعة عشــر ، وأنتــم الدُّهْم [6]، أفيَعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم) [7].

فــأبو جهـــل لم ينكر وجودهـــم ، بدليــل أنه أقرَّ عددهم ، ولكنه أنكر مدى قوتهم ، وبأنهم لا يُغلبون من قِبَل البشر ، وبذلك يكــون مكذباً لما أخبر به رسول الله –ﷺ– عنهم .

---

(1) كشّاف القناع عن متن الإقناع لمنصور البهوتي مطبعة الحكومة/مكة ، ط 1394هـ، 168/6 .

(2) الأنعام / 8 .

(3) الفرقان / 21 .

(4) المدثر / 30 .

(5) يعني بذلك النبي –ﷺ– ، وأبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعته –ﷺ– .

(6) الدُّهْم : العدد الكثير ، جامع البيان للطبري : 199/29 .

(7) أخرجه الطبري في تفسيره : 199/29 .

2. ومـــنهم من لم يُنزل الملائكة منازلهم التي تنبغي لهم ، وقد انقسموا إلى قسمين ، معتقداتهم في الملائكة على طرفي نقيض :

(أ) منهم من غالى فيهم حتى عبدهم من دون الله .

قـــال تعـــالى : **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾**[1].

(ب) ومنهم من جفاهم ، ووصفهم بما لا يليق ، حين زعموا أن الملائكة إناث .

قال تعالى : **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾** [2].

وقـــال – جـــلَّ وعلا- : **﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُــونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾** [3].

3. ومن صور الكفر أيضاً : عداء اليهود لجبريل – عليه السلام- ، كما **قال تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾** [4].

قال الطبري – رحمه الله- : ((أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً ليهود بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ،وأن ميكائيل وليٌ لهم))[5].

وبيَّن موقف اليهود من جبريل عبد الله بن سلام –رضي الله عنه- الصحابي الجلـــيل حيـــن سمع بمقدم النبي –ﷺ- إلى المدينة ، فأتاه وقال له : إني سائلك عن ثـــلاثٍ لا يعلمهـــن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما يـــنزع الولـــد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال –ﷺ- : (أخبرني بهن جبريل آنفاً) قال : جبريل ، قال : نعم ، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة) [6] [7] الحديث .

---

(1) سبأ / 40 ، 41 .

(2) الزخرف / 19 .

(3) النجم / 27 .

(4) البقرة / 98 .

(5) جامع البيان للطبري : 616/1 .

(6) أخـــرجه (خ) ، ك (التفسير) ، ب/6(من كان عدواً لجبريل) 1353/3 ، ح(4480) ، وتكملة الحديث : (أول أشـــراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت) الحديث .

(7) المســـائل التـــي خالـــف فيهـــا رسول الله –ﷺ- أهل الجاهلية لشيخ الإسلام الإمام محمد عبد الوهاب ، (ت) يوسف بن محمد السعيد ، دار المؤيد ، ط1 1416هـــ – 1996م ، 750/2-752 بتصرف .

إذن فصور الضلال في مسألة الإيمان بالملائكة مختلفة الأشكال على مر الأزمان – والله المستعان – .

ثانياً : إنكار وجود الجن :

ومن مستلزمات الإيمان بالغيب أيضاً : الإيمان بوجود الجن في هذا العالم ، وأنهم خلق من خلق الله غير الملائكة ، وأنهم أحياء عقلاء ، ومأمورون ومنهيون ، وأنهم خُلقوا قبل الإنس ، وأن لهم قدراتٍ كبيرةً ، ومهارات صناعية كالقدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية، وأن منهم المسلمون ومنهم الكافرون [1].

وأن بينهم وبين الإنسان قدراً مشتركاً من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك ، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير أو الشر .

وهم يخالفون الإنسان في أمور ؛ أهمها : أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان ، وسموا جناً ؛ لاجتنانهم :أي استتارهم عن العيون .

قال تعالى : **﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾** [2].

وإن وجودهم ثابت بالقرآن والسنة ، فقد ذكرهم الله – تعالى– في القرآن الكريم في مواضع متعددة ، بل لقد انفردت سورة كاملة في الحديث عنهم ، وسميت باسمهم .

1. قال تعالى :**﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾** [3].
2. وقال أيضاً : **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ [4] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [5] ﴾** [6].

---

(1) انظر تفصيل ذلك في العقيدة الإسلامية وأسسها ص283-288.

(2)عالم الجن والشياطين د.عمر سليمان الأشقر ، المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة/القاهرة – بدون تاريخ –، ص7 ، والآية في الأعراف /27.

(3) الجن / 1 ، 2 .

(4) أي يعبدوهم .

(5) أي : طغياناً وتكبراً لما رأوا الإنس يعبدونهم ، تفسير السعدي : 937/2 .

(6) الجن / 6 .

3. وكذا فإن وجودهم ثابت بالسنة النبوية المطهرة ، فقد رَوى عن ابنُ مسعود – رضي الله عنه– قال : قال رسول –ﷺ– : **(لا تستنجوا بالرَوْثِ ولا بالعظام ، فإنها زاد إخوانكم من الجن)** [1] ، [2].

وقد خلق الجن للغاية نفسها التي خلق من أجلها الإنسان ، وهي العبادة .

قال تعالى : **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾** [3].

من خلال ما سبق يتضح أن الإيمان بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، وجاحده ومنكره كافر خارج من الملة ، ويؤكد ذلك قول العلماء :

فهذا القرطبي – رحمه الله– يقول : ((وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن اجتراءً على الله ، وافتراءً ، والقرآن والسنة ترد عليهم)) [4].

وأما الألوسي – رحمه الله – فيقول : ((ونفى الجن كفر صريح كما لا يخفى)) [5].

ومعلوم أن الكفر يحبط الأعمال، قال تعالى :**﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾** [6] إذنْ فعمل المنكر والجاحد لوجود الجن حابط – والعياذ بالله تعالى– .

المطلب السادس : إنكار البعث

أبدأ أولاً بذكر أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأدلة ثبوته ، ثم أعرِّج على طائفة من مخاطره ، مفصلة في أسباب إحباط إنكاره للأعمال .

---

(1) أخرجه (خ) ، ك (مناقب الأنصار) ، ب/32 (ذكر الجن ...) ، 1178/3 ، ح(3860) ، وأخرجه (ت) ، ك (الطهارة) ، ب/14 (ما جاء في كراهية ما يستنجى به) ، 107/1 ، ح(18) واللفظ له .

(2) ظاهر هذه الرواية أن كلاً من الروث والعظم هي زاد إخواننا من الجن ، وهذه هي العلة في النهي عن تدنيسها بالاستنجاء بها ، والصحيح أن العظم وحده هو زاد إخواننا منهم ، وأما الروث فهو زاد دوابهم ؛ لأن العلة فيه ليست تنجيه ، فهو رجس أصلاً ودليل ذلك رواية مسلم من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً : (..... وسألوه الزاد ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم) . أخرجه (م) ، ك (الصلاة) ، 125/4 ، ح (150) .

(3) الذاريات / 56 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 9/19 .

(5) روح المعاني للألوسي : 102/29 .

(6) المائدة / 5 .

أولاً : أهمية الإيمان باليوم الآخر وأدلته

إن الإيمـــان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان التي يجب الإيمان بها ، وقد ورد ذلـــك في حديث جبريل – عليه السلام – حين سأل الرسول -ﷺ- عن الإيمان ، فأجابـــه -ﷺ- قائلاً :(**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره**) [1].

وقـــد حفـــل القرآن الكريم بذكر هذا اليوم العظيم ، واهتم بتقريره في مواضعَ عديـــدةٍ ، وأكـــدَّ وقوعه بأساليب شتى ، وربط الإيمانَ به بالإيمانِ بالله -عزَّ وجل- ، وسماه بأسماء متعددة تدل على تحقق وقوعه .

ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بالبعث والنشور : وهو إحياء الله -تعالى- الخلق بعد موتهم [2].

وقد دلَّ على تحقق وقوع البعث الكتاب والسنة ؛ ومن ذلك :

1. قال تعالى : ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [3].
2. وجاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً أن الله تعالى يقول : (**كذبني ابن آدم ، ولم يكـــن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبـــه إيّايَ فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهونَ عليّ من إعادته ، وأما شتمه إيّايَ فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد**) [4] .

لـــذا يعتبر الإيمان بالبعث من صميم الركن الخامس من أركان الإيمان ، وهو أساس صلاح القلوب.

يقـــول الســـعدي – رحمه الله- في بيان أهمية الإيمان بالبعث : ((إن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، وهو أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل)) [5].

وليس أدل على أهمية البعث من أن الله -سبحانه وتعالى- قد أقسم على وقوعه في مواطنَ كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُـــمْ إِلَـــى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**

---

(1) سبق تخريجه في المطلب السابق ص 62 .

(2) انظر كتاب الإيمان د.محمد نعيم ياسين ، دار التوزيع والنشر الإسلامية -بدون تاريخ- ، ص64،65.

(3) المؤمنون / 15 ، 16 .

(4) أخرجه (خ) ، ك(التفسير) ، ب/1(قوله :"قل هو الله أحد") ، 1603/3، ح(4974) .

(5) تفسير السعدي : 34/1 .

2. أنه يعتبر تعطيلاً لأسماء الله وصفاته ، وإنكاراً لعلم الله تعالى ، وقدرته وحكمته ، قال تعالى : **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾** [1].

فمن اعتقد أن الله –سبحانه وتعالى– قد خلق الخلق سدىً وباطلاً ، لا يأمرهم ، ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ، ولا يعاقبهم ، فإنه يكون قد عطّل أسماء الله –تبارك وتعالى– ، وصفاته التي تتضمن اتصافه بالخلق والتجبير ، والحساب ، والجزاء ، .....

3. أنه يُعتبر تكذيباً لظاهر الآيات الصريحة في إثبات البعث ، فقد قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** [2].

والكفر باليوم الآخر وما فيه من أحداث موجود على مرّ الأزمان :

(أ) فقد كذب به أقوام سابقون ، قال تعالى على لسانهم : **﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** [3].

(ب) وكذلك أنكرته قريش ، قال تعالى في شأنهم : **﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾** [4].

وقال : **﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾** [5] .

(ج)وقال أيضاً : **﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾** [6].

فهذه الآيات وغيرها الكثير توضح أن الأميين كانوا ينكرون البعث إنكاراً تاماً .

وأما أهل الكتاب فإنهم ينقسمون في ذلك إلى قسمين :

---

(1) المؤمنون / 115-116 .

(2) النساء / 56 .

(3) المؤمنون / 34-37 .

(4) هود / 7 .

(5) النحل / 38 .

(6) الجاثية / 32 .

المقصود بحكم معلوم من الدين بالضرورة [1]:

هو ما كان ظاهراً متواتراً من أحكام الدين ، معلوماً عند الخاص والعام ، مما أجمـــع علـــيه العلماء إجماعاً قطعياً ، مثل وجوب أحد مباني الإسلام كالصلاة والزكاة ونحوها ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة ، مثل الربا وغيرها [2].

إن الإيمان قائم على أساس تصديق حكم الله – تعالى– ، وحكم رسوله –ﷺ–، وأهم هذه الأحكام وآكدها الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

يقـــول ابـــن تيمـــية – رحمه الله– : ((إن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق)) [3].

ثانياً : أنواع الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة

(أ) **علـــم العامـــة** : ((وهـــو الذي لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله ، مثل : الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صومَ شهر رمضان ، وحجَّ البيت إذا استطاعوه وزكـــاةً في أموالهم ، وأنه حرَّم عليهم الزنا ، والقتل ، والسرقة ، والخمر ، وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ، ولا التأويل ، ولا يجوز فيه التنازع)) [4].

(ب) **وعلم الخاصة** : كبيان أن القاتل عمداً لا يرث ، وأن للجدة السدس ، وما أشبه ذلـــك من الأحكام. ولا يستوي النوعان في الحكم عليهما ، فالقسم الأول يكفر جاحده ؛ لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع [5]، والقسم الثاني لا يكفر جاحده؛ بل يعذر فيه ؛ لعدم استفاضة علمه في العامة [6].

---

(1) المـــراد بالضـــــرورة هـــنـــا : ما لا يقع فيه شك أو شبهة ،مما هو معلوم ظاهر عند الجميع. انظر : أصول الدين لعبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلمية / بيروت ، ط1 1346هـــ ، ص 8 ، والتعريفات للجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 1403هـــ–1983م ، ص 138 .

(2) انظر فتاوي محمد رشيد رضا ، (ت) صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد /بيروت ، ط 1390هـــ 2539/6.

(3) مجموع الفتاوى : 246/12 .

(4) الرسالة للشافعي، (ت) أحمد محمد شاكر ، مكتبه دار التراث/القاهرة ، ط2 1399هـــ – 1979م : 357/1–359 بتصرف يسير .

(5) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ، دار الكتب العلمية/بيروت ، – بدون تاريخ– : 84/4 .

(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 246/1.

ثالثاً : دلائل كفر الجاحد للمعلوم من الدين بالضرورة :

مما يدلل على كفر الجاحد ، المنكر لبعض أصول الدين :

1. توعـده تعالى لمن أنكر ما أقر به وعيداً شديداً ، مع الحكم عليه بالخلود في النار – والعياذ بالله–، قال تعالى : ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ**﴾ [1].

فهـؤلاء المنكرون يُعتبرون مرتدين ، فهم دخلوا الإسلام ، وأقروا بما فيه من أصـولٍ وقواعـدَ، ثـم بعد ذلك أنكروا بعض هذه الأصول والكليات ، أو أنهم دخلوا الإسلام فأقروا ببعض أصوله دون بعض ، فاستحقوا بذلك العذاب الشديد ، والخلود في النار – والعياذ بالله– .

2. وقـال أيضـاً : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً**﴾ [2].

يقـول السـعدي – رحمه الله– : ((يعني أنه يبعد كلَّ البعد أن يهدي الله قوماً عـرفوا الإيمـان ، ودخلوا فيه ، وشهدوا أن الرسول حق ، ثم ارتدوا على أعقابهم ، ناكصين ناكثين ؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه)) [3].

وقد نصَّ العلماء على كفر المنكر والجاحد ، ومنهم محمد بن إبراهيم آل الشيخ فهـو يقول: ((إن من الأصول المتقررة المتفق عليها بين أهل العلم أن من جحد أصلاً مـن أصول الدين ، أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول –ﷺ– قطعياً فإنه كافر الكفر التام الناقل عن الملة)) [4].

---

(1) آل عمران / 86–90 .

(2) النساء / 137 .

(3) تفسير السعدي : 240/1 .

(4) تحكيم القوانين لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ ، ط1 1380هـ ، مطابع دار الثقافة/مكة المكرمة ، ص14 وانظر فتاوى اللجنة الدائمة ، دار عالم الكتب ، ط1 1412هـ – 1991م ، 50/1 ، 17/2.

فـإذا تحقـق أن مـن أنكر حكماً معلوماً من الدين بالضرورة كافر ، فإنه من البَدَهيِّ أن يحبط عمله؛ لأن الكفر سبب في إحباط العمل .

يقـول ابن حزم : ((ولا خلاف بين إثنين من الأمة كلّها أن من كفر بالصلاة ، أو بالـزكاة ، أو بـالحج ، أو بالعمـرة ، أو بما أجمع المسلمون عليه ، على أن الله تعـالى بينّه على لسـان رسوله -ﷺ-، ونص عليه من أعمال الشريعة ، فإنه كافر ، حابط العمل)) [1].

رابعاً : أسباب كون هذا الإنكار مخرجاً من الإسلام محبطاً للأعمال

1. إن هذا الإنكار افتراءٌ على الله – سبحانه وتعالى- ، ولا جريمة أعظم ولا أكبر من الكذب على الله تعالى ، قال تعالى :**﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَـرَامٌ لِّتَفْـتَرُواْ عَلَـى اللّـهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ.مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [2].

2. يعتـبر تكذيباً بآيات الله -عزَّ وجل- ، وقد أمرنا تعالى بتصديق آياته ، والإقرار بهـا ، كمـا حكـم تعالى بالكفر على من جحدها وأنكرها ، وتَوَّعده بالعذاب المهين ، ودخول النار ، وعدم دخول الجنة ، **قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَـنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ [3] الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾** [4].

وقال أيضاً : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ [5].

3. يعتـبر تكذيـباً ظاهـراً للأحاديـث الصريحة الصحيحة عن رسول الله -ﷺ- والأحاديـث فـي كفر منكر أحكام الدين المعلومة بالضرورة كثيرة ، منها **حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه- حيث قال : مرَّ بي عمي الحارث بن عمرو ، وقد عقد له النبي -ﷺ- لواء ، فقلت له : أين تريد؟ فقال : بعثني رسول الله -ﷺ- إلى**

---

(1) الدرة فيما يجب اعتقـاده ، لابن حزم ، (ت) أحمد الحمد، وسعيد القزقي ، مكتبة التراث/مكـة المكرمة ط1 1408هـ ص337.

(2) النحل / 116-117 .

(3) يعني : الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 219/2 .

(4) الأعراف / 40 .

(5) العنكبوت / 47 .

رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرني أن أضرب عنقه) [1].

فقد أمر رسول الله -ﷺ- بضرب عنق كل من أنكر حرمة الزواج من زوجة الأب ، وهو حكم معلوم من الدين بالضرورة .

خامساً : صور إنكار أحكام الدين المعلومة من الدين بالضرورة على مرِّ الأزمان

إن إنكـــار الأحكـــام المعلومـــة من الدين بالضرورة هو طبيعة الجاحدين الكافرين على مدى العصور :

(أ) فـــإن الأميين – أهل قريش- قد جحدوا أهم أركان الحج ، – وهو الوقوف بعرفة- فلـم يقفـوا بعرفات مع الناس في الحج ؛ لئلا يتساووا مع غيرهم ؛ بدعوى أنهم أهل الحرم ، مع كونهم مقرين بفرضيته عليهم في دينهم ، وأنه من شعائر الحج ، ومن دين إبراهيم -ﷺ- الذي يزعمون أنهم عليه) [2].

قال تعالى راداً عليهم : **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾** [3].

فهـم قـــد ادّعوا أنهـم من أتبــاع إبراهيـم -ﷺ-، ولكن الله -تعالى- ردَّ علـيهم ، فلـو كانوا من أتباعه -ﷺ- حقاً لما رغبوا عن سنته وملته ، بل لاتبعوها بحذافيرها .

(ب) وكذلــك أهل الكتاب فإنهم أنكروا بعض ما اعترفوا به وأقروا أنه من دينهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

1. موقف العداء من الرسول محمد -ﷺ-، رغم أنهم كانوا مقرين ببعثته ، والإيمان به ، ولكنه لما بُعث أنكروا ذلك ، قال تعالى واصفاً حالهم : **﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِـندِ اللّـهِ مُصَـدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [4].

---

(1) أخــرجه (جــه) في سننه ، ك(الحدود) ، ب/35 (من تزوج امرأة أبيه من بعده) ، 90/2 ، ح(2111) وأخــرجه (ت) ، ك(الأحكام) ، ب/25 (فيمن تزوج امرأة أبيه) ، 415/3، ح(1362) بنحوه . وأخرجه (د) ، ك(الحدود) ، ب/27 (في الرجل يزني بحريمه)،1906/4، ح(4457) ، وقال : صحيح .

(2) الســيرة النبويــة لابن هشام ، (ت) مصطفى السقا ، شركة مكتبة ومطبعة البابلي الحلبي وأولاده ، ط2 – بدون تاريخ – ،547/2.

(3) البقرة / 130 .

(4) البقرة / 89 .

2. إنكارهم وجوب توحيد الله –تعالى– بالعبادة ، قال تعالى مخبراً عن المسيح –ﷺ– أنــه قال : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [1]. لكنهم أنكــروا ذلك ، وعبدوا مع الله غيره ، كما قال تعالى :﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُــوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَــن يُشْــرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَــرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [2].

3. إنكــارهم ما وجب لله –تعالى– من الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، فإن ذلك من الواجب عليهم في دينهم ، لكنهم أنكروا ذلك ، ووصفوه تعالى بما لا يليق به ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [3]، وقوله تعالى :﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [4].

4. إنكــارهم وجــوب الإيمــان بالأنبياء كلِّهــم ، والتفريق بين الرسل ، حيث آمنوا بــبعض ، وكفــروا بــبعض ، كمــا قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُــرِيدُونَ أَن يُفَــرِّقُواْ بَيْــنَ اللّــهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [5].

5. إنكارهم وجوب الإيمان بالكتاب كله ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [6].

6. إنكــارهم ما أوجب الله – تعالى– عليهم في دينهم من بيان الكتاب وعدم كتمانه ، كمــا قــال تعالى : ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَــاقَ الَّذِيــنَ أُوتُــواْ الْكِتَــابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْــتُمُونَــهُ فَنَــبَــذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِــــمْ وَاشْــتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [7].

---

(1) المائدة / 117 .
(2) المائدة / 72 .
(3) المائدة / 64 .
(4) آل عمران / 181 .
(5) النساء / 150 .
(6) البقرة / 85 .
(7) آل عمران / 187 .

7. إنكـــارهم مـــا أخذه الله – تعالى– عليهم من سفك دماء بعضهم بعضاً ، كما قال تعـــالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ (1).

سادساً : صور الإنكار في العصر الحاضر

إن هـــذه الصفة الجاهلية – وللأسف الشديد– لا تزال موجودة في هذا العصر فكثـــير ممن يدَّعون الانتماء للإسلام قد استباحوا الشرك ، وعبدوا غير الله ، وغيَّروا دين الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –.

وتجرأوا على الله – جلَّ وعلا – فوصفوه – تعالى – بما لا يليـــق ، وعطلوا ما يجب له من صفات .

كمـــا أنهـــم أنكـــروا التحاكم إلى كتاب الله –عزَّ وجل –، وسنه نبيه –ﷺ– واحتكموا إلى القوانين الوضعية .

وكذلك بعض الناس أنكر تحريم بعض الأشياء ، كالتبرج والسفور ، والرشوة ، والربا ،.. وغير ذلك من المحرمات .

هذا هو حال كثير من الناس اليوم – إلا من رحم ربي – ونسأل الله لهم الهداية والرشاد والسداد ، والعودة إلى طريق الحق والصواب .

---

(1) البقرة / 84 ، 85 .

المبحث الثاني

محبطات قلبية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اليأس من رحمة الله (القنوط)

المطلب الثاني : الريـــــاء (الشرك الخفي)

المطلب الثالث : الكبـــر والخـــيـــلاء .

المبحث الثاني

محبطات قلبية لا تُخرج من الإسلام

المطلب الأول : اليأس من رَوْحِ الله (القنوط) :

اليأس لغة : القنوط ، وهو نقيض الرجاء ، والمصدر اليأْس ، واليآسة ،واليَأَس – بالتحريك – ، والجمع يُؤُوس [1].

اليأس اصطلاحاً :

اليأس فعل قلبي، وهو : اعتقاد عدم حصول الميئوس منه [2].

القنوط اصطلاحاً :

هو انفعال يُدني من أثر اليأس ، وهو انكسار وتضاؤل [3].

ويوضح القرطبي – رحمه الله– أن معناهما متقارب، فيقول :

اليأس : هو اليأس من زوال المكروه . والقنوط : هو الظن بدوام المكروه [4].

ويقول الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله– : ((والقنوط أشدُّ اليأس ؛ لأن الإنسان يقنط ويُبعد الرجاء والأمل ، بحيث يستبعد حصول مطلوبه ، أو كشف مكروبه)) [5].

مـــن خلال ما سبق يتضح أن اليأس والقنوط يحملان معنيين متقاربين ، وهما الاعتقاد بعدم حصول المأمول ، أو عدم زوال المكروه .

ولكـــن يبقى القنوط أشدَّ من اليأس ؛ لأن القنوط يحمل معنىً زائداً على اليأس فالقـــانط يكـــون مكســـوراً مهزوزاً في نفسه إضـــافة لما يحمله اليأس من معانٍ ، أما اليائس : فهو ييأس فعلاً من حصول ما يتمناه ، أو زوال ما يكرهه ، ولكن ربما تبقى ثقته عالية مرتفعة، لا يؤثر عليها هذا الشيء بصورة كبيرة لدرجة الانكسار والدمار .

والإنسان بطبعه ضعيف ، لا يستطيع الصمود أمام الشهوات ، وملذات الدنيا ، فيقـــترف منها كلٌ حسب ضعفه ، فتتراكم عليه الذنوب والآثام ، ويوسوس له الشيطان

---

(1) انظر لسان العرب:431/15 ، 432 ، ومختار الصحاح: ص740.

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور :10/25.

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 356/15.

(5) القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي/السعودية ، ط4 1421هـ ، 103/2.

بأنه لا نجاة له من عذاب الله – تعالى– ، ولا فائدة ترجى من وراء أعماله الصالحة ، فيصدقه، وقد نسي ذلك المسكين – اللاهي– أن رحمة الله – تعالى– وسعت كلَّ شيءٍ وأن بابه مفتوح أمام التائب في كل مكان ، وفي كل زمان .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [1].

وقال أيضاً : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [2].

وفي الحديث الشريف : **(إن لله مائةَ رحمةٍ ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ، والبهائم ، والهوام ، منها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة ، يرحم بها عباده يوم القيامة)** [3].

يقول السعدي – رحمه الله– : يخبر – تعالى– عباده المكثرين من الذنوب بسعة كرمه ، ويحثهم على الإنابة ، ويحذرهم من اليأس من رحمته ، فيقومون بإلقاء أيديهم إلى التهلكة بقولهم: قد كثرت ذنوبنا ، وتراكمت عيوبنا ، فليس لها طريق يزيلها ، فيبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان ، متزودين بما يغضب الرحمن ، ولكن الله – سبحانه وتعالى– يخبرهم بأنه يغفر جميع الذنوب من شركٍ [4]، وقتلٍ، وزناً، وربا، وظلمٍ ....، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ؛ لأن المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما [5].

إذن فالأصل في المسلم ألا يشعر باليأس من رحمة الله – تعالى– مطلقاً ؛ لأن اليأس ليس من صفات المؤمنين؛ بل هو من صفات الكافرين ، وقد ذمَّ تعالى القانطين في عدة آيات .

---

(1) الزمر / 53 .

(2) الأعراف / 156 .

(3) أخرجه (م) ، ك(التوبة) ، 229/17 ، ح(19).

(4) لا بد وأنَّ الشيخ – رحمه الله– يقصد أن الله يغفر الشرك لمن تاب وأناب وأصلح ، أما من غير توبة فلا يمكن المغفرة ، بعكس باقي الذنوب المذكورة، فإن الله قد يغفرها بدون توبة بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾. النساء /48 ، 116.

(5) انظر تفسير السعدي : 537/2 ، 538.

مخاطر اليأس :

قال تعالى : ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**﴾ [1].

وقـــال أيضـــاً : ﴿**وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [2].

يقول الزحيلي : ((لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافررن ، وهذا دليل على أن الكافـــر يقـــنط في حال الشدة ، وعليه فإن القنوط من الكبائر ، أما المؤمن فيرجو دائماً فرج الله تعالى)) [3].

ويقول الرازي : ((واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنســـان أن الإلـــه غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكـــريم ، وكـــل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً)) [4].

وإذا ثبت أن اليأس هو صفة من صفات الكافرين ، والكافرون لا يقبل لهم عمل أصـــلاً ، بـــل جميع أعمالهم حابطة، مردودة ، باطلة، فحكم بذلك على اليائس بحبوط عمله – والعياذ بالله – [5].

المطلب الثاني : الرياء (الشرك الخفي)

أقسام الشرك : الشرك قسمان جلي وخفي :

فالجلي : (ما كان بالقول : مثل : الحلـــف بغيـــر الله ، أو قول ما شـــاء الله وشئت ، أو بالفعل : مثل : الانحناء لغير الله تعظيماً ، وهو ما سأتناوله بالتفصيل [6].

---

(1) الحجر / 56 .

(2) يوسف / 87 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 51/13 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي : 203/18 .

(5) لم أصنف اليأس ضمن المحبطات التي تخرج من الإسلام ، لأن معظم العلماء والمفسرين يفسرون الكفر في قوله تعالى: ﴿إنه لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بأنه كفر دون كفر ، فهو كفر غير مخرج من الملة.

(6) في الفصل الثالث من هذا الباب – إن شاء الله – ص 138.

والخفي : ما كان في القلب ، مثل الرياء ؛ لأنه لا يتبين ؛ إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله ، ويسمى أيضاً (شرك السرائر) ، وهذا هو الذي بينه الله تعالى في قوله: **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾** (1)؛ لأن الحساب يوم القيامة على السرائر ، قال تعالى :**﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾** (2). وهو ما نحن بصدد الحديث عنه الآن .

تعريف الرياء لغة :

مصدر راءى يرائي مراءاة ، أي عمل عملاً ليراه الناس ، كما يقال : جاهد جهاداً ومجاهدة ، ويدخل في ذلك من عَمِلَ العمل ليسمعه الناس ،ويقال له مُسَمِّع (3).

الرياء اصطلاحاً :

عرَّفه القرطبي بقوله : ((حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس)) (4).

وعرَّفه أيضاً بقوله : ((الرياء أن يفعل شيئاً من العبادات التي أمر الله بفعلها له، لغيره)) (5).

وبالنظر في عدة تعريفات لدى عدد من العلماء (6) ،أجد أن تعريفاتهم تدور حول محور واحد، وهو : أن يقصد العبد بعمله الذي أمره الله – تعالى- أن يخلص له فيه غرضاً دنيوياً .

آثار الرياء :

يترتب على الرياء عدة أمور أهمها:

- **إحباط الأعمال ، وإبطال الثواب :**

قال تعالى :**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ**

---

(1) الطارق / 9 .

(2) القول المفيد : 133/2 ، والآية في العاديات /9 ،10 .

(3) انظر لسان العرب : 88/5 .

(4)الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 210/20 .

(5) نفس المرجع : 186/5 .

(6) راجع : الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي ، دار الكتب الحديثة / القاهرة ، ومكتبة المثنى / بغداد – بدون تاريخ – ص 33 ، وميزان العمل للغزالي ، دار المعارف / مصر ، ط1 1964م ، ص 285 .

مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [1].

أي لا تـبطلوا أجـور صدقاتكم بالمنِّ والأذى ، كما أبطل كفر الذي ينفق ماله رئاء الناس صدقته ، حيث أظهر أنه يريد بهذه الصدقة وجه الله ،وهو في الحقيقة يريد مدح الناس له وشكرهم إياه [2].

فهنا سببان لإبطال صدقته :

(1) الأول وهو المراد : الرياء (2) الكفر .

يقول القرطبي – رحمه الله – : ((وهو – يعني الرياء– مبطل للأعمال ، وهو خفيٌّ لا يعرفه كل جاهل غبيّ)) [3].

وقال أبو السعود – رحمه الله – : ((الرياء شعبة من الكفر)) [4].

ومعلوم أن عمل الكافر مردود حابط .

ولا تقـف خطـورة الـرياء وضـرره على إحباطه لأجر الصدقة فقط ؛ بل يحبط ويقضـي علـى كلِّ عمل أشرك به صاحبه مع الله – تعالى– غيره؛ كالجهاد، وقراءة القرآن ،..... فقد روى أبو هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله –ﷺ– أنه قال : **(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قـال : فما عملت فيها، قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقـال : جرئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلـم العلم وعلمه، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرَّفه نعمة فعرفها قال : فما عملت فيها، قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به فسحب على وجهه حـتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال :فما عملت فيها ، قال:ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيهـا لك ، قال: كذبت ، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل ، ثم أمر به**

---

(1) البقرة / 264 .

(2) أنظر جامع البيان للطبري :90/3 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 186/5.

(4) إرشـاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان – بدون تاريخ – 204/9.

يقول د. عمر الأشقر : ((أخبر الرسول -ﷺ- أنه يخاف علينا الشرك الخفي أكثر مما يخاف علينا المسيح الدجال ، وما ذلك إلا لأن الداعي إلى الرياء قوي ؛ إذ النفوس مجبولة على حبِّ الرئاسة والمنزلة في قلوب الخلق، إلا من سلَّم الله ، وقد أحسن الشاعر حيث يقول :

يهوى الثناءَ مبرِّزٌ ومقصِّرٌ حبُّ الثناء طبيعة الإنسان .

وقد لا نكون مغالين في القول إذا ذهبنا إلى أنَّ الداعي إلى الرياء أعظم من الداعي إلى الشرك الأكبر ، فالشرك الأكبر معدوم في قلوب المؤمنين الصادقين ، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر)) [1] .

وربما يكون الدليل على أن الإلقاء في النار أسهل عندنا من الكفر قول الرسول -ﷺ- فيما رواه عنه أنس بن مالك – رضي الله عنه- : **(ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)** [2].

حكم العبادة إذا خالطها الرياء:

العبادة التي يخالطها الرياء على ثلاثة أوجه :

الأول : أن يكون الباعث على العبادة مراءاةَ الناس من الأصل ، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ، ولم يقصد وجه الله ، فهذا شرك والعبادة باطلة .

الثاني : أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها ، بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة .

فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها على أولها ، فأولها صحيح ، وآخرها باطل [3].

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها فهي على حالين :

---

(1) مقاصد المكلفين ، ص439-440.

(2) أخرجه (خ) ، ك (الإيمان) 2ب/9 (حلاوة الإيمان) ، 30/1 ، ح (16) .

(3) مثال ذلك :رجل عنده مائه ريال قد أعدها للصدقة ،فتصدق بخمسين مخلصاً ،وراءى في الخمسين الباقية فالأولى حكمها صحيح ،والثانية باطلة

(أ) أن يدافـــع الــــرياء ولا يسكن إليـــه ، بل يُعْرِضُ عنه ويكرهه ، فهذا لا يؤثر عليه شيئاً [1].

(ب) أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه ، فحينئذٍ تبطل جميع العبادة ؛ لأن آخرها مبني على أولها [2].

الثالـــث : مـــا يطرأ بعد انتهـــاء العبادة ، فإنه لا يؤثر عليها شيئاً ، إلا أن يكون فيه عـــدوان ، كالمـــنّ والأذى بالصدقة ، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيـــبطلها ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى** ﴾ [3].

ولـــيس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة، وليس الرياء أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه ، بل ذلك دليل على إيمانه [4].

المطلب الثالث : الكبر

الكبر لغة :

الـــرفعة والشرف ، والعظمة، والتجبر، وهو اسم من التكبر ، ومثله الكبرياء، والاســـتكبـــار: الامتـــناع عن قبـــول الحق معانـــدة وتكبراً ، يقال تكبَّر، أو استكبر، وتكابر [5].

الكبر شرعاً :

عرّفه رسول الله -ﷺ- بقوله : **(هو بطر الحق [6] وغمط الناس [7])** [8].

---

(1) مثال ذلك :رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية أحسَّ بالرياء فصار يدافعه ؛فإن ذلك لا يضره ، ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

(2) مثال ذلك : رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية طرأ علية الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه فاطمأن لذلك ، ونزع إليه، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض .

(3) البقرة / 264 .

(4) القول المفيد : 125/2 ، 126 بتصرف يسير .

(5) انظر لسان العرب:12/12-16 ، والمصباح المنير:183/2، ومختار الصحاح ص561.

(6) بطر الحق : دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً .

(7) غمط الناس : استحقارهم وتعييبهم ، صحيح مسلم بشرح النووي: 93/2.

(8) أخرجه (م)، ك(الإيمان)، 268/2 ، ح(147).

(والكبر داءٌ من أدواء النفس الخطيرة التي تمثل انحرافاً خلقياً يجنح بالإنسان عن سبيل الحق) [1].

وهو حين يستشري في النفس ، ويتمكن من قلب الإنسان ، ويملك عليه حسَّه وفكره ، يكون أسوأ ما يصيب الإنسان من أمراض القلب، فما من خلق من الأخلاق المذمومة إلا ونجد صاحب الكبر متصفاً به [2].

أقسام الكبر :

ينقسم الكبر إلى عدة تقسيمات ، أهمها اثنان :

أولاً : بالنسبة لذاته :

ينقسم بذاته إلى قسمين : باطن وظاهر

1. الكبر الباطن :

وهو أن يرى المتكبر نفسه فوق من يتكبر عليه ؛ بحيث يصير ذلك كالعقيدة عنده، فيفرح به ، ويركن إليه ، ويعتزُّ في نفسه بسببه.

2. الكبر الظاهر :

وهو التعالي على الناس؛ بحيث يرى المتكبر نفسه أعلى من غيره؛ بحيث يحتقر كلَّ مَنْ سواه ، ويظهر الكبر في أفعاله وأقواله [3].

وبالنظر إلى أقسام الكبر نجد أن الكبر الباطن : معناه أن يعجب الإنسان بنفسه في داخله، ويرى نفسه فوق البشر، مما يؤدي به إلى الغرور بنفسه، دون أن يؤثر ذلك على تصرفاته مع غيره .

أما الظاهر : فهو تطبيق ما بداخله من شعور التعالي على الناس، سواء بالأقوال، أم الأفعال ، بحيث يحتقر كلَّ من سواه ، ويرى نفسه أكبرَ وأعلى منهم ، حتى ولو لم تكن الحقيقة كذلك.

فالباطن إذن هو الأصل ، وهو خلق يبدأ في نفس الإنسان ، وداءٌ ينشأ في باطنه ، ثم بعد ذلك يثمر الفرع، وهو طريقة التعامل مع الغير .

---

(1) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم /دمشق ، والدار الشامية /بيروت ، ط5 1420هـ-1999م، 718/1.

(2) السلوك الاجتماعي في الإسلام لحسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، بيروت/لبنان ، -بدون تاريخ- ، ص51.

(3) نفس المرجع : ص 49 .

ثانياً : بالنسبة إلى المُتَكَبر عليه : ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

(أ) التكبر على الله – عزَّ وجل- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وهو أفظع أنواع الكبر وأخبثها ، ومثال ذلك قوله تعالى عن فرعون :﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [1]. وقول النمرود لإبراهيم الخليل – عليه السلام- :﴿ **قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾[2]. وقول كفار قريش حين أمروا بالسجود للرحمن :﴿ **وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا**﴾ [3].

(ب) **التكبرعلى الرسل – عليهم الصلاة والسلام-** : وهو شنيع، ولكنه أقل من الأول، مثال ذلك قوله تعالى حاكياً عن فرعون ومن معه :﴿**فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾ [4].

وقول كفار العرب في شأن رسول الله -ﷺ-، فيما حكاه القرآن عنهم :﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾ [5].

وقولهم :﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [6].

(ج)**التكبر على الناس** : وهو أخف من النوعين السابقين .

ومثاله تكبر قارون وطغيانه على قومه حين أعطاه الله المال بعد أن كان فقيراً ، فتكبر، وتجبر، فما كان جزاؤه إلا أن خسف الله به وبداره الأرض، قال تعالى حاكياً عن حاله : ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ***

---

(1) النازعات / 24 .

(2) البقرة / 258 .

(3) الفرقان / 60 .

(4) المؤمنون / 47 .

(5) الفرقان / 21 .

(6) الزخرف / 31 .

قَـالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّـهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [1].

لـذا فإنه يجب على كل المتكبرين المستعبدين للخلق أن يأخذوا العبرة والعظة من قصة قارون وأمثاله ، وليعلموا جيداً أن القوة والمنصب ، والمال كلها ملك لله ، إن شـاء أطال لها البقاء وإن شاء رفعها عن العبد في لحظات، وليعلموا أيضاً أنهم مهما حصّلوا في الدنيا فلن يبلغوا نفوذ قارون وجاهه وماله ، فلم يعجز الله ؛ بل جعله عبرة لمن اعتبر .

وبعـد عـرض أقسـام الكبر نجـد أن منـه ما يحبط الأعمال ، ومنه ما هو دون ذلك .

فالذي يحبط الأعمال هو الذي يصل بصاحبه لدرجة الكفر ، وذلك كالتكبر على الخالق – جلَّ وعلا –، وذلك مثل قول إبليس عن آدم – عليه السلام– فيما حكاه القرآن الكريم عنه :﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [2].

فهذه الآية الكريمة لا تعني تكبر إبليس على آدم – عليه السلام– فقط ؛ باعتقاده أنـه أفضل منه، بل يعتبر ذلك التكبر تكبراً على الخالق – جلَّ وعلا – ؛ حيث إنه لم ينصَعْ لأوامر الله حيث أمره بالسجود .

قال تعالى :﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [3].

فكان جزاؤه أن غضب الله – تعالى – عليه ، وأخرجه مما كان فيه من النعيم حين قال – تعالى– له :﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

---

(1) القصص /76 – 81 .

(2) الأعراف / 12 .

(3) البقرة / 34 .

مِنَ الصَّاغِرِينَ [1]﴾ [2].

يقـول الشنقيطى – رحمه الله– : ((ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك)) [3].

فيفهم من ذلـك أن الكبـر وحده هو سبب كفر إبليس ، وإخراجه من النعيم ، إذ اسـتكبر أن ينصـاع لأوامر المولى –عزّ وجل– حين أمره بالسجود لآدم – عليه السلام – لأنه استصغر آدم – عليـه السلام– ولم يره شيئاً ، فقال تعالى حاكياً عنه : **﴿أَنَـا خَـيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** [4] وقـال أيضاً :**﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾** [5] ، فكفَّره الله بذلك [6].

كما بيَّن – رحمه الله – أن هذا الحكم – وهو كفر المتكبر– ينطبق على كل من فَعـلَ فعلِ إبليس ، فقـال : (فكل من سَفـِهَ شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمر رسوله – عليه السلام– حُكْمُه حُكْمُه ،وهذا ما لا خلاف فيه) [7].

وبذلك يتأكد أن التكبر على الله –جلَّ وعلا– والتكبر على رسوله –ﷺ– يحبط الأعمال .

ومـا جعـل الله – تعالى– هذه العقوبة للمتكبر ؛ إلا لأنه قاسمه في صفة من أخص صفاته – تعالى– .

فعـن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال : قال رسول الله –ﷺ– : **(يقول الله تعالى:الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار)** [8].

كمـا بين –ﷺ– أن الكبر سبب في حرمان دخول الجنة ابتداءً ، فقال **(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)** [9].

---

(1) الصغار : أشد الذل والهوان ، أضواء البيان للشنقيطي :221/2.

(2) الأعراف / 13 .

(3) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(4) الأعراف / 12 .

(5) الحجر / 33 .

(6) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 309/1 .

(7) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(8) أخرجه (م) ،ك(البر والصلة والآداب)، 132/16، ح(136) وأخرجه (د)، ك(اللباس) ، ب/28 (ما جاء في الكبر) 1754/4، ح(4090) واللفظ له ، وقال : صحيح .

(9) أخرجه (م) ،ك(الإيمان) ، 268/2، ح(147) .

وقال أيضاً : **(ألا أخبركم بأهل النار ؛ كل عتل [1]جَوَّاظ [2] مستكبر)** [3].

أمـــا التكـــبر على الخلق فهو دون ذلك، ولكن يكون صاحبه أرضاً خصبة لكل الصفات الذميمة .

ويصـــف لـــنا فضـــيلة الشيخ حسن أيوب حال المتكبر قائلاً : ((فهو – يعني المتكـــبر – لا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، ولا يقدرعلى التواضع ، ولا يتخلص من الحقـــد ، ولا يتغلب على الغضب والغيظ، ولا يستطيع دفع الحسد عن نفسه ، ولا يقبل نصيحة ناصح ، ولا تعليم عالم ، ولا يعامل الناس إلا بالازدراء والاحتقار، وإذا مشى اخـــتال ، وإذا تكلم افتخر ، وإذا نُصح سخر من الناس وحقَّرهم ، وإذا تحدث تقعر في الكلام وتشدق ، وإذا جالس الناس غضب إذا لم يكن له صدرَ المجلس، وأول الكلام ، وغاية التعظيم الاحترام)) [4].

من كـــل ما ســـبق يتبين أن التكبر على الله كفـــر ، وأن التكبر على رســـوله – صلوات الله وســـلامه عليهم – كفر ، وأن الكبر على العباد كفر إن أدى إلى رفض مـــا جـــاء به الرسل من علم ودين ، أما إن لم يؤدِ إلى كفر؛ بل كان مجرد تكبر على العباد فإن هذا التكبر مُحَرَّم يستحق صاحبه بسببه عذاب الله) [5].

وفي تعريف رسول الله –ﷺ– للكبر يوضح هذين النوعين حين قال: **(هو بطر الحق، وغمض الناس)** [6] .

فبطر الحق هو الكفر؛ لأنه تكبر على الله وعلى ما جاء به رسله الكرام .

وغمـــط الناس يتراوح بين الكفر ودون ذلك كما سبق ، وقد مرَّ أن الكفر يحبط العمل، ويـــأكل الحســـنات إن وجدت ، فكذلك الكبر على الله ورسله وعلى خلقه – أحياناً – ، وهو سبب أيضاً في حبوط العمل [7] – والعياذ بالله – .

---

(1) عتل : بضم العين والتاء : الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل الجافي : الفظ الغليظ .

(2) الجَـــوَّاظ : بفتح الجيم، وتشديد الواو بالظاء المعجمة : فهو كثير اللحم المختال في مشيته ، وقيل : الفاجر صحيح مسلم بشرح النووي :184/17.

(3) أخرجه (م) ، ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، 316/17 ، ح(46).

(4) السلوك الاجتماعي في الإسلام : ص 51 .

(5) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(6) سبق تخريجه ، ص 85 .

(7) لم أصنف الكبـــر ضمن المحبطـــات التي تخرج من الإسلام ؛ لأنه يشتمل على التكبر على الخلق وهو لا يخرج من الإسلام ، كما أن الكبر إذا أطلق يفهم منه التكبر على المخلوقات .

الفصـــل الثـــاني
المحبـــطات القوليــــة

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : محبطات قولية تخرج من الإسلام

المبحث الثاني : محبطات قولية لا تخرج من الإسلام .

الفصل الثاني

المحبطات القولية

إن الكــلام نعمــة من نعم الله العظمى التي أنعم بها على الإنسان ، ولكن تلك القطعة الصغيرة من اللحم تعتبر سلاحاً ذا حدين ، فإما أن تكون نعمة على صاحبها ، فــترتفع به إلى أعلى عليين ، وذلك إذا أحسن استغلالها، وجعلها سيفاً مشهوراً لإعلاء كلمة الله ، ومحاربــة أعدائــه ، وإما أن تكون نقمة تهوى بصاحبها إلى أسفل سافلين – والعياذ بالله- ؛ كأن يجعلها سيفاً مسلطاً لمحاربة الله ، ورسوله ،وأوليائه الصالحين ، ولنصرة أعدائهم ، وهذا يؤدي إلى الكفر أحياناً، قال تعالى :**﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾** [1].

وقد بيَّن الشاعر خطر ترك العنان للسان ، يصول ويجول كيف يشاء ، فقال :

احفظ لسانــك أيــها الإنسان　　　لا يلدغنَّك إنــه ثعبــان

كم في المقابر من قتيل لسانه　　　كانت تهاب لقاءه الشجعانُ [2]

ولكــن الله –ســبحانه وتعــالى- يحــذر من الخوض في مسألة التكفير بالظن والتخمين ، بل لا بد من التأكد بالبحث والتنقيب ، قال تعالى :**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَــرَبْتُمْ فِــي سَــبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [3].

من أجل ذلك كان هذا الفصل الذي يشتمل على مبحثين ، ويتضمن الأقوال التي تخرج من الإسلام، وتحبط الأعمال ، والتي دون ذلك .

---

(1) المائدة / 73 .

(2) نقلاً عن الأذكار للنووي ، دار ابن حزم ، بيروت/لبنان ، ط1 1412هـ-2000م ، ص 350 .

(3) النساء 94 .

المبحث الأول
المحبطات القولية التي تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : سبٌّ ما يتعلق بالعقيدة أو الاستهزاء به

المطلب الثاني : ادعاء النبوة

المطلب الثالث : الدعاء والاستغاثة بغير الله

المطلب الرابع : الكذب على الله – عزَّ وجل – .

المبحث الأول

محبطات قولية تخرج من الإسلام

يُعَدُّ اللسان من أخطر الأعضاء في جسم الإنسان على الإنسان ، لذا قال -ﷺ- لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه- حينما قال له : أئنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله ، فقـــال له -ﷺ-: **(ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم)** [1].

لـــذا لا يجوز للإنسان أن يترك للسانه العنان يصول ويجول ، ويتفوه بما يشاء وقـــت مـــا شاء، ولا أن يخوض ويلهو ويلعب في أمور لا تخضع لِلَّعب واللهو ؛ كأن يستهزئ بالله ، وآياته ، ورسله ، ..... إلى غير ذلك .

مـــن أجل ذلك قمت في هذا المبحث بجمع جملة من الأقوال التي تخرج صاحبهـــا من الإسلام ، وتؤدي إلى حبوط عمله ، فاحتوى هذا المبحث على أربعة مطالب .

المطلب الأول : كفر سبِّ الله - عزَّ وجل- وملائكته ورسله والاستهزاء بهم

أبدأ أولاً بتعريف كل من السبِّ والاستهزاء :

(أ) السب لغة :

وهـــــو كل كلام يدل عل تحقير أحد ، أو نسبته إلى نقيصة ، أو معرَّة بالباطل أو بالحق وهو مرادف الشتم الوجيع [2].

ويذكـــر ابـــن تيمـــية - رحمه الله- أن حـــدَّ السبّ وضابطـــه هـــو العرف ، فـــيقول : ((فما عدَّه أهل العرف سباً وانتقاصاً ، أو عيباً ، أو طعناً ، ونحو ذلك، فهو من السبِّ)) [3].

(ب) **الاستهزاء لغة :** السخرية [4].

---

(1) أخرجه (ت) ، ك(الإيمان) ، ب/8(ما جاء في حرمة الصلاة)، 439/4 ، ح(2616) ، وأخرجه (جه) ، ك(الفتن)، ب/12(كف اللسان في الفتنة)، 359/2، ح(3209) ، وقال أبو عيسى : حسن صحيح .

(2) انظر مفردات غريب القرآن ص220، والتحرير والتنوير لابن عاشور : 427/7.

(3) الصـــارم المســلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي المعروف بابن تيمية ، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت ، ط 1411هـ-1990م ، ص531 ، 540.

(4) انظر لسان العرب :84/15 ، والمصباح المنير ص787.

يقول البيضاوي : ((الاستهزاء : السخرية والاستحقار ، يقال هزئت واستهزأت بمعنى، كأجبت واستجبت ، وأصله الخفة في الهزء، وهو القتل السريع)) [1].

أولاً : كُفْرُ سبِّ الله – عزَّ وجل – أو الاستهزاء به

خلـق الله –جـلَّ وعلا– الناس جميعاً ، ومَنَّ عليهم بنعمة الإسلام ، فمنهم من اهـتدى ، وسـار في طريق الحق، ومنهم من ظلم نفسه، وسار في طريق الشيطان ، ولكـلٍ مـنهما تصرفاته الخاصة به النابعة من صميم عقيدته ، فتكون جميع تصرفات الإنسـان المسـلم مبنـية علـى تعظيم الله –عزَّ وجل– وإجلاله ، والخضوع لعظمته والانقياد له ، وأما من رضي لنفسه الذل والهوان ، واتباع خطوات الشيطان، فقد كان عكـس ذلـك تمامـاً ، لذا نجد أن جميع تصرفاتـه تابعـة لهـواه ، وأفعاله وأقواله تـناقض الإيمان ، وبالتالي تناقض تعظيم الله – عزَّ وجل– ؛ بل تستخف وتستهيـن ، أو تسـتهزئ به أحياناً وبذلـك يكون قد نفـى عن نفسه صفه الإيمان ، وأدخل نفسه فـي وعـيد الله – عزَّ وجل– ؛ حيث إنه تعالـى تَوَعَّدَ الذين يؤذونـه بالسبِّ والشتم قـائلاً : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾** [2].

والسبُّ والشتم والاستهزاء كفر يخرج من الإسلام ، ويحبط الأعمال.

قـال تعـالى :**﴿وَلَئِـن سَـأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ . لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** [3].

يقـول السعدي – رحمه الله – : ((إن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج من الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ورسوله ، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ، ومناقض له أشد المناقضة)) [4].

ويقـول الفخر الرازي : ((إن الاستهـزاء بالديـن كيف كان كفر بالله ، وذلك لأن الاستهزاء يـدل على الاستخفاف، والعمدة الكبرى في الإيمـان تعظيم الله بأقصى

---

(1) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان ، ط1 1408هـ–1988م ، 28/1.

(2) الأحزاب / 57 .

(3) التوبة / 65 ، 66 .

(4) تفسير السعدي : 708/1 .

الإمكان ، والجمع بينهما محال)) [1].

فـإذا كان الاستهزاء بالله كفراً، سواء استحله أو لم يستحله، فإن السبَّ كفر من باب أولى [2].

الآثار المترتبة على سب الله – عزَّ وجل– :

إذا ثبت أن السبَّ والشتم والاستهزاء كفر بالله ، فيترتب على ذلك أن يخرج صاحبه من الإسلام ، وتحبط جميع أعماله؛ لأنه –وكما هو معلوم– أن الكفر سببٌ في الخروج من الإسلام، وحبوط الأعمال .

وإضافة إلى وضوح الأدلة في كفر الساب والمستهزئ ، فقد أجمع العلماء على كفره ، وقد حكى الإجماع عدد كبير منهم .

قال إسحق بن راهويه : ((قد أجمع العلماء على أنَّ من سبَّ الله –عزَّ وجل– ، أو سبَّ رسوله –ﷺ– ، أو رفع شيئاً أنزله الله ،...... وهو مع ذلك مُقرٌّ بما أنزل الله أنه كافر)) [3].

ثانياً : كفر سب الملائكة – عليهم السلام – ، أو الاستهزاء بهم

إن من موجبات الإيمانِ ، الإيمانَ بالملائكة – عليهم السلام – ، وهو ركن من أركان الإيمان، لا يتحقق إيمان عبد حتى يوجب إجلالهم وإكرامهم ، فهم عباد مكرمون ؛ ولذا فإن سبهم أو الاستهزاء بهم لا يجتمع مع الإيمان؛ بل يناقضه بالكلية ، ويؤدي إلى الكفر وحبوط العمل، ولو كان الساب أو المستهزئ مقراً بوجودهم .

قال تعالي :**﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾** [4].

وقد أفرد الملكان بالذكر تشريفاً لهما ، ولبيان فضلها، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر ؛ لأن الآية نزلت بسببهما ، حين قالت اليهود : جبريل عدونا ، وميكائيل ولينا ، وزعمت أنها كفرت بمحمد –ﷺ– ، من أجل أن

---

(1) مفاتيح الغيب للرازي : 127/15.

(2) انظر الصارم المسلول : ص 517 .

(3) التمهيد : 226/4 .

(4) البقرة / 98 .

جـــبريل صاحبه ، فأعلمهم الله أن من كان عدواً لجبريل ، فإن الله له عدو ، وأنه من الكافرين، وبيَّن أن معـــاداة الواحد والكل سواء في الكفر ، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع [1].

يقــول الســـعدي – رحمـــه الله – : ((فالعداوة لجبريل ... كفر بالله وآياته ، وعداوة لله ولرسله وملائكته)) [2].

ويعتـــبر ســـب الملائكة الكرام – عليهم السلام – ، أو الاستهزاء بهم، من أهم مظاهر عداوتهم المفضية إلى الكفر .

قال تعالى :﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ [3].

في هذه الآية الكريمة وصف الله – سبحانه وتعالى – كل من يعاديه ، أو يعادي ملائكته الكرام بالكفر ، والخروج من الإسلام .

ويؤكد العلماء على كفر سبِّ أيِّ مَلَك من الملائكة ، أو الاستهزاء به.

يقـــول ابن غنيم المالكـــي : ((ومن سبَّ ملكـــاً مجمعاً على ملكيته ، أو لعنه ، أو عابـــه ، أو قذفه، أو استخفَّ به ، أو غَيَّر صفته ، أو ألحق به نقصاً في دينه ، أو بدنـــه ، أو خصلته ، أو غضَّ من مرتبته ، أو وفور علمه ، أو زهده ، أو أضاف له مالا يجـــوز عليه ، أو نسب إليه مالا يليق به على طريق الذم ... قتِل حداً، ويستعجل بقتله)) [4].

الأثار المترتبة على سب الملائكة – عليهم السلام – :

وإذا ثبـــت أن سبَّ الملائكة يؤدي إلى الكفر ، فيتأكد بذلك حبوط عمل الساب، أو المستهزئ؛ لأنه – كما ثبت – أن الكفر من محبطات العمل الصالح .

قال تعالى : ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**﴾ [5].

---

(1) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 132/1.

(2) تفسير السعدي : 74/1 .

(3) البقرة / 98 .

(4) الفواكـــه الدوانـــي علـــى رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، لأحمد بن غنيم ، دار الفكر/بيروت ، -بدون تاريخ- 227/26 بتصرف يسير .

(5) المائدة / 5 .

ثالثاً : كفر سب الكتب السماوية ، أو الاستهزاء بها

كما أمرنا الله – سبحانه وتعالى– بالإيمان بكتبه ، واعتبر ذلك ركناً من أركان الإيمـــان ، فلا يتم إيمـــان عبد حتـــى يجـــزم بأن جميع هذه الكتب منزلة من عند الله – عــزّ وجل – ، وكذلك بيَّن – سبحانه وتعالى– أن سبها ، أو الاستهزاء بها، موجب للخلــود في النار، قال تعالى : **﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** [1].

الآثار المترتبة على سب الكتب السماوية ، أو الاستهزاء بها :

1. حلول العذاب المهين :

قال تعالى : **﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾** [2].

ومعـــنى اتخاذ الآيات هزواً : أنهم يلوكونها بأفواههم لوك المستهزئ بالكلام ، ومـــن الاســـتهزاء ببعض الآيات تحريفها عن مواضعها ، وتحميلها غير المراد منها عمـــداً؛ للاستهزاء ؛ كقول أبي جهل لما سمع قوله تعالى : **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾** [3]، أنا ألقاهم وحدي ، فالذين يفعلون هذا الفعل لهم يوم القيامة من الله عذاب مهين يهينهم ، ويذلهم في نار جهنم [4].

2. الخلود في النار :

قـــال – تـــبارك وتعـــالى– : **﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ . ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** [5].

توعـــد الله – سبحانـــه وتعالى – في هـــذه الآيات الكريمة الذين اتخذوا آياته – ومـــنها آيات القرآن الكريم– لعباً ، واستهزاءاً ، بأن مسكنهم ، ومآلهم ، ومستقرهم نار جهنم لازمين لها ، دائمين فيها ، لا يخرجون منها أبداً – والعياذ بالله– [6].

---

(1) الجاثية / 35 .

(2) الجاثية / 9 .

(3) المدثر / 30 .

(4) انظر جامع البيان للطبري :185/25، وأضواء البيان للشنقيطي : 223،224/7.

(5) الجاثية / 34 ، 35 .

(6) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 172/16 ، 173 .

3. **الحكم عليه بالكفر :**

قال تعالى : **﴿قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ .لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** [1].

يقــول الســعدي – رحمه الله– : ((وفي هذه الآيات دليل على أن من أسرَّ [2] سريرة ، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه ، ويستهزئ به ، وبآياته ، ورسوله ؛ فــإن الله تعــالى يظهرها ، ويفضح صاحبها ، ويعاقبه أشد العقوبة ، وأن من استهزأ بشــيء من كتاب الله ، وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر بذلك ، أو تنقصه ... فإنه كافر بالله العظيم)) [3].

4. **حبوط العمل :**

إذا تقرر أن الاستهــزاء بآيــات الله كفر ، فإنه يؤدي حتماً إلى حبوط العمل ؛ إذ إن الكفر من موجبات حبوط العمل .

قال – عزَّ من قائل– : **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾** [4].

وقال – جلَّ وعلا– : **﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾** [5].

فقــد توعَّــد – ســبحانه وتعالى– في هذه الآيات الكريمة الذين كرهوا القرآن الكــريم، الذي أنزله الله على رسوله الكريم ؛ إصلاحاً لعباده، وفلاحاً لهم ، فلم يقبلوه، بل أبغضوه، بأنه سيحبط أجر عملهم الصالح الذي فعلوه في الدنيا؛ وما ذلك إلا لكفرهم بآيات الله، واتخاذهم إياها هزواً وسخرية [6].

---

(1) التوبة / 65 ، 66 .

(2) تتضــح الســريرة في الآية بمعرفة سبب النزول ، فإن الآية الكريمة نزلت في غزوة تبوك ، حيث قال رجل من المنافقيــن : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء -يعني رسول الله – ﷺ– وأصــحابه– فقــال عوف بن مالك – رضي الله عنه–، كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله –ﷺ– فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله –ﷺ– وقال : يا رسول الله إنما كنا نخــوض ونلعب ، ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق . أسباب النزول للإمام أبي الحسن أحمد الواحدي النيسابوري ، بهامش المصحف المفسر ، دار الفجر الإسلامي/دمشق ، ط8 1418هـ–1997م ، ص210،209.

(3) تفسير السعدي : 708/1 .

(4) الأعراف / 147 .

(5) الكهف / 105 .

(6) انظر تفسير أبي السعود : 249/5 ، 250 .

وقد أكد العلماء الأفاضل على كفر ساب الكتب السماوية ، أو المستهزئ بها .

يقول القاضي عياض : ((اعلم أن من استخف بالقرآن ، أو المصحف ، أو بشيء منه ، أو جحده، أو حرفاً منه، أو آية، أو كذب به ، أو بشيء منه ...... فهو كافر عند أهل العلم بإجماع .

قال تعالى :﴿**لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[1] وكذلك إن جحد التوراة ، والإنجيل ، وكتب الله المنزلة ، أو كفر بها ، أو لعنها ، أو سبها ، أو استخف بها فهو كافر عند أهل العلم بإجماع))[2].

يتضح من خلال ما سبق أن الحكم بالكفر لا ينطبق على من سبَّ القرآن الكريم ، أو استهزأ به فقط ، بل ينطبق على كل من سبَّ أيَّ كتاب من كتب الله – عزَّ وجل – ، أو استهزأ بها.

رابعاً: كفر سبِّ الأنبياء والاستهزاء بهم

أكدَّ – سبحانه وتعالى– على وجوب محبة رسوله الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – ، وأخبرنا بأنه يجب أن تُقدم محبته على محبه النفس ، والولد، والوالد ، والناس أجمعين ، وتوعد الذين يقدمون محبة أحد على محبته –ﷺ– ، ووصفهم بالفسق .

فقال تعالى:﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[3].

فهذه الآية الكريمة يفهم منها وجوب تقديم محبة الرسول –ﷺ– على الآباء والأبناء ،.... .

وأما الدليل على تقديم محبته –ﷺ– على محبة النفس فيفهم من قوله تعالى : ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[4].

---

(1) فصلت / 42 .

(2) الشفا : 1101/2 .

(3) التوبة / 24 .

(4) الأحزاب / 6 .

وكـــذا بما روي عن عمــر بــن الخطــاب – رضـــي الله عنه– أنه قال : **(يـا رسول الله ، لأنت أحب إلـيَّ من كـل شـيء إلا من نفسـي فقـال النبـي – ﷺ– : لا والــذي نفسـي بـيـده حتـى أكـون أحب إليـك من نفسـك، فقـال عمــر: فإنـه الآن ، والله لأنت أحب إلـيَّ من نفسـي ، فقـال النبـي –ﷺ– : الآن يا عمر)** [1].

كما بيَّن – جلَّ وعلا– أن بغض الرسول –ﷺ– من أشنع الذنوب ، وأخطرها، فقال تعالى :**﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾** [2].

الآثار المترتبة على إيذاء الرسول ﷺ :

يترتب على إيذاء الرسول –ﷺ– أمور ؛ منها :

1. **الكفر بالله :**

قال تعالى :**﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ . لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** [3].

يقــول القرطبــي – رحمـــه الله – : ((حكــم تعــالى بكفر المستهزئ برسله الكرام)) [4].

فهــذه الآيـــة الكريمة دليل واضح على كفر المستهزئ بالرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام– ، وبالتالي يحكم بالكفر على الشاتم ؛ لأن السبَّ والشتم أشدُّ وأصعب – كما مرَّ معنا–.

2. **حبوط الأعمال :**

إن عـــدم احترام الرسول –ﷺ– أو شتمه ، أو الاستهزاء به يؤدي إلى حبوط العمل .

---

(1) أخرجه (خ) ، ك(الإيمان والنذر) ، ب/3(كيف كانت يمين النبي –ﷺ–) ، 2073/4،ح(6632).

(2) الكوثر / 3 . وشانئك : مبغضــك ، والأبتر : أي المقطوع الذي لا عقب له . اضواء البيان للشنقيطي : 312/9 .

(3) التوبة / 64–66 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :183/8.

قال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ (1).

يقول الشنقيطي –رحمه الله- : ((اعلم أن عدم احترام النبي -ﷺ- المشعر بالغضّ منه ، أو تنقيصه -ﷺ-، والاستخفاف به ، أو الاستهزاء به، ردة عن الإسلام وكفر بالله)) (2).

ويقول ابن عاشور : ((إن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي -ﷺ- بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته ، أو يفضي به إلى الكفر)) (3).

وبالنظر في أحد أسباب نزول الآية الكريمة (4) يتضح أنها نزلت في أبي بكر وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما- حين وَفِدَ ركبٌ من بني تميم ، فأشار أبو بكر بتأمير القعقاع بن معبد، واقترح عمرُ الأقرعَ بنَ حابس ، فقال أبو بكر لعمر :ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا وارتفعت أصواتهما في المسجد ، فأنزل الله هذه الآية (5).

ومعلوم أن أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما- أفضل البشر على الإطلاق بعد رسل الله – **عليهم الصلاة والسلام** – ، وواضح أنهما لم يرفعا أصواتهما على رسول الله -ﷺ-، وإنما رفعا أصواتهما على بعضهما البعض بحضرة الرسول -ﷺ- – وبينهما فرق كبير-، بدون قصد منهما، ورغم ذلك حذرهما الله – سبحانه وتعالى- بحبوط أعمالهما بسبب ذلك، وهما اللذان ورد في فضلهما الكثير الكثير.

فما بال المستهزئ عمداً ، والشاتم علناً ، فإن هؤلاء أولى بذلك الحكم ؟!.

يقول ابن تيمية – رحمه الله- : ((فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي ، والجهر له بالقول، يُخاف من أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ، ويحبط عمله بذلك ،

---

(1) الحجرات / 2 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي :409/7.

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 221/26.

(4) وأما السبب الآخر فيقال : أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، كان في أذنه وقر ، وكان جهوري الصوت ، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم الرسول -ﷺ- فيتأذى بصوته .

(5) انظر أسباب النزول ص402،401.

وأن رفع الصوت قد يشتمل على أذىً له ، واستخفافٍ به ، وإن لم يقصد الرافع ذلك ، فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل فيه سوء الأدب من غير قصد صاحبه يكون كفراً، فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفر بطريق الأولى)) [1].

ولا يقتصر ذلك الحكم وهو الكفر وحبوط العمل على سبِّ الرسول الكريم – محمد ﷺ – ، بل هو حكم سبِّ سائر الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام– والطعن فيهم ، والاستهزاء بهم ، وتنقصهم ، وإنكار نبوة واحد منهم ، أو إنكار معجزاتهم وآياتهم .

قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً.أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [2].

وإضافة لذلك أجمع العلماء على تكفير ساب أيِّ نبيٍ من الأنبياء ، ويحكي ذلك الإجماع ابن تيمية – رحمه الله – قائلاً : ((من خصائص الأنبياء أن من سبَّ نبياً من الأنبياء قُتل باتفاق الأئمة، وكان مرتداً ، كما أن من كفر ، بما جاء به كان مرتداً ، فإن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله)) [3].

3. الخلود في جهنم :

قال تعالى:﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ [4] قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [5].

توعد الله – سبحانه وتعالى– في هذه الآية الكريمة الذين يؤذون رسوله الكريم –ﷺ–، سواء بالأقوال ، أو الأفعال ، بأن يرثهم جهنم ، خالدين فيها أبداً ، لا يخرجون

---

(1) الصارم المسلول : ص 55 ، 56 باختصار .

(2) النساء / 150 ، 151 .

(3) الصفدية لابن تيمية ، (ت) محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية /القاهرة ، –بدون تاريخ– ، :261/2.

(4) أي : أذن سامعة، يسمع من كل أحد ما يقول ، فيقبله ويصدقه . جامع البيان للطبري : 215/10 .

(5) التوبة / 61–63 .

منها ، وبذلك يُحرمون من كل خير ونعيم .

بعـد كـل مـا سبق يتضح مدى خطورة سبِّ الله – عزّ وجل –، وملائكته ، ورسله، وكتبه، أو أيٍّ واحد منهم، فإنَّ سَبَّ أحدِهم كسبِّ الجميع في الحكم .

فليتق الله الذين يسبون، ويشتمون ، ويستهزئون، ويظنون أنهم غير محاسبون؛ لأنهـم يمـزحون – كما يزعمون – ، ونسوا قول الحق – جلَّ وعلا– : **﴿قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾** [1].

المطلب الثاني : ادعاء النبوة

إن الله – سـبحانه وتعالى– حينما خلق الخلق لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجهـل و الضلال، بل أرسل إليهم رسلاً كراماً اصطفاهم من بين سائر خلقه؛ ليبلغوا رسالاته و أوامره ، ووحيه إلي عباده، و يبينوا لهم طريق الخير من طريق الشر، قال تعالي: **﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾** [2].

وباسـتقراء قصـص الأنبياء يتأكد لدينا بأن هذا الاختيار من قبل الله لرسله لا يكون باكتسـاب، ولا بوراثـة، بل هو اصطفـاء و اختيـار من عنده تعالي لمن يشاء من خلقه ويصطفي .

يقول السفاريني:

ولا تُنَـالُ رُتبـةُ النـبوة   بالكسبِ والتهـذيبِ و الفتوة

لكنها فضلٌ من المَولَي الأجلّ   لمَا يشا من خَلْقه إلي الأَجل [3]

لـذا لا يجـوز لأي شخص أن يدَّعي النبوة كذباً وزوراً؛ لأن ذلك يعتبر من أشنع الكـذب، وأعظمـه، بل هو من أظلم الظلـم، وأشـد الافتراء، وقد وضح – سبحانه وتعـالى – أن هـذا الادعاء والافتراء من صفات الكافرين المكذبين الذين لا يؤمنون بآيـات الله، وتوعدهم بالعذاب المهين. قال الله تعالي: **﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾** [4].

---

(1) التوبة / 65 .

(2) الحج / 75 .

(3) لوامع الأنوار البهية شرح الدرة المضية لمحمد السفاريني، المكتب الإسلامي / بيروت – بدون تاريخ – 2 /267.

(4) الأنعام / 21 .

يقول الشنقيطي – رحمه الله – : ((و نفي الفلاح عنه يدل علي هلاكه، وأنه من أهل النار)) [1].

ويقــول ابن كثير– رحمه الله– : ((أي لا أظلم ممن تقوّل علي الله فادّعى أن الله أرسله)) [2].

وقد حُكم علي مدعي النبوة بالكفر لعدة اعتبارات:

(أ) أن ادعاء النبوة كذب و افتراء علي الله – سبحانه وتعالى – ، حيث زعم بأن الله أرسله، ولم يرسله.

1. قال تعالي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَــيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [3].

2. وقال أيضاً:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [4].

3. وقــال:﴿وَمَــنْ أَظْلَــمُ مِمَّــنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [5].

فهــذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها الكثير توضح مدي عقوبة المفتري علي الله – سبحانه وتعالي– الكــذب ، تؤكد كفره ، كمــا أنها تبين أنه لاأحد أعظم ظلماً، ولا أعتى ولا أشد جرماً، ممن كذب علي الله – تعالى– ، وزعم أن الله أرسله، ويوحى إلــيه وهو كاذب في ذلك، بالإضافة إلي جرأته علي الله – سبحانه و تعالى– ويوجب علي الخلق أن يتبعوه، ويقتفوا أثره .

(ب) أن ادعــــاء النبــوة تكذيب لصريح القرآن الكريم، حيث أكد القرآن أن محمداً –ﷺ– خاتم النبيين ، ولا نبي بعده.

---

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 5 / 567.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 2 / 129.

(3) الأنعام / 93 .

(4) يونس / 17 .

(5) الأنعام / 21 .

1. قـال الله تعالي:﴿ **مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [1].

يقـول الألوسـي : ((والمراد بكونه – عليه الصلاة والسلام – خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه-ﷺ- بها في هذه النشأة)) [2].

(ج) أن ادعاء النبوة تكذيب وإنكار لما تواتر عن رسول الله -ﷺ- من أحاديث تبين وتؤكد أنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

1. روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي-ﷺ-أنه قال:(**كانت بنو إسرائيل تسوسـهم الأنبـياء كلمـا هلـك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون**) [3].

2. كمـا روي أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله-ﷺ- يقول:(**إن مثلي ومـثل الأنبـياء مـن قبلي كمثل رجل بني بيتاً فحسَّنه وجمَّله، إلا موضع لبنة من زاويـة، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون به، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟، قال : فأنا اللبنة، أنا خاتم النبيين**) [4].

فهذه الأحاديث النبوية الشريفة نصٌ صريح في أنـه -ﷺ- خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، وبالتالي فإن منكر ذلك كافر جاحد.

كما أجمع علماء الأمة الإسلامية علي تكفير مدعي النبوة :

يقول الألوسي : ((وكونه -ﷺ- خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعي الخلافة، ويقتل أن أصر)) [5].

ويقـول الإمـام النووي : ((إذا ادعي النبوة بعد نبينا-ﷺ- ، أو صدق مدعياً لها....فكل هذا كفر)) [6].

---

(1) الأحزاب / 40 .

(2) روح المعاني للألوسي :34/22 .

(3) أخرجه (خ) ،ك(أحاديث الأنبياء) ،ب/50(ما ذكر من بني إسرائيل) ،1073/2، ح(3455) .

(4) أخرجه (خ) ، ك(المناقب) ،ب/18(خاتم النبيين ﷺ) ،1097/3، ح(3535) .

(5) روح المعاني للألوسي : 41/22 .

(6) روضـة الطالبيـن وعمـدة المفتين للنووي ، المكتب الإسلامي/بيروت، ط2 /1405هـ-1985م ، 64،65/10 .

وبذلـــك يـــتأكد كفـــر مدعـــي النبوة حيث نص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والإجماع علي كفره، وما دام كفر فقد أحبط عمله.

قـــال الله تعالي:﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [1].

المطلب الثالث : الدعاء و الاستغاثة بغير الله – عزَّ وجل– :

أبـــدأ أولاً بذكر معاني الدعاء والاستغاثة، وما يقاربهما في المعني كالاستعانة والاستعاذة، ثم أثنى بذكر معاني الدعاء في القرآن الكريم.

الدعاء لغة :

السؤال والطلب ، يقال : دعوت الله أدعوه، ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير [2] .

الاستغاثة لغة:

طلب الغوث ، والنصرة، وأغاثه إذا نصره [3].

الاستعاذة لغة:

هـــي الالـــتجـــاء والاعتصـــام والتحرز، ويقال:عاذ به: أي لاذ به، ولجأ إليه واعتصم [4].

وأما الاستعانة :

هي طلب المعونة، والعون– وهو الظهير علي الأمر– [5].

الدعاء اصطلاحاً :

يقـــول الخطابـــي : ((ومعـــنى الدعاء استدعاء العبد ربه–عزَّ وجل– العناية، واســـتمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبوديـــة ، واستشعار الذلة البشرية، وفيه الثناء علي الله –عزَّ وجل –، وإضافة

---

(1) إبراهيم / 18 .

(2) المصباح المنبير ، ص103 ، وانظر لسان العرب : 360/4.

(3) انظر نفس المرجع :ص236 ، ونفس المرجع : 139/10 .

(4) انظر نفس المرجع : ص225 ، ونفس المرجع : 464/9 ، 465.

(5) انظر نفس المرجع : ص226 ، ونفس المرجع : 484/9 ، 485 .

الجود والكرم إليه)) [1].

الاستعانة اصطلاحاً:

هـي طلـب المعونـة علـى مالا قِبَل للبشر بالإعانة عليه أو لا قِبَل للمستعين بتحصيله بمفرده [2].

معني الدعاء في القرآن الكريم :

ورد الدعاء في القرآن الكريم بعدة معاني منها:

أولاً : الدعاء بمعني العبادة:

قال – تعالى- :﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [3].

يقـول الشـوكاني – رحمـه الله- : ((قال أكثر المفسرين: المعني: وحدوني واعبدوني)) [4].

وكذلـك ورد عـن النعمان بن بشير [5] – رضي الله عنه – أنه قال : سمعت رسـول الله- ﷺ- يقول علي المنبر :(**الدعاء هو العبادة**)، ثم قرأ:﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [6].

ثانياً : الدعاء بمعني الدين :

قال – تعالى- :﴿ **فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [7].

يقـول السعدي – رحمه الله – : ((فوضع كلمة الدين موضع الدعاء، وهو في القرآن الكريم كثيراً جداً؛ ليدل علي أن الدعاء هو لب الدين ، وروح العبادة)) [8].

---

(1) شأن الدعاء للخطابي ، دار المأمون/دمشق ، ط1 1404هـ ، ص4 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 184/1 .

(3) غافر / 60 .

(4) فتح القدير للشوكاني : 498/4 .

(5) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي أبو عبد الله ، له ولأبويه صحبة ، وهو أول مولود وُلد في الأنصار بعـد قدوم رسول الله ﷺ المدينة ، كان أميراً على الكوفة في عهد معاوية بن أبي سفيان ، قتل سنة ست وستين . انظـر تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ جمال الدين المزي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 1413هـ ، 1992م ، 411/29 .

(6) أخـرجه (ت) ، ك (تفسـير القرآن) ب/3 (ومن سورة البقرة (م16-ت تابع 3) 54/5 ، ح(2969) ، وقال حسن صـحيح ، وأخرجه (د) ، ك (الصلاة) ، ب/358 (الدعاء) 641/2 ، ح(1479) ، وأخرجه (جه) ، ك(الدعاء) ، ب/1 (فضل الدعاء) 324/2 ، ح(3086) وقال صحيح ، والآية في غافر /60 .

(7) غافر / 14 .

(8) القواعد الحسان لتفسير القرآن ، لعبد الرحمن السعدي ،مكتبة المعارف/الرياض ، ط/1400هـ ، ص155 .

ولكن المقصود بالدعاء في هذا المطلب هو التذلل والخضوع، والرجوع والإنابة لله وحده.

وبذلك يتضح أن الدعاء والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة عبادات يجب صرفها لله وحده، ولا يجوز إشراك غيره معه.

حكم من دعا أو استغاث بغير الله :

أما من دعا الإنسان ، أو استعان ، أو استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله – عزّ وجل – فقد كفر وخرج من الملة، مهما كان ذلك الغير .

1. قال – تعالى– :﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ (1).

يقول ابن عاشور : ((لا أحد أشد ضلالاً ، وأعجب حالاً ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له دعاءه ، فهو أقصى حد من الضلالة ، ووجه ذلك : أنهم ضلوا عن دلائل الوحدانية ، وادعوا لله شركاء بلا دليل ، واختاروا الشركاء من الحجارة، وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق والتكوين، والتصرف، ثم يدعونها في نوائبهم، وهم يشاهدون أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب)) (2).

2. وقال – تعالى– :﴿ **فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ (3).

يقول السعدي – رحمه الله– : ((ينهي تعالي رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين ، وأن ذلك موجب العذاب الدائم، والعقاب السرمدي؛ لكونه شركاً، ومن يشرك بالله فقد حَرَّم اللهُ عليه الجنةَ، ومأواه النار)) (4).

كما يؤكد علي أن الدعاء والاستغاثة وكذا الاستعانة والاستعاذة بغير الله مخرج من الملة عدة آيات منها :

---

(1) الأحقاف / 5 ، 6 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 11/26 ، 12 .

(3) الشعراء / 213 .

(4) تفسير السعدي : 235/2 ، 236 .

1. قــول الله – تعالى- :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [1].

2. وقولــــه – عزّ وجل- :﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾[2].

3. وقولــــه أيضـــاً: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ [3] . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [4].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها الكثير، توضح أن دعاء غير الله تعالي يعتبر من الشــرك بالله عزّ وجل، وذلــك يؤدي إلي الكفر– والعياذ بالله –، وإذا ثبت دعاء داعٍ غير الله ، فإنه يتأكد حبوط عمله حيث إن الكفر من موجبات حبوط العمل.

كمـــا أجمـــع أهل العلم علي أن من دعى غير الله، أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو كافر خارج من الملة الإسلامية وبالتالي فقد حبط عمله.

وقد حكى ذلــك الإجماع شيخ الإســلام ابن تيميـــة – رحمه الله– حين قال : ((فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ، ودفـــع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريغ الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين)) [5].

كمـــا أكـــد ابـــن القيم – رحمه الله – علي أن دعاء غير الله يعتبر من الشرك الأكـــبر الذي يخرج من الملة فيقول : ((ومن أنواعـــه– الشرك الأكبر– طلب الحوائج

---

(1) الأنعام / 40 ، 41 .

(2) الأعراف / 37 .

(3) أي : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 324/14 .

(4) فاطر / 13 ، 14 .

(5) مجموع الفتاوى : 124/1 .

مـــن الموتـــى ، والاستعانة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه خيراً أو نفعاً، فضلاً عمن استغاث به ، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له....وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده)) [1].

وأخـــتم ذلـــك المطلب بفائدة رأيت من الضروري تذييل المطلب بها وهي أنه يجب علي العباد دعاء الله – عزّ وجل – ، ولكـــن لا يجب على الله الاستجابة ؛ لأنه لا يجب علي الله شيء للعباد.

يقول ابن عاشـــور عند تفسيره لقوله تعالى :**﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـــبٌ أُجِيـــبُ دَعْـــوَةَ الـــدَّاعِ إِذَا دَعَـــانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** [2] .

((والآيـــة دلت علي أن إجابة دعاء الداعي تفضل من الله علي عباده، غير أن ذلـــك لا يقتضي التـــزام إجابـــة الدعوة من كل أحد، وفي كل زمان....؛لأنه لم يقل : إن دعوني أجبتهم)) [3].

ولكن هناك أسباب تجعل احتمال قبول الدعاء وتحققه أقوي وأكبر.

يحدثـــنا السعدي – رحمه الله – عن هذه الأسباب قائلاً : ((فمن دعا ربه بقلب حاضـــــر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء من مأكل الحرام ونحوه ، فـــإن الله وعـــــده بالإجابـــــة، وخصوصـــاً إذا أتي بأسباب إجابـــة الدعاء ، وهي الاســـتجابة لله تعـــالى بالانقـــيـــاد لأوامـــره ، ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به الموجب للاستجابة)) [4].

المطلب الرابع : الكذب على الله – عزّ وجل– :

الكذب لغة : نقيض الصدق، يقال : كذب يكذب كَذباً، وكِذْباً ،وكِذْبة، وكَذِبة،...ويقال : رجل كاذب وكذاب، وتكذاب، وكذوب، وكُذُوبة، وكُذْبة، مثال همزة [5].

---

(1) مدارج السالكين : 312/1 .

(2) البقرة / 186 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور / 180/2 .

(4) تفسير السعدي : 138/1 .

(5) لسان العرب : 704/1 ، وانظر مختار الصحاح : ص 565 .

الكذب اصطلاحاً:

هــو الإخبــار عن الشيء بخلاف ما هــو عليــه ، ســواء تعمد ذلك الكاذب أم جهله[1].

وباستقراء المعنى اللغوي ، و الآيات التي تتحدث عن الكذب ، يتبين أن المعنى الاصطلاحي للكذب يشتمل على أمرين :

الأول : أن يقول المسلم خلاف الصدق فيما لا يتعلق مباشرة بالدين، كأن يكذب الإنسان فيقول حدث كذا وهو لم يحدث ، أو فلان قال كذا وهو لم يقل.

ودلــيل ذلــك قوله تعالى : **﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾** [2].

وقال أيضاً : **﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾** [3].

الثانــي : أن يقول المســلم خلاف الصدق فيما يتعلق بالدين مباشرة، وذلك بأن يكذب على الله ورسوله ، كأن يقول إنسان أوحي إليَّ، ولم يوح إليه، أو يقول هذا القرآن ليس كلام الله ، أو غير ذلك.

قــال تعالى : **﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقــاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُــم بِالْكِتَــابِ لِتَحْسَبُوهُ مِــنَ الْكِــتَــابِ وَمَا هُــوَ مِنَ الْكِتَــابِ وَيَقُولُــونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِــنــدِ اللّهِ وَيَقُولُــونَ عَلَــى اللّهِ الْكَــذِبَ وَهُــمْ يَعْلَمُــونَ . مَا كَــانَ لِبَشَــرٍ أَن يُؤْتِــيَــهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْــمَ وَالنُّبُــوَّةَ ثُمَّ يَقُــولَ لِلنَّاسِ كُونُــواْ عِبَادًا لِّي مِــن دُونِ اللّــهِ وَلَكِــن كُونُـــواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُــونَ . وَلاَ يَأْمُرَكُــمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾** [4].

والــذي نعنيه في هذا المطلب هو الكذب بالمعنى الثاني ، أي أن يكذب المسلم فيما يتعلق بأمور الدين مباشرة وهو حرام بالإجماع .

---

(1) انظر الأذكار ، ص 397 .

(2) يوسف / 26 ، 27 .

(3) الأنعام / 24 .

(4) آل عمران / 78-80 .

حكم الكذب على الله – عزّ وجل – :

يقـــول النووي – رحمه الله – : ((وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة علي تحـــريم الكـــذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، وإجماع الأمة منعقد علي تحريمه مع النصوص المتظاهرة)) [1].

وهذا النوع من الكذب يبطل و يحبط العمل ؛ لأدلة كثيرة منها:

1. قـــال الله تعـــالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ [2].

يقـــول الزحيلـــي : ((ويحمل حال هؤلاء المتكبرين أن الله لم يخلقهم مطبوعين علـــي الكفر والضلال ، ولم يجبرهم عليـــه ، بل حدث ذلك باختيارهم، إذ أنهم كذبوا بالآيـــات وانغمســـوا بأهوائهم وشهواتهم ، وحجبوا أفهامهم عن إدراك الحق والهدي، وســـلوك ســـبيل السعادة والنجاة،....ثم وضح الله تعالي مآل ما قد يعملونه من أعمال خـــيِّرة في الدنيا، وهو إحباطها وإبطالها، وتلاشي آثارها، وعدم ترتيب الثواب عليها، فقـــال : والذين كذبوا بآياتنا المنزلة علي رسلنا، ولم يؤمنوا بها، ولم يصدقوا بالآخرة والبعـــث، ومـــا فـــيه مـــن جزاء علي الأعمال ثواباً علي الخير، وعقاباً علي الشر، واستمروا علي وضعهم هذا إلي الممات، وبطلت أعمالهم وذهبت سدى)) [3].

2. قال أيضاً :﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ [4].

3. **قـــال أيضـــاً :﴿ إِنَّ الَّذِيـــنَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء﴾** [5].

إن هـــذه الآيـــات الكريمة توضح مدي هوان المكذبين علي ربهم، كما توضح عظـــم وشـــدة عذابهـــم حيث إنه تعالي قرنهم في الآية الأولى مع الكافرين،و جعلهم أصحاب النار، مما يدل علي الملازمة .

أما الآية الأخرى : فالهول فيها أشد و أكبر.

---

(1) الأذكار ، ص 395 .

(2) الأعراف / 147 .

(3) التفسير المنير للزحيلي : 92/9 بتصرف يسير جداً .

(4) البقرة / 39 .

(5) الأعراف / 40 .

يقـــول الشيخ السعدي عند تفسيره لها : ((يخبر تعالي عن عقاب من كذب بآياته فلـــم يؤمـــن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبروا عنها، فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولي ، أنهم آيسون من كل خير ، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلي الله ، فتستأذن فلا يؤذن لها ، كما لم تصعد في الدنيا إلي الإيمان بالله ومعرفته ، ومحبته، وكذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل)) [1].

كمـــا أكـــد رسول الله -ﷺ- علي تحريم الكذب ، وبيَّن أن مآل صاحبه النار وبئس القرار ، فقال ﷺ : **(من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)** [2] .

---

(1) تفسير السعدي : 795/1 .

(2) أخرجه (ت) ، ك (تفسير القرآن) ، ب/1 (ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه) ، 183/5 ، ح (2950).

المبحث الثاني

محبطات قولية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : القذف

المطلب الثاني : الغيبة

المطلب الثالث : النميمة

المطلب الرابع : المنُّ في العطاء

المطلب الخامس : أذية المسلمين وشتمهم .

المبحث الثاني

محبطات قولية لا تخرج من الإسلام

وسأتناول في هذا المبحث الحديث عن الأقوال التي إن تفوه بها الإنسان ، تحبط عمله الصالح ، ولكنه يبقى في دائرة الإسلام ، لا يخرج منها بهذا القول .

المطلب الأول : القذف

(أ) القذف لغة :

الرمـــي، يقـــال: قذف بالحجارة أي رمي بها، و قذف المحصنة رماها بزنية ، والـــتقاذف الترامي، وهو في الأصل رمي الشيء بقوة ، ثم استعمل في الرمي بالزنى ونحوه [1].

(ب) القذف شرعاً:

الرمي بالزنى [2].

يقول الإمام الذهبي- رحمه الله - : ((القذف هو أن يقول شخص عن امرأة، أو فتاة محصنة عفيفة أنها زنت ، أو نحو ذلك)) [3].

عقوبة القذف :

بيَّن الله تعالى عقوبة القذف في عدد من الآيات :

1. قال تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [4].
2. وقـــال أيضـــاً: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [5].

فالقاذف إذن له عقوبتان ، دنيوية ، وأخروية :

---

(1) القاموس المحيط : 3 / 83.

(2) فتح القدير للشوكاني10/4، وتفسير السعدي: 2 / 144 .

(3) الكبائر للإمام الذهبي، دار ابن المبارك للنشر و التوزيع، ط4 1416هـ ، ص21.

(4) النور / 4 .

(5) النور / 23 .

يقول ابن كثير – رحمه الله– : ((هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة.... فأوجب علي القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . **والثاني** : أن ترد شهادته أبداً.

والثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل، لا عند الله،ولا عند الناس))[1].

وهذه الأمور الثلاثة هي بمعني اللعن في الدنيا.

يقول ابن عاشور – رحمه الله – : ((واللعن في الدنيا:الفسق، وسلب أهلية الشهادة، واستيحاش المؤمنين، وحدّ القذف . أما اللعن في الآخرة : فهو الإبعاد من رحمة الله، والعذاب العظيم: وهو عذاب جهنم)) [2].

أي أن القاذف محروم من رحمة الله –عزّ وجل– في الآخرة، وليس له إلا عذاب جهنم– والعياذ بالله –، إلا أن يتغمده الله – تعالي– برحمته .

وهذا الحكم والعقاب كما أنه ينطبق علي قاذف النساء؛ فهو أيضاً ينطبق علي قاذف الرجال بلا خلاف، وإنما خصت النساء بالذكر: إما للتغليب ، أو لأن القذف في حقهن أشنع.

يقول الإمام الشوكاني موضحاً تلك المسألة : ((والمراد بالمحصنات: النساء، وخصهن بالذكر؛ لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة)) [3].

كما ذمّ رسول الله –ﷺ– القذف، و عدّه كبيرة من الكبائر، بل من الموبقات السبع، عن أبي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي –ﷺ– أنه قال : (**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول ما هنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**) [4].

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 273/3.

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 191/18 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 10/4 .

(4) أخرجه (خ) ك (الوصايا)، ب/23 (قول الله تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾) ، 2 / 853، ح (2766)، وأخرجه (م) ، ك(الإيمان) 264/2، ح(145).

يقول ابن قدامة : وعلى هذا انعقد الإجماع في تحريم القذف جج [1].

وقد اختلف المفسرون فيمن المراد بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [2].

فقال سعيد ابن جبير: هي خاصة فيمن رمى عائشة – رضي الله عنها – ، وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله رأس المنافقين، وقال الضحاك والكلبي: هذه الآية في عائشة وسائر أزواج النبي –ﷺ– دون سائر المؤمنين والمؤمنات، وقيل : إنها خاصة بمشركي مكة؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر[3].

واختار الطبري القول القائل بأنها نزلت في شأن عائشة – رضي الله عنها – وأردف قائلاً : والحكم بها عام في كل من رمى محصنة غافلة مؤمنة بالفاحشة لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب [4] .

والقذف يحبط العمل ويبطله،حيث إنه يأكل حسنات القاذف، وينقلها إلى المقذوف، فإن لم يكن له حسنات نقلت من سيئات المقذوف إلى سيئات القاذف حتى يقضي ما عليه – والعياذ بالله– ويؤكد ذلك ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه– عن رسول الله –ﷺ– حين سأل أصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين– : (**أتدرون من المفلس؟ قالوا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه،ثم طرح في النار**) [5].

يقول الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث الشريف : ((أما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم، فوضع عليه، ثم ألقى في النار، فتمَّت خسارته، وهلاكه، وإفلاسه)) [6].

---

(1) انظر المغني لابن قدامة ، هجر / القاهرة ، ط2 1413هـ – 1992م ، 383/12 .

(2) النور / 23 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 4 / 22، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 12/ 213 .

(4) انظر جامع البيان للطبري : 140/18 .

(5) أخرجة (م) ،ك(البر والصلة والآداب) ،104/16، ح(59).

(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 141/16.

ولكــن يرى الإمام القرطبي – رحمه الله– غير ذلك، فيرى أن القذف لا يحبط العمــل، قــائلاً: (فــي هذه الآية [1] دليل علي أن القذف – وإن كان كبيراً– لا يحبط الأعمــال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله – يعني قذفه لعائشة – – رضي الله عــنها– بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى :﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [2].

ولا أدرى مــن أيــن جاء–رحمه الله– بهذا الجزم والقطع بأن الكبيرة لا تحبط العمل، وأنه لا يحبط العمل غير الشرك بالله، فماذا صنع – رحمه الله– بقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِيــنَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [3].

فالآية الكريمة تتحدث عمن أحب الدنيا، وأرادها إرادة تامة، بالرغم من إيمانه. وكذلك قوله تعالى :﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ**﴾ [4].

فهذه الآية الكريمة تتحدث عمن وَالَى غير المسلمين ، برغم انتمائه للإسلام.

ومــاذا صــنع – رحمــه الله– بقوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ [5].

فهــذه الآية الكريمة صريحة الدلالة ، حيث إنها تخاطب المؤمنين ، وتحذرهم مــن احــتمال حــبوط عملهم الصالح إذا رفعوا أصواتهم فوق صوت النبي –ﷺ– ، بالرغم من إيمانهم .

وبالنظر في سبب نزول هذه الآية الكريمة نرى أنها نزلت في أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما– ، وهما أشد أهل الأرض إيماناً بعد الأنبياء[6].

---

(1) يعني قوله تعالى :﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ النور/11.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 211/12 ،والآية في الزمر/65 .

(3) هود / 16 .

(4) المائدة / 53 .

(5) الحجرات / 2 .

(6) انظر أسباب النزول ، ص 219 .

وأيضـــاً باقي الآيات الكريمة التي تتحدث عن محبطات العمل الصالح ، وهي ستة عشر آية.

وكذلــك مــاذا فعل – رحمه الله – بالأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن المحــبطات ، والتـــي منها قولـــه -ﷺ- : (**من تــرك صـــلاة العصـــر فقـــد حبط عمله**)[1].ومعلوم أن المسلمين هم الذين يصلون، وأيضاً حديث المفلس السابق الذكر .

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، توضح أنه توجد أقوال وأفعال غير الشرك بالله تحبط العمل الصالح وتبطله .

ولكن باب التوبة مفتوح ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً بشروطها ، تقبلها الله منه – بإذنه– وكفَّر عنه ذنوبه ، ولو من الكبائر لقوله تعالى :﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [2].

إلا أن يكــون – رحمه الله – بقوله : ((القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال الأعمـــال ... ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله)) حبوطاً كاملاً بحيث يذهب بجميع الحســنات لا بعضـــها ، ومعلوم كما سيتقرر لاحقاً أن الحبوط قسمان كلي وجزئي . فيكون المراد هنا الحبوط الجزئي .

المطلب الثاني: الغيبة

الغيبة خلق ذميم، يأباه الشرع، والعقل السليم ، والمجتمع النظيف، وهي مرض اجتماعي خطير، آثاره مدمرة للفرد والمجتمع.

(أ) الغيبة لغة :

مـــن الاغتياب، واغتاب الرجل صاحبه اغتياباً: إذا وقع فيه، وغابه يغيبه : إذا عابه، وذكر منه ما يسوءه [3].

(ب) الغيبة اصطلاحاً :

إن خير من عرَّفها هو المعلم الأول-ﷺ-عن أبي هريرة –رضي الله عنه- أن رســـول الله -ﷺ- قال لأصحابه الكرام – رضي الله عنهم- (**أتدرون ما الغيبة؟**

---

(1) أخرجه (خ)،ك(مواقيت الصلاة) ،ب/15(من ترك العصر) ،184/1، ح(553).

(2) الزمر / 53 .

(3) لسان العرب :152/10، وانظر القاموس المحيط :116/1 .

قـالوا : الله ورسوله أعلم، قال : ذكرك أخاك بما يكره، قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته) (1).

ثم استنبط المفسرون لها من خلال تعريف الرسول -ﷺ- عدة تعريفات متقاربة: فعرّفها الإمام الشوكاني بقوله: الغيبة أن تذكر الرجل بما يكرهه (2).

وعـرّفهـا ابن عاشـور بقولـه : الاغتياب : ذكر أحد غائب بما لا يحب أن يذكر به (3).

فالغيبة إذن هي: أن يذكر أخٌ له في الإسلام بشيء يكرهه في غيبته، بحيث لو كـان موجوداً لم يرضَ بسماع ما قيل عنه، وسواء كان ذلك الذكر في الدين ، أو في النفس، أو في الخلق، أو في أي أمر يتعلق به.

والغيـبة لا تقتصـر على اللسان ، بل تكون بجميع الجوارح ، فحيثما استطاع المغتاب إفهام الغير ما ينوي قوله بأي طريقة فهي الغيبة بعينها، ولها نفس حكم الغيبة.

يقـول القحطانـي – رحمه الله-: ((والغيبة لا تختص باللسان، فحيثما أفهمت الغير بما يكره المغتاب ولو بالتعريض، أو الفعل ، أو الإشارة ، أو الغمز، أو اللمز ، أو الكـتابة ، وكذا سائر ما يتوصل به إلي المقصود ؛ كأن يمشي مشيه ، فهو الغيبة ، بل هو أعظم من الغيبة ؛ لأنه أعظم وأبلغ في التصوير والتفهيم)) (4).

أدلة تحريم الغيبة :

والغيـبة محـرمة بالكتاب والسنة ، و إجماع علماء الأمة ، حيث نهى الشارع الحكيم عن الغيبة في عدة مواطن ؛ أذكر منها:

أولاً : من القرآن الكريم :

1. قـال تعـالى:﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ (5).

---

(1) أخرجه (م) ،ك(البر والصلة والآداب) ،109/16، ح(70).

(2) فتح القدير للشوكاني :65/5 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 254/26 .

(4) آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة لسعيد بن عليّ القحطاني ، مكتبة أبي بكر الصديق/القاهرة – بدون تاريخ – ص12 .

(5) الحجرات / 12 .

يقـــول الإمام الشوكاني : ((مَثَّل الله سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه ،....وفيه إشارة إلي أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم لحمه يحرم الاستطالة في عرضه)) [1].

2. وقال – عزَّ وجل – :﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [2].

يقول الشوكاني – رحمه الله – :((والمعنى : خزي ، أو عذاب ، أو هلكة ، أو وادٍ في جهنم لكل هُمَزة لُمَزة... والهمزة اللمزة : الذي يغتاب الناس)) [3].

ثانياً : من السنة النبوية المشرفة :

كما أكَّدَ الرسول الكريم – صلوات ربي وسلامه عليه– حرمة الغيبة والخوض في أعراض المسلمين .

عن أبي بكرة [4] – رضي الله عنه– قال : قال –ﷺ– في خطبة الوداع:(**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب**) [5].

ففي هذا الحديث الشريف ينهى الرسول الكريم –ﷺ– عن الغيبة ، ويبيِّن شدة خطورتها، ويحذر منها.

ثالثاً : إجماع العلماء :

أجمع العلماء على تحريم الغيبة ، وهاك بعض أقوالهم :

1. قـــال الطبري – رحمه الله– : ((حرَّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء ، كما حرَّم الميتة)) [6].
2. وقال القرطبي : ((ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر)) [7].

---

(1) فتح القدير للشوكاني :65/5 ، وانظر جامع البيان للطبري :178/26 .

(2) الهمزة / 1 .

(3) فتح القدير للشوكاني : 492/5 ، وانظر أضواء البيان للشنقيطي :281/9 .

(4) هو نُفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة ، وإنما قيل له : أبا بكرة ؛ لأنه تدلى من حصـــن الطائف إلى النبي ﷺ فأعتقه يومئذٍ ، مات بالبصرة في ولاية زياد سنة خمسين . تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، ط1 1415هـــ – 1995م ، 537/8 ، 538 .

(5) أخرجه (خ) ،ك(العلم) ،ب/37(ليبلغ العلم الشاهدُ الغائبَ) ،60/1 ،ح(105) .

(6) جامع البيان للطبري : 178/26 .

(7) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 321/16 ،وانظر تفسير السعدي : 722/2 .

3. وقال ابن كثير – رحمه الله– : ((والغيبة محرمة بالإجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة)) [1].

ويبين ابن عاشور العلة من تحريم الغيبة قائلاً : ((والغيبة حرام.....؛ وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضَعف في أخوة الإسلام ، وقد تبلغ الذي اغتيب ، فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه، فينثلم [2] بناء الأخوة ؛ ولأن فيها من الاشتغال بأحوال الناس ، وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له ، وترك مالا يعنيه)) [3].

ولكن – وكما مرَّ معنا في كلام ابن كثير السابق– ليس كل الغيبة محرمة ، بل يستثنى منها مواطن ستة رخص الإسلام بها في تلك المواطن ، وهي مجموعة في قول الشاعر:

القدح ليس بغيبة في ستة	**متظلمٍ، ومعرِّفٍ، ومحذر**
ومجاهرٍ فسقاً، ومستفتٍ، ومن	**طلب الإعانة في إزالة منكر** [4]

بواعث الغيبة :

1- إشفاء الغيظ من المغتاب ، فإن الرجل إذا غضب من آخر دفعته نفسه إلى الانتقام ولا يجد صاحب النفس المريضة إلا الغيبة .

2- موافقة الأقران ومجاملة الرفاق ، ومساعدتهم على الكلام .

3- التصنع والمباهاة والغرور بالنفس .

4- الحسد ، فبعض ضعاف القلوب عند سماعهم أناساً يكثرون الثناء على رجل علم أو أخلاق يحاولون تشويه صورته .

5- إشغال وقت الفراغ بالهزل والضحك .

الآثار المترتبة على الغيبة :

1. نفي كمال الإيمان عن قلب المستغيب :

نفى رسول الله –ﷺ– الإيمان الكامل عن قلب المستغيب ، فيما رواه عنه ابن عمر – رضي الله عنه– أنه قال : **(يا معشرَ مَنْ أسلم بلسانه ، ولم يفضِ الإيمان إلى**

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 214/4 .

(2) أي ينكسر . انظر لسان العرب : 124/2 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 256/26 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية ص48.

قلــبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيرِّوهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضَحْه ولو في جوف رحله) [1].

والغيبة تشمل كل هذه الأمور ، فهي أذية للمسلمين ، كما أنها تتبع لعوراتهم .

2. **إحباط العمل .**

والغيبة كذلك تحبط العمل الصالح ،وتبطل ثوابه ،وتأكل حسنات الخائض فيها .

عــن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، أن رسول الله –ﷺ– قال : **(رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر)** [2].

هذا الحديث الشريف يوضح أن الغيبة قد أبطلت أجر الصيام ، فلم ينلْه منه إلا الجوع والعطش ، دون الأجر ، وكذلك أبطلت أجــر الصلاة ، فلم ينلْه منها إلا القيام ، والسهر ، والتعب، ولم يحصل له الأجر والثواب المرجو من وراء مثل هذه العبادات .

يقــول الهيثمي :(يتعين معرفة علاج الغيبة ، وهو إما إجمالي ؛ بحيث يتعرض فــيها المغتاب لسخط الله وعقوبته ، كما دلت عليه الآية والأخبار ، وهي أيضاً تحبط حســناته ، كما في ذلك الحديث ؛ حيث يؤخذ من حسناته إلى أن تفنى ؛ فإن بقي عليه شيء وضع عليه من سيئات خصمه، ومن المعلوم أن من زادت حسناته كان من أهل الجــنة ، أو ســيئاته كان من أهل النار..، فليحذر المغتاب أن تكون الغيبة سبباً لفناء حسناته، وزيادة سيئاته ، فيكون من أهل النار) [3].

ولا يقــع إثــم الغيبة على المغتاب فقط ، بل على المستمع أيضاً ؛ لذا يجب على من سمعها أن ينكرها بكافة الطرق والوسائل ، أو أن يدافع عن المغتاب ما استطاع ، روى أبــو الدرداء – رضي الله عنه– عن النبي –ﷺ– أنه قال : **(مَنْ ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار** يوم **القيامة)** [4] ، فإن لم يستطع ذلك فارق المجلس فوراً .

---

(1) أخــرجه (تت) ،ك(الــبر والصــلة) ،ب/85(ما جاء في تعظيم المؤمن) ،144/4، ح(2032)، وصححه الألباني في صحيحه ،1322/2 ، ح(7984).

(2) أخرجه (جه) ، ك(الصيام) ، ب/21(ما جاء في الغيبة والرفث للصائم) ، 282/1، ح(1371) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني : 656/1 ، ح(3488) .

(3) الزواجــر عــن اقــتراف الكــبائر للشيخ ابن حجر الهيثمي ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة للرياض ،ط1 1417هـ–1996م ، 563/20 بتصرف يسير .

(4) أخرجه (حم) ،499/6، ح(27530) ، وصححه الألباني في صحيحه : 1074/2 ،ح(6262).

المطلب الثالث : النميمة

النميمة مرض من أمراض النفوس التي انتشرت في المجتمع الإسلامي، فهدمت الأسر، وفرّقت الأحبة ، وقَطَّعت الأرحام .

(أ) النميمة لغة :

رفع الحديث على وجه الإشاعة والإفساد، وقيل: تزيين الكلام بالكذب، يقال: نَمَّ يَنِمُّ، ونمَّ به، وعليه نمّاً ونميماً، فالنميمة والنميم هما الاسم، والنعت نمّـام، وقيل النميم جميع النميمة [1].

(ب) النميمة اصطلاحاً:

هي نقل كلام بعض الناس لبعض؛ بقصد إفساد قلوبهم، وقطع صلاتهم، وذهاب موداتهم [2].

أدلة تحريم النميمة :

والنمـيمة محـرمة بالكـتاب ، والسنة، وإجماع علماء الأمة، وهي كبيرة من الكبائر:

أولاً : من القرآن الكريم

1. قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ﴾** [3].

اتفق المفسرون على أن المشاء بنميم هو النمام الذي يمشي بالنميمة بين الناس؛ ليفسـد بيـنهم ، ودافعه إلى ذلك احتقار الناس ، والطعن فيهم. من أجل ذلك نهي الله سـبحانه وتعـالى عن طاعة ذلك الإنسان الكذاب، خسيسِ النفس، سيئِ الأخلاق، كثيرِ المعاصي [4].

2. وقـال الله تعـالى : **﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾** [5].

---

(1) انظر لسان العرب : 295/14 ، والقاموس المحيط: 185/4 ، والمصباح المنير : 298/2.

(2) انظرُ تفسير السعدي : 909/2 ، وصحيح مسلم بشرح النووي : 113/2.

(3) القلم /10 ، 11.

(4) انظر جامع البيان للطبري : 29 / 29 ،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 18 / 222 ، وتفسير السعدي 2/ 909 ، وتفسير أبي السعود : 9 / 13 ، والتفسير المنير للزحيلي: 29 / 52.

(5) الحجرات /6 .

في هذه الآية الكريمة يصف الله – سبحانه وتعالى– النمَّام بالفسق، ويطلب من المؤمنيـــن عدم تصديقه؛ لأنه فاسق كذاب، بل يجب عليهم أن يتأكدوا مما ينقله إليهم ، ويذكر القرطبي صفات النمام عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :

(أ) أنه كذاب.

(ب) معلن بالذنب.

(ج) لا يستحي من الله [1].

فهـــذه الصفات الثلاثة هي من أشنع الصفات، وأقبحها ، جمعها جميعاً النمام ، فاستحق بذلك أن يكون أخسَّ الناس.

3. وقال عزّ من قائل: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾** [2].

والنميمة تعتبر من أشد الأذى الذي يلحق بالمؤمنين، ويفسد ذاتَ بينهم، وينشر العـــداوة والحقـــد والبغضــــاء بينهم، وربما يكون من غير جناية منهم توجب الأذى، وخصوصاً إذا كانت تلك النميمة التي أشاعوها بين الناس مفعمة بالأكاذيب، والأقاويل الباطلة .

من أجل ذلك اعتبر المولي– جلَّ وعلا – النميمةَ كبيرةً من الكبائر.

قال القرطبي : ((وقد بيَّن تعالى أن أذى المؤمنين كبيرة)) [3].

4. وقال –جلَّ ذكره–: **﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾** [4].

ذكـــر المفسرون بأنه سيكون في عنق زوجة أبى لهب حبل مفتول من سلاسل من النار ؛ لأنها كانت نمَّامة، تحمل الحديث، وتنقله بين الناس؛ إفساداً بينهم علي رأى بعض المفسرين [5] [6].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 16 / 297.

(2) الأحزاب / 58 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 230/14 .

(4) المسد /4 ، 5.

(5) أما الرأي الآخر للمفسرين : فلأنها كانت تحمل الشوك والحطب، وتضعه في طريق الرسول–ﷺ–.

(6) انظر جامـــع البيـــان للطبري: 447/15 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير :564/4 ، والدر المنثور للسيوطي : 702/6.

ثانياً : من السنة النبوية المطهرة:

ذمَّ الرسول -ﷺ- النميمة ، وبيَّن أنها كبيرة ، وأنها سبب لدخول صاحبها النار في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة أذكر منها:

1. عـن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله- ﷺ- يقول:(**لا يدخل الجنة نمَّام**) [1].

2. وفي رواية عنه أيضاً: (**لا يدخل الجنة قتات**) [2].

يقول النووي : ((القتات هو النمام)) [3].

فـإذا لم يدخـل الجنـة ، لم يكن له مأوي إلا النار على رأي بعض العلماء ؛ لأنه لا يكون في الآخرة : إلا الجنة أو النار .

ويوضح هذه المسألة الإمام النووي قائلاً: (وأما قوله – ﷺ-: (**لا يدخل الجنة نمَّام**) ففيه تأويلان :

أحدهما: يحمل على المستحيل بغير تأويل مع العلم بالتحريم.

والثانى: لا يدخلها دخول الفائزين . والله أعلم. [4]

3. والنمام يبدأ عذابه في أول منازل الآخرة- القبر-.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مرَّ رسول الله- ﷺ- بقبرين ، فقال: (**يعذبـان وما يعذبان في كبير- ثم قال- بلي، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشى بالنميمة**) [5].

يقول ابن حجر فقوله-ﷺ- (**بلى إنه كبير**): دليل على أن النميمة كبيرة من الكبائر [6].

النميمة محبطة للعمل الصالح :

4. والنميمة تحلق الحسنات، وتأكلها، أي أنها تؤدي إلي إحباط العمل.

---

(1) أخرجه (م)، ك (الإيمان) ، 2 / 286 ، ح (168).

(2) مـتفق عليه: أخرجه (خ) ، ك (الأدب) ، ب/50 (ما يكره من النميمة) ،1912/4 ، ح (6056)، وأخرجه (م) ، ك (الإيمان) ،286/2 ، ح (169).

(3) صحيح مسلم بشرح النووي: 114/2.

(4) صحيح مسلم بشرح النووي: 2 / 115.

(5) أخرجه (خ) ، ك (الوضوء) ، ب/55 (من الكبائر أن لا يستتر من بوله) ، 91/1 ، ح (216).

(6) فتح الباري : 397/1 .

عـن أبـي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال لأصحابه:**(ألا أخـبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة)**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال : **(إصلاح ذات البين ؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة)** [1].

يقـول العظـيـم آبـادي في شـرحه لقوله –ﷺ– : **(وفساد ذات البين هي الحالقـة)** ، : (أي هـي الخصـلة التـي من شأنها أن تحلق الدين وتستأصله، كما يستأصل الموس الشعر .....وفساد ذات البين ثلمة في الدين) [2].

أي أن الإفســاد، والسعي بين الناس بالنميمة يحلق الدين ويستأصله، وهذا دليل على حبوط العمل، فإن من حلق دينه، تبعه حلقٌ وحبوط لحسناته – والعياذ بالله– .

ثالثاً : الإجماع :

وأمــا الإجمــاع على حرمة النميمة فقد حكاه الإمام النووي قائلاً: ((والنميمة محـرمة بإجمــاع المسلمين، وقد تظاهر على تحريمها الدلائل الصريحة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة)) [3].

النميمة الجائزة :

ليس كل النميمة محرمة، بل هناك حالات تجوز فيها النميمة، كأن يخبر الرجل صاحبه بما يقال فيه إن كان في ذلك مصلحة .

ودليل ذلك ما رواه ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال: **(قَسَمَ رسول الله –ﷺ– قَسْـماً، فقال رجل: إنها قسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فأتيت النبي–ﷺ– فساررته، فغضب من ذلك غضباً شديداً، واحمرَّ وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له، قال : ثم قال:(قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر)** [4].

---

(1) أخرجه (د) في سننه ، ك (الأدب) ، ب/58 (في إصلاح ذات البين)، 2097/4 ، ح (4919)، وأخرجه (ت) ، ك (صـفـة القيامـة) ، ب/56(م 56 – ت121)، 387/4، ح (2509) وصححـه الألباني في صحيحه ، 506/1، ح (2595).

(2) عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط1 1411هـ–1991م ، 178/13 .

(3) الأذكار ص351.

(4) أخرجه(خ) ، ك(فرض الخمس) ، ب/19(ما كان النبي–ﷺ –يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه) ، 9701/2 ،ح(3150) و أخرجه (م)، ك(الزكاة) ، 7/ 126 ، ح(141) واللفظ له.

ولم يرد عن رسول الله -ﷺ- أنه نَهَرَّ أو وبخ ابن مسعود - رضي الله عنه- على ما قاله ، ولكن صبر واحتسب -ﷺ- .

الفرق بين الغيبة و النميمة :

الغيبة والنميمة ، توأمان وهما متغايرتان ، وبينهما فروق.

فالغيبة : هي أن يذكر المسلم أخاه المسلم بظهره بشيء يكرهه، سواء كان بالقول ، أو بالفعل، بما فيه حقيقة ، ولكنه لو سمع ذلك الكلام لما رضى به.

أما النميمة : فهي أن ينقل الإنسان ما سمعه من كلام لمن قيل عنه بهدف الإفساد بين الناس، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، وربما يكون الكلام المنقول غير صحيح، أو مبالغاً فيه، بعكس الغيبة، فما قيل فيها يكون صدقاً، ولو كان كذباً يصبح بهتاناً لا غيبة.

فالنميمة إذن أعم من الغيبة، فهي جمعت معنى الغيبة، وزيادة.

فعلى الذين يسعون بين الناس بالنميمة أن يتقوا الله، وينظروا إلى حجم المصائب التي تسببوا بها، فكم فرقوا بين الأهل والأصحاب، وكم أشعلوا نار الفتنة والحقد والخلاف بين الأحباب، ولْيعلموا أن الله لن يتركهم سدى ، بل سوف يحاسبهم على ذلك، ولا يحسبون أن السعادة التي يشعرون بها عند إيقاع الخلاف بين الناس دائمة، بل هي كالسراب سرعان ما تزول ؛ ليحل محلها الحزن والندم، والأسى والحسرة على أنفسهم قبل غيرهم حين يجدون حبوط عملهم - والعياذ بالله-.

كما يجب على الذين تنقل إليهم النميمة ألا يصدقوا ما يقال لهم، وألا يحقدوا على إخوانهم المسلمين، بل يجب أن يظهروا إسلاميتهم في مثل هذه المواطن، فينهروهم وينهوهم، ولا يصدقوهم، ولْيتأكدوا أن من ينقل لهم ينقل عنهم.

المطلب الرابع: المنُّ في العطاء

(أ) المنُّ لغة :

يقول ابن فارس: الميم والنون أصلان: أحدهما يدل على قطع وانقطاع ، والآخر علي اصطناع الخير، أما ما يدل على اصطناع الخير فهو: منَّ يمنُّ منّاً، إذا صنع صنيعاً جميلاً، وربما قالوا: منَّ بيدٍ أسداها، إذا قَرَّعَ بها، وهذا يدل علي أنه قطع

الإحسان، فهو من الأول [1].

(ب) **المنُّ اصطلاحاً:**

هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها، والتقريع بها، مثل أن يقول : قد أحسنت إليك، وشبهه [2].

وعلـــيه يكون المنُّ: بأن يتحدث المعطي بعطائه أمام من أعطاه ، أو أمام غيره من الناس، إشعاراً بالتفضل عليه.

والمـــنُّ يكسر قلب المُعْطَى، ويشعره بالذل والهوان؛ لذلك كان مفسداً للعطاء، فكثـــير مـــن أهل العطاء يفسدون عطاءهم وبذلهم بالمنِّ على الذين يعطونهم من ذوي الحاجات؛ من أجل ذلك كان المنُّ مبطلاً أجر تلك الصدقة .

مراحل محاربة القرآن الكريم للمنِّ في العطاء :

أَكَّدَ الله – تبارك وتعالى– النهي عن إِتْباع الصدقة بالمنِّ، وصور ذلك النهي في ثلاث مراحل :

الأولى: من خلال بيان أجر عدم المنّ في العطاء.

قـــال الله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [3].

ففـــي هذه الآية الكريمة بيان لمبلغ الأجر العظيـــم للمنفقين في سبيل الله، الذين لا يتبعون ما أنفقوا منّاً، أو أذى .

ومن مفهوم المخالفة أن من أَتْبَعَ صدقته مناً، أو أذى ، فإنه قد حرم نفسه من أجرها.

يقـــول الإمام ابن كثير : ((يمدح الله – تبارك وتعالى– الذين ينفقون في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّاً علي من أعطوه ،فلا يمنُّون به))[4].

ويقول الشنقيطي– رحمه الله – : ((يفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه المنّ والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور)) [5].

---

(1) معجم مقاييس اللغة : 267/5.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 308/3 ، وانظر تفسير أبى السعود :258/1.

(3) البقرة / 262 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 317/1 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي :178/1 .

الثانية : من خلال المقارنة بين العطاء والمنّ، وبين المنع والقول اللين.

قـال تعالى: ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**﴾ [1].

ففي هذه الآية الكريمة صورة للمقارنة بين عطاء يتبعه أذي، ومنع مقرون بقول معروف، لين ، مهذب، وبيان أن هذا خير وأفضل.

ويقـول الإمام الطبري : ((القول الجميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم، وستره علـيه لما علم من سوء حالته، فذلك خير عند الله من صدقة يتصدقها عليه، ثم يتبعها أذىً، يعني: يشتكيه عليها ، ويؤذيه بسببها)) [2].

الثالثة: أن المنَّ يحبط العمل .

قال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى**﴾ [3].

ففـي هـذه الصـورة بـيان أن إتباع الصدقة بالمنِّ والأذى مبطلٌ لها ، مفسدٌ لجوهرها الكريم، محبطٌ للأجر عليها.

يقول ابن كثير– رحمه الله – : ((أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنِّ والأذى، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المنِّ والأذى)) [4].

مـن خـلال هذا العرض القرآني السريع يتضح أن المنَّ في العطاء، وإظهار التفضل علي المعطي، يبطل أجر تلك الصدقة مهمـا كانت، ويجعلها هباءً منثوراً كأن لم تكن .

الصورة البيانية التي رسمها القرآن الكريم لحبوط أجر المنَّان:

شـبه القرآن الكريم حال من يبطل صدقته بالمنِّ والأذي بحال المرائي الذي ليس له أجر أصلاً؛ لأنه لم ينفق في سبيل الله، وإنما أنفق رئاء الناس ، فكلاهما حابط العمـل ومَـثَّل لحبوط أجريهما بالحجر الأملس الذي عليه تراب، فأصابه مطر شديد، أزال الله ما عليه من تراب وتركه أملسَ لا شيء عليه .

---

(1) البقرة / 263 .

(2) جامع البيان للطبري : 89/3 بتصرف .

(3) البقرة / 264 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (1).

خاطب الله – سبحانه وتعالى– في هذه الآيات الكريمة عباده المؤمنين، وطلب منهم أن يلتزموا بآداب الصدقة، فلا يبطلوها بالمنِّ والأذى ، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة؛ ليُشكر بين الناس، فهؤلاء كمثل حجر عليه تراب، فهبطت عليه السماء من مائها ، فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب، فتركه صلداً أملسَ ناعماً ، كذلك المنّ والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة كأن لم يكن، فهؤلاء مهما عملوا فسيحبط الله أعمالهم (2).

قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا**﴾ (3).

ولكن من رحمة الله تعالى بعباده أن المنَّ في العطاء يبطل أجر تلك الصدقة الممنون بها وثوابها فقط، ولا يتعداها إلى غيرها من الأعمال الصالحة.

يقول القرطبي – رحمه الله – : ((قال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ، أو يؤذي بها، فإنها لا تقبل، وقيل: بل قد جعل الله للمَلَك عليها أمارة، فهو لا يكتبها)) (4).

فليحذر المنَّان من حبوط أجر صدقته، وليحافظ على ثواب ما تجود به نفسه، وليعلم أن الشيء المبذول قد خرج من يده ، فليحرص على أن يناله الأجر من ورائه أضعافاً مضاعفة .

قال تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (5).

---

(1) البقرة / 264 .

(2) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 318/1 .

(3) الفرقان / 23 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 311/3 .

(5) البقرة / 261 .

وليحرص على ألا يكون المنُّ سبباً في ضياع المبذول منه، وضياع ثوابه، ونيل العقـــاب عليه يوم يكون في أمس الحاجة لأقل من أجر تلك الصدقة فليبذل، ولا يمنن، ولْيبتغِ الأجر والثواب من رب العالمين .

المطلب الخامس : الاستهزاء والتنابز بالألقاب

بيَّن الله – سبحانه وتعالى– في كتابه العزيز أن جميع المؤمنين أخوة، تربطهم روابـــط المحـــبة، والصفاء، والإخاء، والعطف، والود،.... إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي تقرب القلوب ، وتزيد أواصر الود والمحبة بينهم.
قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾** (1).

كمـــا مـــدح رســـول الله –ﷺ– شدة ارتباط المؤمنين بعضهم ببعض، وَمثَّلهم بالجسد الواحد.

فعـــن النعمان بن بشير – رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله –ﷺ– يقول : **(ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم، و تعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)** (2).

وعلـــى النقـــيض مـــن ذلك تماماً، فقد ذمَّ الله – تعالى– الذين يؤذون المؤمنين والمؤمـــنات، ســـواء بالأقوال، أو الأفعال القبيحة، التي هم بُرَءَاءُ منها، وبيَّن أن ذلك الأذى يشـــبه البهـــتان، والتكذيب الفاحش المختلق، والذي من أمثلته: تعييرهم بِحَسَبٍ مذموم، أو حرفة مذمومة، أو أي شيء يثقل عليهم إذا سمعوه، كما بيَّن – سبحانه– أن أذاهم حرام، وهو كبيرة من الكبائر، وهو جرم من أشد الجرائم (3).

قـــال تعـــالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾** (4).

---

(1) الحجرات / 10 .

(2) أخرجه(خ) ، ك(الأدب) ، ب/27 (رحمة الناس و البهائم) ، 1901/4 ح(6011).

(3) انظـــر الجـــامع لأحكام القرآن للقرطبي:229/14–230 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: 3/ 534 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور:105/22.

(4) الأحزاب / 58 .

وقـــال أيضـــاً -جـــلَّ وعلا- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَـــى أَن يَكُونُوا خَيْـــرًا مِّنْهُـــمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِـــزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [1].

فهاتان الآيتان وغيرهما تنهى المؤمنين عن إيذاء بعضهم بعضاً، وعن السخرية من بعضهم؛ لأنه ربما يكون المسخور منه أفضلَ عند الله – تعالي– من الساخر، كما نهـــى عـــن نـــداء بعضهم بأسماء لا يحبونها، بل يكرهونها، ويتضايقون ويتأذون عند سماعها، وحذَّر – سبحانه وتعالى– من لم ينته عن تلك الأفعال بأنه يعد ظالماً آثماً.

كما ذمَّ رسول الله – صلوات ربي وسلامه عليه – ذلك الإيذاء، وبين أنه فسق، وأنه من صفات المنافقين، وأكد أن المؤمن الحق لا يمكن أن يتصف بالشتم، واللعن في أحاديث كثيرة، أكتفي بذكر أربعةٍ منها :

1. عـــن عـــبد الله بن مسعود– رضي الله عنه–أن النبي –ﷺ– قال: **(سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)** [2].

2. عـــن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما– أن رسول الله –ﷺ– قال: **(أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)** [3].

فهـــذان الحديـــثان الشـــريفان ينهيان المسلم عن سب أخيه المسلم؛ لأن السب واللعن يعتبر فسقاً، كما يوضح الحديث الثاني أن الشتم مردود على صاحبه، إن لم يكن المشتوم أهلاً له.

3. عـــن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله–ﷺ– قال:**(المستبان ما قالا، فعلى البادىء ما لم يعتدِ المظلوم)** [4].

ومعنى الحديث : أن المتشاتمين اللذينِ يسب كل منهما الآخر يكون إثمهما على الذي ابتدأ بالشتم، ما لم يتعدَ المظلوم الحد؛ بأن سبه بأكثرَ وأخسَّ منه ، أما إذا اعتدى

---

(1) الحجرات / 11 .

(2) أخرجه (خ) ،ك(الأدب) ،ب/44(ما ينهى عن السباب واللعن) ،1909/4 ، ح(6044).

(3) أخرجه(خ) ، ك(الأدب) ، ب/73 (من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال) ، 1925/4 ح(6104).

(4) أخرجه (م) ، ك(البر) ، 108/16 ح(68) ، وأخرجـه (د)، ك(الأدب) ، ب/47(المستبان) ، 2086/4 ح (4894) .

فعليهِ إثم ما اعتدى عليه، والباقي على المبتدئ .

والحاصـــل أنـــه إذا سبَّ كل واحد الآخر ، فإثم ما قالا على الذي بدأ بالسب ، وهذا إذا لم يعتدِ ويتجاوز المظلوم الحد [1].

4. وضـــح -ﷺ- أن أذيـــة المســـلمين وشتمهم، وضربهم، والتقليل من شأنهم يحبط العمل، ويأكل الحسنات، وذلك في الحديث المتقدم الذكر: (**أتدرون من المفلس**) [2].

فذكر رسول الله -ﷺ- في هذا الحديث النبوي الشريف أن المفلس من أمته من يأتـــي يـــوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، وقد شتم هذا، وضرب هذا، وأخذ من مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه، ثمَّ يطرح في النار – والعياذ بالله –.

من خلال ذلك يتضح أن شتم المؤمنين، والمؤمنات يُعتبر حرام ، بل هو كبيرة من الكبائر، كما ذكر ذلك القرطبي – رحمه الله – [3].

كمـــا أنَّ الســـبَّ والشتمَ والضربَ يأكل حسنات صاحبه ، حيث يُعطى المشتوم والمضروب من حسنات شاتمه وضاربه بقدر شتمه إياه، فإن فنيت تلك الحسنات، ولم يُـــنْه ما عليه من وزر، أُخذ من سيئات المشتوم، ووضعت على أكتاف الشاتم، وبذلك تُؤخـــذ حسناته منه ، وتوضع عليـــه سيئات أخرى، فيزيد الطين بلة -كما يقولون- ؛ ومـــا ذلك إلا لارتكابه أمراً ربما يكـــون في نظـــره هيناً، بسيطاً، لا وزر من ورائه، ولا حسرة، ولا ندامة.

فأفـــيقوا يا من تؤذون إخوانكم المسلمين بسبب، أو بدون سبب، ليس لشيء إلا لأنـــه أصبح طبعاً متأصلاً فيكم، أفيقوا قبل فوات الأوان، وحافظوا على حسناتكم، فإنه سيأتي يوم تعز فيه الحسنات، ويتنكر الإنسان لأقرب الناس إليه .

قـــال تعـــالى: **﴿يَـــوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾** [4].

---

(1) انظر عون المعبود : 162/13 .

(2) سبق تخريجه ص 117 .

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 230/14.

(4) عبس / 34-37 .

الفصل الثالث

المحبطات الفعلية

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : محبطات فعلية تخرج من الإسلام

المبحث الثاني : محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام

المبحث الثالث : محبطات فعلية مختلف فيها .

الفصل الثالث

محبطـــات فعليـــة

تقـــرر أن الإيمـــان قول ، وعمل ، واعتقاد ؛ لذا لا بدَّ للمسلم أن توافق أعماله الظاهـــرة اعتقاد قلبه ، وأقوال لسانه ، أما إنْ خالفتها ، فيكون قد عصى الله – سبحانه وتعالى– ،وارتكب من الإثم والعقوبة على قدر تلك المخالفة ، فإن كانت المخالفة كبيرة مـــع الاســـتحلال فإنها تخرج صاحبها من الملة ، وبذلك يصبح كافراً ، لا ينفعه عمل صالح .

قال تعالى :**﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** (1).

فـــي هـــذه الآيـــة الكريمة حكـــم الله – سبحانه وتعالى– عليهم بالكفر ؛ وعدم الإيمان ، بسبب توليهم ،وامتناعهم عن الطاعة ، رغم قولهم بلسانهم إنهم مؤمنون بالله ورســـوله ، فلم ينفعهم قولهم ؛ لأنه خالـــف ما وَقَرَ في قلوبهم ، وما صدر عنهم من أفعـــال ، وأمـــا إن كانت المخالفة ، فهذه دون الأولى ، فإنها تغتفر بالتوبة الصادقة ، والاستغفار ، وتجديد الطاعة ، والعهد مع الله – تعالى– .

قـــال تعـــالـــى :**﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِـــرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** (2).

من أجل ذلك كان هذا الفصل ، ليتحدث عن المحبطات الفعلية ، التي تخرج من الإسلام والتي لا تخرج منه ، والمختلف فيها .

---

(1) النور / 47 .

(2) النساء / 48 ، 116 .

المبحث الأول

محبطات فعلية تخرج من الإسلام

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك في العبادة

المطلب الثاني : الاستهانة بالمصحف

المطلب الثالث : الإعراض التام عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به

المطلب الرابع : الولاء المطلق لغير المسلمين .

المبحث الأول

محبطات فعلية تخرج من الإسلام

مـن المعلـوم أن الكفـر قـد يكون تبعاً للعمل الظاهر بالأركان والجوارح ، كالسجود ، والذبح ، والنذر لغير الله ،....إلى غير ذلك .

لـذا قمت بجمع عدد من الأفعال التي تحبط العمل ، وتخرج من الإسلام ؛ كي يحذرَها الناس ، ويبتعدوا عنها ، ولا تكونَ سبباً في هلاكهم ، ودمارهم .

وإنَّ هذا المبحث يشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : الشرك في العبادة

إن الله – سبحانه وتعالى– خلق البشر ؛ ليعبدوه وحده ، ولا يشركوا به شيئاً ، وبذلـك أُرسـلت الرسـل ، وأُنزلت الكتب ، وهذا هو أصل الدين ، حيث يجب أن تصرف جميع أنواع العبـادات لله وحده ، وقد وردت تلك المعاني في عدد من الآيات الكريمة، منها :

1. قال تعالى :﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [1].
2. وقال –عزَّ من قائل– :﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ [2].

ويؤكد ابن القيم – رحمه الله– على وجوب صرف جميع أنواع العبادة لله وحده قائلاً : ((فالسجود ،والعبادة ، والتوكل ، والإنابة ، والتقـوى ، والخشية ، والتحسب ، والـتوبة ، ..... وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً ، والطواف بالبيت ، والدعاء ، كل ذلك محضُ حقِّ لله ، لا يصح ولا ينبغي لسواه : من مَلَكٍ مقرب ، أو نبي مرسل)) [3].

وأمـا ضـد التوحيد في العبادة فهو الشرك ، وهو صرف شيء من العبـادة لغير الله .

---

(1) البقرة / 163 .

(2) النحل / 36 .

(3) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي – المسمى بالداء والدواء – لابن قيم الجوزية ، جمعية إحياء التراث العربي/الكويت ، ط1 1421هـ– 2000م ، ص173 ، 174.

ويبين رسول الله -ﷺ- معنى الشرك في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه- أنه قال قلنا : **يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ...)** [1] الحديث

فهذا الحديث النبوي الشريف يوضح أن الشرك بالله هو من أعظم الذنوب على الإطلاق.

ويوضح ابن القيم - رحمه الله- في قصيدته مظاهر الشرك الأكبر ، ويبين أنه يخرج من الملة ، وبالتالي يحبط العمل قائلاً :

والشركَ فاحذره فشركٌ ظاهر ذا القِسْمُ ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذُ الندِّ للرحمن أيّاً كان من حجرٍ ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان [2]

والشرك في العبادة العملية له مظاهرُ كثيرة جداً، كما ورد في كلام ابن القيم رحمه الله .

ولكني سأكتفي هنا بذكر اثنين منها على سبيل المثال ، لا الحصر .

المظهر الأول : السجود والركوع لغير الله - عزَّ وجل -

إن السجود والركوع عبادتان خاصتان بالله وحده ، تظهر فيهما أسمى معاني التذلل ، والخضوع ، والانقياد ، والحبّ .

وقد أكَّد - سبحانه وتعالى - على هذه الخصوصية حين ذكر في كتابه العزيز أن جميع من في السموات ومن في الأرض يسجد له وحده .

قال تعالى :**﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾** [3].

---

(1) متفق عليه ، أخرجه (خ) ،ك(الأدب) ،ب/20(قتل الولد خشية أن يأكل معه) ،1899/4،ح(6001)، وأخرجه (م) ، ك(الإيمان) ، 261/2،ح(141).

(2) شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ، المكتب الإسلامي / دمشق ، ط1 1394هـ ، 263/2 .

(3) الحج / 18 .

وبالنظر في هذه الآية الكريمة نجد أن الله – تعالى– ذكر أن جميع الأشياء من حيوان، وطير ،وجماد تسجد لله وحده ، ولا تشرك معه شيئاً ، وحينما ذكر الإنسان قال بأن كثيراً من الناس يسجدون لله وحده، مما يدلل على أن أكثر الناس يسجد لغير الله [1] أيْ يشرك معه غيره، وبذلك يكون هؤلاء أخسَّ وأحقر من الحيوان والجماد .

المظهر الثاني : الذبح لغير الله

إن الذبح من العبادات الخالصة لله – تعالى– ، والتي يجب أن يقصد بها التقرب إليه – عزّ وجل– وحده ، ويُسمى نُسُكاً .

قـــال تعالى :﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [2].

والنسك ههنا : الذبيحة [3].

أما من صرفه لغير الله – عزّ وجل– فقد أشرك معه ذلك الغير .

قـــال تعالى : ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ** [4] **وَالْمَوْقُوذَةُ** [5] **وَالْمُتَرَدِّيَةُ** [6] **وَالنَّطِيحَةُ** [7] **وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ** [8] **ذَلِكُمْ فِسْقٌ**﴾ [9].

---

(1) وذلك بصريح القرآن الكريم ومن ذلك :
أ– ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يوسف /103 .
ب– ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ الأنعام /116 .
ج– ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ الإسراء /89 .   إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

(2) الأنعام / 162 ، 163 .

(3) انظـــر جامع البيـــان للطبـــري : 147/8 ، والدر المنثور للسيوطي : 123/3 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 203/2 .

(4) المنخنقة : أي الميتة بخنق .

(5) الموقوذة : هي الميتة بسبب الضرب .

(6) المتردية : أي الساقطة من علو كجبل أو جدار ونحوه .

(7) النطيحة : هي التي تنطحها غيرها فتموت .

(8) الاستقســـام بالأزلام : الأزلام هي قداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية ، مكتوب على أحدها إفعل ، وعلى الثاني لا تفعل ، والثالث لا كتابة فيه . تفسير السعدي : 417/1 ، 418 .

(9) المائدة / 3 .

يقـــول ابن عطيـــة – رحمه الله – عند تفسيره لقوله تعالى :﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّـــهِ بِهِ﴾ : ((يعني : ما ذبح لغير الله تعالى ، وقُصد به صنم ، أو بشر من الناس ، كما كانت العرب تفعل ، وكذلك النصارى ، وعادة الذابح أن يُسميَ مقصوده ، ويصيح به ، فذلك إهلاله)) [1].

وأمـــا قولـــه تعالى :﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ : فقد كانت النصب عبارة عن حجـــارة حول الكعبة ، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، فنهى الله المؤمنين عـــن هـــذا الصنيع ، وحرَّم عليهم أكل هذه الذبائح ، حتى ولو ذكر اسم الله عليها عند الذبح على النصب ، فهذا من الشرك الذي حرَّمه الله ورسوله [2].

يقـــول الشوكاني – رحمه الله – : أما قوله تعالى :﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ : ((فهو إما إشـــارة إلـــى الاستقســـام بالأزلام ، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا ، والفسق : الخروج عن الحدّ، وفي هذا وعيد شديد ؛ لأن الفسق هو أشد الكفر ، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر)) [3] ، [4].

يفهـــم مـــن أقـــوال المفسرين السابقة الذكر أن الذبح لغير الله يعتبر من أنواع الشرك في العبادة ، وأنه محرم شرعاً ، بل هو من أشد أنواع الكفر ، وطالما أنه نوع مـــن أنواع الكفر – باعتبار أنه فسق– ، فيترتب على ذلك أن فاعله خارج من الملة ، حابط العمل ، – العياذ بالله –.

ويؤكـــد هـــذه المعانَي الإمام النوويُّ حين حكم على الذابح لغير الله بالكفر، وبالتالـــي الخروج من الملة ؛ لأنه اعتبـــره كالســـاجد لغيـــره تعالى تماماً ، فيقول : ((اعلم أن الذبح للمعبود ، وباسمه نازلة منزلة السجود له ، وكـــل واحـــد منهما نوع من أنواع التعظيـــم ، والعبـــادة المخصوصة بالله –تعالـــى– ، الذي هـــو المستحق

---

(1) المحـــرر الوجـــيز فـــي تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، (ت) عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبد العال إبراهيم ، ط1 1403هـ–1983م ، 21/5 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير :11،12/2 بتصرف .

(3) فتح القدير للشوكاني : 10/2 .

(4) لعـــل الإمام الشوكاني – رحمه الله– يقصد بذلك المعتزلة ، الذين يقولون أن مرتكب الكبائر ، لا يعتبر مؤمناً مطلقاً ، ولا كافراً مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ، ولا كافر .

انظر الملل والنحل : ص 48 .

لهـــا ، فمــن ذبح لغيــره من حيــوان ، أو جماد ، كالصنم على وجــه التعظيم ، والعــبــادة ، لــم تَحــلّ ذبيحتــه ، وكــان فعلــه كفــراً ، كمن ســجد لغيــره سجــدةَ عبادة)) [1].

ويقــول ابن القيم – رحمه الله – في معرض حديثه عن شرك العبادة : ((وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل)) [2].

أسلوب القرآن الكريم في تقرير كون السجود والركوع عبادة خاصة لله وحده :

اســتخدم القــرآن الكريم عدة أساليبَ في تقرير تلك المعاني ؛ وذلك للمغايرة ، والتأكيد ، ولبيان أهمية الموضوع ، ومن تلك الأساليب :

أولاً : أسلوب الأمر :

اســتخدم القــرآن الكــريم أسلوب الأمر ، حيث أمر – سبحانه وتعالى– عباده المؤمنين بالسجود والركوع له وحده ، وبيَّن أن ذلك هو سرُّ الفلاح والفوز .

قــال تعالى :**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [3].

يقــول السعدي – رحمه الله – : ((يأمر – تعالى– عباده المؤمنين بالصلاة ، وخَصَّ منها الركوع والسجود ؛ لفضلهما ، وركنيتهما ، وعبادته التي هي قرة العيون ، وسلوة القلب المحزون ، وإن ربوبيته وإحســانه على العباد تقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة ، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلــق – تعالى– الفلاح على هــذه الأمــور ، فقــال :**﴿لَعَلَّكُــمْ تُفْلِحُونَ﴾** . أي : تفــوزون بــالمطلوب المــرغوب ، وتَنْجُونَ من المكروه المرهوب ، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق ، والسعي في نفع عبيده ، فمن وفق لذلك فله القدح المُعَلَّى [4] من السعادة ، والنجاح، والفلاح)) [5].

---

(1) روضــة الطالبين : 205/3 ، 206 .

(2) الجواب الكافي ص 169 .

(3) الحج / 77 .

(4) هــو القِدْح السابع في الميسر ، وهو أفضلها ، فإذا فاز حاز سبعة أنصاب من الجزور ، وهو كناية عن قمة السعادة ، وأكثرها حظاً . انظر لسان العرب : 383/9 .

(5) تفسير السعدي : 110/2 ، 111.

ثانياً : أسلوب النهي

كما استخدم القرآن الكريم أسلوباً مضاداً، وهو النهي عن السجود والركوع لغير الله – تعالى– ، مبيناً أن ذلك هو عين الشرك به – جلّ وعلا–.

قال تعالى :﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [1].

يقول ابن عاشور – رحمه الله – : ((أي لا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به)) [2].

يفهم من هذه العبارة أن الشرك لا يغفر أبداً ، والصحيح أن الشرك لا يغفر لمن مات دون توبة ، أما من تاب وآمن وعمل صالحاً فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ومنها الشرك ، ودليل ذلك في قوله تعالى :﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [3].

وقد يستدل بقوله تعالى :﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [4].

يفهم من الآية السابقة الذكر أن عدم السجود لغير الله – تعالى – ، سواء كان شمساً ، أو قمراً ، أو غيرهما ، هو من صفات المؤمنين ، المخلصين العبادة لله وحده ومن مفهوم المخالفة ، أن السجود لأي شيء غير الله – عزّ وجل – يعتبر شركاً ، بل هو عين الشرك ، وبذلك يخرج فاعله من الإسلام ، وبالتالي يحبط ، ويبطل عمله ، – والعياذ بالله –.

ومن أدلة حبوط العمل بالشرك قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [5].

---

(1) فصلت / 37 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 102/4 .

(3) الفرقان / 68–70 .

(4) الأنفال / 38 .

(5) الأنعام / 88 .

وقوله :﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [1].

يقـــول القرطبي – رحمه الله – : ((وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جُهَّال المتصـــوفة عادة في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيُرَى الواحد مـــنهم إذا أخـــذه الحال – بزعمه– يسجد للأقدام الجهلة ، سواء كان للقبلة ، أم لغيرها جهالة منه ، ضلَّ سَعْيُهم ، وخاب عَمَلُهم)) [2].

ثالثاً : أسلوب المدح

وكذلك استخدم القرآن الكريم أسلوب المدح للذين لا يسجدون إلا لله وحده، دون سأم أو ملل ؛ لعله يكون سبباً في إخلاص العبادة له وحده – جلَّ وعلا – .

1. قال تعالى :﴿ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ**﴾ [3].
2. وقـــال أيضاً :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾ [4].

أي أن مـــن سجد لله وحده ، فقد خضع وانقاد له – جلَّ وعلا –، وحقق كمال الذل والمحبة لله – تعالى – ، أما إن تكبـــر الكفـــار عن توحيد الله ، وإفراده بالعبادة والتي – منها السجود والركوع – فقد توعدهم الله – تعالى – بالعذاب المهين .

وقـــد مـــدح الله – تعالى– مَنْ عنده من الملائكة لأنهم يسبحون له ، ويعبدونه ويـــنزهونه دائمـــاً ليلاً ونهاراً، وهم لا يملون من عبادته ؛ لاستلذاذهم لها ، وحلاوتها عـــندهم ، مـــع خوفهـــم منه –جلَّ وعلا – ، كما قال تعالى :﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**﴾ [5].

وبهـــذا يـــتقرر أن السجود والركـــوع لغير الله شرك مخرج من الملة ، محبط للعمل ؛ لذا يجب تركه فوراً – لمن ابتُلي به – .

---

(1) الزمر / 65 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 307/1 .

(3) فصلت / 38 .

(4) الأعراف / 206 .

(5) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 88/7 ، 89 ، والآية في الرعد / 13 .

أقوال العلماء في الحكم على الساجد والراكع لغير الله – تعالى- :

وبالـــرغم مـــن وضـــوح الحكم بالشرك ، والخروج من الإسلام على الساجد والـــراكع لغير الله تعالى ، إلا أننا نؤكد ذلـــك ببعض أقـــوال العلماء الأفاضـــل فـــي هذه المسألة :

1. يقول ابن نجيم الحنفي : ((والسجود للجبابرة كفر إن أراد به العبادة ، لا إن أراد به التحية على قول الأكثر)) [1].
2. ويقول القاضي عياض : ((وكذلك نُكفـــِّر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا [2] مـــن كافـــر ، وإن كان صاحبه مصرحاً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل كالسجود للصنم ، أو الشمس، والقمر ، والصليب ، والنار)) [3] .

المطلب الثاني : الاستهانة بالمصحف [4]

إن القرآن الكريم هو كلام الله – عزَّ وجل- ، نزل به الروح الأمين على قلب خير المرسلين – عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم – والدليل على ذلك :

1. قال تعالى :**﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾** [5].
2. وقال –جلَّ وعلا- :**﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾** [6].

ومـــن المؤكد أنه لا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة ، ومن علم أن يأتي بشيئٍ من مثله ؛ لذا وجب تعظيمه وتوقيره ، وإجلاله ؛ لأنه لا يتم إيمان عبد إلا بذلك .

قال تعالى :**﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** [7].

---

(1) الـــبحر الرائق ، شـــرح كنـــز الرقائق، لابن نجيم الحنفي ، دار الكتاب الإسلامي ، – بدون تاريخ – : 134/5 .

(2) ساقطة في الأصل .

(3) الشفا : 1072/2 .

(4) الاستهانة تعني: الاستخفاف، والاستهزاء، والاحتقار، انظر لسان العرب: 164/15، ومختار الصحاح : ص702 .

(5) الفرقان / 1 .

(6) الزمر / 23 .

(7) الإسراء / 88 .

الدليل على أن القرآن الكريم كلام الله – تعالى– ، وليس بكلام البشر :

من المعلـــوم من الدين بالضرورة أن القرآن الكريم كلام الله – تعالى– ، وأنه لا يســـتطيع أحـــد مضـــاهاتَه ، ولن يدخله التحريف والتبديل مهما طال الزمان ، ولن يستطيع المشككون بالرغم من مساعيهم الجبَّارة الدؤوب أن يجدوا فيه اختلافاً لو كانوا منصفين .

قـــال تعـــالى :**﴿أَفَـــلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾** [1].

1. يقـــول ابـــن عطية – رحمه الله – : ((هذا أمر بالنظر والاستدلال ، ثم عرَّف تعالى بمواقع الحجة ، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من قصور وظهر فيه التناقض ، والتنافي الذي لا يمكن جمعه ، إذ ذلك موجود في كلام البشر ، والقـــرآن منزه عنه ، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً ، فإن عرضت لأحد شبهة، وظـــن اختلافـــاً في شيء من كتـــاب الله ، فالواجب أن يتهم نظره ، ويسأل من هو أعلم منه)) [2].
2. ويقـــول محمد رشيد رضا : ((وإن تعجب فعجب أن تمرَّ السنون ، والأحقاب ، وتكرَّ القرون ، والأجيال ، وتتسع دوائر العلوم والمعارف ، وتتغير أحوال العمران ، ولا تـــنقص كلمـــة مـــن كلمات القرآن ، لا في أحكام الشرع ، ولا في أحوال الناس وشئون الكون ، ولا في غير ذلك من فنون القول)) [3].

صور الاستهزاء بالمصحف المخرج من الملة :

والاستهانة بالمصحف قد تكون قولية ، وقد تكون عملية .

ومـــن الاســـتهانة العملـــية بالمصحف : أن يفعل متعمداً ما من شأنه أن يعتبر احتقـــاراً ، واستخفافاً به، مثل أن يلقيـــه في القاذورات ، أو يضعـــه تحت قدميـــه ، أو يحـــاول تغييره بالزيادة والنقصان ، كما انتشر ذلك عند بعض الفرق – التي تَدَّعي الإسلام– فحاولوا تغييره ، وتحريفه ؛ كي يوافق مذاهبهم ، ويتلاءم مع ما يحملونه من أفكار ضالـــة ، ولكنهم نســـوا أن ذلك لن يكون ؛ لأن الله –عزَّ وجل– قد تعهد، بحفظ

---

(1) النساء / 82 .

(2) المحرر الوجيز لابن عطية : 83/2 .

(3) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 289/5 .

كتابه من كل ما من شأنه أن يضرَّ به .

قال تعالى :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1].

صور حفظ الله – تعالى – للقرآن الكريم :

والحفظ للقرآن الكريم من عدة وجوه ،وضَّحها العلماء حين فسروا الآية الكريمة السابقة، وسأذكر تلك الصور من خلال ذكر أقوال بعض المفسرين – رحمهم الله – .

1. قال الطبري – رحمه الله – : (يقول – تعالى ذكره– ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ : وهو القرآن ،﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه ، أو ينقص منه ما هو منه، من أحكامه، وحدوده، وفرائضه) [2].

2. وقال أبو السعود – رحمه الله – : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من كل ما لا يليق به ، فيدخل فيه تكذيبُهم له ، واستهزاؤهم به دخولاً أولياً ، فيكون وعيداً للمستهزئين ، وأما الحفظ من مجرد التحريف ، والزيادة ، والنقص ، وأمثالها فليس بمقتضى المقام ، فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه ، والمجادلة في حقيقته .

ويجوز أن يراد حفظه بالإعجاز دليلاً على التنزيل من عند الله ، إذ لو كان من عند غيره لتطرق إليه الزيادة ، والنقص ، والاختلاف) [3].

3. وقال الألوسي : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من كل ما يقدح فيه كالتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وغير ذلك ، حتى إن الشيخ المهيب لو غيَّر نقطة يرد عليه الصبيان ، ويقول له من كان : الصواب كذا) [4].

الحكم على المستهزئ بالمصحف بالكفر :

إن الاستهانة بالمصحف الشريف تناقض الإيمان ، وتنافيه بالكلية ، فإن الله – تعالى– قد حكم على المستهزئ بكلامه ، وآياته بالكفر ،والخروج من الملة ، وبالتالي حبوط عمله الصالح .

---

(1) الحجر / 9 .

(2) جامع البيان للطبري : 11/14 .

(3) تفسير أبي السعود : 68/5 .

(4) روح المعاني للألوسي : 16/14 .

قال تعالى :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ . لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [1].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((من استهزأ بشيءٍ من كتاب الله ، وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر، أو تنقصَّه ......فإنه كافر بالله تعالى)) [2].

كما توعد الله – سبحانه وتعالى– من يستهزئون بالمصحف ، ويتخذون آياته هزواً بالعذاب المهين ، والخلود في النار ، وبئس القرار – والعياذ بالله – والدليل على ذلك :

1. قال تعالى :﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [3].

2. وقال – عزَّ وجل– :﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ . ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [4].

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن الله – تعالى– أعدَّ للمستهزئين بالمصحف العذاب الأليم، المهين، المخزي ، وتوعدهم بأنه لن يكون لهم مأوى وقرار سوى الخلود في النار ، وما ذلك العقاب والعذاب ؛ إلا لأنهم استهانوا بكلامه المتمثل في المصحف واستخفوا به ، فدَّل ذلك على تكذيبهم واستهانتهم بمن أنزله ، وتكلم به ، وبذلك يكونون قد هدموا أصول الدين كاملة ، ونقضوا الشريعة ، فحقَّ عليهم الوعيد والعذاب.

أقوال العلماء في الحكم على المستهزئ :

أجمع العلماء الأفاضل على أن من زاد شيئاً في القرآن ، أو نقص منه ، أو حرَّف فيه ، أو بدله ، أو استهان به بأي شكل من الأشكال، بأنه كافر، وخارج من الإسلام ، وقد حكَى ذلك عددٌ كبير منهم أكتفي بذكر ثلاثة أقوال لهم :

---

(1) التوبة / 65 ، 66 .

(2) تفسير السعدي : 708/1 .

(3) الجاثية / 9 .

(4) الجاثية / 34 ، 35 .

1. يقول القرطبي – رحمه الله – : ((لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله – تعالى– ،الذي جاء به محمد –ﷺ– معجزة له ، وأنه محفوظ في الصدور ، مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، معلوم على الاضطرار سوره ، وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه ، وكلماته ، فلا يحتاج في تعريفه بِحَدٍّ ، ولا في حصره بِعَدٍّ ، فمن ادَّعى زيادة عليه، أو نقصاناً منه، فقد أبطل الإجماع، وبَهَت الناس، وردَّ ما جاء به الرسول –ﷺ– من القرآن المنزل عليه، وردَّ قوله تعالى :﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [1] ، وأبطل آية رسوله – عليه السلام – ؛ لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدوراً عليه ، حين شِيبَ بالباطل ، ولما قُدر عليه ، لم يكن حجة ، ولا آية ، وخرج من أن يكون معجزاً)) [2].

2. ويقول ابن حزم – رحمه الله – : ((إن العلماء اتفقوا على أن كل ما في القرآن حق ، وأن من زاد فيه حرفاً من غير القراءات المروية ، المحفوظة ، المنقولة نَقْلَ الكافة ، أو نقص حرفاً، أو بدلَّ منه حرفاً مكان حرف ، وقد قامت عليه الحجة أنه من القرآن ، فتمادى متعمداً لكل ذلك، عالماً بأنه بخلاف ما فعل ، فإنه كافر)) [3].

3. وقال النووي – رحمه الله – : ((الأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح،.....كإلقاء المصحف في القاذورات)) [4].

وبذلك أصبح واضحاً وضوحاً لا مجال فيه للشك أن المستهين بالمصحف أو المستهزئَ به، المحتقر له ، كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة ، محبطاً لأعماله ؛ لأنه كما هو معلوم أن شرف العلم تبعٌ للمعلوم ، فكذلك شرف القول تبعٌ للقائل ، والقرآن كلام الله – عزَّ وجل – فإن من استهزأ بشيء من كلامه – جلَّ وعلا – كأنه استهزأ به – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – ،وأيُّ ذنب أعظم، وأيُّ جرم أكبر

---

(1) الإسراء / 88 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 97/1 .

(3) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات لابن حزم ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، – بدون تاريخ– ، ص174 .

(4) روضة الطالبين : 64/10 ، وانظر نهاية المحتاج : 416/7 ، ومغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للنووي،مطبعة مصطفي البابلي الحلبي ، 1387هـ–1958م : 136/4.

من الاستهزاء بالله ، أو بكلامه ، وبذلــك يستحق المستهزئ العقــاب الــذي أعده الله – جلَّ وعلا – له بجدارة .

المطلب الثالث : الإعراض التام عن دين الله لا يتعلمه ، ولا يعمل به

إن الإيمان الحقيقي يتضمن طاعة وانقياداً لله – تعالى– ، وتسليماً وقبولاً للحق الــذي أنزله الله على رسوله الكريم – عليه الصــلاة والسلام– ، واستجابة وخضوعاً لدين الله – جلّ وعلا– .

أمــا الإعــراض عن دين الله فإنه ينافي الإيمان ، ويضاده بالكلية ؛ حيث إنه يخرج فاعله من دائرة الإسلام ،وبالتالي يؤدي إلى حبوط عمله .

الآثار المترتبة على الإعراض عن دين الله :

رتّــب الله – سبحانه وتعالى– للمعرضين عن دينه إعراضاً تاماً عدة أوصاف ذميمة أذكر منها :

(أ) الوصف بعدم الإيمان

قــال تعالى :﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [1].

يقــول النسفي – رحمه الله – : ((قوله :﴿**وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ : فيه إعلام مــن الله بأن جميعهم منتفٍ عنهم الإيمان ؛ والإعراض وإن كان من بعضهم ، فالرضا بالإعراض من كلهم)) [2].

كما يقول ابن كثيــر : ((وقوله تعالى :﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْــنَهُمْ**﴾،أي : إذا طُلِــبوا إلى اتباع الهُدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه، واســتكبروا فــي أنفســهم من اتباعه ... وأياً مّا كان فهو كفر محض،والله عليم بكل منهم،وما هو منطوٍ عليه من الصفات)) [3].

---

(1) النور / 47 ، 48 .

(2) تفسير القرآن الجليل ،المسمىبمدارك التنزيل، وحقائق التأويل للنسفي، دار الكتاب العربي،بيروت/لبنان – بدون تاريخ– : 516/2،بتصرف يسير.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 307/3 ، 308 .

فكلام ابن كثير – رحمه الله- هذا يؤكد على عدم إيمان المعرض عن دين الله – جلَّ وعلا- .

(ب) الوصف بالكفر صراحة .

قال تعالى :**﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾** [(1)].

يقول البيضاوي : ((وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم ، والدلالة على أن التولي كفر ، وأنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله ، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين)) [(2)].

وكذلك يقول أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة ، والإشعار بعلته ، فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم ، والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر)) [(3)].

(ج)الوعيد بالخلود في النار :

ومما يؤكد على كفر المعرضين عن دين الله ، أن الله – سبحانه وتعالى- توعدهم بالخلود في النار.

قال تعالى :**﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾** [(4)].

يقول الشوكاني – رحمه الله – : ((أي لا يصلاها صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى ،.... الذي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان)) [(5)].

(د) الوصف بالنفاق.

ولم يقف الحال عند وصف المعرضين بالكفر ، وعدم الإيمان ، وتوعدهم بالخلود في النار بل وصفهم تعالى بوصف آخر ، وهو النفاق ، وقد مرَّ في كفر

---

(1) آل عمران / 32 .

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى : 156/1 .

(3) تفسير أبي السعود :25/2 ، وانظر روح المعاني للألوسي :130/3 .

(4) الليل / 14-16 .

(5) فتح القدير للشوكاني : 453/5 .

الـــنفاق أن خطر النفاق على الإسلام والمسلمين أشدُّ من خطر الكفر الصريح ، إضافة إلى أن النفاق الأكبر يؤدي إلى الخروج من الإسلام ، وبالتالي يؤدي إلى حبوط العمل.

قـــال تعـــالى :﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾ [1].

(هـ) الوقوع في النفاق :

لما كان الله أعدل الحاكمين ، وبما أن الجزاء من جنس العمل فإن الله – سبحانه وتعـــالى- قـــد جـــازى المعرضين ، وعاقبهم على توليهم عن دينه ، وإعراضهم عن طاعـــته؛ بســـبب الـــنفاق الموجود في قلوبهم ، بالوقوع في النفاق ، أي أن الإعراض أصـــبح هـــو الســـبب في وقوع صاحبه في النفاق ، فيكون النفاق جزاءً على توليه ، وإعراضه .

قـــال تعالى :﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِـــنَ الصَّـــالِحِينَ . فَلَمَّـــا آتَـــاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَـــبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ** ﴾ [2].

أي أنهم حينما أعرضوا عن طاعة الله، وامتنعوا عن إخراج صدقات ما منَّ به الله علـــيهم مـــن فضله؛ بسبب البخل والشح، أعقبهم الله نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها [3].

يفهم من كل ما سبق أن الإعراض عن دين الله أمر خطير نتيجته الخروج من الإسلام ، والدخول في الكفر ، والقرار في النار ، والوصم بعار النفاق ، مما يؤدي إلى ضياع الأجر ، وحبوط ثواب العمل .

هـــــذه بعـــض الآثـــــار المترتـــبة على الإعراض عن دين الله –عزَّ وجل– إعراضاً تاماً ، والتي بموجبهـــا خرج المعرض من الإسلام بالكلية ، ودخل في الكفر – والعياذ بالله – .

---

(1) النساء / 61 .

(2) التوبة / 75-77 .

(3) انظر فتح القدير للشوكاني : 384/2 ، 385 .

ولكن يوجد آثار سيئة ، وعواقب وخيمة أخرى مترتبة على الإعراض ، ولكنها دون الأولى . تقع للمعرض في الدنيا والآخرة ؛ بسبب توليه وإعراضه عن دين الله .

وقد أورد الشنقيطي – رحمه الله– جملة من تلك العواقب ، والآثار عند تفسيره لقولـــــه تعالى :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَــدَاهُ إِنَّــا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [1].

قــائلاً : ((ومـــا ذكره – تعالى– في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم ، قد زاد عليه في مواضع أُخر بيان أشياء في النتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة ؛ ومن تلك النتائج :

1. أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً.
2. ومن نتائجه السيئة جعل الأكنة على القلوب ؛ حتى لا تفقه الحق ، وعدم الاهتداء أبداً .
3. ومـــنها : انتقـــام الله – جلَّ وعلـا– من المعرض عن التذكرة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَــنْ أَظْلَــمُ مِمَّــن ذُكِّــرَ بِآيَاتِ رَبِّـــهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [2].
4. ومنها : كون المعرض كالحمار .

قال تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [3].

5. ومنها : الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

قال تعالى :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [4].

6. ومنها : تقييض القرناء من الشياطين .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ[5] عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾)) [6].

---

(1) الكهف / 57 .

(2) السجدة / 22 .

(3) المدثر / 49 ، 50 .

(4) فصلت / 13 .

(5) أي يعرض ويصد . تفسير السعدي : 630/2 .

(6) أضواء البيان للشنقيطي : 110/4 بتصرف يسير ، والآية في الزخرف / 36 .

وباســتقراء آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الإعراض ، وجدت عدداً آخرَ من الآثار المترتبة عليه ، أذكر منها :

1. أنه سبب في وقوع البلايا والمصائب :

قال تعالى :﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [1].

يقــول ابن عاشور : ((أي فإن حكمت بينهم بما أنزل الله ، ولم تتبع أهواءهم ، وتولَّوا ،.. فتلك أمارة أن الله أراد بهم الشقاء والعذاب ببعض ذنوبهم ، وليس عليك في توليهم حرج ، وأراد ببعض الذنوب بعضاً غير معين ، أي أن بعض ذنوبهم كافية في إصابتهم ، وأن توليهم عن حكمك أمارة خذلان الله إياهم)) [2].

2. إن الإعراض والتولي يعتبر سبباً في وصف المُعْرِض بصفة الفساد :

قال تعالى :﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [3].

أي أن المعرضين إضافة إلى الصفات السابقة قد وصموا على جبينهم بوصمة الفساد، والانحلال.

3. إن الإعــراض عــن الديــن يعتــبر سبباً في ضيق الصدر ، وعدم الطمأنينة ، واستمرار حالات القلق ، وهوان العبد على ربه في الدنيا والآخرة :

قــال تعالى :﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِــيَامَةِ أَعْمَــى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [4].

يقــول ابــن كثير – رحمه الله – : ((أي : من خالف أمري ، وما أنزلته على رسولي ، وأعرض عنه وتناساه ، وأخذ من غيره هداه ، فإن له معيشة ضنكاً في الدنيا فــلا طمأنيــنة له ، ولا انشراح لصدره ،بل صدره ضيق حرج ؛ لضلاله ،وإن تَنَعَّمَ ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق ، وحيرة ، وشك ، فلا يزال في ريبه يتردد)) [5].

---

(1) المائدة / 49 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 226/6 ، 227.

(3) آل عمران / 63 .

(4) طه / 124-126 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 173/3 بتصرف يسير جداً .

وبالنظر إلى النتائج يتضح عظم الذنب الذي ترتبت عليه تلك الآثار ، فعُلم بذلك أن الإعراض أمره خطير ؛ لأن معناه أنه يرفض الحق النازل من عند الله – عزَّ وجل – ، وبالتالي رفض المنزّل له ، كما أنه يرفض الانصياع والانقياد لمن نزل عليه – عليه الصلاة والسلام– وهذا من أعظم الذنوب ؛ لذلك استحق المعرض جميع الآثار المترتبة على فعله ، والتي يكفي منها أنه أصبح بإعراضه كافراً ، خارجاً من الملة ، بكل ما يترتب على ذلك الخروج من آثار .

وبالرغم من وضوح الحكم على المعرض بالكفر ، وعدم الإيمان ، إلا أنني سأختم بذكر حكم ابن القيم – رحمه الله– في هذه المسألة عند ذكره لأنواع الكفر . فيقول : ((...وكفر إعراض محض ، لا ينظر فيما جاء به الرسول ، ولا يحبه ، ولا يبغضه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه ، بل هو معرض عن متابعته ، ومعاداته)) .

المطلب الرابع :الولاء المطلق لغير المسلمين وآثاره

إن الولاء والبراء شرط في قبول العمل .

قال تعالى :﴿ **تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [1].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((إن الإيمان بالله ، وبالنبي ، وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاة ربه ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة من كفر به وعاداه ، ووقع في معاصيه ، فشرط ولاية الله والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء)) [2].

والولاء والبراء من أعمال القلب ، فالقلب هو في الأصل من يوالي ، أو يعادي ، ولكن تظهر آثارها على اللسان والجوارح ، من أجل ذلك تمَّ إدراجها ضمن المحبطات الفعلية ؛ لأنه أشد ما تظهر آثارها على أفعال الموالي .

فالأصل في الإنسان المسلم أن يكون ولاؤه لله – سبحانه وتعالى– ، ولرسوله –ﷺ– وللمؤمنين ، وأن يكون براؤه من أعداء الله ، أعداء الدين .

---

(1) المائدة / 80 ، 81 .

(2) تفسير السعدي : 468/1 .

قال تعالى :﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [1].

أما إذا انقلب الحال ، وأصبح ولاء الإنسان – الذي يعتبر نفسه مسلماً– لأعداء الله ، فإن تلك الموالاة تنافي الإيمان ، وتناقضه بالكلية ؛ إذا كانت الموالاة مطلقة .

فالموالاة إذن لأعداء الله تخرج من الإسلام ، ويصبح الموالي كافراً .

وقد فرق بعض العلماء بين التولي والموالاة ، ولكن جمهور المفسرون فسروا التولي بالموالاة ، واعتبروهما بمعنى واحد من خلال تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، ومنها :

1. قال تعالى :﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [2].

يقول ابن عطية – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((أي والاهم ، واتبعهم في أعراضهم)) [3].

2. وقال – جلَّ وعلا – : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [4].

يقول البيضاوي – رحمه الله – : ((أيْ من والاهم منكم ، فإنه من جملتهم ، وهذا للتشديد في وجوب مجانبتهم)) [5].

ولما كانت موالاة الكفار على هذه الدرجة من الخطورة ، وَجَبَ أن نتعرف على معنى الولاء ، والبراء أولاً ، ثم على بعض مظاهر موالاة الكفار الفعلية ، التي تخرج من الإسلام ثانياً ، ثم التعرف على الآثار المترتبة على هذه الموالاة ثالثاً .

أولاً : معنى الولاء والبراء

(أ) **معنى الولاء** : المحبة ، والمودة ، والقرب [6].

(ب) **والبراء** : هو البغض ، والعداوة ، والبعد [7].

---

(1) المائدة / 55 .

(2) التوبة / 23 .

(3) المحرر الوجيز لابن عطية : 18/3 .

(4) المائدة / 51 .

(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي :270/1 ،وانظر فتح القدير للشوكاني :50/2 .

(6) انظر لسان العرب :404/15 ، ومختار الصحاح ص736 .

(7) انظر نفس المرجع :354/1، 355 ،ونفس المرجع ص45 .

وأصل الموالاة الحب ، وأصل المعاداة البغض ، وينشأ عنهما من أعمال القلوب ، والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة ، والمعاداة كالنصرة ، والأنس ، والمعاونة ، وكالجهاد ، والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال [1].

ثانياً : مظاهر الموالاة

إن لموالاة الكفار الفعلية مظاهر عديدة ، كلها تخرج صاحبها من الإسلام ، وتدخله في الكفر ؛ إن كانت الموالاة مطلقة ، أذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

1. القيام في ديارهم ، وبين أظهرهم – بغير ضرورة تبيح ذلك – ،والرضى بدينهم .

قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾** [2].

يقول ابن كثير – رحمه الله – : ((هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع)) [3].

أما إن كانت هناك ضرورة ، – كالعلاج أو غيره– وهو قادر على إقامة شعائر دينه ، فلا حرج في ذلك ؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات [4].

2. طاعة الكفار في التشريع ، والتحليل ، والتحريم ،....وغير ذلك من الأمور .

قال تعالى :**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾** [5].

---

(1) الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد سالم القحطاني ، دار طيبة / الرياض ، ط2 1404هـ ، ص : 42 .

(2) النساء / 97 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 542/1 .

(4) انظر الأشباه والنظائر للشيخ العلامة جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/ لبنان ، – بدون تاريخ– ، 269/1 .

(5) آل عمران / 100 .

يقول أبو السعود – رحمه الله– : ((وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم ، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية ، فإنه في قوة أن يقال : لا تطيعوا فريقاً)) (1).

فيجب على الإنسان المسلم أن يكون انقياده ،وانصياعه لله رب العالمين ، وأن يأخذ جميع الأحكام والتشريع من القرآن والسنة فقط ، وأن يبتعد ، ويقاوم ويحارب الأحكام الوضعية، التي يضعها أعداء الدين بقصد هدمه ، والقضاء عليه حتى لو أعجبتهم ، وكانت أيسر عليهم من أحكام القرآن ، فإن الخير دائماً فيما يختاره الله – جلَّ وعلا– .

أما من يفعل ما يُنهى عنه ، وينصاع لهم ، وينقاد لأحكامهم ،فإن الله – سبحانه وتعالى– قد حكم عليه بالكفر ، والخروج من الدين .

3. طاعتهم في الطعن في الإسلام ،والتشكيك فيه، بقصد هدمه وتصدعه من الداخل .

قال تعالى :**﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾** (2).

يقول ابن عاشور : ((أي وإن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه ، وهو الطعن في الإسلام ، والشك في صحة أحكامه ....إنكم لصائرون إلى الشرك)) (3).

آثار الولاء المطلق لغير الله :

انطلاقاً من قوله تعالى :**﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾** (4).

فإنه لا بد وأن تُرتب على تلك المظاهر ، والصور لموالاة الأعداء آثار ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل ؛ وتحقيقاً للعدل الإلهي ، ومصداقاً لقوله تعالى :**﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** (5).

---

(1) تفسير أبي السعود : 64/2 .

(2) الأنعام / 121 .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور : 42/8 .

(4) النساء / 123 .

(5) الزلزلة / 7 ، 8 .

ومن هذه الآثار :

1. **حلول سخط الله – تعالى– ، والخلود في العذاب :**

إن مظاهــرة الكفــار ضـــد المسلمين تعتبر سبباً موجباً لسخط الله – تعالى– وللخلود في عذابه – جلّ وعلا– .

قـــال تعـــالى :**﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾** [1].

يقـــول ابـــن كثير – رحمه الله– : ((وقوله :**﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾** يعني بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالاة المؤمنين ، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم)) [2].

2. **هوان المُوالي للكفار على الله – عزّ وجل – :**

قـــال تعالى :**﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ﴾** [3].

يقول الطبري – رحمه الله – : ((ومعنى ذلك : لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظَهْراً وأنصاراً ، توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني بذلك : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ؛ بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر)) [4].

فالطبري – رحمه الله – يحكم على الموالي للكفار موالاة تامة ، دون أن يكون له عذر لذلك ، كخوف كيدهم وبطشهم، بالكفر والارتداد عن الدين ، وبذلك يتأكد كون الموالي كافراً ، خارجاً من الإسلام – والعياذ بالله – .

3. **الحكم عليه بالنفاق :**

إن مظاهـــرة الكفار على المسلمين شعبة من شعب النفاق ،وخصلة من خصال المنافقين .

---

(1) المائدة / 138 ، 139 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 86/2 .

(3) آل عمران / 28 .

(4) جامع البيان للطبري : 309/3 .

قال تعالى :﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((إن ذلك العذاب الأليم ؛ بسبب محبتهم الكفار ، وموالاتهم ، ونصرتهم ، وتركهم لموالاة المؤمنين ، .....وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين ، وترك موالاة المؤمنين ،وأن ذلك من صفات المنافقين ، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين ، وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم)) [2].

4. الحكم عليه بالكفر :

ومن مظاهرها أيضاً : خروج المتولى من الإسلام ، ودخوله في الكفر ، وتطبيق أحكامه عليه ، وهو من أخطر المظاهر على الإطلاق ؛ فلو لم يكن للمتولى أمر غير هذا لكفاه ، وكان سبباً في هلاكه ودماره ، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة .

قال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [3].

يقول الطبري – رحمه الله – : ((من تولاهم ، ونصرهم على المؤمنين ، فهو من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتولى متولٍ أحداً إلا وهو به وبدينه ، وما هو عليه راضٍ ، وإذا رضيه ، ورضي بدينه؛ فقد عادى ما خالفه وسخطه ، وصار حكمُه حكمَه)) [4].

وبهذا أصبح واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن الموالي لأعداء الدين ، ولأعداء المسلمين ، المحب لهم ، والحريص على مصلحتهم ، يصبح منهم ، فيخرج من الإسلام، ويدخل في الكفر مثلهم ، وتبعاً لذلك تنطبق عليه جميع الأحكام التي تنطبق عليهم من حبوط عمل وغيره – أعاذنا الله والمسلمين من ذلك – .

---

(1) النساء / 138 ، 139 .

(2) تفسير السعدي : 393/1 .

(3) المائدة / 51 .

(4) جامع البيان للطبري : 375/6 .

وما ذلك العقاب الشديد ، والحكـم الشنيع على المواليـن للأعـداء ؛ إلا لشدة ما يقترفونه ، وخطورة ما يرتكبونه في حق إخوانهم المسلمين .

فكـم دلـوّا على عورات ، وكم أهدوا إلى أماكن الشرفاء ، وكم كانوا سبباً في حصـول مجـازر ،ومذابـح ، وانفجارات ، فكانوا السبب في انتهاء أعمار كثير من الشيوخ ، والنساء ، والأطفال ، والرجال ، والشباب بلا تمييز ولا تفريق .

فأصبحت النساء بسببهم بلا أزواج ، والأمهـات بلا أبناء ، والأطفال بلا آباء أو أمهـات ، فـأدى ذلـك إلى حلول كثير من المصائب ، كانتشـار ظاهرة الفقر ، والجوع ،والتشريد، والسرقة ، ...... وغيرها الكثير .

كـل ذلك والموالى فرح بما يلقيه إليه أعداء الله من فتات على الأرض يلتهمه كالحيوان ، غير ناظر إلى عظم حجم ما اقترفت يداه النجستان من مصائب وويلات .

فأفيقوا أيها الموالون للكفار ، وأعيدوا حساباتكم ، وحكموا عقولكم ، وقلوبكم ، إن كنـتم ما زلتم تمتلكونهـا ، وانظروا حولكم في كـل بلدة ، في كل حارة ، بل في كـل بيـت ، لـتروا بصمـات أصابعكم تشير إليكم قائلة : أنتم السبب في حلول ذلك الدمار ، والهلاك ، والتشريد ، والتفريق ، حتى الحيوان ، والطيـر ، بل حتى الجماد لم يسلم منكم .

أفيقوا وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، واعلموا أن ما يلقيه إليكم الأعداء مهما كان كثيراً – وهو ليس كذلك – لا يساوى– دمعة حزن على خد طفل فقد أحد أبويه ، أو كليهما بسببكم، أو عويل أم ثكلى تبكي أبناءها ، أو بكاء زوجة فقدت المعيل الوحيد بعـد الله تعـالى لهـا ولأبنائها ، وانظروا حولكم لتعلموا أنكم المسئولون عن كل ذلك أمام الله – عزَّ وجل – .

فكيف بالله عليكم تستطيعون أن تناموا ، أو تأكلوا ، أو تشربوا ، أو تتمتعوا في هذه الحياة الزائلة ، وآثار جرائمكم أمام أعينكم في كل مكان .

فحـاولوا أن تعودوا إلى الله ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحاً ، وأن تُكَفِّروا عن خطايـاكم ، وجـرائمكم المدمـرة بما يمليه عليكم وجدانكم الذي كان يفكر في إهلاك المسلمين .

ولتعلموا جيداً أن القليل بالحلال خير من الكثير بالحرام ، فإن الحرام لا يدوم ، وإن دام لا ينفع أصحابه – والله المستعان – .

المبحث الثـــاني

محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الزنا واللواط

المطلب الثاني : شرب الخمر

المطلب الثالث : الربـــــا .

المبحث الثاني

محبطات فعلية لا تخرج من الإسلام

سـأتناول في هذا المبحث – إن شاء الله– محبطات فعلية أخرى ، تحبط العمل الصالح ولكنها دون الأولى ، حيث إن الأولى يخرج مرتكبها من الإسلام ، ويدخل في الكفـر ، وبالتالـي يحبط عمله ، ويبطل ، أما هذه فإن ارتكابها يؤدي إلى حبوط عمل مرتكبها ، ولكنه يبقى في الإسلام ، ولا يخرج منه بهذه الفعلة .

علماً بأن هذا المبحث يحتوي على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الزنا واللواط

يدور هذا المطلب حول تعريفهما ، وبيان آثارهما على الفرد والمجتمع ، وبيان شدة خطورتهما ، وحكمهما .

أولاً : الزنا

الـزنا لغـة : الزنا يُمد ويُقصر يقال زنى مزاناة ، وزنّى : نسبة إلى الزنا ، والمرأة تزني مزاناة ، وزناء : أي تُباغي ، وهو وصف للرجل وللمرأة [1].

الزنا شرعاً : إدخال فرج في فرج مشتهى طبعاً ، محرم شرعاً [2].

إن الـزنا مـن أعظـم الفواحش التي حرمها الله – تعالى– في كتابه العزيز ، وعلى لسان نبيه الكريم – صلوات ربي وسلامه عليه – .

قال تعالى :﴿ **وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً**﴾ [3].

يبيـن أبـو بكـر الجزائـري الحكمـة من تحريمـه قائلاً : ((تحريم الزنا للمحافظـة علـى طهـارة المجتمع الإسلامي ، وصيانة أعراض المسلمين ، وطهارة نفوسـهم ، والإبقـاء علـى كرامـتهم ، والحفـاظ على شرف أنسابهم ، وصفاء أرواحهم)) [4].

---

(1) انظر لسان العرب : 96/6 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 165/12 ، وانظر المغني : 349/12 .

(3) الإسراء / 32 .

(4) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري، مكتبة الإيمان/المنصورة ، ط 1384هـ–1964م ، ص370 ،371 بتصرف يسير .

والزنا خُلقٌ مذموم ، قبيح ، معلوم فسقه وقبحه حتى عند فاعليه ، بل حتى عند الحيوانات التي لا تعقل .

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن ميمون الأودي [1] – رضي الله عنه- أنــه قال : (**رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قِرَدَةٌ قد زنت فرجموها ، فرجمتها معهم**) [2].

وهــذا الفعل في الحيوان لا يعني أن الحيوانات مكلفة ، وأنه يلزمها الرجم عند ارتكــاب تلــك الفاحشة ، إنما يحتمل أن يكون الذين مسخوا قردة من بني إسرائيل لما صــاروا على هيئة القردة مع بقاء عقولهم وأفهامهم كما هي ، فحينما عاشروا القرود الأصلية ، حصلت تلك الفاحشة، فقاموا برجم مرتكبيها، فتلقت عنهم القردة الأصلية هذا الفعل فحفظوها، وصار فيهم [3].

والزنا سبيل الهلاك ، والدمار ، والافتقار في الدنيا ، وسبيل العذاب والخزي ، والنكال في الآخرة .

ومفســدته تلــي مفسدة الشرك ، والقتل ؛ لذا قرنهم الله – سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز.

قــال تعالى :﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾ [4].

وقد علق الله – سبحانه وتعالى- فلاح العبد ونجاته على حفظ فرجه ، فلا نجاة للعبد بدون ذلك .

قال تعالى :﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُــمْ عَــنِ اللَّغْــوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى**

---

(1) هو عمر بن ميمون بن بحر بن سعد بن الرَّماح البلخي ، أبو علي ، قاضي بلخ ، يقال : تولى قضاء بلخ أكثر من عشرين سنة ، وكان محموداً في ولايته ، مذكوراً بالحلم والعلم ، والصلاح والفهم ، وعمي في آخر عمره ، مات في رمضان سنة إحدى وتسعين ومائة . تهذيب التهذيب : 105/6 .

(2) أخرجه (خ) ،ك(مناقب الأنصار) ،ب/27(القسامة في الجاهلية)،1173/3 ،ح(3849) .

(3) انظر فتح الباري : 199/7 .

(4) الفرقان / 68 .

﴿وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [1].

يقول الشنقيطي – رحمه الله– : ((ذكر – جلَّ وعلا– في هذه الآيات الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ، ويخلدون فيها ، حفظهم لفروجهم : أي من اللواط والزنى ، ونحو ذلك ،....وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين: أي المعتدين حدود الله ، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه)) [2].

عقوبة الزنا :

ومما يدل على فحش الزنا ، وشناعته ، ما رتب الله – تعالى – عليه من الحدَّ الصارم ، حيث حكم على الزانى البكر بالجلد مائة جلدة .

قال تعالى :﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [3].

أما المحصن – الثيب– فحدُّه الرجم بالحجارة حتى الموت [4].

ثانياً : اللواط

اللواط لغة :أصل اللواط الإلزاق بالنفس،ولاط الرجل لوطاً ولاوط :أي عمل عمل قوم لوط [5].

اللواط شرعاً : الوطء في دبر الرجال[6].

واللواط أشد وأنكى من الزنا ؛ حيث إنه يزيد عن الزنا أنه منافٍ للطبيعة البشرية .

ومما يدلل على أن اللواط أعظم شناعة من الزنا – وكلاهما شنيع – أنه – تعالى– قال في الزنا :﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [7].

وقال في اللواط :﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾ [8].

---

(1) المؤمنون / 1–7 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 518/5 .

(3) النور / 2 .

(4) سيأتي بيان ذلك الحكم بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الثاني – إن شاء الله– .

(5) انظر لسان العرب : 358/12 ، ومختار الصحاح ص608 .

(6) المغني : 340/12 .

(7) الإسراء / 32 .

(8) الأعراف / 80 .

فقــد نَكَرَّ تعالى الفاحشة في الزنا ، أي هي فاحشة من الفواحش ، وعرَّفها في اللواط ؛ ليدل أنه اسم جامع لكل معاني اسم الفاحشة [1].

مفاسد اللواط :

اللـــواط له مفاسد كثيرة ، ذكرها ابن عاشور من خلال ذكره لوجه تسمية هذا الفعل الشنيع بالفاحشة ، ومن تلك المفاسد :

1. استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه ؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية ؛ لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل ، حتى يكون الداعي إليه قهــرياً ، ينســاق إلــيه الإنسان بطبعه ، فبقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة ، والنوع .
2. تغيــير خصوصـــية الرجولة بالنسبة للمفعول به ؛ إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته .
3. فــيه امتهان محض للمفعول به ؛ إذ يُجْعَلُ آلـــة لقضــــاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً .
4. أنه مفضٍ إلى قطع النسل ، أو تقليله .
5. إن ذلـــك الفعل يجلب أضراراً للفاعل ، والمفعول به ؛ بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له [2].

عقوبة اللواط :

جعل الله – سبحانه وتعالى– على لسان نبيه -ﷺ- ، عقوبة اللواط القتل للفاعل والمفعول به حداً بلا فرق بين محصن ، وغير محصن .

عـــن ابن عباس – رضي الله عنهمـــا – أنه سمع رســـول الله -ﷺ- يقول : **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل ، والمفعول به)** [3].

---

(1) انظر الجواب الكافي ، ص 219 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 232/8 بتصرف .

(3) أخـــرجه (ت) ،ك(الحـــدود) ،ب/24(مـــا جاء في حد اللوطي) ،373/3، ح(1456) ، وأخرجه (جه) ك(الحدود)،ب/12(من عمـــل عمل قـــوم لـــوط) ،82/2، ح(2075) ، وصححه الألباني في صحيحه 1121/2، ح(6589).

الآثار المترتبة على الزنا واللواط :

(أ) حبوط العمل :

الزنا واللواط يحبطان العمل الصالح ، ويأكلان حسنات فاعليهم ، وقد ورد ذلك الحكم في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة :

1. روى مسلم في صحيحه عن النبي -ﷺ- أنه قال :(**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتكم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وُقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم**) [1].
2. وفي رواية له أيضاً : (**فخذ من حسناته ما شئت**) [2].

يقول النووي – رحمه الله- عند شرحه لهذين الحديثين الشريفين : ((قوله -ﷺ- في الذي يخون المجاهد في أهله : (إن المجاهد يأخذ يوم القيامة من حسناته ما شاء فما ظنكم)، معناه : ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته ، والاستكثار منها في ذلك المقام ، أي : لا يبقى منها شيئاً إن أمكنه)) [3].

إن هذين الحديثين الشريفين يوضحان أن من ارتكب الفاحشة مع حليلة جاره فإنه حابط العمل ، ولا يعني ذلك أن الحكم مقصور على ذلك؛ بل إن جميع من ارتكب هذه الفاحشة يحبط عمله ، بغض النظر عن المفعول بها ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى- حينما وصف الزنا قائلاً :﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [4]، لم يميز بين أن تكون حليلة الجار أو غيرها ،لكن زنى هذا الجار أشد جرماً ؛ لأن زوجها استأمنه عليها، وهو ذاهب للجهاد في سبيل الله .

ويعضد ذلك المعنى ، قول رسول الله -ﷺ- : (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل [5] مستكبر**) [6].

---

(1) أخرجه (م) ،ك(الإمارة) ،36/13، ح(139) .
(2) أخرجه (م) ،ك(الإمارة) ،36/13، ح(140) .
(3) صحيح مسلم بشرح النووي : 47/13.
(4) الإسراء / 32 .
(5) الفقير صاحب المال .
(6) صحيح مسلم بشرح النووي : 119/13 .

الشيخ هنا : تعني الكبير في السن. فهل يعقل إن ارتكب الشيخ الفاحشة لا يكلمه الله ، ولا ينظر إليه ، أما الشاب الصغير السن إن ارتكب نفس الفاحشة، لا ينطبق عليه هذا الحكم !!.

إن الأدلة تقول : إنه لا فرق في الحدود بين كبير وصغير ، ولا بين غني وفقير .

وإنما خصَّ الشيخ الكبير ؛ لأن الفاحشة منه أشدُّ نكالاً، وأكثر مصاباً ؛ لكمال عقله ، وتعديه مرحلة عدم الاتزان العاطفي ، وضعف أسباب الشهوة عنده.

(ب) إهدار الدم :

إن الزنا يؤدي إلى إهدار دم فاعله.

قال -ﷺ- : **(لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفسِ ،والثيب الزاني ، والمفارقِ لدينه التارك للجماعة)** [1].

يقول ابن حجر العسقلاني : (أي : فيحل قتله بالرجم) [2].

(ج) حلول اللعنة على اللوطي :

إن اللوطي ملعون من الله تعالى ، ملعون من رسوله -ﷺ- ،ملعون من سائر المؤمنين .

قال -ﷺ- : **(لعن الله من عَمِل عَمَل قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط)** [3].

في هذا الحديث النبوي الشريف لعن رسول الله -ﷺ- اللوطيَّ ثلاث مرات ، واللعن : هو الطرد من رحمة الله .

ولم يلعن رسول الله -ﷺ- أحداً ثلاث لعنات إلا اللوطي ، أما باقي أهل الكبائر فلعنهم مرة واحدة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة خطورة هذا الفعل الشنيع ، وبيان مدى شدة آثاره المدمرة .

---

(1) متفق عليه ، أخرجه (خ) ،ك(الديات) ،ب/6(قول الله تعالى :﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ،والأذن بالأذن ....﴾ ،145/4، ح(6878) ، وأخرجه (م) ،ك(القسامة) ،313/11، ح(25).

(2) فتح الباري : 241/12 .

(3) أخرجه (حم) ،26/5، ح(2816) ، وقال إسناده جيد ، ورجاله رجال الصحيح .

(د) **نفي صفة الإيمان الكامل :**

نفى رسول الله -ﷺ- عن الزاني كونه مؤمناً كامل الإيمان .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه- قال قال النبي -ﷺ- : **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)** [1] الحديث

فإذا كان لهذه الجريمة المنكرة الشنيعة كل هذه العقوبات ، والحدود ، والمفاسد والآثار السيئة ، في الدنيا والآخرة ، فإنه يجب على مرتكبيها أن يعيدوا النظر في حساباتهم ، وأفعالهم ، وأن يتقوا الله ربهم ، ويبتعدوا عنها حالاً ، مخافة الله ، كما يجب عليهم أن يبتعدوا عن كل عمل يفضي إليها ، كغض البصر ، وحفظ الفرج . مخافةً لله تعالى ، كي يذوق الإنسان تلك الحلاوة التي وعد الله – سبحانه وتعالى- بها .

وليعلموا جيداً أن ذلك العمل الشنيع القبيح تزول آثاره التي سَعَوْا إليها في لحظات ، ويبقى ذله وهوانه ، ودماره فلا يزول .

وصدق سفيان الثوري – رضي الله عنه- حين قال :

تفنى اللذاذة ممن ذاق صفوتها	**من الحرام ويبقى الإثم والعار**
تبقى عواقب سوء في مغبتها	**لا خير في لذة من بعدها النار** [2]

يقول ابن القيم – رحمه الله- : (النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير جازمة ، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع ، ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر	**ومعظم النار من مستصغر الشرر**
كم نظرةٍ بلغت في قلب صاحبها	**كمبلغ السهم بين القوس والوتر**
والعبد ما دام ذا طرفٍ يقلبه	**في أعين العين موقوف على الخطر**
يُسر مقلته ما ضر مهجته	**لا مرحباً بسرور عاد بالضرر** [3]

---

(1) أخرجه (خ) ،ك(المظالم) ،ب/30 (النُّهْبَى بغير إذن صاحبه) ، 743/2 ،ح(2475).

(2) نقلاً عن روضة الناظر ونزهة الخاطر في الجزاء من جنس العمل ، د.سيد حسين العفاني ، المطبعة العمرانية للأوفست/الجزيرة ، ط5 1412هـ-2001م ، 214/2 .

(3) الجواب الكافي ، ص 195 .

فعلى من ينشرون أسباب الفاحشة بقصد وبدون قصد أن يتقوا الله ، ومَنْ تَخْرُجُ متبرجة سافرة خليعة أن تتقي الله ، وعلى من حملوا الأمانة فكانوا المسئولين عن الإذاعة والتلفاز والمجلات والنشرات فقدموا فيها الغث والسمين أن يتقوا الله ، وأن يجعلوا جميعاً حديث رسول الله -ﷺ- نصب أعينهم ، ومنهاجاً لهم في الحياة .

عن سالم بن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهم- أنه سمع رسول الله -ﷺ- **يقول : (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته)** [1] الحديث .

المطلب الثاني : شرب الخمر

(أ) **الخمر لغة :** اسم مشتق من مصدر خَمَّر الشيء يخمره ، إذا ستره ، ومنه : خمار المرأة، وكل شيء غطّى شيئاً فقد خمَّره ، والخمر تخمر العقل : أي تغطيه وتستره [2].

(ب) **الخمر شرعاً :**

هو المسكر من كل شراب أياً كان نوعه [3].

التدرج في التحريم :

وردت أدلة تحريم الخمر في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ولكن الله – سبحانه وتعالى- لم يحرمها دفعة واحدة ، بل تدرج في تحريمها ؛ لشدة تعلق شاربيها بها ، حيث كانوا مولعين بها، فأراد الله – تعالى- تهيئة النفوس لاستقبال أمر التحريم النهائي بنفوس راضية، مطمئنة ، هادئة، ورغم ذلك كانت أشد ما حُرِّمَ عليهم .

1. فكان أول ما نزل في شأنها قوله تعالى : **﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾** [4]. حيث جعل (السكَر) مقابلاً للرزق الحسن ، فأشار إلى أنه رزق سَّيئٌ تنفيراً عن تعاطيه ، أو الاتجار به .

ثم نزل قوله تعالى:**﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾** [5]. أي : في تجارتهم .

---

(1) أخرجه (خ)،ك(الجمعة) ،ب/11(الجمعة في القرى والمدن) ،267/1 ،ح(893) ،وأخرجه (م) ك(الإمارة) : 523/12) ،ح (20) .

(2) انظر لسان العرب : 213/4 ،ومختار الصحاح ص189 .

(3) منهاج المسلم ص 369 .

(4) النحل / 67 .

(5) البقرة / 219 .

ولمـــا نزلت هذه الآية تركها بعض الناس ، وقالوا : لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ، ولم يتركها بعض الناس ، وقالوا : نأخذ منفعتها ، ونترك إثمها .

2. ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... ﴾ (1) .

3. ثـــم نـــزل قولـــــه تعالى :﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (2).

فـــتركها بعض الناس ، وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها بعضهم في غير أوقات الصلاة .

4. ثـــم تدرج الحكم فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (3).

فصـــارت الخمـــر بهذه الآية حراماً عليهم ، لا مجال فيها للتأويل ، حتى صار يقول بعضهم : ما حرَّم الله شيئاً أشد من الخمر (4) .

آفات شرب الخمر :

الخمـــر أم الخبائث ، ومن أكبر الكبائر ، ومجمع الفواحش ، وهي مفتاح كـــل إثم ، ومنبع كل شر .

وقـــد وصف المناوي هذه القبائح فقال : ((الخمر أم الفواحش الأخروية ؛ بل والدنيوية ؛ لأنها تصدع ، وتكثر اللغو على شاربها ، بل لا يطيب شرابها إلا باللغو ، وهي كريهة المذاق ، ورجس من عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء ، وتصدُّ عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وتستر العقل الذي هو نور الهدى ، وآلة الرشد ، ومن قبحها وفضـــائحها : أنهـــا تُذْهِـــبُ الغيرة ، وتورث الخزي ، والفضيحة، والندامة ، وتلحق شاربها بأحقر أنواع الإنسان ، وهم المجانين ، وتسهل قتل الإنسان، ومؤاخاة الشيطان وهـــتك الأســـتار ، وإظهـــار الأسرار، وتدلَ على العورات ، وتهوِّن ارتكاب الجرائم والقـــبائح ، وكم أهاجت من حرب ، وأفقرت من غني ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفرّقت بين رجل وزوجته ، فذهبت

---

(1) البقرة / 219 .

(2) النساء / 43 .

(3) المائدة / 90 .

(4) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :6/271،270 .

بقلبه ، وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عَبْرَةٍ ، وأوقعت في بليَّة ، وأجَّلت من منيَّة، وكم ، وكم ، ولو لم يكن من فواحشها ، إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف واحد لكفى، وآفاتها لا تحصى ، وفضائحها لا تستقصى)) [1].

الآثار المترتبة على شرب الخمر :

لما كان كل هذه الآفات ، والقبائح لشرب الخمر ، ولما كان دائماً الجزاء من جنس العمل ، فمن يعمل سوءاً لا يُجْزَ إلا به ، فقد ترتب على شرب الخمر عدد من الآثار جزاءً وفاقاً، ومنها :

1. **وجوب الحد :**

بيَّن -ﷺ- في السنة النبوية المطهرة أن شارب الخمر يجب عليه الحد ، أربعين جلدة .

عن معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما–، أن -ﷺ- قال عن شاربي الخمر : **(إذا شربوا الخمر فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاقتلوهم)** [2].

أي إذا شرب الخمر، فيجب جلده أربعين جلدة ، وإن نُهي عنها وانتهى وتاب ، عفا الله عنه ، وتاب عليه – بإذنه تعالى– ،ولكن إن عاد عليها ثانية ، عاد الجلد مرة أخرى ، وإن تكرر الشراب ثالثة فيجب قتله ؛ لأنه يكون من المصرين على فعل المعاصي – والعياذ بالله– .

2. **الحرمان من دخول الجنة :**

بيَّن -ﷺ- أن شرب الخمر سببٌ في الحرمان من دخول الجنة ، والتمتع بكل ما فيها من نعيم، مما لا عين رأت مثله ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ إذا مات وهو مُصِرٌّ عليها، وبدون توبة .

عن ابن عمر – رضي الله عنهما– أن رسول الله -ﷺ- قال : **(لا يدخل الجنة مدمن خمر)** [3].

---

(1) فيض القدير ، شرح الجامع الصغير للعلاَّمة المناوى ، دار الفكر ، -بدون تاريخ- 507/3 ، 508 .

(2) أخرجه (د) ،ك(الحدود) ،ب/37(إذا تتابع في شرب الخمر) ،1918/4 ،ح(4482) وقال :حديث صحيح وأخرجه(ت) ،ك(الحدود) ، ب/15 (ما جاء فيمن شرب الخمر فاجلدوه ، ومن عاد الرابعة فاقتلوه) ، 466/3 ح(1444) ، وأخرجه (جه) ،ك(الحدود) ،ب/17(من شرب الخمر مراراً)84/2 ،ح(2085) بنحوه وقال : حديث حسن صحيح .

(3) أخرجه (جه) ،ك(الأشربة) ،ب/3(مدمن الخمر) ،241/2 ،ح(2721)وقال حديث صحيح ، وصححه الألباني في صحيحه :1270/2 ، ح(7673).

فـــإذا كان لا يدخل الجنة ، فإن مصيره حتماً إلى النار ، إلا إن عفا الله عنه ، كما في بقية الكبائر ، وهو في المشيئة .

3. الحرمان من شرب الخمر في الآخرة :

إن شـــارب الخمـــر فـــي الدنيا يُحرم شرابها في الآخرة ، جزاءً وفاقاً ، فمن استعجل الشيء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه .

عـــن ابـــن عمر – رضي الله عنهما– أن رسول الله –ﷺ– قال : **(من شرب الخمر في الدنيا ، ثمَّ لم يتب منها ، حُرمها في الآخرة)** (1).

قال ابن حجر : ((قال الخطابي والبغـــوي ، في (شرح السنة) : معنى الحديث: لا يدخل الجنة ؛ لأن الخمر شراب أهل الجنـــة ، فإذا حـــُرم شـــرابها ، دلَّ على أنه لا يدخـــل الجـــنـــة ، وقال ابن عبـــد البـــر : هـــذا وعيـــد شـــديد يدل على حرمان دخول الجنة)) (2).

فيا لها من حسرة ، وندامة ، حين لا ينفع الندم ، ولا تجدي الحسرة ، حيث باع ذلك الشارب أنهاراً من خمر في الجنة لذة للشاربين ، بشراب دنيوي نجس ، كريه .

4. نفي كمال الإيمان عن شاربها :

إن شارب الخمر ينفي عن نفسه كمال الإيمان بشربه ذلك المشروب النجس .

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال : **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)** (3).

يقـــول ابن حجر العسقلاني عند شرحه لذلك الحديث : ((قال ابن بطال :..... وحمـــل أهـــل السُـــنة الإيمان هنا على الكامل ؛ لأن العاصي يصير أنقصَ حالاً في الإيمـــان ممـــن لا يعصي ، ويحتمـــل أن يكون المراد أن فاعـــل ذلك يئول أمره إلى ذهاب الإيمان)) (4).

---

(1) أخـــرجه (خ) ،ك(الأشربة)، ب/1(قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَكم تُفلحون﴾)، 1791/4، ح(5575).

(2) فتح الباري : 41/10 .

(3) أخـــرجه (خ) ،ك(الأشربة) ،ب/1(قوله تعالى:﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَكم تُفلحون﴾) ، 1792/4 ،ح(5578).

(4) فتح الباري : 41/10 .

وعلـــى هذا فإن الخمر قد تكون سبباً لزوال الإيمان بالكلية ، أو تنقصه – على رأي بعض العلماء – ولكن ذلك القول لا يخفف من شدة خطورتها .

5. **حلول اللعنة على المتعاملين بها :**

إن مـــن مظاهـــر خبث الخمر ، ونجاستها ، حلول اللعنة ، ليس على شاربها فقط ، بل على كل من تعامل بها ، أو لمسها ، سواء بالشرب ، أو البيع ، أو العصر ، أو الحمل ، أو بتقاضي الثمن .

فعـــن ابـــن عمـــر – رضي الله عنهما– أن رسول الله –ﷺ– قال : **(لعن الله الخمـــر، وشـــاربها ، وســـاقيها ، وبائعهـــا ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها)** [1].

ومعلوم أن اللعن : هو الطرد من رحمة الله – عزّ وجل – .

6. **حبوط عمل شاربها :**

كمـــا أن شـــرب الخمـــر يؤدي إلى حبوط عمل شاربها الصالح ، المتمثل في الصلاة ، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الصلاة عمود الدين ، إن صلحت صلح سائر عمـــل الإنسان ، وإن فسدت فسد عمله كله ، فإذا أفسد شرب الخمر الصلاة ، وأحبط أجـــرها ، فإن معنى ذلك أنه أبطل سائر أعماله ، وقد وردت تلك المعاني في عدد من الأحاديث الصحيحة أكتفي بذكر اثنين منها :

(أ) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهمـــا – أن رسول الله –ﷺ– قال : **(من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ،فإن مات دخل النار ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تـــاب تـــاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن مـــات دخـــل النار ، وإن تاب تاب الله عليـــه ، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخَبال يوم القيامة : قالوا يا رسول الله: وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار)** [2].

---

(1) أخـــرجه (د)،ك(الأشـــربة) ،ب/2(العنب يُعصر للخمر)،1590/3 ،ح(3674) ،وقال صحيح .وصححه الألباني في صحيحه :907/2، ح(5091)

(2) أخـــرجه (جـــه)،ك(الأشـــربة) ،ب/4(من شرب الخمر لم تقبل له صلاة)،242/2 ،ح(2722) وصححه الألباني في صحيحه:1082/2 ،ح(6313).

(ب) عن ابن عمر – رضي الله عنهما– أن رسول الله –ﷺ– قال : **(من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخَبال)** [1].

فهذان الحديثان الشريفان يوضحان أن شرب الخمر يؤدي إلى حبوط أجر صلاة الشارب لمدة أربعين يوماً ، ثمَّ إن عاد ثانية وشربها ، أُحبط أجر صلاته أربعين يوماً أخرى ،وإن عاد وشرب الثالثة ، أيضاً فإنه يحبط أجر صلاته أربعين يوماً مرة ثالثة .

ومعنى ذلك أنه إن لم يتب يكون قد أحبط أجر صلاة مائة وعشرين يوماً ، سيأتي عليه يوم يكون فيه أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة ، وأجر ركعة واحدة، فما بالك بضياع أجر ستمائة صلاة ، حينها تكون الحسرة والندامة في وقت لا تجدي فيه شيئاً .

ويلاحظ أن الله – سبحانه تعالى– قد أعطى فرصة للتوبة، فمن تاب أول مرة ، قَبِل الله توبته ، ومن عاد ثم تاب ، قَبِل الله توبته ، ومن عاد ثالثة ثمَّ تاب يقبل توبته ، أما إن عاد الرابعة وتاب ، فقد أخبر –ﷺ– أنه لن يقبل الله توبته ، وسيسقيه من عرق أهل النار ودمهم وقيحهم بعد دخوله فيها – نسأل الله السلامة– ؛ وذلك لأن ذلك الإنسان يكون مصراً على المعصية معانداً، مكابراً ، مستخفاً بأحكام الإسلام ؛ لذا لم تقبل توبته ، مع استحقاقه للوعيد .

ويلاحظ أيضاً رحمة الله – سبحانه وتعالى– بعباده العاصين ؛ حيث إنه أعطاهم ثلاث فرص للتوبة ، ولم يوجب عليهم العقاب من أول معصية ؛ لعلمه – جلَّ وعلا– أن النفوس إذا تعلقت بها يصعب عليها تركها دفعة واحدة .

فليعلم شاربوا الخمور أن الأمر ليس هيناً ، بل هو جد خطير ؛ لذا يجب عليهم الإقلاع عنها فوراً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ويبدلهم عنها بأنهار في الجنة من خمرٍ لذة للشاربين .

---

(1) أخرجه (ت) ، ك(الأشربة) ، ب/1 (ما جاء في شارب الخمر) ، 70/4، ح(1862)، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن ، وصححه الألباني في صحيحه : 1081/2، ح(6312) .

وبالـــنظر فـــي تعريف الخمر – هـــي كـــل شـــراب مسكر – تبطـــل دعاوى بعض الناس في هـــذا الزمان ، حين حاولـــوا قلب الحقائق ، وتغطية الشمس بغربال ، يـــوم أن تحـــايلوا علـــى الديـــــن، فسمّوا الخمر بأسماء جديدة غير اسمها الحقيقي ، كالحشـــيش ، والأفيون ، والوسكي ، والشمبانيا، وزعموا أن هذه الأشياء غير الخمر ، وأنـــه لـــم يـــرد في تحريمها نصٌّ شـــرعي ، ونسوا أو تناسوا أنهـــا جميعـــاً تندرج تحـــت نفس الحكـــم ، رغم اختلاف الأسماء ؛ لأنها جميعاً تحمل نفس علة التحريم ، وهو الإسكار .

ونسوا أيضاً قول المصطفى -ﷺ- : **(كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام)** [1].

فهـــــذا الحديـــث النبوي الشريف يؤكد أن العلة في التحريم الإسكار ، وليس الاســـم ، فكـــل ما أسكر شرابه فهو حرام ، بغض النظر عن اسمه ، سواء حمل اسم الخمر ، أم لا .

وممـــا يؤكد هذه المعاني أن النبي -ﷺ- – الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحـــي يوحى – ، قد علم أن المصرين على شـــرب الخمر سيتلاعبون بالأسماء، فقال -ﷺ- فيما رواه أبو مالك [2] الأشعري – رضي الله عنه – عنه : **(ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)** [3].

وفـــي هـــذا الحديث النبوي الشريف قطع كل حيلة ، وإفساد كل تخطيط ، فهو واضـــح الدلالـــة لأن جميع المشروبات التي تسكر عائدة إلى الخمر ، بل هي الخمر بعينها ، وإن سميت بغير اسمها .

فلـــو لم يكن للخمر من آثار ، وآثام غير هذا لكفى ، ولكان دافعاً قوياً لتركه ، فإننا مأمورون بالمحافظة على أجسامنا وصحتنا .

قال تعالى : **﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾** [4].

---

(1) أخرجه (م) ، ك (الأشربة) ،176/13 ، ح(73) .

(2) اســـمه الحارث بن الحارث ، وقيل غير ذلك ، طعن هو ومعاذ بن جبل ، وأبوعبيدة بن الجراح في يوم واحد ، في خلافة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – . تهذيب التهذيب : 244/10 .

(3) أخـــرجه (د) ،ك(الأشـــربة) ،ب/6(فـــي الدّاذي) ،1596/3 ، ح(3688) ، وقال : صحيح . وصححه الألباني : 959/2 ، ح (5453).

(4) البقرة / 195 .

فلـو كانت الخمر غير محرمة ، ولكنها تُودي بصحة الإنسان ، لكان ذلك سبباً قويـاً لـتركها ، فها هم مرضى السكر ، ومرضى ضغط الدم يتركون كثيراً جداً من الأطعمة والأشربة الحلال ؛ حفاظاً على الصحة .

فهلا اقتدى بهم شاربوا الخمور، ومدمنوها ؟!

المطلب الثالث : الربا

نهى الله – سبحانه وتعالى– عباده المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل ظلماً وعدواناً ، واعتبر ذلك من كبائر المحرمات التي يجب تركها، والابتعاد عنها، في عدد من آيات القرآن الكريم ، أذكر منها :

1. قال تعالى : **﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [1].
2. وقـال –جلَّ ذكره– أيضاً : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** [2].

كمـا شـدَّد الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام– تشديداً عظيماً على آكلي حقوق الناس، وأموالهم بالباطل في عدد من الأحاديث النبوية ، والتي منها :

1. عـن جابـر بن عبد الله – رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– خطب خطبته المشـهورة في حجة الوداع، فقال فيها : **(فإن دمائكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا)** [3].
2. وعن سعيد بن زيد – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله –ﷺ– : **(مـن أخذ شبراً من الأرض ظلماً ، فإنما يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)** [4].

ومن أشنع مظاهر أكل أموال الناس بالباطل : الربا

(أ) الربا لغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد [5].

---

(1) البقرة / 188 .

(2) النساء / 29 .

(3) أخرجه (خ) ، ك (العلم) ،ب/9 (قول النبي –ﷺ– : (رب مُبَلَّـغ أوعى من سامع) ، 49/1 ، ح(67) .

(4) أخرجه (خ) ،ك(بدء الخلق) ،ب/2(ما جاء في سبع أرضين) ، 987/2 ، ح(3198).

(5) انظر مختـار الصحـاح ص231 ، 232 ، وجامع البيان للطبري : 139/3 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :349/3.

(ب) **الربا شرعاً** : ((هو الزيادة في أشياء من المال مخصوصة)) [1].

والــربا كســب خبيث ، محرم ، مشؤوم ، لا خير فيه ، ولا بركة ، بل يجلب الضــرر ، والنقيصـــة في الدين والدنيا ، وكل من نبت لحمه من الحرام ، وأكل الربا فالنار أولى به .

الآثار المترتبة على التعامل بالربا :

إن للــربا أضــراراً كثــيرة ، وعواقــب وخــيمة على الفرد والجماعة الذين يشــتركــون فــيه ، والمجــتمع الذي يرى المنكر فيقره ، ولا ينكره ، ولا يسعى إلى تغييره ؛ فإن المتعامل بالربا ، أو الذي يعين عليه يخالف ما جاء عن الله – تعالى- ، ورسوله -ﷺ- بخصوصه .

قال تعالى :﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [2].

وقد بيَّن – سبحانه وتعالى – أن مصير العصاة ، ومآلهم الخلود في النار :

قال تعالى :﴿ **وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [3].

وإن بعض هذه الآثار معجل ، وبعضها مؤجل ، ومن هذه الآثار :

1. **حلول اللعنة على جميع المتعاملين به :**

إن الــربا سببُ حلول اللعنة – وهي الطرد من رحمة الله- لكل من تعامل به ، آكله ، وموكله ، والشاهدين عليه ، وكاتبه ، جميعهم في اللعنة سواء .

قـــال -ﷺ- : (لعن رسول الله -ﷺ- آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء) [4].

2. **محق البركة :**

فكمـــا أنهم محقوا بركة أموال الغير ؛ بدفعها فوائد ربوية ، فإن الله – سبحانه وتعالى- توعد بمحق بركة أموال آكلي الربا .

(1) منهاج المسلم ، ص 265 .

(2) النور / 63 .

(3) النساء / 14 .

(4) أخرجه (م) ، ك (المساقاة والمزارعة) ، 208/11 ، ح(106).

قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [1].

قال ابن كثير – رحمه الله– : ((أي : يذهبه ، فإما أن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركه ماله، فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى:﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [2].

وقال تعالى :﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ [3].

وقال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ [4]﴾))[5].

3. الحرمان من الطيبات :

قال تعالى :﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [6].

يقول السعدي – رحمه الله – : ((أخبر تعالى أنه حرَّم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات، التي كانت حلالاً لهم ، وهذا تحريم عقوبة ؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ،..... فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات ، التي كانوا بصدد حلها ؛ لكونها طيبة)) [7].

فهذه الآية الكريمة تحمل تصريحاً بأن أخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل، كان من أسباب تحريم الله – تعالى– الطيبات على اليهود ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ،

---

(1) البقرة / 276 .

(2) المائدة / 100 .

(3) الأنفال / 37 .

(4) الروم / 39 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 358/1 .

(6) النساء / 160 ، 161 .

(7) تفسير السعدي : 403/1 .

فالمتشبهون من هذه الأمة باليهود ، في أخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، قد عَرَّضوا أنفسهم للإصابة بمثل ما أصاب اليهود .

4. **إعلان الحرب على المرابين من الله – تعالى– ورسوله –ﷺ– :**

قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾** (1).

يقول ابن القيم – رحمه الله – : ((في ضمن الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كلاً منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطرق على الناس : هذا بقهره لهم ، وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه عن تفريج كرباتهم ، إلا بتحملهم كرباتٍ أشدَّ منها ، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله)) (2).

وطالما أن خطورة المرابي على نفس الدرجة من خطورة الساعي في الأرض بالفساد ، فهذا يعني أن يكون لهما نفس الحكم ، وقد سبق أن السعي في الأرض بالفساد ، وأذية المسلمين بالأقوال والأفعال ، يؤدي إلى إحباط العمل ، فمعنى ذلك أن عمل المرابي حابط مردود .

ومما يؤكد ذلك المعنى ما نقله القرطبي عن ابن خُوَيز مَنْداد : ((ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً ، كانوا مرتدين ، والحكم فيهم كالحكم على أهل الردة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً ، جاز للإمام محاربتهم)) (3).

وهذا يعني أن المرابي إن كان مستحلاً لما يفعله فهو مرتد ، وبذلك يكون الربا في حقه مخرجاً من الملة ، محبطاً للعمل تبعاً لذلك .

أما إن لم يكن مستحلاً له ، فهذا لا يعفيه من العقاب ، بل جاز للإمام محاربته ، ولو أدى إلى إهدار دمه .

---

(1) البقرة / 278 ، 279 .

(2) التفسير القيم لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، – بدون تاريخ – ، ص172 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 363/3 .

ومعلـــوم أن دم المســـلم لا يحل إلا بإحدى ثلاثٍ : قتلِ النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والزنا بعد الإحصان ، والردة .

وأرى أن المرابي قد جمع سببين لاستحلال دمه لا سبباً واحداً ، فهو في منزلة القاتل ، فهو قاتل نفسه يوم أن رضي لها أن تتعامل بما حرمه الله – سبحانه وتعالى– ونهـــى عنه ، وقتل غيره يوم أن فرض عليه ما لا يطيق ! استغلالاً لحاجته ، وبذلك يكـــون قـــد ارتد، وترك جماعة المسلمين ؛ لأن الانتماء لهذه الجماعة لا بد أن يكون أساسه التكافل والتراحم والمودة ، والمحبة، والأخوة ، لا الاستغلال وحب الذات .

5. **حبوط أجر صدقته :**

أصبح واضحاً أن المال العائد عن طريق الربا كسب خبيث، نجس، لذا فإن الله – سبحانه وتعالى– لا يقبلـــه ، ولا يرفعه، ولا ينفع صاحبه به؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب.

قال تعالى :**﴿ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾** [1].

فـــالله – ســـبحانه وتعالـــى– ينهى عباده في هذه الآية الكريمة عن الإنفاق في سبيل الله بما هو خبيث ، والربا من أخبث الخبائث ، فكأنه تعالى نهى عن الإنفاق من مال الربا .

أمـــا إن لم يستمع الإنســـان للنهي ، وأنفق من ذلـــك المـــال الخبيث ، فإن الله – تعالى– لن يقبله ، مما يدل على حبوط أجر تلك الصدقة .

وممـــا يؤكـــد هذا المعنى قول المصطفى – صلوات ربي وسلامه عليه– مبيناً العلـــة من عـــدم قبول تلك الصدقة ، فيما رواه عنه أبو هريرة – رضي الله عنه– : **(إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً)** [2].

يقـــول الـــنووي – رحمـــه الله– في شـــرحه للحديث : ((المراد بالطيب هنا : الحـــلال ..... وأصل الطيب : الزكاة ، والطهارة ، والسلامة من الخبث ، ......وفيه الحث على الإنفاق من الحلال ، والنهي عن الإنفاق من غيره)) [3].

---

(1) البقرة / 267 .

(2) أخرجه (م) ، ك (الزكاة)، 82/7 ، ح(65).

(3) صحيح مسلم بشرح النووي : 103،104/7 .

6. **القيام كالممسوس :**

قال تعالى :﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ**﴾ [1].

قال ابن كثير – رحمه الله – : ((شرع في ذكر أكلة الربا ، وأموال الناس بالباطل....، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها لبعثهم ، ونشورهم ، فقال :﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾، أي : لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً)) [2].

وهذا هو رأي الجمهور : أن القيام الوارد في الآية يعني القيام من القبور ، عند البعث ، حيث جعل الله – سبحانه وتعالى– من علامة المرابين يوم القيامة ، أنه يبعثهم كالمصروعين .

أما ابن عطية – رحمه الله– فيرى معناً آخر للقيام ، فيقول : المراد تشبيه المرابى في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يُصرع بحركات مختلفة قد جُنَّ [3].

وقد جمع محمد رشيد رضا بين رأي الجمهور ، ورأي ابن عطية ، فقال : ((إذا كان ما شُنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف ، هو أثر اضطراب نفوسهم ، وتغير أخلاقهم ، كان لا بد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر الصفات الحسية في أقبح مظاهرها ، كما تتجلى صفات النفس الزكية، في أبهى مجاليها)) [4].

وهذا الجمع حقيقة ظاهرة في نفسه ، حيث إن المرابين المولعين بالمال ، جعلوه أكبر همهم ، ومبلغ مساعيهم ، والمسيطر على تفكيرهم ، فحاولوا جمعه بكافة الطرق

---

(1) البقرة / 275 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 326/1 .

(3) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 480،481/2.

(4) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 95/3 .

والوسائل ، فظهر ذلك في حركاتهم ، فتكون غير منتظمة، تشبه تماماً حركات المتخبط من المس ، وإذا مات الإنسان وهو على هذا الحال ، بعث يوم القيامة على هذا الحال ، فيكون قيامه كقيام الممسوسين – والعياذ بالله – .

ولكـــن – وللأسف الشديد – رغم كل هذه الآثار الضارة للربا إلا أنه انتشر في زماننا هذا انتشاراً واسعاً ، وأصبح ضرورة في معاملات كثير من الناس إلا من رحم ربـــي، وذلـــك مصداقاً لقول المصطفى -ﷺ- فيما رواه عنه أبو هريرة – رضي الله عنه– : **(يأتي على الناس زمان يأكلون الربا ، فمن لم يأكله أصابه غباره)** (1).

والطامة الكبرى أن المروجين له، حاولوا قلب الحقائق ، وتسمية الأشياء بغير أســـمائها ، فأطلقوا عليه عدة أسماء : نظام مصرفي ، قرض ، فائدة ، حساب توفير ، ودائع ائتمان ، خدمات، ونحو ذلك .

فعلى الذين يتعاملون بالربا أن يستيقظوا من سباتهم ، ولْيعلموا أن الربا هو الربا مهما اختلفت الأسماء ؛ لأن العبرة بالحقائق لا بالمسميات ، ولأن كل ما جَرَّ نفعاً فهو ربا ، وتنطبق عليه جميع أحكام الربا والمرابى .

ولْـــيعلموا جـــيداً أن الـــربا محرم، سواء كانت نسبة الفائدة عالية أم منخفضة، وسواء كان المبلغ كبيراً أم صغيراً .

---

(1) أخرجه (س) ، ك(البيوع) ، ب/1(اجتناب الشبهات في الكسب) ، 4/4 ، ح(6042) .

المبحـــث الثـــالث

محبطات فعلية مختلف فيها

ويشتمل على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ترك الصلاة

المطلب الثاني : الحكم بغير ما انزل الله

المطلب الثالث : السحر .

المبحث الثالث

محبطات فعلية مختلف فيها

هـذا المبحث يشتمل على الأفعال المختلف في الحكم عليها؛ تبعاً لاختلاف حال الفاعل ، بين الكفر المخرج من الملة ، وبين ما هو دون ذلك.

وهو يشتمل على ثلاثة مطالب .

المطلب الأول: ترك الصلاة

وسأتناول في هذا المطلب بيان فضل الصلاة وأهميتها، ثم بيان شدة إثم تركها، ثم اذكر الحكم على تاركها مفصلاً.

أولاً: بيان فضل الصلاة

قال تعالى: **﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾** [1].

فقـد مدح الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآيات الكريمة عباده المؤمنين بعدة أعمـال، بدأهـا بذكر الصلاة، ثمَّ كرَّر ذكرها في نفس المطلع؛ إعظاماً لقدرها، وبياناً لفضلها، ولم يمدح – تعالى – أحداً من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مثل مدحه لمن واظب على الصلاة .

قال – جلَّ وعلا –: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾** [2].

عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عن رسول الله –ﷺ– أنه قال: (**رأس الأمر كله الإسلام، وعموده الصلاة، و ذروة سنامه الجهاد**) [3] .

ثانياً: إثم ترك الصلاة:

لمـا كـان هـذا فضل الصلاة، و فضل المحافظة عليها، كان تركها من أكبر الكبائر، و أعظم الذنوب، و أشدها .

---

(1) المؤمنون / 1 ، 2 .

(2) المعارج / 34 ، 35 .

(3) أخرجه (حم) : 293/5 ، ح (22011) ، وقال صحيح بطرقه وشواهده .

و يذكر ابن القيم – رحمه الله – شدة إثم تارك الصلاة قائلاً: ((فإنه مما لا يختلف فيه المسلمون: أن ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، و أن إثمه أعظم من إثم قتل النفس، و أخذ الأموال، و من إثم الزنا، والسرقة، و شرب الخمر، و أنه معرَّض لعقوبة الله و سخطه، و خزيه في الدنيا والآخرة)) [1].

وقد ورد بيان شدة إثم ترك الصلاة، والتهاون فيها في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.

(أ) الأدلة من القرآن الكريم:

1. قال –تعالى– : **﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [2]﴾** [3].

وقال – تعالى– : **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** [4].

وقال – جلّ ثناؤه –: **﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾** [5].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، التي تقرع الآذان، وتصك الأسماع، والتي تتوعد التارك للصلاة، والمتهاون فيها بالعذاب الشديد يوم القيامة.

(ب) الأدلة من السنة النبوية:

وجاءت عدة أحاديث عن النبي – ﷺ– أخبر فيها عن عظيم ذنب تارك الصلاة أو المتهاون بها، والمتخاذل عنها، أكتفي بذكر اثنين صحيحين :

1. عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله –ﷺ– قال: **(بين الرجل و بين الشرك و الكفر ترك الصلاة)** [6].

---

(1) الصلاة وحكم تاركها للإمام ابن قيم الجوزية ، (ت) مصطفى بن العدوي ، دار ابن رجب / المنصورة ، ط1 1423هـ–2002م ، ص 10 .

(2) الغي : وادٍ في جهنم / كلمات القرآن تفسير وبيان لحسنين محمد مخلوف ، مكتبة أيوب / نيجيريا ط 1420هـ–2002م ، ص 210 .

(3) مريم / 59 ، 60 .

(4) الماعون / 4 ، 5 .

(5) المدثر / 42 ، 43 .

(6) أخرجه (م) ، ك (الإيمان) ، 255/2 ، ح (82) .

2. عن بريدة بن الحصيب [1] – رضي الله عنه – أن رسول الله –ﷺ– قال: (**العهد الذي بيننا و بينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر**) [2] .

فهـذه الأحاديـث النبوية الشريفة ترهب من ترك الصلاة، وتحكم على تاركها بالكفر، وسيأتي الحكم بالتفصيل عما قريب – إن شاء الله – .

ثالثاً : حكم ترك الصلاة

إن الحكم على ترك الصلاة يختلف تبعاً لاختلاف حال التارك؛ وبناءً عليه فإن الحكم ينقسم إلى قسمين:

(أ) تركها جحوداً:

اتفـق الأئمة و العلماء على تكفير تارك الصلاة جحوداً، و إنكاراً لوجوبها، و هذه بعض أقوال العلماء.

1. قـال ابن تيمية – رحمه الله– : ((اتفق العلماء على تكفير تاركها – الصلاة – جحوداً، و كذا إن جحد وجوبها، و لم يترك فعلها)) [3] .

2. وقـال الشنقيطي – رحمه الله– : ((أجمع العلماء على أن تارك الصلاة، الجاحد لوجوبها كافر، و أنه يقتل كفراً ما لم يتب)) [4].

3. ويقول الإمام النووي تعليقاً على حديث جابر – رضي الله عنه – المتقدم: ((وأما تارك الصلاة، فإن كان منكراً لوجوبها، فهو كافر بإجماع المسلمين، خارج من ملة الإسلام، إلا أن يكون قريب عهد بالإسـلام، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغـه فيها وجوب الصلاة عليه)) [5].

وبذلك يتأكد أن تارك الصلاة جحوداً لها ، وإنكاراً لفرضيتها كافر ، خارج من ملة الإسلام ، حابط عمله تبعاً لذلك ، فقد تقرر أن الكفر من محبطات الأعمال .

---

(1) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي ، صحابي جليل ، غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة ، وغـزا خراسان في زمن عثمان ، ومات في مرو سنة 63هـ . انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، (ت) علي محمد البجاوي ، دار النهضة / مصر – بدون تاريخ – : 286/1 ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 1409هـ : 469/2 .

(2) أخرجه (جه) ، ك (إقامة الصلاة والسنة فيها) ، ب / 77 (ما جاء فيمن ترك الصلاة)، 1 / 177 ، ح (884) ، وصححه الألباني في صحيحه: 2 / 760 ، ح (4143).

(3) مجموع الفتاوي: 97/20 ، 40/22.

(4) أضواء البيان للشنقيطي: 235/4.

(5) صحيح مسلم بشرح النووي: 73/2.

قال تعالى : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [1].

(ب) تركها تهاوناً و كسلاً :

اختلف العلماء في الحكم على تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً، مع اعتقاده بوجوبها، بين مكفِّر، وغير مكفِّر، وبين قائل يقتل كفراً، أو حدّاً، أو لا يقتل، ولكل فريق أدلته من الكـتاب والسـنة، وكذلك كل فريق قام بالرد، و مناقشة أدلة الفريق الآخر، وليس هنا موضع بسط هذه المسألة، فإنها معروضة بالتفصيل في مظانها، من كتب الفقه القديمة، والحديثة، وبعض كتب التفسير، وخصوصاً القديمة .

ولكـن الجمهور على أن تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً لا يكفر بذلك، بل يفسق، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك :

1. قال الإمام النـووي –رحمه الله– : (وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاده وجوبَها – كما هو حال كثيـر من الناس– ، فقد اختلـف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي – رحمهمـا الله – وجماهير السلف والخلف إلى أنه لا يكفر، بل يفسق، ويستتاب، فإن تاب، وإلا قتلناه حداً كالزاني المحصن، ولكنه يقتل بالسيف) [2].

2. وقـال الشـنقيطي –رحمه الله– : ((وقالت جماعة من أهل العلم ......إن تارك الصلاة عمداً تكاسلاً، وتهاوناً، مع إقراره بوجوبها لا يقتل، ولا يكفر، بل يعزر ويحبس حتى يصلي)) [3] .

فرأى السلف إذن في المسألة أن تارك الصلاة تهاوناً وكسلاً لا يكفر، بل يفسق، ويعتـبر مسلماً عاصٍ ، فيستتاب، فإن تاب تاب الله عليه، وإلا فإنه يحبس ويعزر حتى يصلي، فإن تاب وصلى تاب الله عليه، وإن لم يتب، ولم يُصَلِّ قتل حداً ، لا كفراً.

أدلة الجمهور :

استدل القائلون بعدم تكفير تارك الصلاة بجملة من الأدلة، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [4].

---

(1) المائدة / 5 .

(2) صحيح مسلم بشرح النووي : 73/2 ، 74 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي : 242/4 .

(4) النساء 48 ، 116 .

من مفهوم الآية الكريمة يتضح أن الله – سبحانه وتعالى– يغفر كل الذنوب التي دون الشرك به –جلَّ وعلا– ومن المؤكد أن ترك الصلاة كسلاً مع الاعتقاد بوجوبها، هو دون الكفر والشرك.

2. عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: **(وخمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن، وصلاتهن لوقتهن، وأتمَّ ركوعهن ، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه)** [1].

يقول ابن تيمية – رحمه الله– : ((وهذا الدليل أجود ما اعتمدوا عليه)) [2].

فهذا الحديث الشريف يدل على أن تارك الصلاة تهاوناً لا يكفر، وهو في مشيئة الله إن شاء غفر له، وأدخله الجنة دون عذاب، وإن شاء عذبه ، ثم يدخله الجنة ؛ لأنه من الموحدين.

قال الطحاوي – رحمه الله– : ((دلَّ الحديث أنه لم يخرج بذلك عن الإسلام، فيجعله مرتداً مشركاً ؛ لأن الله تعالى لا يدخل الجنة من أشرك به ؛ لقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ ﴾** [3] ، ولا يغفر له ؛ لقوله تعالى : **﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾**)) [4].

3. عن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: (**إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة المكتوبة، فإن أتمها، وإلا قيل انظروا هل له من تطوع؟، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم يُفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك)** [5].

---

(1) أخرجه (د)، ك(الصلاة)، ب/9 (المحافظة على وقت الصلوات)،216/1، ح(425) ، وصححه الألباني في صحيحه:616/1، ح (2342).

(2) انظر مجموع الفتاوي : 614/1.

(3) المائدة / 72 .

(4) مشكل الآثار، للطحاوي، دار صادر / بيروت – بدون تاريخ – ، 226/4 و الآية في النساء / 48.

(5) أخرجه (جه) ، ك (الصلاة) ، ب / 202 (ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة) 1 / 240 ، ح (1172) ، وقال صحيح.

يقول الشنقيطي – رحمه الله– : ((وجه الاستدلال بالحديث المذكور على عدم كفر تارك الصلاة، أن نقصان الصلوات المكتوبة، وإتمامها من النوافل، يتناول بعمومه ترك بعضها عمداً، كما يقتضيه ظاهر عموم اللفظ كما ترى)) [1].

فهـــذا الحديـــث الشريف يدل على أن تارك بعض الصلوات عمداً، وتكاسلاً، يدخل الجنـــة ، ويُكمل لـــه النقص من النوافـــل التي كان يؤديهـــا، ولـــو كـــان تارك الصـــلاة تهاونـــاً كافـــراً، مخرج من الإســـلام، وأدى ذلـــك إلـــى حبوط جميع أعمالـــه ؛ لأن الكفـــر من دواعي إحباط العمل – كما مرَّ – ، وبناءً عليه فلن يدخل الجـــنة أبداً، ولما كـــان الحال غير ذلـــك، تأكد أن تارك الصلاة تهاوناً لا يكفر بذلك، ولا يقتل كفراً.

بعد هذا العرض، يتضح أن من ترك الصلاة جاحداً لوجوبها، مستهيناً بها، فهو كافر وعمله حابط بلا خلاف.

أمـــا مـــن تركها تهاوناً وكسلاً مع اعتقاد وجوبها، فقد اختلف فيه العلماء، فقال بعضـــهم : إنـــه كافر، ويقتل ردة، ويحبط عمله، وقال البعض الآخر : لا يكفر بذلك، ويقتل حداً ،كالزاني المحصن.

ورأي الجمهـــور في المسألة : أنه غير كافر ، بل هو مسلم عاصٍ فاسق، وهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له – والله أعلم –.

فليـــتق الله المفرطون، والمتهاونـــون بالصلاة ، وليرجعوا إلى ربهم، وليتوبوا إلـــيه قبل أن يفاجئهـــم الموت، وهم لاهـــون، فيندموا، ويتحسروا وقت لا ينفع الندم، ولا الحسرة.

كما يجب عليهم ألا يتكلوا على كونهم في مشيئة الله، وأن الله إن شاء غفر لهم، فمـــا يدريهـــم أن يكونـــوا ضمن المغفور لهم، بل ربما كانوا ضمن من شاء تعذيبهم والتنكيل بهم.

* قال تعالى : **﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [2].

---

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 4 / 241 ، 242.

(2) البقرة / 80 .

لذا يجب عليهم الخوف والرهبة من الله – جلَّ و علا– مع الرجاء ، وألا يأمنوا مكر الله ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قال تعالى : ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [1].

المطلب الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله – تعالى–

بيَّن الله – سبحانه وتعالى– أنه أنزل شريعة الإسلام، وفرض على عباده الحكم بها، والاحتكام إليها.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾ [2].

كما جعل – سبحانه وتعالى– التفرد بالحكم، والاختصاص به، من أهم صفاته – جلّ وعلا –.

قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ [3].

لذا كان الاحتكام إلى شرع الله من شروط صحة الإيمان.

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [4].

أي أن من لم يحكم بما أنزل الله فليس بمؤمن، بل هو كافر، وما ذلك إلا لأن شرع الله فيه الحياة، والصلاح، والخير، والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [5].

مخاطر الحكم بغير ما أنزل الله تعالى :

إن للحكم بغير ما أنزل الله، والاحتكام لشرع غير شرعه –جلّ وعلا– مخاطرَ، وآثاراً ؛ منها:

---

(1) الأعراف / 99 .

(2) النساء / 105 .

(3) الأنعام / 57 ، ويوسف / 40 ، 67 .

(4) النساء / 65 .

(5) الأنفال / 24 .

(أ) أنه صفة للمنافقين:

بيَّـن الله – سـبحانه وتعالى– في كتابه العزيز أن الاحتكام للشرائع الوضعية، وترك شرع الله – عزَّ وجل – هو صفة من صفات المنافقين.

1. قـال تعـالى: ﴿وَإِذَا دُعُـوا إِلَـى اللَّه وَرَسُوله ليَحكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُـونَ . وَإِن يَكُـن لَّهُـمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْه مُذْعِنينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَم ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (1).

في هذه الآيـة الكريمة يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، أن من صفاتهم أنهم إذا حدث بينهم وبين أحد حكومة، يرفضون الاحتكام لشـرع الله، ويطلبون الاحتكام للقوانين غير الشرعية، فهؤلاء لا يخرج أمرهم عن أن تكون قلوبهم مريضة مرضاً ملازماً لها، أو عرض لقلوبهم الشك في حكم الله ورسوله، واتهمـوه أنه لا يحكم بالحق، أو أنهم يخافون أن يظلمهم الله – تعالى– بحكمه، ويجور عليهم، وأيّاً ما كان حالهم فهو كفر محض (2).

2. وقـال – عزَّ وجل– :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (3).

يقول محمد رشيد رضا : ((والآية ناطقة بأن من صدَّ ، وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً ، ولا سيما بعد دعوته إليه ، وتذكيره به ، فإنه يكون منافقاً ، لا يُعتد بما يزعمه من الإيمان ، وما يدعيه من الإسلام)) (4).

(ب) أنه سبب للخلود في النار:

وكذلـك فـإن رفـض شريعة الله – عزَّ وجل– يعتبر ضلالاً شنيعاً في الدنيا، وعذاباً شديداً مقيماً في نار جهنم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (5).

---

(1) النور / 48-50 .

(2) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 307/3، 308 ، وتفسير السعدي : 167/2، 168.

(3) النساء / 61 .

(4) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 227/5 .

(5) النساء / 14 .

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: ((أي لكونه غيَّر ما حكم الله به، وضـــادَّ الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله، وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم)) [1].

حكم من يحكم بغير ما أنزل الله :

عند إرادة تفصيل القول في الحكم على الحكم بغير ما أنزل الله -تعالى- وجدت أنـــه ينقســـم إلى قسمين، فمنه ما يعتبر كفراً أكبر يخرج من ملة الإسلام، ومنه ما هو كفر أصغر لا يخرج من الملة.

أولاً : حالات كون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر مخرجاً من الملة

وســـأتناول فـــيه الحديث عن بعض الحالات والصور، التي تخرج أصحابها، وفاعلـــيها مـــن الإسلام، وتحكم عليهم بالكفر، وبالتالي تؤدي إلى حبوط عملهم، وهي عبارة عن أربع حالات :

1. **تشريع غير ما أنزل الله – تعالى- :**

مـــن المعلوم أن التشريع حق خالص لله – تعالى- وحده لا شريك له، من أجل ذلك حكم الله – سبحانه وتعالى- على من ينازعه في شيء منه بالشرك ، والخروج من الإسلام .

قـــال تعـــالى: **﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾** [2].

يذم الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآية الكريمة اليهود، الذين جعلوا أحبارهم، ورهـــبانهم – أي علماءهم – كالأرباب؛ فأطاعوهم في كل شيء، لدرجة أنهم إذا أحلوا لهم الحرام استحلوه، وإذا حرموا عليهم الحلال حرموه.

ويؤكـــد ذلك المعنى حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه- أنه قال: سمعت رســـول الله -ﷺ- يقرأ سورة براءة، فلما قرأ: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّـــهِ﴾ قلت: يا رسول الله، أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم، قال: صدقت، ولكن كانوا يحلون لهم ما حرَّم الله فيستحلونه، ويحرمون ما أحلَّ الله لهم فيحرمونه)** [3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 1 / 461.

(2) التوبة / 31 .

(3) أخـــرجه (ت)، ك(تفســـير القـــرآن)، ب/10 (م10–ت تابع10)، 122/5، ح (3095) بنحـــوه وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

2. **جحود وإنكار أن الحق في الحكم هو لله – تعالى–، ولرسوله –ﷺ– :**

قال تعالى: **﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾** [(1)].

أي أن مـــن تـــرك التحاكم إلى شرع الله جاحداً، ومنكراً له، معتقداً جواز فعله ذلـــك، معتقداً أن غير الله يحق له وضع القوانين، والتشريعات، فإن اعتقاده هذا يكون كفراً ينقل عن الملة [(2)].

وقـــد مـــرَّ بـــنا [(3)] ، أن الجـــاحد، والمكـــذب، والمنكر لحكم معلوم من الدين بالضرورة كافر، خارج عن الإسلام.

3. **تفضيل حكم الطاغوت على حكم الله – تعالى– :**

أي أن يعتقد أن حكم غير الله – تعالى– أفضل من حكمِه –جلَّ وعلا– ، وحكمِ رسوله–ﷺ–، سواء كان تفضيلاً مطلقاً ، أم مقيداً في بعض المسائل .

قـــال تعـــالى: **﴿أَفَحُكْـــمَ الْجَاهِلِـــيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾** [(4)].

فلا شك في كفر من يستحسن القانون، ويفضله على الشرع، ويقول: هو أوفق بالحكمة، وأصلح للأمة، ويتميز غيظاً، ويتقصف غضباً إذا قيل له في أمر: أمر الشرع فيه كذا.........فلا ينبغـــي التوقف عن تكفير من يستحسن ما هو بيِّن المخالفة للشرع – أي القوانين –، ويقدمه على الأحكام الشرعية منتقصاً لها [(5)].

4. **الاستخفاف والاستهانة بحكم الله – تعالى–:**

فمن وقع في شيء من ذلك فقد خرج عن الملة؛ لأن الاستهانة، والاستخفاف من دواعي الكفر، والخروج من ملة الإسلام كما مرَّ سابقاً [(6)].

قـــال تعالى: **﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾** [(7)].

---

(1) المائدة / 44 .

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 184/6، أضواء البيان للشنقيطي: 79،80/2 ، وتفسير السعدي : 448/1.

(3) ص 49 .

(4) المائدة / 50 .

(5) انظر روح المعاني للألوسي : 155/6 ، 156 .

(6) في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الباب .

(7) التوبة / 12 .

يقــول القرطبــي – رحمه الله– في تفسير هذه الآية الكريمة: ((استدل بعض العلمــاء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين، إذ هو كافر، والطعن أن ينســب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله، واستقامة فروعه)) [1].

هــذه بعــض الحالات و الصور في الحكم بغير ما أنزل الله – تعالى– والتي تــؤدي إلــى كفــر أصحابهــا وخروجهــم من الإســلام بالكلية ، إضافة إلى حبوط عملهم الصالح .

ثانياً: كون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أصغر لا يخرج من الملة

وكمــا وُجِــدَتْ حالات، وصور يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله – تعالى– كفراً، يخرج صاحبها من الإسلام بالكلية، ويحكم عليه بالردة، فإنه توجد بعض الصور والحــالات التــي لا يحكــم فيها على الحاكم بغير ما أنزل الله بالكفر، والخروج من الإسلام، بل يحكم عليه بالفسق – والعياذ بالله –.

ويــتحقق ذلــك إذا حكــم الحاكم بغير ما أنزل الله مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأفضــل، و هــو الواجب الحكم به، ولكنه عدل عنه هوىً ومعصية، ويؤكد ذلك قول عدد من العلماء، أذكر منها:

1. يقــول القرطبي – رحمه الله– : ((إن حكم به – أي بغير ما أنزل الله– ، هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين)) [2].
2. ويقــول الشنقيطي – رحمه الله– : ((من لم يحكم بما أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً، فاعل قبيحاً، فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة)) [3].
3. يقــول الإمــام ابن القيم : ((إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفرٌ أصغر)) [4].

وقــــد وردت فــي القرآن الكريم ثلاث آيات كريمات، توضح حكم من يحكم بغير ما أنزل الله ، كما وضح المفســرون حــال تفسيرهم لها أن الحكم ليس موحَّداً ،

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 80/8.

(2) نفس المرجع : 185/6 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي : 81/32 .

(4) مدارج السالكين : 304/1 .

بل يختلف باختلاف حال الحاكم.

قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [1].

وقال- جلَّ ذكره -:﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [2].

وقـــال – عــزَّ مـــن قـــائـــل – : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [3].

يقـــول الشنقيطي – رحمه الله- : ((واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر، والظلم، والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفـــر المخـــرج عن الملة تارة أخرى، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ ﴾ معارضة للرسل، وإبطالاً لأحكام الله، فظلمه، وفسقه، وكفره، كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكـــم بمـــا أنزل الله" معتقداً أنه مرتكب حراماً، فاعلٌ قبيحاً، فكفره، وظلمه ، وفسقه، غير مخرج عن الملة)) [4].

وبذلـــك أصبح واضحاً، أن من حكم بغير حكم الله معتقداً حلَّ ذلك، مقتنعاً به، ضـــارباً بحكـــم الله عرض الحائط، فإنه كافر كفراً أكبرَ يخرج عن الملة، أما إن حكم بغير حكم الله، مع علمه أن ذلك لا يجوز، ومع تأكده من أفضلية حكم الله –عزَّ وجل– ولكـــنه انصرف عن هوى، ومعصية، فهو مسلم فاسق، عاصٍ، ويكون فعله ذلك كبيرة من الكبائر – والعياذ بالله–.

والـــناظر إلى واقع المسلمين اليوم يشعر بالضيق والحسرة والأسى لما وصل إليـــه حالهـــم – وللأسف الشديد – حيث ترك الناس شرع الله، واتبعوا تشريع غيره، أو أنهـــم جعلوا شرع الله في مرتبة متأخرة عن التشريع الوضعي والعرف، مدعين أن أحكـــام القرآن الكريم نزلت لفترة زمانية انقضت، ولأحوال وحوادث مضت – والعياذ بـــالله – ، لذلـــك وقعت بينهم البغضـــاء والشحناء ، وعمَّهـــم الفقـــر والبلاء، بالرغم من الإمكانيات الطبيعيـــة المتوفـــرة لديهـــم ، ولكنهم نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم، – والله المستعان– .

---

(1) المائدة / 44 .

(2) المائدة / 45 .

(3) المائدة / 47 .

(4) أضواء البيان للشنقيطي : 81/2 .

فليتق الله المشرعون بغير ما أنزل الله، وليعلموا أنهم ميتون، وأنهم سيحاسبون علـــى ما شرَّعوه ، بل وسيؤخذون بذنب كل من تحاكم إلى قوانينهم إلى يوم القيامة ، فيزداد بذلك إصرهم، ويتعين هلاكهم ، ولو نظر أولئك المشرعون لغير شرع الله بعين الـــتفكر ، والـــتدبر ، والموضوعية؛ لعلموا أنه لا يصلح شرع مهما كان ليحكم جميع البشـــرية ، في جميع بقاع الأرض سواه ، فهو الصالح لكل زمان ، ومكان، وهو الذي لا يأتيه الباطل مهما امتدت به الأزمان .

ويكفي للتأكيد ، أن ينظروا إلى القوانين الوضعية ليروا أن ما صلح منها فترة مـــن الزمن، لا يصلح لفترة أخرى ، بل يلزم وضع قوانين جديدة بين الحين والآخر ، وحـــتى دون الـــتزام المشـــرع لهـــم بها ، أما أحكام الإسلام فهي ثابتة ، صالحة لكل الأحوال والأوقات .

المطلب الثالث : السحر

مـــن الأمور البَدَهية المسَلَّم بها أن النفع والضُرَّ بيد الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو وحده – تعالى– النافع ، الضار، الخالق، المدبر .

قال تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَـــا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [1].

لذا يجب علينا أن نؤمن بأن كل خير أو شر يحصل لنا في هذه الحياة الدنيا هو بتقدير الله –عزَّ وجل– ، قال – عزَّ وجل – **﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [2] .

ولكن ضعفت نفسية بعض من ينسبون للإسلام، فسلكوا طرقاً غير مشروعة ؛ لإيقاع الضرِّ بغيرهم ؛ بسبب الحقد ، والكراهية ، والحسد،.... وما إلي ذلك من أسباب غـــير مشـــــروعة، مضـــحيـــن في سبيل ذلـــك بدينهم ، وآدميتهم ، وما يفعلونه هذا يسمى السحر .

---

(1) الأنعام / 59 .

(2) الزمر / 38 .

وسأبدأ في هذا المطلب – إن شاء الله- بتعريف السحر لغة ، واصطلاحاً ، ثم أذكر أقسامه، وأختم ببيان حكم كل قسم منها :

أولاً : تعريف السحر لغة واصطلاحاً

(أ) السحر لغة :

هو كل ما لطف مأخذه ،ودق ، وأصل السحر : صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، وسحرَّه : بمعنى خدعه ،وسحرَّه بكلامه : استماله برقته، وحسن تركيبه [1].

(ب) السحر في اصطلاح الشرع :

السـحر لـيس نوعـاً واحداً يمكن حدُّه بحدٍّ يميزه عن غيره ، لذا فقد اختلفت عبارات المعرِّفين له ، وقد أشار الشنقيطي – رحمه الله- إلى ذلك بقوله : ((اعلم أن السـحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع ؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحـته ، ولا يـتحقق قـدر مشترك بينها يكون جامعاً لها ، ومانعاً لغيرها ، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً)) [2].

فَعَـرَّفَه أبـو بكر الجصاص بقوله : ((كل أمر خَفِيَ سببه ، وتُخُيِّلَ على غير حقيقته، ويجرى مجري التمويه و الخداع)) [3].

وقال ابن العربي – رحمه الله- في معنى السحر : ((وهو كلام مؤلَّف يُعظَّم به غير الله تعالي ، وتنسب إليه المقادير والكائنات)) [4] .

وقال ابن قدامة – رحمه الله – : ((السحر هو عقد ، ورقيً ، وكلام يتكلم به ، أو يكتبه ، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور ، أو قلبه ، أو عقله)) [5] .

ثانيا : أقسام السحر

ينقسم السحر إلى قسمين :

---

(1) انظر لسان العرب:4/ 348 ، والقاموس المحيط :2/ 46، المصباح المنير ص141 ، ومختار الصحاح ص288 .

(2)أضواء البيان للشنقيطي : 337/4 .

(3) أحكام القرآن للجصاص ، دار الفكر – بدون تاريخ – 42/1 .

(4)أحكـام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، دار الكتب العلمية ،بيروت/لبنان،ط1 1408- 1988، 48/1 .

(5) المغني : 299/12 .

الأول: عُقَدٌ ورقىً ، أي : قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فــيما يريد به ضرر المسحور ، ولكن قال الله تعالي:﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**﴾ [1].

أي : هــــو اتفــــاق بين ســـاحر و شيطـــان ، على أن يقوم الساحر بفعل بعض المحرمـــات ، أو الشركيات ، في مقابـــل مســـاعدة الشيطان له ، و طاعته فيما يطلب منه .

الثانـــي : أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور ، وعقله ، وإرادته ، وميله ، فنجده ينصـــرف، و يمـــيل ، وهو ما يسمى عندهم بالصرف ، والعطف ، فيجعلون الإنسان يـــنعطف علـــى زوجـــته ، أو امـــرأة أخرى ، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء ، والصرف بالعكس من ذلك ، فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك ، وفـــي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه، وفي عقله فربما يصل إلي الجنون – والعياذ بالله– [2] .

حكم السحر و الساحر :

السحر محرم بالكتاب ،و السنة، وفي جميع أديان الرسل–عليهم السلام–.و لكن اخـــتلف أهل العلم في الحكم على الساحر ، فمنهم من قال: إنه يكفر، و منهم من قال: إنه لا يكفر [3] .

ولكـــن ابـــن عثيميـــن– رحمه الله – وضع حلاً لهذه المسألة بناءً على التقسيم الســـابق للسحر، فقال : ((من كان سحره بواسطة الشياطين ،فإنه يكفر ؛ لأنه لا يتأتى إلا بالشرك غالباً ؛ لقوله تعالى : ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَـــرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ**﴾إلي قوله : ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ** ﴾ [4].

---

(1) البقرة / 102 .

(2)الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، لوحيد عبد السلام بالي ، مكتبة الصحابة/جدة ط2/ 1412 ص8 . والقول المفيد : 489/1 .

(3) انظر مجموع الفتاوي : 171/35 ، و فتح المجيد ص222.

(4) البقرة / 102 . والخلاق : نصيب من الخير ، كلمات القرآن : ص 21 .

ومــن كــان ســحره بالأدوية ، و العقاقير ،و نحوها ، فلا يكفر ، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً)) [1].

رأي الشرع في السحر

قــد وردت الأدلـــة في القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة و أقوال علماء الأمـــة ، توضح الحكم على الساحر المتردد بين الكفر ودونه ، سأبدأ أولاً بذكر أقوال المكفرين ، ثم أثني بأقوال المفصلين في المسألة.

أولاً: أدلة المكفرين

(أ) الأدلة من القرآن الكريم

1. قــال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِــنَّ الشَّــيْاطِينَ كَفَــرُواْ يُعَلِّمُــونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَــارُوتَ وَمَــارُوتَ وَمَــا يُعَلِّمَــانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَــتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ [2].

فقد دلت هذه الآية الكريمة على تحريم السحر [3].

2. يقــول الجصاص عن تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((فجعل ضد هذا الإيمان فعل السحر؛ لأنه جعل الإيمان في مقابلة فعل السحر ،وهذا يدل على أن الساحر كافر ، فإذا ثبت كفره ، فإن كان مسلماً قبل ذلك فقد كفر بفعل السحر ، فاستحق القتل)) [4].

ويقــول ابن كثير –رحمه الله– : ((وقد أُستَدلَّ بقوله ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا**﴾ مَنْ ذهب إلي تكفير الساحر)) [5] .

---

(1) القول المفيد : 490/1 .

(2) البقرة / 102 ، 103 .

(3) فــتح المجــيد ، شرح كتاب التوحيد ، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ – ص 222 .

(4) أحكام القرآن للجصاص ، 53/1 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 144/1 .

قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [1].

يقول الشنقيطي – رحمه الله – : ((إن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم ..... فقولـــــه تعالى في هذه الآية الكريمة (**وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ**) يعم النفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر ،و أكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله تعالى (**حَيْثُ أَتَى**) و ذلك دليل علي كفره ؛ لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفياً عاماً إلا عمن لا خير فيه و هو كافر)) [2].

السـرُّ في ذلك أن الفعل عند علماء الصرف في منزلة الاسم النكرة ، والنكرة في سياق النفي من ألفاظ العموم عند الأصوليين ، فالفعل في سياق النفي كذلك .

وبناءً عليه فإن نفي الفلاح في قوله ﴿**وَلاَ يُفْلِحُ**﴾ شامل لجميع ما يُسمى فلاحاً ، ومنه الفلاح في الآخرة ، والذي لا يفلح في الآخرة هو كافر ، فيكون الساحر كافراً .

(ب) الأدلة من السنة النبوية المطهرة:

وردت الأدلـــة علـــى كفـــر الساحر في السنة النبوية المطهرة متمثلة في فعل الصحابة – رضوان الله عليهم – أكتفي بذكر اثنين منها:

1. عـــن بجالـــة بـــن عبدة [3] قال: (**كتب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة** ، قال : **فقتلنا ثلاث سواحر**) [4].
2. عـــن جـــندب الخـــير [5]– رضـــي الله عنه – ، قال : (**حد الساحر ضربة بالسيف**) [6].

---

(1) طه / 69 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 334/4 ، 335 .

(3) بجالة بن عبدة التميمى، البصري، كان كاتباً لجزء بن معاوية في خلافة عمر ، وثقه جمع من العلماء ، وقد أدرك النبي–ﷺ– ، و لم يره . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف /الهند ، ط1 1326هـ :417/1، والإصابة : 339/1 .

(4) أخـــرجـــه (د) ، ك (الخراج والإمارة ، والفيء) ، ب/31 (في أخذ الجزية من المجوس) ، 1329/3 ، ح(3043) ، وقال : صحيح .

(5) أبـــو عبد الله جندب بن عبد الله الأزدي، صاحب النبي–ﷺ– ، قدم دمشق و يقال له جندب الخير. انظر الإصابة :509/1–511 ، وسير أعلام النبلاء ، 175/3.

(6) أخـــرجه (ت) ، ك(الحـــدود) ، ب/28 (مـــا جـــاء في حد الساحر) ، 475/3 ،ح(1460) ، انفرد به الترمذى وصححه الحاكم في مستدركه :360/4 ، ووافقه الذهبي.

فهـــذان الحديثان الشريفان يؤكدان قتل الساحر ، ومعلوم أن **(دم المسلم لا يحل إلا بأحد ثلاثة أمور ، الزنا بعد الإحصان ، والقتل عمداً، والردة)** [1].

ومعلـــوم أن الساحر ليس زانياً ، ولا قاتلاً إلا إذا قتل بسحره ، فتعين أن يكون كافراً ، مرتداً .

ثانياً: أقوال المفصلين في المسألة:

هـــذا الفـــريق لـــم يحكـــم بكفر الساحر على إطلاقه ، بل فصّلوا في المسألة، فاعتـــبروه أحـــياناً كافراً، وأحياناً أخري لا يصل إلى درجة الكفر ، ولكنه يصل إلى درجة المعصية الكبيرة ، وهذه جملة من أقوالهم:

1. قـــال الإمام الشافعي – رحمه الله – : ((والسحر اسم جامع لمعان مختلفة ، فيقال للساحر صِف السحر الذي تسحر به، فإن كان ما يسحر به كلاماً صريحاً استتيب منه، فـــإن تـــاب، وإلا قتل، وأخذ ماله ، وإن كان ما يسحر به كلاماً لا يكون كفراً ، وكان غير معروف، ولم يضر به أحداً نُهِيَ عنه ، فإن عاد عُزّر...)) [2].
2. و قال الشنقيطي – رحمه الله– : ((التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل ، فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب ، والجن ، وغير ذلك ، مما يؤدى إلى الكفر فهو كفر بـــلا نزاع ، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في ســـورة البقـــرة ، فإنه كفر بـــلا نزاع ،........وإن كان السحر لا يقتضي الكفر ، كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات، وغيرها ، فهو حرام حرمة شديدة ، ولكنه لا يبلغ بصاحبه إلى الكفر)) [3].
3. وللإمـــام النووي – رحمه الله – عبـــارة جامعـــة فـــي حكم السحر، حيث قال : ((قد يكون السحر كفراً ، وقد لا يكون كفراً ، بل معصية كبيرة ، فإن كان فيه قول ، أو فعل يقتضي الكفر كفر ، وإلا فلا ، وأما تعلمه ، وتعليمه فهو حرام ، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر ، وإلا فلا ، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزّر واستُتِيب)) [4].

الخلاصة

بعد هذا العرض للسحر ، وأقسامه ، وحكمه ، تتضح عدة أمور :

---

(1) سبق الحديث بنصه وتخريجه ص 169 .

(2) الأم للشافعي ، دار الفكر ، بيروت/ لبنان –بدون تاريخ –، 293/1 .

(3) أضواء البيان للشنقيطي: 345/4 ، 346 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي:184/14 .

1. **إن السحر حقيقة لا خيال فيها**، وهو ثابت بالقرآن والسنة، ومن قال غير ذلك، فكلامه مردود عليه .

قال القرطبي – رحمه الله– : ((ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت ، وله حقيقته ، وذهب المعتزلة... إلى أن السحر لا حقيقة له ، إنما هو تمويه، وتخيل، وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾ [1] ، ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال : (يخيل إليه) ، وقال أيضاً: (سحروا أعين الناس) ، وهذا لا حجة فيه؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، ولكنْ ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل ، وورد بها السمع ، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية الكريمة من ذكر السحر و تعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة)) [2].

2. **السحر من الموبقات :**

عَدَّ رسول الله –ﷺ– السحر من الموبقات السبع التي ذكرها في الحديث ، كما أنه قرنه بالشرك بالله– تعالى– ؛ مما يدلل على شدة خطورته.

عن أبى هريرة – رضي الله عنه–أن رسول الله –ﷺ- قال: (**اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ،و ما هنّ ؛ قال : الشرك بالله ،و السحر**) [3]الحديث

يقول ابن عثيمين – رحمه الله– في بيان معنى الحديث الشريف : ((قوله : والسحر؛ أي من الموبقات ، ظاهر كلام النبي–ﷺ– أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين، أو بواسطة العقاقير والأدوية؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين ، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم ، فهو داخل في الشرك بالله .

وإن كان دون ذلك، فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، فيصبح كالبهائم ، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي ، فإنه إذا صرف عن

---

(1) طه / 66 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى:51/2 ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي :182/14 .

(3) سبق تخريجه ص 116 .

طبيعته ، وفطرته، لَحِقَه من الضيق والقلق مالا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله – عزَّ وجل –)) [1].

فقـــول ابـــن عثيمين – رحمه الله – ذلك يدل على الفرق في الحكم بين قسمي السحر، فالقسم الأول يعتبر كفراً وشركاً بالله، أما القسم الثاني فهو جريمة ، ومعصية، وكبيرة من الكبائر.

3. اختلاف العلماء في الحكم على السحر:

من خلال سرد أقوال العلماء و أدلتهم ،يتضح أن الحكم على السحر ليس واحداً بل يختلف تبعاً لاختلاف حال السحر و الساحر.

أولاً : فمـــنه ما يكون كفراً ، يخرج من الملة إذا استعان الساحر بالشياطين. يقول ابن حجر : ((وقد استدل بهذه الآية **﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ﴾** [2] ، على أن السحر كفر ، ومتعلمه كافر، وهو واضح في بعض أنواعه.... كالتعبد للشياطين ، أو للكواكب)) [3].

وقد عُدَّ ذلك النوع من السحر كفراً ، وشركاً من جهتين :

(أ) أن فـــيه الـــتعلقَ بالشياطين ، والتقربَ إليهم بما يحبون؛ ليقوموا بخدمة الساحر ، ومطلوبه .

(ب) إضـــافة لذلك فإن السحر يتضمن دعوى علم الغيب ، ودعوى مشاركة الله في علمه ، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك ، وذلك من شعب الشرك والكفر [4].

ثانـــياً : ومن السحر ما لا يكون كفراً، بل يكون معصية وكبيرة من الكبائر ، وفاعله مرتكـــب حـــراماً ؛ وذلـــك إذا لم يستخدم الشياطين في سحره، بل استخدم الأدوية ، والعقاقير.

كما قال ابن حجر – رحمه الله – : ((... وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة ، فلا يكفر به من تعلمه أصلاً)) [5].

---

(1) القول المفيد : 498/1 .

(2) البقرة / جزء من 102 .

(3) فتح الباري : 271/10 .

(4) انظر القول السديد في مقاصد التوحيد، لعبد الرحمن السعدي، مكتبة المعارف/الرياض ،– بدون تاريخ–، ص74 ، 75 .

(5) فتح الباري : 271/10 .

وبالـــنظر إلي هذين الحكمين للساحر ، بين الكفر، ودونه فإنه لا يوجد اختلاف جوهـــري بينهمـــا، بل عند التفصيل يزول الإشكال، وتجتمع الأدلة ، فإن كان السحر لا يـــتحقق إلا بالشرك، واستخدام الشياطين ، وعبادة الكواكب ، فهذا كفر بالإجماع ، ولا خلاف .

أما السحر بالأدوية ، والعقاقير، والتدخين ، ونحوه فلا يعتبر شركاً وكفراً؛ لأنه لـــيس ســـحراً من أصله ، بل سمى سحراً على سبيل المجاز ، كتسمية القول البليغ ، والنميمة سحراً ، وهو حرام لمضرته، ويعزز من يفعله تعزيزاً بليغاً) [1].

4. **السحر يحبط العمل :**

مـــن البَدَهـــي أن مـــن وصل لدرجة الشرك والكفر، فإن عمله محبط، باطل ، مردود عليه ، وكذا الشأن في السحر ، فإن المُكَفِّر منه يحبط العمل، و يبطله .

قـــال ابـــن عثيمين – رحمه الله– عند شرحه لقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾** [2] : ((أي : ماله من نصيب ، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فمقتضاه أن عمله حابط ،باطل ، لكن إما أنه ينتفي انتفاءً كلياً فيكون العمل كفراً أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقاً)) [3].

حكم الذهاب إلى الساحر، والكاهن [4]، والمنجم [5] وتصديقهم:

ومن بـــاب تتمـــة الفائدة ، واستكمالاً لهذا المطلب، لابد من ذكر حكم الذهاب

---

(1) انظـــر تيســـير العزيـــز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الاسلامي/بيروت، ط3 1397هـــ ، ص384 .

(2) البقرة / 102 .

(3) القول المفيد : 491/1 .

(4) الكاهن لغة: الكاهن في كلام العرب الذي يقوم بأمر الرجل ويسعى في حاجته والقيام في أسبابه، والعرب ويسمى كـــل مـــن يتعاطى عملاً دقيقاً كاهناً ، و منهم من يسمى المنجم و الطبيب الكاهن . انظر لسان العرب:181/13 . الكاهـــن اصـــطلاحاً : هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، و يخبر الناس عما سيقع في الأرض ، مع الاستناد إلى ســـبب . المســـائل التـــي خـــالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية : 872/2 بتصرف يسير، وانظر أضواء البيان للشنقيطي:151/2.

(5) المنجم لغة: نجم الشيء ظهر و طلع و بابه دخل ، و النجم: الوقت المضروب و منه سمي المنجم، و المنجم الذي يـــنظـــر فـــي الـــنجـــوم يحســـب مواقيتها و سيرها. وانظر لسان العرب 60/14 ، مختار الصحاح/ ص647 . المنجم اصطلاحاً: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ، بمعني أن المنجم يربط ما يقع فـــي الأرض فـــي النجوم بحركاتها، وطلوعها ، وغروبها، واقترانها، وتفرقها " ثم يقول:(و المنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء . انظر مجموع الفتاوي : 192/35 .

للسحرة ، والكهنة، وطلب معرفة أمور الغيب منهم ، فذلك نوع من السحر، وهو محرم؛ لأنه مبنى على أوهام لا حقيقة لها ، فلا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث في السماء [1] كما أن طلب معرفة أمور الغيب من الكاهن والمنجم يُعتبر شركاً بالله يخرج صاحبه من الملة ؛ لأن في ذلك ادّعاءَ معرفة علم الغيب لأحد غير الله ، وقد صرح سبحانه وتعالى بأنه لا يعلم الغيب إلا هو، ولا يَطَّلعُ علي غيبه أحداً إلا بمشيئته وأن ذلك صفة من صفاته الخاصة، فقال الله تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾** [2] وقال أيضاً: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾** [3].

يقول السعدي – رحمه الله– : ((إن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب ، فمن ادَّعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة ، أو عرافة، أو غيرها، أو صدَّق من ادَّعى ذلك، فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه ، وقد كذَّب الله ورسوله)) [4].

وقال الشنقيطي – رحمه الله– : ((لما جاء القرآن العظيم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله ، كان جميع الطرق التي يراد بها التوصل إلي شيء من علم الغيب غير الوحي من الضلال المبين)) [5] .

الآثار المترتبة على الذهاب للسحرة، أو الكهنة، وتصديقهم:

إضافة لوضوح أدلة حرمة ذلك، فإنه يترتب عليه أيضاً عدة أمور، جميعها تؤكد حرمته :

1. أنه يؤدي إلى الكفر:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه– ، أن رسول الله –ﷺ– قال: **(من أتى عرافاً، أو كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد)** [6].

فهذا الحديث النبوي الشريف، يحكم بالكفر، والخروج من الإسلام، على كلٍّ من أتى كاهناً، أو منجماً أو ساحراً، ...أو كلٍّ من يدّعي معرفة الغيب بطرق غير

---

(1) انظر المسائل التي خالف فيها الرسول–ﷺ– أهل الجاهلية:875/2، وفتاوي العقيدة للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، مكتبة السنة/القاهرة ، ط1 1413هـ – 1992، ص366 .

(2) الأنعام / 59 .

(3) الجن / 26 .

(4) القول السديد : ص 77 ، 78 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي: 2 / 150.

(6) أخرجه (حم) ، 565/2 ، ح(9515) ، وصححه الألباني في صحيحه: 2 / 1031 ، ح (5939).

مشروعة، ويصدقه .

2. **حبوط العمل :**

كــذا يــؤدي سؤال السحرة، و الكهنة، إلى حبوط الأجر، وبطلانه، متمثلاً ذلك العمــل في الصلاة، حيث حكم رسول الله -ﷺ- بحبوط أجر صلاة الذاهبين للسحرة ، المصدقين لهم أربعين يوماً .

فقــد ورد عــن بعــض أمهات المؤمنين، أن رسول الله -ﷺ- قال: **(من أتى عرافاً، فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)** [1].

فهــذا الحديــث واضح الدلالة في بطلان أجر الصلاة أربعين يوماً،متمثلاً في بطــلان مائتي صلاة – والعياذ بالله – ، فإذا كان السحر يبطل ويحبط أجر الصلاة ، وهي رأس المأمورات ، وعمود الدين ، وركن الإســلام ، فغيرها من الأعمال أحرى بالحبوط ، – والله أعلم – .

وبالنظر إلى حقيقــة السحر المكفِّر بعين الاعتبــار، وبموضوعيــة نجــد أنه لا يــندرج فقــط تحــت المحبطات الفعليــة، بل يتفــرع في جميع أنواع المحبطات القولية، والاعتقادية، والفعلية.

فالســحر الذي يأتي باستغاثة الشياطين ودعائهم، والتمتمة إليهم، بأقوال كفرية، يعتــبر محــبطاً قولياً، وفي حالة اعتقاد نفعهم وضرهم بغير إذن الله – تعالى – فإنه يــندرج تحــت المحــبطات الاعتقادية، وأما إذا ذبح لتلك الشياطين، تقرباً إليها، لنيل رضاها، ومساعدتها له بالباطل فهذا على قمة المحبطات الفعلية.

فيكون السحر بذلك قد جمع من الآثام، مالم يجمعه محبط آخر– والله المستعان–

بعــد هــذا العــرض الموجز لما يتعلق بالسحر، وما يلحق به، أصبح واضحاً وضوحاً لا جدال فيه، الحكم بالكفر على السحرة الذين يتعاملون مع الشياطين؛ لأن تلك المعاملة هي بمثابة عبادتهم، وكذا كفر من يذهب إليهم لسؤالهم، وتصديقهم .

ولكــن للأسف الشديد ذهب بعض من ينتسبون إلى الإسلام إليهم؛ لسؤالهم عن الغيــب المــتعلق بهم، أو لإيقاع الضرّ بغيرهم؛ مضحين في سبيل ذلك بدينهم، فانتشر بذلك السحر في البلاد الإسلامية انتشاراً واسعاً، بسبب ضعف الإيمان، وبُعْدِ الناس عن

---

(1) أخرجه (م) ، ك (السلام) 1751/4 ، ح (230).

ربهم، وجهلهم بأمور دينهم، مما جعل السحرة يجدون أرضاً خصبة في بلاد المسلمين، بيــن ذاهــب إلــيهم ليسحر الناس، وبين مسحور يذهب ؛ ليقضي على السحر ويحلّه، ويتحررَ منه ، فالسحرة يجلبون الداء ، ويصفون الدواء – والله المستعان – .

فليــتقِ الله ، ويحذرْه ، كل من يحاول مضرة أخيه الإنسان المسلم، وليعلم جيداً أن مــن ضرَّه فهو عند الله مظلوم، سيعوضه الله خيراً، أما هو فقد فَقَدَ دينه إضافة إلى إنســانيته، يوم أن رضي لنفسه أن تتمتع بأذية المسلمين، ودمارهم، فلا يوجد أي سبب على وجه الأرضَ مهما كانَ يجعلهم يضرون المسلمين بهذه الدرجة، وليعلموا جيداً أن الدنيا فانية، زائلة، ومهما عمَّر فيها الإنسان لابد وأن يترك ويغادر؛ ليحاسب على كل ما اقترفت يداه، فيأتي الندم يوم لا ينفع الندم .

وليتق الله المسحورون أيضاً، فيحاولوا حلَّ سحرهم بالرقى والتمائم المشروعة، والواردة عن معلِّم البشرية الأول محمد –ﷺ– [1]؛ لينالوا رضا الله – عزَّ وجل – فإن حصــل لهــم بذلــك الشــفاء فهو المطلوب ، وإن لم يتيسر ، فما عليهم إلا الصبر ، والإلتجــاء إلى الله – تعالــى– ، والتوكــل عليه في حلِّ ما حلَّ بهم ، قال – تعالى– ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [2].

وليعلموا جيداً أنهم يوم أن ذهبوا للساحر ليقضي لهم على سحرهم، شاركوه في كفره، وإثمه، وحبوط عمله، وأصبحوا جناة، بعد أن كانوا مجنياً عليهم– والعياذ بالله–.

---

(1) إن علاج السحر بعدة طرق منها :

أ. المداومة على الأذكار الشرعية ، فإنها أعظم ما يُنتصر به ، فإن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية وهــي كثــيرة ، وكلهــا نافعــة –بإذن الله–، ومنها : فاتحة الكتاب ، أربع آيات من أول سورة البقرة ، والآيــات /163،164 منها 117،119، وآية الكرسي ، وآخر ثلاث آيات منها ، والآية/18 من ســورة آل عمران ، والآية/154 من سورة الأعراف ، والآيات /116–118 من سورة المؤمنين ، والآية /3 من ســورة الجن ، وعشر آيات من أول سورة الصافات ، وآخر ثلاث آيات من سورة الحشر ، والآيتان / 81 ، 82 من سورة يونس ، والآية /69 من سورة طه .

ب. النشــرة الجائزة، وهي بأخذ بعض الأعشاب وأوراق الشجر، ثم تدق ، وتوضع في ماء فيغتسل به، ونص بعض العلماء على القراءة فيه ببعض الآيات السابقة الذكر .

انظر زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية، (ت) شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، ط3 1421، 2000 ، 116/4.

(2) الطلاق / 2 .

خلاصة :

هــذه هي أهم الأقوال ، والصفات ، والأفعال ، التي استطعت أن أجد لها دليلاً من القرآن الكريم ، أو من السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، يدل على إحباطها لعمل الإنسان الصالح ، الذي طالما تعب ، وجدّ ، وكدّ ، وسهر الليالي من أجل تحصيله ، فجاءت هذه المحبطات فجعلته هباءً منثوراً، كأن لم يكن ، لا يجد له يوم القيامة وزناً .

قــال تعــالى : **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** (1).

هــذه الآيــات الكــريمة توضح أن من ارتكب شيئاً من الأقوال ، والأفعال ، والصــفات التــي تعرفــنا عليها خلال الباب كاملاً ، يحبط عمله الصالح ، ويبطله ، ويصبح كأن لم يكن .

ولكــن الســؤال الذي يطرح نفسه : هل يعود العمل المحبط بالتوبة الصادقة ، النابعة من القلب ، أم لا ؟

اختلف أهل العلم في تلك المسألة على قولين :

يــرى الإمامان مالك ، وأبو حنيفة – رحمهما الله – : أنه لا يعود ، حيث إنه في رأيهما من ارتد من المسلمين ثم عاد إلى الإسلام ، وتاب لم ترجع إليه أعماله التي عملها قبل الارتداد حتى إن كان حّج لزمه الحجّ مرة أخــرى ، وإن كان عليه نذور ، أو أيمان ، لم يكن عليه شييء منها بعد عودته إلى الإسلام .

أي على قولهما أن من ارتكب أي أمر مما سبق – من الأمور التي تخرج من الإســلام – يخرج صاحبه من الإسلام ، وبالتالي يحبط عمله الصالح ، وأن هذا العمل لا يعود بالتوبة ، حتى ولو كانت مستوفية لشروطها (2) .

ذلــك أنه رضي لنفسه بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان ، أن تعود للكفر والضلال مرة أخرى ، فكان جزاؤه أن يحرم من جميع ما عمل قبل الردة .

---

(1) الكهف / 103-105 .

(2) وهي : أ. الندم الصادق على ما فعل ، ب. الإقلاع فوراً عن ارتكاب الذنب ج. والعزم على عدم العودة لارتكاب الذنب مرة أخرى .

دليلهما :

1. قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** ﴾ [1].

2. وقوله – جلَّ وعلا – : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ [2].

أما الإمام الشافعي – رحمه الله –، فيرى : أن من ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام ، لم يحبط عمله ، ولا حجه الذي حجه ، وكذلك من تاب من المعاصي ، فإنها تعود عليه أعماله المتقدمة ماله ، وما عليه ، أما من مات على الردة فحينئذ تحبط أعماله .

ودليله : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [3].

فقد علق – رحمه الله – حبوط العمل على الموت على الكفر والشرك [4] .

بالنظر في أدلة الفريقين ، وفي آيات القرآن الكريم الأخرى ، وإلى سماحة الدين الإسلامي أرى أنه دين ترغيب بالدرجة الأولي؛ فإن القلب يميل لرأى الإمام الشافعي – رحمه الله – والأدلة على ذلك :

1. قال – عزَّ وجل – : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[5].

هذه الآيات الكريمة توضح أن عدم قبول التوبة لمن مات وهو مصُر على المعصية ، أما من تاب ، وأناب ، وعاد فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته ، ويغفر له ذنوبه ، وخطاياه ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – غفور رحيم ؛ ومن مقتضى الرحمة أن لا يحرمه أجر عمله الذي تعب وكدّ في تحصيله .

---

(1) المائدة / 5 .

(2) الزمر / 65 .

(3) البقرة / 217 .

(4) انظر تفصيل تلك المسألة في : تفسير السعدي : 164/1 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :52/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور: 333/1.

(5) آل عمران / 86-89 .

2. وقـــال – جلّ ثناؤه – : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْـتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِـمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (1).

توضـــح هذه الآيات الكريمة أن الاستغفار ، والتوبة النصوح ، ليس لهما جزاء إلا المغفـــرة ، والخلود في الجنـــات ، مهما كان ذلـــك الذنب المرتكب ، حتى ولـــو كـــان الشرك بالله ، فإن الظلم هو عبارة عن الشرك : قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (2).

3. وقـــال –عـــزَّ مـــن قائل – : ﴿وَالَّذِيـــنَ لاَ يَدْعُـــونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهـــًا آخَرَ وَلاَ يَقْـــتُلُـــونَ الـــنَّفْسَ الَّتِـــي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَـــقِّ وَلا يَزْنُـــونَ وَمَن يَفْعَـــلْ ذَلِـــكَ يَلْـــقَ أَثَامًـــا. يُضَـــاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَـــةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَـــنَ وَعَمِـــلَ عَمَلاً صَالِحـــًا فَأُوْلَئِـــكَ يُبَـــدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (3) .

أيضاً هذه الآيات الكريمة توضح أن من ارتكب الكبائر من الشرك بالله تعالى ، وقتل النفس التي حرم الله ، وارتكاب فاحشة الزنا ، فإنه محبط العمل ، مما يؤدي إلى خلوده في النار ، أما من تاب منهم فإن الله – سبحانه وتعالى – ، يقبل توبتهم ، ويتوب علـــيهم ، ولا يقـــف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه – تعالى : يبدل سيئاتهم التي فعلوها حال ارتدادهم حسنات .

وهذا مما يستأنس به في هذا المقام ، فلا يعقـــل أن تبدل سيئاتهم حسنات ، ثم ما عملوه من حسنات تحبط ، وتبطل .

4. قولـــه تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (4) .

---

(1) آل عمران / 135 ، 136 .

(2) لقمان / 13 .

(3) الفرقان / 68-70 .

(4) الزمر / 53 .

الباب الثاني

عقوبات الذنوب وآثارها

خلق الله – سبحانه وتعالى– الخلق ليعبدوه ويخافوه ، ويخشَوْه ، وبيَّن لهم الأدلة على كبريائه ليهابـــوه ، ثم وصف لهم شدة عذابه ليسارعوا إلى امتثال أوامره ، وفعل مـــا يحـــبه ، واجتـــناب ما ينهي عنه ويأباه ولكن بعض الناس عمدوا إلى ما حرم الله فارتكـــبوها ،ومأموراتـــه فاجتنـــبوها ،فقطعوا بذلك الأسباب بينهم وبين خالقهم ؛ لأن الذنـــوب حجاب يحجبهـــم عنه –جلَّ وعلا– ، كما أنهـــا تورث الذل والهوان على الله – تعالى– أولاً ، ثم على الخلق ثانياً .

وصدق عبد الله بن المبارك حين قال :

رأيـــتُ الذنـــوبَ تميـــتُ القلـــوب	**ويـــــورث الـــــذلَّ إدمانُهـــــا**
وتـــركُ الذنـــوبِ حـــياةُ القلـــوب	**وخـــير لنفســـك عصـــيانُها** [1]

مـــن أجل ذلك كان هذا الباب بعنوان: (عقوبات الذنوب وآثارها) ، وهو يشتمل على فصلين :

الأول : يبين عقوبات الذنوب على الفرد مشتملاً على العقوبات الدنيوية التي تزول بالتوبة ، والتي لا تزول بها ، كما يبين العقوبات الأخروية .

والثانـــي : يبيـــن العقوبـــات علـــى المجتمع وهي : عقوبات إهلاك ، وعقوبات دون الإهلاك.

---

(1) نقلاً عن الذنوب وقبح آثارها على الأفراد والشعوب ، لمحمد بن أحمد سيد أحمد ، مكتبة السوارى / مكة المكرمة ، ط3 1413هـ – 1993م ، ص 6 .

المبحث الأول

عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة

ويتضمن مطلباً واحداً ، ويشتمل على ثلاثة فروع :

الفرع الأول : القتل

الفرع الثاني : القطع

الفرع الثالث : الجلد .

الفصل الأول

عقوبات على الفرد

إن العقوبـــات التـــي تطارد الأفراد تنقسم ابتداءً إلى عقوبات دنيوية ، وأخرى أخـــروية ، غير أن الدنيوية بعضها يزول بالتوبة ، وبعضها لا تسقطه التوبة ، فانقسم بذلك هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : عقوبات دنيوية لا تزول بالتوبة

تناولـــت فـــيه – بعـــون الله وتوفـــيقه– العقوبات التي إن ارتكب الإنسان من المعاصي والآثام ما يوجبها ، ثم تاب ورجع إلى الله تعالى ، تاب الله عليه – بإذنه – ؛ لأن الـــندم والإخلاص في التوبة من أسباب قبولها ، ولكن هـــذه العقوبـــات لا تزول عنه ، ولا تسقط بتوبته طالما وصلت إلى الحاكم أو السلطان ، كما أنه يحرم على أي إنسان مهما كـــان أن يتوسط بالشفاعة لشخص وجبت عليه إحدى هذه العقوبات ؛ لأنه لا يملـــك أي شـــخص العفـــو عنها ؛ فهي حق لله وحده ، لا يجوز التنازل عنه ، أو الـــتهاون فـــيه ؛ (ولأن في الحدود مصالح للعباد في الدنيا والآخرة، وهي صادرة عن رحمـــة الله – تعالى– بعباده ، والإحسان إليهم ، بل إن إقامتها من العبادات التي يُذَبُّ بها عن المسلمين كالجهاد في سبيل الله) (1).

ويشمل هذا المبحث مطلب واحد :

الحدود (2)

أستهل هذا المطلب بتعريف الحدود ، ثم أذكر بعض الذنوب التي تكون عقوبتها إقامةَ الحد على مرتكبها ، والتي دليل إقامة الحد فيها من القرآن الكريم فقط ؛ حيث إن

---

(1) فقه الأشربة وحدُّها، لعبد الوهاب عبد السلام طويلة ، دار السلام/القاهرة ، ط1 1406هـ–1986م ، ص237.

(2) الحـــدود لغة : جمع حد ، والحد في الأصل هو الشيء الحاجز بين شيئين ، ويقال : هو ما ميز الشيء عن غيره مـــثل حـــدود الـــدار ، وحدود الأرض ، وورد أيضاً بمعنى المنع ،انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس : 3/2 ، والمعجم الوسيط، د.إبراهيم أنيس وجماعة ، دار المعارف /مصر ، ط2 1392هـ– 1972م ، 160/1، والمعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط1 1400هـ– 1980م ، ص139.

والحدود فقهاً : هي عقوبة مقدرة شرعاً تجب حقاً لله تعالى ؛ لمنع تكرارها ، أو الوقوع في غيرها .

– بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين بن مسعود الكاسائي الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، ط2 1406هـــ–1986م ، 33/7 ، والمبســوط لشــمس الدين السرخسي ، دار المعارف ، بيروت /لبنان ، ط3 1398هـ–1978م ، 36/9.

هذا البحث دراسة قرآنية بالدرجة الأولى .

إن الحدود حق لله – تعالى– لا يجوز التهاون فيها ، أو التنازل عنها طالما وصلت إلى السلطان ، وكذا لا يجوز الشفاعة فيها لما ورد عن عائشة – رضي الله عنها– أن رسول الله –ﷺ– قال لأسامة بن زيد – رضي الله عنه– حين أتاه متشفعاً للمرأة المخزومية التي سرقت : "**أتشفع في حد من حدود الله"؟!** ، ثم قام فاختطب ، ثم قال : **(إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)** (1).

أما العفو والشفاعة فيها قبل الوصول إلى السلطان فجائز ، لقول رسول الله –ﷺ– فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنه– : **(تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حد فقد وجب)** (2).

والمعنى : ((تجاوزوا عن الحدود ،ولا ترفعوها إليّ ،فإني متى رفعت إليّ وجبت عليّ إقامتها– أي إقامة هذه الحدود على مستحقيها–)) (3) .

أما من تاب من كبيرة حد الحرابة قبل علم السلطان به فقد سقطت عنه ؛ لحصول المقصود من العقوبة بالتوبة، وحق الله مبني على المسامحة ؛ لقوله تعالى **﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (4) .

وصفوة القول : إن الحدود الشرعية لا تقبل عفواً : ولا إسقاطاً ، ولا صلحاً إذا بلغت السلطة ، ومَنْ عطّل الحد وهو قادر على إقامته ، أو شفع فيه بعد أن بلغ الحاكم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً (5) .

---

(1) متفق عليه أخرجه (خ) ،ك(أحاديث الأنبياء) ، ب (54) ، 1081/2 ، ح(3475) . وأخرجه (م) ، ك(الحدود)، 330/11 ، ح(8).

(2) أخرجه (د) ، ك(الحدود ، ب/5 (العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان)، 1871/4 ، ح(4376) وقال صحيح . وأخرجه (س)في سننه ، ك(قطع السارق) ب/8 (ما يكون حرزاً وما لا يكون) ، 329/4، ح(7372)، دار الكتب العلمية ،بيروت /لبنان ،ط1 1411هـ–1991م.

(3) عون المعبود : 2726/12 ، بتصرف يسير .

(4) المائدة / 34 .

(5) انظر مجموع الفتاوى : 294/15 ، 298/28–300.

ومــن رحمة الله -عزّ وجل- بعبــاده أن من أقيــم عليـــه الحد فهو كفارته ، فلا يعذبه الله - تعالى- يوم القيامة على نفس الذنب .

روى عــبادة بن الصامت - رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- أنه قال : **(بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ،ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ،..... ثم قال : "فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومــن أصــاب من ذلــك شــيئاً ثم ســتره الله فهــو إلــى الله إن شــاء عفا عنه وإن شاء عاقبه)** [1].

وكمــا أسلفت فإنني اكتفيت هنا بالحديث عن الحدود التي لها دليل شرعي من القرآن الكريم فقط ، وبذلك تضمن هذا المطلب ثلاثة فروع.

الفرع الأول : القتل

وتناولــت فــيه الجــريمة التي إن ارتكبها الإنسان يصبح مهدرَ الدم ، وتزول عصمته ، ويجب عليه القتل حداً [2]، وهي :

حد الحرابة [3]

تُعـَدُّ جريمــة الحرابة من أكبــر الكبائــر وأعظمها ؛ لــذا ســمَّى المولــى - عزّ وجل- المتورطين فيهــا محاربين لله ورســوله، وســاعين في الأرض بالفساد - والعياذ بالله- .

يقــول الســعدي - رحمــه الله - : ((المحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة ، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الطريق)) [4] .

---

(1) أخرجه (خ) ، ك(الإيمان) ، ب(11) ،30/1، ح(18).

(2) وهذا يعني أنه يقتل بالعصيان لا بالردة ، فيموت مسلماً مرتكباً كبيرة ، ويقابله من يقتل كفراً كالزنديق ، والتارك لدينه .

(3) الحــرابة لغــة : مشتقة من الحرب ، وهو السلب ، ويقال : حاربه محاربة وحَرَاباً : أي قاتله ، ويقال حاربه حَرَباً : أي سلبه جميع ما يملك .

انظر معاجم مقاييس اللغة : 48/2 ،والمعجم الوجيز ص142 ،والمعجم الوسيط د.إبراهيم أنيس :163/1

والحرابة اصطلاحاً :هي البروز لأخذ مال أو لقتل ، أو إرعاب اعتماداً على الشوكة مع البعد عن الغوث نهايــة المحــتاج إلــى شرح المنهاج، لشمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة ومن معه، مكتبه مصطفى البابلي الحلبي /مصر -الطبعة الأخيرة -، 1386هـ-1967م، 3/8.

(4) تفسير السعدي :440/1.

ويُعرّفها محمود فؤاد جاد الله بقوله: ((هي قطع الطريق ، وإخافة السبيل بقصد الإرهاب والبطش، سواء أخذ المال مغالبة أو لم يأخذ ، وسواء قُتلت النفس الآمنة أو لم يُقتل أحد ، وسواء استُعْمِلَ سلاحٌ أو لم يستعمل)) (1).

كمـــا يوضح أيضاً – رحمه الله– مدلول كلمة الحرابة قائلاً : ((وكلمة الحرابة مـــأخوذة من الحرب ؛ لأن هذه الطائفة الخارجة عن النظام تعتبر محاربة للجماعة من جانب ، ومحاربة للتعاليم الإسلامية التي جاءت لتحقيق أمن الجماعة وسلامتها بالحفاظ علـــى حقوقهـــا من جانب آخر ، فخروج هذه الجماعة على هذا النحو يعتبر محاربة ، ومن ذلك أخذت كلمة الحرابة .

وكمـــا يُسمى هذا الخروج على الجماعة وعلى دينها حرابةً ، فإنه يُسمى أيضاً قطعَ طريق ؛ لأن الناس ينقطعون بخروج هذه الجماعة عن الطريق، فلا يمرون فيه ، أو يتعرضون لما لا قدرة لهم على مواجهته)) (2).

وبالـــنظر إلـــى تعريف الحرابة ومدلولها يتضح أنها نوع من أنواع السرقة ، ولكنها ليست السرقة بعينها ؛ لأنه توجد فروق ظاهرة وواضحة بينهما :

فالسرقة غالباً ما تكون في الخفاء فيتحين السارق فرصة غياب من يريد سرقته أو غفلـــته، ثم يحاول الاستيلاء على الشيء المسروق دون دراية المسروق منه ، أما الحرابة فهي دائماً ما تكون وجهاً لوجه .

كما أن السارق ليس له هدف سوى حيازة الشيء المسروق فقط ، وإن تعرض لأمر مفاجئ طارئ ربما يحصل قتال ، أما المحارب فهو دائماً مستعد للقتال والقتل .

وكذا السارق فإنه لا يتسلل إلى الأماكن المسروق منها إلا بهدف حيازة الشيء المسروق، أما المحارب فإنه أحياناً يهجم ويقاتل دون هدف سوى نشر الخوف والرعب والفزع بين الناس، دون نية في السرقة نهائياً .

من أجل ذلك قال بعض العلماء: إن تسميتها بالسرقة مجاز .

يقـــول كمـــال الدين السيواسي : ((وتسمية الحرابة سرقة مجاز لا حقيقة ؛ لأن السرقة هي أخذ المال خفية ، وفي قطع الطريق يؤخذ المال مجاهرة ،..... ثم يوضح

---

(1) أحكام الحدود في الشريعة الإسلامية لمحمود فؤاد جاد الله ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1984م ، ص95.

(2) نفس المرجع ونفس الصفحة .

وجه تسميتها سرقة فيقول: ولكن في قطع الطريق ضرب من الخفية هو اختفاء القاطع عن الإمام .... ولذا لا يطلق السرقة على قطع الطريق إلا بقيود ، فيقال السرقة الكبرى ، ولو قيل السرقة فقط لم يفهم منها قطع الطريق ، ولزوم التقييد من علامات المجاز)) [1].

من كل ما سبق يتضح أن الحرابة –أو قطع الطريق– هي أشد خطراً وضرراً على المجتمع من السرقة ، فهي تشمل السرقة وزيادة من إثارة الخوف والرعب ، وأحياناً القتل وإزهاق الروح التي حرَّم الله إلا بالحق .

من أجل ذلك شدَّد – سبحانه وتعالى– العقوبة على المحاربين ، فأوقع عليهم عقوبة لم يوقعها بمرتكب جريمة أخرى .

وذلك في قوله تبارك وتعالى ﴿ **إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [2].

فهذه الآية الكريمة توضح حكم قاطع الطريق ، وهو عبارة عن عقوبات أربع، هي :

أولاً : القتل

ثانياً : الصلب

ثالثاً : قطع الأيدي والأرجل من خلاف

رابعاً : النفي من الأرض .

ولكن اختلف العلماء في تحديد عقوبة المحارب ،والأصل في هذا الخلاف اختلافهم في تفسير حرف (أو) الوارد في الآية الكريمة السابقة ،فمن رأى أن الحرف (أو) جاء للبيان والتفصيل، قال:إن العقوبات جاءت مترتبة على قدر الجريمة ،وجعل لكل جريمة بعينها عقوبة بعينها، ومن رأى أن الحرف (أو) للتخيير ،ترك للإمام أن

---

(1) شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي ، دار الفكر ، بيروت/لبنان ، ط2 1397هـ–1977م ، 422/5.

(2) المائدة / 33 .

يوقع أية عقوبة على أية جريمة بحسب ما يراه ملائماً [1].

((وخلاصة قول المفسرين : أن أولى التأويلين بالصواب تأويل من أوجب على المحـارب مـن العقوبـة علـى قدر استحقاقه ، وجعل الحكم على المحاربين مختلفاً باختلاف أفعالهم ، أي أن لكل رتبةٍ من الحرابة رتبةً من العقاب ، فمن أخاف الطريق فقط فعقوبته النفي ، ومن أخذ المال ولم يقتل فعقوبته القطع من خلاف ، ومن قتل دون أخذ المال فعقوبته القتل ، ومن جمع الكل قتـل وصلب ، وحجـة ذلـك أن الحرابـة لا تُخْـرِج من الإيمان، ودم المسلم حرام إلا بإحدى ثلاث : ارتداد بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس ، فالمحارب إذا لم يقتل فلا سبيل إلى قتله، وهذا هو الراجح والموافق لعدل الأحكام الربانية)) [2].

أما إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه [3] ،فإن الحد يسقط عنه من قتل ، وصلب وقطـع ، ونفي ، ولكن لا يسقط عنه ما يتعلق بحقوق العباد ؛ بل يبقى عنها مسئولاً ، فـإن كان قد أخذ المال فقط فعليه رده إن كان قائماً ، أو ضمانه إن كان قد تلف ، وإن كـان قـد قتل أحداً أو جرحه فعليه القصاص، إن كان ذلك مما يجب فيه القصاص ، وإلا فعليه الدية .

وعلـة قـبول التوبة قبل القدرة ؛ أن التوبة حينئذٍ تكون غالباً توبة إخلاص ، وإنابـة ، ورجوع إلى الله – عزَّ وجل– ، أما التوبة بعد القدرة فهي للخوف من إقامة الحـد ؛ ولأن فـي قبول التوبة قبل القدرة ترغيباً للمحارب في التوبة ، والرجوع عن المحاربـة ، والإفسـاد في الأرض ، فناسب ذلـك إسـقاط الحد عنه ، أما بعد القدرة فلا حاجة لترغيبه ؛ لأنه قد عجز عن الإفساد والمحاربة ، فيكون بذلك قد أوجب الحد – تـبارك وتعـالى– على كل محارب ، ثم استثنى منهم التائبين قبل القدرة ، أما من عداهم فيبقى في حكم العموم [4].

---

(1) انظـر جـامع البـيان للطبري: 88/6، وما بعدها ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 149/6، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير :52/2 ، 53 .

(2) المحرر الوجيز لابن عطية : 89/5 ، وانظر جامع البيان للطبري : 293/6-296.

(3) أي قبل أن يقع في قبضة السلطان ، أو صاحب السلطة .

(4) انظـر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 53/2 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 100/6، وأحكام الحدود ص109.

ويجب على ولاة الأمور أن تكون تلك الرحمة الربانية منهجاً ودستوراً لهم في الحـــياة ، فيقبلوا توبة من تولوا أمورهم إذا تابوا ورجعوا، وندموا على ما صدر منهم مهما كان ،إذا كانت تلك التوبة من تلقاء أنفسهم ، وقبل كشف أمرهم ، ويعفوا عنهم ، ويقومـــوا بإرشـــادهم إلى كيفية التكفير عن ذلك الخطأ ، سواء كان ذلك الذنب يتعلق بحقـــوق الغير ، أو لا يتعلق ، كما يجب أن يحرصوا على عدم إيقاع العقاب بهم ، أو تأنيـــبهم بشدة ؛ لأن ذلك سيكون له ردة فعل معاكسة ، حيث يجعلهم يتمادون في فعل الأخطاء ،دون أدنى تفكير في العودة لولي أمرهم؛ كي يعترفوا له بما اقترفت أيديهم ، ويندموا عليه ،ويعلنوا توبتهم أمام الله أولاً ،ثم أمامهم ثانياً ؛خشية وقوع العقاب بهم.

الفرع الثاني : القطع

ولا يوجد في الإسلام جريمة عقوبتها القطع وحده حداً سوى جريمة السرقة .

حد السرقة (1)

إن للمـــال ســـلطاناً قوياً على نفوس الناس ؛ لذا فإنهم يبذلون جهوداً جبارة في جمعـــه ؛ لأنـــه عصب الحياة وزينتها ، بل هو من أسباب استمرار الحياة ، فبواسطته يتوفر المأكل والمشرب ، والمسكن ، وغير ذلك من متطلبات الحياة .قال تعالى ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (2).

لـــذا فـــإن كثـــيراً من الناس ممن لا يستطيعون كسب رزقهم بكدهم، وتعبهم ، وعـــرق جبيـــنهم بسبب عجزهم، أو ممن لا يكلفون أنفسهم عناء الكسب الحلال بسبب كســـلهم، لا يرون طريقاً للكسب سوى الاعتداء والاستيلاء على أموال الآخرين، وهذا يدل على فساد النفس وخبثها .

يقول الخطيب : (من أجل ذلك اقتضت حكمة الله – تعالى– أن يقيم الناس على شـــريعة ذات سلطان وازع ، يأمنـــون به علـــى ما يملكـــون من عدوان أهـــل البغي

---

(1) الســـرقة لغـــــة : سَـــرَقَ – محركة – الشيء ،يسرقه سَرَقاً ، وسَرِقاً ، والاسم : السَرَقَة – بالفتح –، واسترافه : جاء مستَتِراً إلى حرز فأخذ مالاً لغيره .

انظر لسان العرب : 245/6 ، والقاموس المحيط :253/3.

السرقة شرعاً : هي أخذ المال على وجه الخفية والاستتار .

انظر أحكام القرآن لابن العربي ، 103/2 ، والمغني : 416/12 .

(2) الكهف / 46 .

والعدوان ، وفي ظل هذا الأمن يعمل العاملون، ويجنون ثمار ما يعملون)) [1].

لـــذا شـــدَّد الإسلام في عقوبة المعتدي على أموال الناس بالسرقة ؛ كي تكون رادعاً له ولغيره عن ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فأوجب قطع يد السارق ، وهذا الحد ثابت بالقرآن والسنة ، وإجماع علماء الأمة .

قال تعالى ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [2].

فـــالله ســـبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يأمر بقطع يد السارق، سواء كان ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً دون تمييز .

وأول مـــا يقطـــع مـــن الســـارق يده اليمنى من مفصل الكف – وهوما يسمى بـــالكوع – ، ثـــم تعلق اليد المقطوعـــة في عنق صاحبها ؛ زيادة في الزجر والتنكيل وأخذ العبرة [3].

وبالرغم من أن ظاهر هذا الحكم القسوة والعنف على رأى من يصفون الإسلام بهـــذه الأوصاف الشنيعة، إلا أن المتدبر للقرآن، والناظر للأحكام بعين الاعتبار، يجده قراراً عادلاً، بحيث لو طُبِّقَ هذا الحكم، لاندثرت هذه الظاهرة السيئة تماماً، فلو سرق الســـارق مرة وقطعت يده بالفعل، فإنه يستحيل أن يكرر ذلك الفعل الشنيع للسرقة إذا كان لديه قلب ينبض ، وعقل سليم.

كمـــا أن تطبيـــق مثل هذا الحكم سيكون رادعاً لغير السارق ، ممن رأى قطع الـــيد ، أو من رأى تعليق يد السارق في عنقه ، ومن المعلوم أن هذه الصورة لا تكون إلا لســـارق ، فلو لم يخفِ السارق من الله ، ولم يستحِ منه ، فإنه سيسعى جاهداً لترك هـــذا الفعـــل حياءً من البشر، وبذلك يصبح الناس يعيشون في مجتمع نظيف خالياً من الاعتداء على حقوق الآخرين وأموالهم ، فيتحقق بذلك الأمن ، والأمان للمجتمع كله .

---

(1) الحـــدود في الإسلام (حكمها وأثرها في الأفراد والجماعات والأمم) ، لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، – بدون تاريخ – ص62.

(2)المائدة / 38 .

(3) انظـــر المحرر الوجيز لابن عطية :98/5 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :109/6-160 ، وأحكام القرآن لابن العربي : 119/2 ، وتفسير السعدي : 444/1 ، والتشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة ، دار الكتاب العربي ، بيروت/لبنان، -بدون تاريخ- ، 621/2-622 .

أما لو تُرك السارق يصول ويجول ، أو حُبس عدة أيام جزاءً على فعله ، فإنه – حتماً – سيخرج من السجن، وربما قام بالسرقة في نفس اليوم ؛ لأن العقاب لم يكن رادعاً .

كما نستطيع أن نردَّ على من يصف الإسلام بالقسوة، وهوان الأعضاء عليه بأن الإسلام شدَّد العقوبة على المعتدى عليها، فجعل دية الجناية على اليد بالقطع لا تقاس بقدر الجزء المقطوع منها، بل جعل قيمة القطع خطأً خمسمائة دينار من الذهب الخالص؛ وذلك حماية لها، ولكنها لما خانت هانت،وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبى العلاء المعَّري في قوله :

يدٌ بخمسَ مئتينٍ عَسْجدٍ وُدِيتَ ... ما بالها قطعت في ربع دينار ؟

فأجاب القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها ، وأرخصها ... صيانة المال ، فافهم حكمة الباري [1]

ومعنى ذلك : أن دية الاعتداء والجناية على الأيدي لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات والاعتداءات ، من أجل ذلك جعلها خمسمائة دينار ولو كان نصاب السرقة ، والاعتداء على أموال الآخرين خمسمائة دينار ، لكثرت الجنايات على الأموال .

ومن أجل ذلك أيضاً جُعل نصاب القطع ربع دينار ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان ذلك صيانة من الطرفين [2].

أما أدلة القطع من السنة النبوية المطهرة ، فما روى عن ابن عمر – رضي الله عنهما– أنه قال : **(إن رسول الله -ﷺ- قطع سارقاً من مِجَنّ [3] قيمته ثلاثة دراهم)** [4].

وقال أيضاً -ﷺ- : **(تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً)** [5].

---

(1) الجزاء من جنس العمل : 228/2 .

(2) انظر فتح الباري : 119/12.

(3) المجن : الترس ، وهو آلة يستتر بها ، ويقي ضربات العدو ، والجمع تِرسَة ، وتراس ، وتُرُس . انظر لسان العرب : 32/13 .

(4) متفق عليه .أخرجه (خ) ، ك(الحدود) ، ب/13 (قول الله تعالى :"والسارق والسارقة فاقطعوا أيدهما " وفي كم تقطع) 2120/4 ، ح(6795)، وأخرجه (م) ، ك(الحدود) ، 329/11 ، ح(6).

(5) متفق عليه .أخرجه (خ) ،ك (الحدود) ب/13 (قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيدهما وفي كم تقطع) ، 2120/4 ، ح(6789) ، وأخرجه (م) ،ك(الحدود) ، 326/11 ،ح(1).

وقال أيضاً : **(لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل [1] فتقطع يده)** [2].

أما الإجماع : فقد أجمع المسلمون على وجوب قطع يد السارق [3].

(وهـذه العقوبـة – القطع- لا يجوز العفو فيها، لا من المجني عليه ، ولا من السلطان ، ولا يجوز أن تستبدل بعقوبة أخرى أخفَّ منها ، كما أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكن التوبة مقبولة – بإذن الله- والقطع كفارة له) [4].

ولا يعني إقامة الحـد علـى السـارق أنه ملك العين المسروقة ، بل لو كانت ما زالت موجودة عنده وجب عليه ردها إلى صاحبها ، لما ورد عن النبي -ﷺ- **(أنه ردَّ رداء صفوان إليه حين قطع يد السارق)** [5].

وكذلك قوله -ﷺ- : **(على اليد ما أخذت حتى تؤديه)** [6].

(أمـا إن تلفـت العيـن فعليه مع القطع القيمة إن كان موسراً) [7] على أصح الأقوال .

---

(1) كحبال السفينة . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 15/6 .

يقـول ابـن قدامـة – رحمه الله- (والحبل يحتمل أن يساوي ذلك – أي ربع الدينار- وكذلك البيضة ، يحتمل أن يراد بها بيضة السلاح وهي تساوي ذلك). المغني : 418/12.

إن تـأويل البيضـة بالسلاح ، أو الحبل بالسفينة تأويل متكلف ، والأرجح أن الحديث جاء على صيغة المـبالغة أو المجـاز ؛ إذ الذي يسرق البيضة أو الحبل ابتداء لا تقطع يده ، لكن الذي يتعود على سرقة القليل يجترئ على سرقة الكثير ، وعندئذٍ تقطع يده ، فتكون سرقة البيضة أو الحبل أولاً هي التي تسببت في قطعه آخراً ؛ إذ لولاها لما تجرأ على السرقة أصلاً – والله أعلم- .

(2) أخرجه (م) ،ك(الحدود) ،3529/11 ، ح(7).

(3) المغني : 415/12 .

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 170/6 ، وانظر تفسير السعدي : 444/1 .

(5) أخرجه (س) ،ك (قطع السارق) ،ب/8 (ما يكون حرزاً وما لا يكون) 329/4 ،ح(7367) قال:هذا خالفه أشعث بن سوار، وأشعث ضعيف.

(6) أخـرجه (د) ، ك(البـيوع) ،ب/90 (فـي تضـمين العَوَر) ، 1540/3،ح(3561) ، وأخرجه (جه) ، ك(البـيوع) ب/39 (ما جاء في أن العارية مؤداة)، 366/3، ح(1266)، وقال أبو عيس : حديث حسن صحيح .

(7) أحكام القرآن لابن العربي :113/2.

الفرع الثالث : الجلد

وينطبق حد الجلد على جريمتين هما: الزنا والقذف [1].

حد الزنا

شرع الله – سبحانه وتعالى– الزواج حتى يستمر الجنس البشري ، ويضمن له البقاء ، ثم نظم العلاقة بين الرجل والمرأة على أسس من الطهر والنقاء ؛ لتنشأ بينهما علاقة سليمة ، ويقوما ببناء أسرة نقية متحابة ، قائمة على أسس من المودة والرحمة .

قال تعالى ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [2].

ولكن وُجد من شذَّ عن هذه العلاقة الطاهرة ، الشريفة ، النقية ، فعصى الله ، وارتكب المحرمات ، واتجه إلى قضاء غرائزه البشرية بطريق غير مشروع ، فظهرت الفاحشة بين بعض الناس ، فاختلطت الأنساب ، وقلَّ العفاف ، والحياء ، كل ذلك بسبب ارتكاب تلك الجريمة البشعة ، التي تعتبر من أخطر الجرائم ؛ لما ينتج عنها من آثار مدمرة للشخص وللمجتمع .

من أجل ذلك حارب الإسلام هذه الجريمة ، ورصد لها عقوبة رادعة، وهي الرجم للمحصن [3]حتى الموت ، والجلد لغير المحصن ، وإنما كان ذلك الخلاف في العقوبة لأسباب يذكرها عبد الكريم الخطيب فيقول : ((فالمحصن – وهو المتزوج – قد جعل الإسلام عقوبته الرجم ، سواء في هذا الرجل والمرأة ؛ لأن الزواج من شأنه أن يكسر حدة الشهوة المتسلطة على الإنسان ، فإقدام المحصن على الزنا ليس مثل إقدام غير المحصن الذي تتسلط عليه شهوة قاهرة إن قدر على مغالبتها فالمحصن أولى منه بالتغلب عليها .... ومن هنا كانت عقوبة غير المحصن مائة جلدة ، على حين كان حد المحصن الرجم .

---

(1) لن أتعرض لحد القذف ، وذلك لأن الراجح أنه حق للآدمي ، بدليل أنه لا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، كما يصح له الرجوع عنه إذا وصل الإمام ، وفي هذه الحالة يعزره الإمام ولا يقيم عليه الحد وبحثي مقتصر على الحدود التي لا تزول بالتوبة بعد أن تصل الإمام ، وأن قياس القذف على الزنى قياس مع وجود الفارق ؛ – لأن القذف جناية على عرض إنسان معين، والردع عن الأعراض حق للآدمي . انظر أضواء البيان للشنقيطي :93/6.

(2) الروم / 21 .

(3) المحصن : هو من سبق له الوطء في نكاح صحيح ، ولو مرة واحدة . انظر لسان العرب :209/3.

ومـــن جهة أخري فإن المحصن عادة يكون قد بلغ مبلغ الرجال ، وسكن إلى أســـرة تضم زوجه وأبناءه ، الأمر الذي يدعوه إلى أن يجنب نفسه الخزي والفضيحة بين أهله وأبنائه)) [1].

ولكني سأقتصر في هـــذا المقام على الحديث عن عقوبة الزاني غير المحصن – البكر – ؛ نظراً لأن حده ورد في القرآن الكريم ، أما حد المحصن فقد ورد في السنة النـــبوية المطَّهرة ، قال –ﷺ– : **(خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)** [2].

وأمـــا الحكمة والعلة من ذكر حد غير المحصن في القرآن الكريم، وعدم بيان حـــد المحصـــن، بل الإحالة في بيانه على السنة النبوية المطهرة ؛ لأن القرآن الكريم افـــترض أن هذه الفاحشة تقع بين غير المحصنين ؛ لأن القرآن الكريم افترض أ، هذه الفاحشة تقع بين المحصنين أكثر من المحصنين ، فهم الكثرة الواقعة تحت حكم الزنى أما المحصنون فهم قلة، بحيث يكاد الإسلام لا يفترض لهم وجوداً ، فلا يتجه لهم حكم عـــام ، ومن هنا تولت السنة المطهرة بيان حكم المحصنين ،وتولى القرآن الكريم بيان حكم غير المحصنين [3].

قال تعالى في بيان حد الزاني البكر ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِـــئَةَ جَلْـــدَةٍ وَلاَ تَـــأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [4].

يقـــول الشـــنقيطي – رحمـــه الله – : ((هـــذا حـــد البكـــر الحـــر البالغ من الـــرجال والنســـاء إذا زنـــى وجـــب جلـــده مائة جلدة ، كما هو نص الآية الكريمة، ولا خلاف فيه)) [5].

وكمـــا مرَّ بنا فإنه ثبت في السنة النبوية المطهرة تغريب البكر عاماً بعد جلده، حين قال رسول الله –ﷺ– : **(والبكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة)** .

---

(1) الحدود في الإسلام ص21 ، 22.

(2) أخرجه (م) ، ك(الحدود) ، 332/11، ح(12) .

(3) انظر الحدود في الإسلام ،ص22.

(4) النور / 2 .

(5) أضواء البيان للشنقيطي : 41/6.

ولكـــن اخــتلف المفسرون في إثبات التغريب أو عدم إثباته ، والجمهور على إثباته [1].

كما يجب ألا تحول الشفقة والرحمة دون إقامة الحدود، كما يجب عدم التخفيف فـــي الضرب لقوله تعالى: **﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** [2].

ومـــن منطلق رحمة الله – سبحانه وتعالى– بعباده ، وحرصه على عدم انتشار هـــذه الفاحشة، أن شدَّد العقوبة ، بحيث أمر – إضافةً إلى إقامة الحد– بأن تكون على مرأىً ومسمعٍ من طائفة من الناس ؛ كي يكون ذلك رادعاً لمرتكب هذه الفاحشة نفسه ، فـــلا تجرؤ نفسه على إعادة تلك الفاحشة ، وبالتالي إقامة الحد عليه مرة أخرى وسط احـــتقار الـــناس وكرههم له ، وكذا تكون رادعاً لمن يشهد ذلك المنظر البشع ، ولمن يصل إليه الخبر ، فلا تحدثه نفسه بارتكاب ذلك الفعل الشنيع، وإلا سيكون مصيره مثل مصيره .

قال تعالى : **﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [3].

وكمـــا ثبـــت حـــد الزنى بالقرآن الكريم ، فقـــد ثبت أيضاً في السنة النبوية المطهرة في الحديث السابق الذكر، وهو قوله –ﷺ– : (**..البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة**) [4].

وأمـــا الإجماع : فيحكيه الإمام النووي – رحمه الله– من خلال شرحه للحديث السابق قـــائلاً : (أجمـــع العلماء على وجوب حد الزاني البكر مائة جلدة ، والمراد بالبكر من الـــرجال والنســـاء من لم يجامـــع في نكاح صحيـــح، وهو حر بالغ عاقل .....ثم إن قوله –ﷺ– : (**البكر بالبكر ، والثيب بالثيب**) ليس على سبيل الاشتراط ، بل حد البكر الجلـــد والتغريب ، ســـواء زنـــى ببكرٍ أم بثيب ، وحد الثيب الرجم، سواء زنى بثيب أم ببكر) [5].

---

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :165/12 ، 166.

(2) انظر نفس المرجع ، والآية في النور /2.

(3) النور / 2 .

(4) سبق تخريجه ص 229 .

(5) صحيح مسلم بشرح النووي : 192/11 بتصرف يسير .

المبحث الثاني

عقوبات دنيوية تزول بالتوبة

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : عقوبة إهلاك

المطلب الثاني : عقوبات دون الإهلاك .

المبحث الثاني

عقوبات دنيوية تزول بالتوبة

تناولت فيه – بعون الله– الحديث عن عقوبات الجرائم التي يرتكبها الإنسان في حق نفسه، أو في حق أخيه الإنسان ، ولكنها دون الجرائم التي تكلمتُ عنها في المبحث الأول ؛ حيث إن ضرر هذه أخف من تلك ، لذا كان التائب منها مقبولَ التوبة – بإذن الله تعالى– بلا خلاف ، إذا توافرت فيها شروط القبول، والتي هي : الإقلاع عن الذنوب ، الندم على فعلها ، العزم على عدم العودة ، أن يرد المظالم لأهلها – إن وجدت – ، وبذلك يذيق نفسه حلاوة الطاعة، كما أذاقها مرارة المعصية .

وتلك العقوبات تنقسم إلى قسمين ، كل قسم يمثل مطلباً ، وهي عقوبات إهلاك وعقوبات دون الإهلاك .

المطلب الأول : عقوبة إهلاك

سأتناول فيه الحديث عن قارون، حيث أهلكه الله بذنوبه ، ولو تاب ورجع لتاب الله عليه ، فهو رمز للذنوب التي تهلك صاحبها ، وتدمره في الدنيا بالكلية ، فقد طغى وتجبر في الأرض، وأنكر فضل الله عليه ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

يقول تعالى ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

لَــوْلا أَن مَّــنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1).

وقد تناول جميع المفسرين قصة قارون بالعرض والتفصيل لأخذ العظة والعبرة منها ؛ لردع كل من تسول له نفسه سلوك مسلك قارون ، من أجل ذلك سأقوم بعرضها بإيجاز معتمدة على كتب التفسير بصورة عامة .

اســمه قارون بن يصهر بن قاحث بن لاوى جد موسى ، فهو ابن عمه ،وقال ابــن عباس : كان أيضاً ابن خالته ، وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة (2) وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري (3)، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقيل إنه زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه .

وهو رجل من بني إسرائيل ، آتاه الله مالاً كثيراً ، حتى إن مفاتيح خزائنه كان يــثقل حملهــا على العصبة من الرجال الشداد ، وقد قيل إنها كانت من الجلود ، وإنها كانــت تحمــل على ستين بغلاً – فالله أعلم – ، وقد نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر ، والإفساد في الأرض ، وأن يستعمل ماله في مرضاة الله مــع الانــتفاع ببعضه في مصالح الدنيا بقــدر الكفاية ، وألا ينفقه فيما يغضب الله تعــالى ؛ حــتى لا يتعرض لزوال النعمة ، وقالوا له يجب أن تكون همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ؛ فإنه خير وأبقى ، وأحسن إلى خلق الله كما أحسن خالقهم وبارؤهم إليــك ، ولا تسيءْ إليهم ، ولا تفسد في الأرض ، فيعاقبك الله ويسلبك مــا وهبك ، فأبى الامتثال لنصح الناصحين ، وقال مترفعاً : إن الله أعطاني هذا المال لعلمه أني أستحقه ، وأني أهل له ، ولولا أنــي حبيب إليه ، وحَظِيٌّ عنده لما أعطاني مــا أعطاني، وظنَّ أنه جمعه بما لديه من ذكاء وخبرة في شئون التجارة ، ولكنه غفل عن بطش الله بالمتجبرين المتكبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكــثر جمعاً للمال، فما المانع من إهلاك قرون أخرى إذا فعلت ما يوجب الهلاك ، ثم يدخلــون الــنار بغير حساب ، وقد استبد به الكبر والخيلاء أنْ كان يخرج في موكب

---

(1) القصص / 76–83 .

(2) ويقــال : كــان يُسـمى المــنور لحســن صــورته . البداية والنهاية لابن كثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان – بدون تاريخ – 288/1 .

(3) هو هارون السامري الذي صاغ العجل لبني إسرائيل ، وطلب منهم عبادته ، نفس المرجع 288/1 .

مهيب ، وزينة فاخرة باهرة ؛ تعالياً على الناس ، وإذلالاً للنفوس، وكسراً للقلوب ، فافتتن بعض الناس بمظاهره ، وهم السذَّج والجُهَال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ويميلون إلى زخارفها وزينتها ، وتمنوا أن يؤتوا مثله من المال ، فقال لهم أهل العلم والبصر والحكمة : لا تفتتنوا به ولا تطمعوا ، فثواب الله خير للمؤمن الذي يعمل الصالحات ، فكان عاقبة تكبره ، وظلمه ، وطغيانه ، وجحوده نعمة خالقه ، أَنْ خَسَفَ الله به وبداره الأرض ، قال تعالى حاكياً عن حاله ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** ﴾ [1] .

((فهذا قارون قد طغى بماله وكنوزه ، واستكبر على خلق الله ، فما كان له جزاء إلا أن هوى في بطن الأرض التي علا عليها ، واستطال فوقها ، جزاءً وفاقاً ، وذهب ضعيفاً عاجزاً ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال ؛ ليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى أن يسألهم عن ذنوبهم ، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد)) [2] .

وبذلك انطوت صفحة الفاسد المتكبر إلى يوم القيامة ، ذهب ولم ينفعه ماله ولا جاهه ، ولا جنوده ، ولا حزبه .

فليحذر كل من يتكل إلى الدنيا ، ويغتر بها لكثرة ما آتاه الله أن يصيبه مثلُ ما أصاب قارون إذا تكبر وتجبر ، ولم يؤدِّ حق الله عليه .

وما أروع ما وصف الشاعر قارون وحزبه قائلاً :

أطاعوا ذا الخداع وصدقوه	**وكم نصح النَّصيحُ فكذَّبوه**
ولم يرضوا بما سكنوا مَشيداً	**إلى أن فضَّضوه وذهَّبوه** [3]
أظلُّوا بالقبيح فتابعوه	**ولو أمروا به لتجنبوه**
نهاهم عن طِلاَب زهدٌ	**ونادى الحرصُ ويلكم اطلبوه**
فألقاها إلى أسماع غُثْرٍ [4]	**إذا عُرف الطريقُ تنكَّبوه**
حسبتم يا بني حوَّا شقاءً	**نجاءكم الذي لَم تَحسبوه**

---

[1] القصص / 81 .

[2] الجزاء من جنس العمل ، 317/1 بتصرف يسير.

[3] أي جعلوه ذهباً وفضة . انظر مختار الصحاح ، ص 224 ، 506 .

[4] سفلة الناس . نفس المرجع ، ص 469 .

أدين [1] الشرُّ منكم فاحذروه ومات الخير فيكم فاندبوه[2]

المطلب الثاني : عقوبات دون الإهلاك

إن للمعاصي والذنوب من الآثار القبيحة ، المذمومة ، المضرة بالإنسان في الدنيا ما لا يعلمه إلا الله – جلَّ وعلا – ، ولكنها دون الأولى في الشدة ، فهي تمثل انتقاماً من الله – تعالى– لمرتكب هذه الجرائم ، ولكنه لا يصل لدرجة الهلاك والفناء ، بل يبقى مرتكبها حياً يذوق وبال ما اقترفت يداه ومرارته .

ولْيكنْ معلوماً أنه لو تاب الإنسان من هذه الذنوب ، وأناب إلى خالقه – جلّ وعلا– لتاب الله عليه ، ولأزال عنه العقوبات المترتبة عليها ، وللقى ربه وكأنه لم يقترفها ؛ لأن هذه العقوبات مترتبة على ذنوب هي دون الشرك بالله – تعالى– ، وقد وعد الحق – جلَّ وعلا– أن يغفر جميع الذنوب التي دون الشرك .

1. قال تعالى ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[3].
2. وقال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [4].

واقتصرت في هذا المقام على ذكر ثلاثة آثار للعقوبات على سبيل المثال لا الحصر؛ بحيث يمثل كل أثر ، أو عقوبة فرعاً .

الفرع الأول : عمى القلب ، ومقارنة الشيطان له

إن الطاعة تُنَوِّر القلب ، وتجلوه ، وتصقله ، وتقويه ، وتثبته على الحق ، حتى يصير كالمرآة المَجلُوة ، فيتلألأ نوراً ، فإذا دنا منه الشيطان ، وقاده إلى طريق المعصية والضلال أعمى بصره ، وطمس نوره ، وسدَّ أمامه طريق الخير .

---

(1) أي : قرب . لسان العرب : 450/4 .

(2) نقلاً عن كتاب الجزاء من جنس العمل : 318/1 – 319 .

(3) الزمر / 53 .

(4) النساء / 48 ، 116 .

ولا يــزال الــنــور يضــعف في القلب ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى ، وســلطة الشيطان تزداد ، حتى يصير كالليل البهيم ، فيسقط في المهالك وهو لا يبصر – والعياذ بالله – .

فــإذا وصــل القلــب لهذه المرحلة انتكس، فتنقلب عنده الحقائق، فيرى الحق بــاطلاً، والــباطل حقاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، ويفسد وهو يرى أنه يصــلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشتري الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه علــى الهــدى ، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وبذلك يصبح القلــب مظلم الأرجاء ، مختلف الأهواء ، قد اتخذه الشيطان له وطناً ومسكناً ، وأصبح لصاحبه قريناً .

ومن أصبح هذا وصفَه فلن يفلح في دنياه ولا في أخراه .

قــال تعالى واصفاً حال ذلك الشيطان ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَــهُ شَــيْطَانًا فَهُــوَ لَــهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَــبُونَ أَنَّهُم مُّهْــتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ . وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ (1).

يخــبر تعالى في هذه الآيات الكريمة عن عقوبته البليغة لمن صرف عقله عن الــتدبر في الدعوة القرآنية ، وأعرض عن ذكر الله – عزَّ وجل – ، وأغمض جفونه عــن الــنظر فيما ذُكر به الرحمن عباده ، بأنه سوف يُسَخِّر له شيطاناً مَرِيداً يقارنه ، ويصاحبه ، ويَعِدُه ويُمَنِّيه ، ويَؤزُّهُ إلى المعاصي أَزّاً ، فلا تزال تصرفه عن النظر في الحق وأدلة الرشد ،وهذا هو عقاب من عمي بصره عن إدراك الحق البيِّن ، وأعرض عــن ذكر الله في الدنيا ، فإن الله تعالى– يعاقب على المعصية بالتزيد في المعاصي ، ويجازي على الحسنة بالتزيد من الحسنات (2).

وما أروع ما وصف به الشاعر القلب وقرينه – الشيطان – قائلاً :

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها	**فأنت قرين لي بكل مكــــان**

---

(1) الزخرف / 37-39 .

(2) انظــر تفســير السعدي : 630/2 ، والمحرر الوجيز لابن عطية : 55/5 ، والتحرير والتنوير لابن عاشــور : 25/ 207، 208.

فإن كنت في دار الشقاء فإنني ... وأنت جميعاً في شقا وهوان[1]

وبذلك يكون الشيطان قد سيطر على القلب سيطرة تامة ، وتمكّن منه، ولا يُضعف عملَ الشيطان إلا العودةُ إلى الله -جلّ وعلا- بالعبادة ، والذكر، وقراءة القرآن، والندم، وإخلاص التوبة ، فبذلك يتغلب القلب على الشيطان ، فيفيق صاحبه من سباته العميق الطويل ، ليلحق بركب المهتدين الطائعين .

الفرع الثاني : تغيير الحال للأسوأ

وعد الله – سبحانه وتعالى- عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، بأن يحييهم حياة طيبة ، ويجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء في الدنيا ، ثم يجازيهم الحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين ، وهم أحياء في الدارين ، وبذلك يفوز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة .

1. قال تعالى : **﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** [2].
2. وقال – جلّ ذكره – : **﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾** [3] ، الآية .

أما إذا ضعفت عزيمة الإنسان ، وارتكب المعاصي والآثام ، فإن الله يغير حاله ، فتزول عنه النعم ، وتحل به النقم .

1. قال تعالى : **﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** [4].
2. وقال سبحانه: **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [5].
3. وقال أيضاً: **﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾** [6].

---

(1) نقلاً عن الجواب الكافي ، ص125.
(2) النحل / 97 .
(3) هود / 3 .
(4) الشورى / 30 .
(5) الأنفال / 53 .
(6) الرعد / 11 .

فالله – سبحانه وتعالــى– لا يغير نعمة أنعمها على أحد من عباده حتى يغير مــا بنفســه ، فيغـيــر طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب ســخطه ، فــإذا غَيرَّ غُيِّر عليه، فيغير العافية بالعقوبة ، والعز بالذل ، والغنى بالفقر جزاءً وفاقاً .

يقــول الإمــام الشوكاني مبيناً معنى الآية الكريمة : ((والمعنى : أنه لا يسلب قومــاً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيِّروا الذي بأنفسهم من الخيــر والأعمال الصالحة ، أو يغيِّروا الفطرة التي فطرهم الله عليها)) (1).

كما أن الذنوب والمعاصي تجعل الإنسان يعيش في ضيق وشدة وعُسر ، بعد أن كان في رغد ورخاء .

قــال تعــالى:﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ (2).

يقول ابن كثير – رحمه الله – : ((يتوعد سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة المعرضــين عن ذكره ، وعن كتبه ، فيقول : من خالف أمري ، وأعرض عما أنزلته علــى رســولي وتناساه ، وأخذ من غيره هداه ، فلا طمأنينة له في الدنيا ولا انشراح لصــدره ، بل يبقى ضيقاً لضلاله ، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقيــن والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في رَيْبِهِ يتردد)) (3).

ويذكــر الــرازي عدة معانٍ للضنك فيقول : ((الأول : أنها في الدنيا وبه قال جمــع من المفسرين ؛ لأن المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشاً طيباً، والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا ، طالباً للزيادة أبداً ، معيشته ضنك ، وحالته مظلمة))(4).

يقــول ســعيد حــوى : ((فالضلال والشقاء ملازمان للإعراض عن دين الله ، والهداية والسعادة ملازمان لاتباع دين الله)) (5).

---

(1) فتح القدير للشوكاني : 69/3 ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 302/9.

(2) طه / 124 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير :173/3 بتصرف يسير .

(4) مفاتح الغيب للرازى : 129/22.

(5) الأساس في التفسير، لسعيد حوى ، دار السلام/القاهرة ، ط(2) 1409هـ–1998م ، 3410/7.

أي أن الله – سبحانه وتعالى- قد غَيَّر حال المعرض عن ذكر الله من الهداية والسعادة إلى الضلال والشقاء .

وقد أحسن القائل :

إذا كُنْتَ في نعمةٍ فارْعَهَا	فإنَّ الذنوبَ تُزيلُ النعَمْ
وحفظهَا بطاعةِ ربِّ العباد	فربُّ العبادِ سريعُ النِقَمْ [1]

الفرع الثالث : محق البركة

إن طول عمر الإنسان ليس بكثرة الشهور والأعوام ، وسعةَ رزقه ليست بكثرته ، واختلاف أنواعه ، ولكن سعتهما بالبركة فيهما ، فمن أطاع الله واجتنب معاصيه بورك له فيهما ، كما أن المعاصي والذنوب تمحق بركتهما ، وبركة الدين والدنيا ، فلا يوجد أقل بركة من عمر العاصي ودينه ودنياه ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلائق .

1. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [2].

يقول أبو السعود : ((المقصود في هذه الآية الكريمة أهل القرى المهلَكة ، لو أنهم آمنوا بما أوحى إلى أنبيائهم ، معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ، وابتعدوا عن الكفر والمعاصي ، واتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ، ولم يُصِّروا على ما فعلوا من القبائح ، ولم يحملوا ابتلاء الله – تعالى- على عادات الدهر ، ووحَّدوا الله وتركوا الشرك ؛ لوسَّعنا عليهم الخير ، ويسَّرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض ، ولكنهم لم يؤمنوا ، ولم يتقوا ، وكذبوا الرسل ، فعاقبناهم بكفرهم وعصيانهم)) [3].

---

(1) نقلاً عن الجواب الكافي ، ص 103 .

(2) الأعراف / 96 .

(3) تفسير أبي السعود :253/3 بتصرف ، وانظر محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار إحياء الكتب العربية/القاهرة -بدون تاريخ- 2825/7.

2. وقال – تعالى– أيضاً حاكياً عن حال العاصين: ﴿ **وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا** [1] **لِنَفْتِنَهُمْ** [2] **فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** [3] ﴾ [4].

أي ومـن يعـرض عـن ذكر الله –عز وجل – ويعرض عن استماع القرآن وتطبيقه ، ولم يتبعه ويَنْقَدْ له ، بل يلهو عنه ويَغْفُلُ ، سوف يسلكه الله عذاباً بليغاً شديداً شاقاً لا راحة فيه .

ثم يوضح تعالى أن أبواب رحمته مفتوحة على مصراعيها تتسع لجميع الداخلين فيها فيقول : لو أن القاسطين الجائرين رجعوا إلى طريقة الحق والاستقامة ، واستمروا عليها ؛ لوسع الله عليهم في الرزق ، وبسط لهم في الدنيا ؛ ليختبرهم ، ويفتنهم ، ليعلم مـن يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ، وهذا مثال قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم** ﴾ [5].

من خلال الآية الكريمة السابقة الذكر ، وأقوال المفسرين فيها يتأكد لنا أن هذه العقوبـات تزول بالتوبة ، حيث بيَّن الرحمن الرحيم أن المعتدين الظالمين ، الجائرين على أنفسهم وعلى غيرهم لو تابوا ورجعوا إلى طريق الحق والصواب ، والاستقامة ، لتاب الله عليهم ، وكفَّر عنهم سيئاتهم ، وقبلهم عنده ، وأغدق عليهم العطاء .

---

(1) كثيراً يتسع به العيش .

(2) لنختبرهم فيما أعطيناهم .

(3) أي شاقاً يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . كلمات القرآن ، ص 413 .

(4) الجن / 16 ، 17 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 431/4 بتصرف . وانظر جامع البيان للقرطبي : 141/29 ، وتفسير السعدي : 939/2.

المبحث الثالث

عقوبات أخروية

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : عذاب القبر

المطلب الثاني : عذاب الحشر

المطلب الثالث : عذاب في جهنم دون الخلود

المطلب الرابع : عذاب الخلود في جهنم .

فيسألانه عن ربه، ودينه ونبيــه ، وبذلــك يكون القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، وذلك يتوقف على رحمة الله –تعالى– أولاً ، ثم عمل الإنسان فــي الدنــيا ، وحسب حسن إجابته أو سوئهــا ثانياً، وقد ورد عذاب القبر في الكتاب والسنة ، ومن ذلك :

1. قــال تعــالى :﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِــمْ أَخْــرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [1].
2. وقــال تعــالى:﴿ **وَلَــوْ تَــرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ.ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[2].
3. وقــال أيضــاً: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** [3] **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [4].

يقــول ابــن كثير – رحمه الله – : ((وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل الســنة علــى عذاب البرزخ في القبور ، والآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ ... صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا)) [5].

أي أن هذا العرض على النار ليس المقصود في الدار الآخرة يوم القيامة ، بل هو في القبر ، وذلك من عذابه – والعياذ بالله – .

يقــول البوطــي : ((ووجه دلالة الآية أنه لما عطف فيها قوله : ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**﴾ على ﴿**غُدُوًّا وَعَشِياًّ**﴾، علمنا يقيناً أن النار التي يعرضون عليها غدواً وعشياً غير التي يعرضون عليها يوم القيامة، ولا شك أنه واقع ما بين الموت، والنشور))[6].

---

(1) الأنعام / 93 .

(2) الأنفال / 50 ، 51 .

(3) أي صباحاً ومساءً ، أو دائماً في البرزخ . كلمات القرآن : ص320.

(4) غافر / 46 .

(5) تفســير القرآن العظيم لابن كثير :4/81 ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 305/15 ، وتفسير السعدي : 567/2.

(6) انظــر كــبرى اليقينيــات الكونية ، د.محمد سعيد رمضان البوطي ، مطبعة مسعودى /القدس ، ط(6) 1399هـــ –1979م ، ص253–255.

ومعلوم أن الفترة ما بين الموت والنشور هي فترة بقاء الإنسان في القبر، وكما ثبت عذاب القبر بالقرآن الكريم ، كذلك ثبت بالسنة النبوية المطهرة، منها :

1. حديث أنس بن مالك – رضي الله عنهما– أن النبي –ﷺ– قال : **(لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر)** [1].

2. وعنه أيضاً – رضي الله عنه– أن النبي –ﷺ– قال : **(العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل - محمد ﷺ- ؟ ، فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي** –ﷺ– **فيراهما جميعاً، وأما الكافر – أو المنافق– فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال : لا دريت، ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين)** [2].

ثم بعد السؤال يعرض عليه مقعده – إما من الجنة أو من النار– بالغداة والعشى إلى قيام الساعة .

3. وقال أيضاً –ﷺ– : **(إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)** [3].

((فهذه بعض النصوص الشريفة الواردة في الكتاب والسنة ، والتي تثبت نعيم القبر وعذابه، وهي في مجموعها تتجاوز حد التواتر المطلوب لقطعية الدلالة على المضمون [4] ، ولذلك تمَّ إجماع المسلمين على أن الميت يتعرض قبل النشور للعذاب ،

---

(1) أخرجه (م) ، ك(الجنة) ، 328/17 ، ح(68).

(2) أخرجه (خ) ، ك(الجنائز) ، ب/67(الميت يسمع خفق النعال) ، 397/1، ح(1338)، وأخرجه (م) ، ك(الجنة) ، 329/17 ، ح(70) بنحوه .

(3) متفق عليه أخرجه (خ) ك(الجنائز) ،ب89 (الميت يعرض عليه بالغداة والعشى)،409/1 ،ح(1379) ، وأخرجه(م) ك(الجنه) ، 326/17 ،ح(65).

(4) اشتراط المؤلف التواتر في الأحاديث للحصول على الدلالة القطعية في موضوع العقائد لأن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ، والعقائد لا يكفي فيها الظن ؛ بل لا بد فيها من القطع . هو اشتراط صحيح غير أن عذاب القبر ما دام ثابتاً بالقرآن فقد حصلت القطعية في الدلالة ، فيكفي عندئذ في الأحاديث أن تكون ظنية الثبوت ، لأن دورها زيادة تأكيد ما ثبت بالقرآن ، وليس تأسيس عقيدة عذاب القبر .وهكذا الشأن في معظم فروع العقيدة الواردة في أحاديث الآحاد ، والتي لها أصول في القرآن ، فيقبل فيها الظن ، لأنها زيادة تأكيد .

أو للنعـــيم حسب حاله ، كما تمَّ إجماعهم على قبض ملك الموت للروح ، وعلى سؤال الملكين بعد الموت)) [1] .

وقـــد اتفق أهل السنة والجماعة على أن كل إنسان يُسأل بعد موته ، قُبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع ، أو أحرق حتى صار رماداً ، ونسف في الهواء ، أو غرق في الـــبحر، لسئل عن أعماله، وجوزي بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً [2] .

ولكن ذهبت طائفة قليلة [3] إلى أن نعيم القبر أو عذابه إنما يكون للروح فقط ، ودليلهم عقلي؛ وهو أنه لا يُشَاهَدُ في القبر أثر لإقعاد الميت أو سؤاله ، أو أثر للضيق والسعة ، كما أن المصلوب الذي لم يقبر كيف يسأل .

وردَّ علـــيهم الجمهـــور قائلين : إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين النقلى الشرعي الديني ، والعقلي القياسي .

أمـــا الدليـــل النقلـــى : فإن ظاهـــر النصوص القرآنية الواردة تقتضي ذلك ، ولا حاجة إلى التأوليل .

كمـــا ثبت في الصحيح : ((أن رسول الله -ﷺ- وقف على القليب الذي ألقيت فـــيه جثث المشركين يوم بدر ، وأخذ يكلمهم قائلاً : (**إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً**)) [4].

ولـــولا علمـــه أن الأجساد بنفسها هي التي تسمع كلامه ، لما اتجه في خطابه إليها ، ولما قال لعمر بن الخطـــاب لمـــا تعجـــب من مخاطبتـــه لتلك الأجساد قائلاً : يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فردَّ عليه -ﷺ- قائلاً : ((**والذي نفس محمـــــد بيـــده ما أنت بأسمع لمـــا أقـــول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئاً**)) [5] .

---

(1) كبرى اليقينيات الكونية ص254.

(2) العقائد الإسلامية لسيد سابق ، دار الكتاب العربي بيروت/لبنان -بدون تاريخ- ص237.

(3) ومنهم ابن حزم ، وابن هبيرة .

انظر تبسيط العقائد الإسلامية لحسن أيوب ، دار البحوث العلمية/الكويت ، ط(4) 1399هـــ- 1979م ص209.

(4) أخـــرجه (خ) ، ك(الجنائز) ، ب/86(ما جاء في عذاب القبر) ، 407/1 ، ح (1370). وأخرجه(م) ، ك (الجنة)، 330/17، ح(76)، بنحوه .

(5) سبق تخرجه في الحديث السابق ؛ لأنه تتمة له .

وأمـــا الرد على الدليل العقلي فهو أن ذلك غير ممتنع في القدرة ، بل له نظير في العادة ، وهو النائم ، فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه ؛ بل اليقظان قد يدرك ألماً ولـــذة لا يســـمعه ، أو يفكـــر فيه ، ولا يدرك ذلك جليسه ، وإنما أتى الغلط في قياس الغائب على الشاهد ، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله.

والظاهـــر أن الله –تعالى– صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك ، وستره عنهم ؛ إبقاءً عليهم ؛ لئلا يتدافنوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله [1] .

وبذلـــك يكون قد ثبت بالدليل القاطع الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار عذاب القبر لكل من يستحقه ، وأن ذلك العذاب واقع على الروح والبدن معاً ، مع بيان ضعف أدلة القائلين بأن العذاب على الروح فقط دون البدن.

ويستمر الإنسان في النعيم أو العذاب حتى حدوث علامات الساعة الكبرى وقيام الساعة، وبعد ذلك يبعث الله – تعالى– الأموات من قبورهم .

1. قال تعالى: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [2] .

2. وقـــال – جلَّ ذكره – ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [3].

وباســـتقراء سور القرآن الكريم التي تتحدث عن أحداث يوم القيامة [4] تتجسد أحـــداث يـــوم القيامة للإنسان ، فيراها رأي العين ، ويتصور ما سيحدث حينذاك من تغيـــير للكـــون ، حيث تتشقق السماء ، وتتناثر النجوم ، وتتصادم الكواكب ، وتتفتت الأرض ، وتغدو صعيداً جرزاً [5]، وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً [6] ، ويخرب كل شيء

---

(1) انظر العقائد الإسلامية ص239 .وعقيدة المؤمن ص397 ،398.

(2) التغابن / 7 .

(3) الزمر / 68 .

(4) مثل : التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة .

(5) أي : تراباً قاحلاً أجرد .

– التحرير والتنوير لابن عاشور : 258/15.

(6) أي بمنزلة الرمل المنهال المنتثر .

ويدمـــر كـــل ما عرفه الناس في هذا الوجود ، وهذا كله أثر النفخة الأولى ، ثم تكون الـــنفخة الثانـــية ، فتعود على أثرها الحياة للأموات وهذا يوم البعث ، ويعود الإنسان روحـــاً وجسداً كما في الدنيا ، ثم يُخْرِج الله – تعالى– الناس من الأجداث [1] أحياءً ، فيقـــول الكافرون والمنافقون **﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾** [2] ، ويقول المؤمنون : **﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾** [3].

المطلب الثاني : عذاب الحشر

إن الاعـــتقاد بالـــيوم الآخر يعتبـــر حجر الأساس في العقيدة الإسلامية ، وإليه مـــرد كـــل شـــيء في الحيـــاة الدنيـــا ؛ لذا يجب الإيمـــان بكل ما ورد في الكتـــاب العزيـــز ، والســـنة النـــبوية المشرفة ، عما سيحدث في ذلـــك اليـــوم من الأهـــوال العظـــيمة المفـــزعة العصـــيبة ، المصاحبة لقيام الساعة ، والتي ترتجف لها القلوب ، وتشـــخص لها الأبصار ، وتذهـــل كـــل مرضعـــة عما أرضعت ، وتضـــع كل ذات حمـــل حملهـــا ، وتـــرى الناس سكارى ، وما هـــم بسكارى ، ويكون الناس يموج بعضهم فوق بعض من شدة الازدحام والأهوال في ذلك اليوم العصيب ، الذي تتزلزل له القلوب.

قال تعالى: **﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا . السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾** [4].

ومن تلك الأهوال التي تحصل في اليوم الآخر الحشر .

ولكن الناس في غفلة عنه، بين مكذب له بالكلية، وبين غافل عنه مغتر بالدنيا وما فيها.

قـــال تعالـــى: **﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ**[5] **الْمُجْرِمُون . وَلَمْ يَكُن لَّهُـــم مِّن شُـــرَكَائِهِـــمْ شُـــفَعَـــاء وَكَـــانُـــوا بِشُـــرَكَائِهِمْ كَافِـــرِينَ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾** [6].

---

(1) أي القبور وواحدها جدث . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 127/17.

(2) يس / 52 .

(3) يس / 52 .

(4) المزمل / 17 ، 18 .

(5) أي : تنقطع حجتهم ، أو ييأسون . كلمات القرآن ، ص 272 .

(6) الروم / 12–14 .

والحشـــر يُعرِّفه ابن عاشور قائلاً : ((هو جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد)) [1].

فالحشر هو عبارة عن جمع الخلائق بعد أن يبعثهم الله – تعالى– بين يديه في ساحة واحدة ؛ للفصل بينهم ، والحكم عليهم ، ومجازاتهم على أفعالهم .

قال تعالى: ﴿ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [2].

يقـول السـعدي – رحمه الله – واصفاً المحشر : ((ويحشر الله جميع الخلائق .... فلا يغادر منهم أحداً ؛ بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات [3]، وقعور البحار [4]، ويجمعهـم بعدما تفرقوا ، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً ، فيعرضون عليـه صفاً؛ ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم)) [5].

((ولا يسـتطيع العلم أن يصف لنا كيفية حشر الأجساد ، أو أن يحللها ويعللها بالطريقة العلمية التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة ، لأن العلم يبحث فيما هو مشاهد وواقع تحت التجربة ، والحشر من الأمور الغيبية غير المشاهدة)) [6].

*** الأدلة على الحشر**

والحشـــر ثابـــت بالقــرآن الكــريــم في آيــات كثـــرة ، وبالسنة النبوية المطهرّة .

*** الأدلة من القرآن الكريم**

3. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ [7].

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 217/15.

(2) انظـــر عقــيــدة المؤمـــن ص341 .ويوم الفزع الأكبر للقرطبي ، (ت) محمد إبراهيم سليم ، مكتبة القرآن/القاهرة ، ط 1405هــ–1984م ، ص326 ، والآية في الكهف/47.

(3) هــي الأرض القفراء التي لا ماء فيها – أي هي الصحـــراء الواســـعة– ، والمفرد فلاة . لسان العرب : 330/10.

(4) نهاية سعتها . –انظر نفس المرجع : 294/10 ، والقاموس المحيط : 114/2.

(5) تفسير السعدي : 1014/1.

(6) عقيدة المؤمن ص341 بتصرف يسير .

(7) الأنبياء /104.

يقـــول القرطبي – رحمه الله – : ((أي نحشرهم حفاة عراة غرلاً [1] كما بُدِئوا في البطون)) [2].

2. وقــال تعــالى: ﴿ **يَوْمَـئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ [3] وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا** ﴾ [4].

يقـــول ابـــن كثير – رحمه الله – : ((أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع)) [5] .

*** الأدلة من السنة النبوية**

وأما من السنة النبوية فقد بيَّن النبي –ﷺ– الصفة التي سيحشر عليها الناس في عدة أحاديث ، أكتفي بذكر ثلاثة منها :

1. قال –ﷺ– : **(يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء [6] ، كقرصة النَّقِى [7] ، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد [8])** [9] .
2. وعـــن عائشة – رضي الله عنها– قالت سمعتُ رسول الله –ﷺ– يقول : **(يحشر الـــناس يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً، قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، قال :يا عائشة الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)** [10].
3. وفي رواية : **(الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)** [11].

---

(1) غُرلاً : بضم الغين ، وإسكان الراء : أي غير مختونين ، جمع أغرل صحيـــح مسلم بشرح النووي : 189/17 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 366/11.

(3) أي لا عوج لهم عنه ولا انحراف ، ولكنهم سراعاً إليه يحشرون . جامع البيان للطبري : 265/16.

(4) طه / 108 .

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 170/3.

(6) أي ليست ناصعة البياض ، بل تميل إلى الحمرة قليلاً . انظر فتح الباري : 440/11.

(7)النَّقِي : – بفتح النون وكسر القاف– أي الدقيق الأبيض الســـالم من الغش والنخالة . نفس المرجع ونفس الصفحة.

(8)المَعْلَـــم : – بفتح الميم واللام– :أي ليس فيها علامة سكنى ، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التـــي يهـــتدي بهـــا في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة ، وفيه تعريض بأرض الدنيا التي ذهبت ، وانقطعت العلامة منها . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(9) أخرجه (خ)، ك(الرقاق)، ب/44 (يقبض الله الأرض يوم القيامة)،2043/4، ح(6521).

(10) أخرجه (خ) ، ك(الرقاق) ، ب/45 (كيف الحشر) ، 2044/4، ح(6527) .

(11) أخرجه (م)، ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 320/17 ، ح(56).

من خلال هاتين الروايتين الكريمتين ، يتضح لنا أن للمحشر أهوال، وهي أشد من أن تقاس بالأمور الدنيوية المشاهدة ، فلو افترضنا أن إنساناً خرج حافياً ، عارياً في الدنـيا ، لالتفتت إليه بعض أنظار الناس، مهما كان في قلوبهم وصدورهم من مشاعر فـرحٍ ، أو حزنٍ ،أو ضيقِ حال ،.... ولكن في ذلك اليوم العصيب الذي تعجز الأقلام عـن وصفه ، وتعجز العقول عن تخيله كما هو، لا يلتفت إنسان لإنسان ،فالكل حافٍ عارٍ لا يستره شيء، ومع ذلك لا ينظر أحد لأحد ، فإنْ دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على شدة الموقف وصعوبته ، وشدته – عافانا الله منه –.

أمـا عـن أحوال الناس في أرض المحشر ، فإن الشمس تُدْنَي في ذلك اليوم ، حـتى تكون قريبة جداً منهم ، فتشتد الحرارة في الموقف ، ويعرق الناس حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً.

وقد وصف لنا ذلك الموقف المولى – عزَّ وجل – ، ورسوله –ﷺ– :

فمن القرآن الكريم قوله تعالى﴿ **حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ** [1] **يَنسِـلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَـا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ. إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ** [2] **جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ [3].

وأما من السنة النبوية : فقد روي عن المقداد بن الأسود – رضي الله عنه– أنه قـال : (سمعت رسول الله –ﷺ– يقول :(**تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل – قال سُلَيم بن عامر الراوي عن المقـداد ، فو الله ما أدري ما يعنى بالميل ؟ أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين ، قال –ﷺ– فيكون الـناس على قدر أعمالهم من العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْه** [4] **، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً)** [5].

قال : وأشار رسول الله –ﷺ– بيده الشريفة إلى فيه .

---

(1) الحدب : ما ارتفع عن الأرض . مختار الصحاح ، ص 125 .

(2) أي حطبها ووقودها . كلمات القرآن ، ص 227 .

(3) الأنبياء / 96-98.

(4) مثنى(حَقْو) –بالفتح– ، وهو الإزار ، والحَقْو أيضاً : الخصر وشدّ الإزار . مختار الصحاح ص148.

(5) أخرجه (م) ،ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، 17/ 323 ، ح(62).

فلنا أن نتخيل شدة الموقف وهوله ، فنحن في هذه الحياة الدنيا ، والشمس بعيدة عـــنا جـــداً ، لا نستطيع تحمل شدة حرارتها في أيام الصيف ، فضلاً عن دول الخليج العربي ، فإنهم لا يستطيعون العيش تحت حرها أبداً ، إلا بحجـــاب يقيهم حرهـــا من مكيفـــات وغيره ، ونسينا أو تناسينا أن نار جهنم أشد حراً – أجارنا الله منها– .

يقـــول الإمـــام النووي في شرحه للحديث السابق : ((ويحتمل أن المراد عرق غـــيره ويحتمل عرق نفسه خاصة ، وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ، ودنو الشمس من رؤوسهم)) [1].

وفـــي المحشـــر يُســـأل الناس عن أعمالهم مهما صغرت في أعينهم ، ومن ثمَّ يُحاســـبون علـــيها إن خـــيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقد أكدَّ الله سبحانه وتعالى هذه المعاني في كتابه العزيز، وكذا رسوله الكريم –ﷺ– :

فقال تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** [2] **خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [3].

فهـــذه الآيـــة الكـــريمة توضـــح أن أحقر الأشياء وأقلها سوف يُحاسب عليها أصـــحابها، وتعرض عليهـــم على رؤوس الأشهاد ، لذا يجب على كل إنسان أن يتقي الله ، ويرجع إلى أفعاله، وأقواله فيراجعها ، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ، ويحاول إصلاح ما فسد قبل فوات الأوان ، فإن توبة الإنسان مقبولة ما لم يغرغر .

وقـــال رســـول الله –ﷺ– :**(لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن عمـــره فيما أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)** [4].

وبمـــا أن السُّـــنة موضحة ومفسرة للقرآن ، فإن هذا الحديث الشريف يوضح المعنى الوارد في الآية الكريمة قبلـــه ، فالآيـــة وضحت أن أقل الأشياء سوف يحاسب

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي : 191/17.

(2) الذرة : النملة الصغيرة في ابتداء حياتها ، أو هي ذرة الغبار ؛ أي الهباءة التي تسبح في جو السماء ، ولا مانع من تفسـيرها بـــالذرة التـــي لا ترى بالعين المجردة التي يجري تفجيرها اليوم فتخرج منها طاقة وإشعاعات فتاكة . التحرير والتنوير لابن عاشور : 494/30 . وانظر مختار الصحاح ص221 .

(3) الزلزلة / 7، 8.

(4) أخرجه(ت) ، ك(صفة القيامة والرقائق والورع) ، ب/1 (ما جاء في شأن الحساب والقصاص)، 336/4ح(2417) وقال :حديث حسن صحيح .

الإنسان عليها ، والحديث أكدَّ ذلك وأضاف أموراً ربما لا يخطر ببال الإنسان الجاهل أنه سيحاسب عليها كعمره ، وماله، وعلمه ، وحتى جسمه ،وهي أدق الأمور وأخصها فـيا ليـت الغـافلون ينتبهون ، ويجعلون هذه الأدلة الشرعية منهاجاً ودستوراً لهم في الحياة ، وميزاناً يزنون به جميع أمورهم .

*** صفة الحشر للكافر**

وأمـا عـن صفة محشر الكافر ، فقد ورد في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، أنه يحشر أعمى لا يَرَى ، وأبكمَ لا يتكلم ، وأصمَّ لا يسمع ، ثمَّ يكون مأواه الأخير إلى جهنم وبئس المصير – والعياذ بالله– .

قـال تعـالى واصـفاً حال الكافر على أرض المحشر: **﴿وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء من دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا . ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا [1] أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾** [2].

ويقول المعلِّم الأول – صلوات الله وسلامه عليهم– موضحاً ومؤكداً لمعنى الآية الكـريمة : **(يحشـر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصـنفاً على وجوههم**، قيل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟! قال : **(إن الـذي أمشـاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كلَّ حَدَب وشوك)** [3].

وبذلـك ينتهـي المحشر بعد أن يكون كل إنسان عرف ما له وما عليه ، ويبدأ الجزاء على تلك الأعمال ، إنْ خيراً يجازى عليه ، وإنْ شراً يُحاسب عليه .

قـال تعـالى : **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾** [4].

---

(1) أي بالية نخرة . تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 67/3.

(2) الإسراء /97، 98.

(3) أخرجه (ت) ،ك(تفسير القرآن) ،ب(م[12] – ت تابع 18) ، 150/5 ، ح(3142)، وقال حديث حسن .

(4) الزلزلة /7 ، 8.

1. **العـــرض والحســـاب** : ويكـــون بعد محاكمة عادلة من الحكم العدل – سبحانه وتعـــالى– يطلِّـــع فيها كل إنسان على ما قدمت يداه ، ويُعرَّف بها فيعرفها ، ويعترف على نفســـه ، ويعرض على ربـــه ، فيتولى – سبحانه وتعالى– حساب جميع الخلائق بنفسه ، وبدون واسطة.

عن عدي بن حاتم – رضي الله عنه– أن النبي –ﷺ– قال :(**ما منكم من أحد إلا ســـيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**) [1].

وقد وصف الشاعر العرض قائلاً :

مَـــثِّلْ وقوفَـــك يـــوم العرض عرياناً	**مستوحشـــاً قلق الأحشاء حيراناً**
والـــنار تلهـــب من غيظ ومن حنق	**على العصاة ورب العرش غضباناً**
اقـــرأ كـــتابك يـــا عـــبدي على مهل	**فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا ؟**
لمـــا قـــرأت ولـــم تـــنكر قـــراءته	**إقـــرار من عرف الأشياء عرفاناً**
نـــادى الجلـــيل : خـــذوه يا ملائكتي	**وامضوا بعبدٍ عصيٍ للنار عطشاناً**
المشركون غداً في النار يلتهبـــوا [2]	**والمؤمنـــون بدار الخلد سكاناً** [3]

2. **الصحف** : وهي كتب فيها أفعال العباد ،وأقوالهم ،يؤمر بها فتطير من تحت العرش وتتجه كل صحيفة باتجاه صاحبها دون خلل ،فإن كان الإنسان من الصالحين أخذ كتابه بيمينه ،وإن كان من الطالحين أخذ كتابه بشماله – والعياذ بالله– .

قال تعالى: ﴿ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ [4].

---

(1) أخرجه(خ) ،ك(التوحيد) ،ب/36(كلام الرب –عزَّ وجل– يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) ،2343/4 ، ح(7512).

(2) قولـــه (يلتهبوا) فعل مضارع من الأفعال الخمسة فكان حقه أن يكون مرفوعاً بثبوت النون ؛ لعدم سبقه بناصب ولا جازم ،وقد يقال في تسويغ ذلك ؛إنه يحق للشاعر ما لا يحق لغيره.

والصحيح أن الفعل المضـــارع يجوز جزمه أحياناً من غير سبب ظاهر مثل قوله تعالى في هود/105 :﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ... ﴾ . وقوله في الكهف/64 :﴿ قال ذلك ما كنا نبغ...﴾.

والأصل (يأتي) ، و(نبغي). وله أمثله في السنة لا أطيل التعليق بذكرها .

(3) نقلاً عن كتاب الفزع الأكبر ص187.

(4) الإسراء / 13 .

ثم بيَّن – تعالى– حال الناس في ذلك الموقف ، وأنهم سينقسمون قسمين ، فقال –جلَّ وعلا–: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا [1] وَيَصْلَى سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ [2] بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [3].

3. **الميزان** : توزن فيه أعمال العباد خيرها وشرها ،وهذا الميزان له كفتان ، والله – سبحانه وتعالى– يزن الأعمال بالكيفية التي يشاؤها، ومما يؤكد وجود الميزان قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [4].

وأيضاً ورد ثبوت الميزان في السنة النبوية المشرَّفة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال :(**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ،سبحان الله وبحمده ،سبحان الله العظيم**) [5].

4. **الحوض** : وهو ما تفضل به تعالى على أمته ، وهو مورد عظيم يرده المؤمنون ، ويشربون منه ،ومن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً ،وشرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ،وآنيته أكثر عدداً من النجوم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [6] .

يقول القرطبي : ((والصحيح أن للنبي –ﷺ– حوضين ، أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والثاني في الجنة ، وكلاهما يُسمى كوثراً)) [7] .

---

(1) الثبور : الويل . الدر المنثور للسيوطي : 548/6 .

(2) أي لن يبعث . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(3) الانشقاق / 7– 15 .

(4) الأنبياء / 47 .

(5) أخرجه(خ) ، ك(التوحيد) ،ب/58 (قول الله تعالى (ونضع الموازين القسط)وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن) ، 2364/4 ، ح(7563) ، وهو آخر حديث في صحيحه ، وأخرجه(م) ،ك(الذكر) ،191/17 ، ح(31) بنحوه .

(6) الكوثر / 1 .

(7) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي مكتبة أبو بكر أيسوب ، نيجيريا / كانو ، ط1 1421 هـ 2001م ص270 .

وكمـــا ورد ذكر الحوض في السنة النبوية الشريفة ،فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه– قال : قال رسول الله –ﷺ– :(**حوضي مسيرة شهر ،ماؤه أبــيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه**[1] **كنجوم السماء ،فمن شرب منها فلا يظمأ أبداً**) [2].

5. **الصـــراط** : ويأتـــي بعد الحساب والميزان ،حيث ينصرف الناس من الموقف ؛ لـــيمروا جميعاً بَرُّهم وفاجرُهم فوقه ، وهو منصوب على متن جهنم ،يجوزه الأبرار ، ويـــنزل عنه الفجار ، وهو عبارة عن الجسر الذي بين الجنة والنار ، يمرُّ الناس عليه علـــى قدر أعمالهم ،فمن استقام على صراط الله الذي هو دين الحق في الدنيا ، استقام على هذا الصراط في الآخرة ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومـــنهم مـــن يمـــر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس ، ومنهم من يمر كرقاب الإبل ، ومـــنهم من يعدو ، ومنهم من يمشي ، ومنهم من يزحف ومنهم من يُخطف ويلقى في جهـــنم، والجســـر علـــيه كلاليب يخطف الناس بأعمالهم ، فمن مَرَّ عن الصراط دخل الجـــنة، وإذا عبروا وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة [3].

وقد وصف الشاعر هذه الأهوال قائلاً :

أبــت نفســـي أن تتوبَ فما احتيالي	**إذا بَـرزَ العـــباد لـــذي الجـــلال**
وقـــاموا مـــن قـــبورهم ســـكارى	**بـــأوزار كأمـــثال الجـــبال**
وقـــد نصـــب الصـــراط لكي يجوزوا	**فمـــنهم مـــن يكـــبّ على الشمال**
ومـــنهم مـــن يســـير لـــدار عـــدن	**تَلَقَّـــاه العـــرائس بالغوالـــي**
يقـــول له يســـير المهيمـــن يا وليي	**غفـــرت لـــك الذنـــوب فـــلا تبالِ**

وقال آخر :

إذا مُـــدَّ الصـــراط علـــى جحـــيم	**تصـــول علـــى العصاة وتستطيل**
فقـــوم فـــي الجحـــيم لهـــم ثـــبورٌ	**وطـــال الويـــل واتصل العويلَ** [4]

---

(1) أي : أباريقه وآنيته . فتح الباري : 553/11 .

(2) أخرجه(خ) ،ك(الرقاق) ،ب/53 (في الحوض) ،2057/4، ح(6579).

(3) انظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ، مكتبة أبي بكر الصديق/كانو ،ط[1] 1421هـ– 2001م ،ص225–305 . ويوم الفزع الأكبر ص320–328.

(4) نقلاً عن كتاب التذكرة ، ص297 ، 298.

المطلب الثالث : عذاب في جهنم دون الخلود

إن مـــن رحمـــة الله بعباده أنه لا يحاسبهم على الأعمال غير الإرادية ،كعمل الناســـي ، والمخطـــئ ،والمكـــره ،والمجـــنون ،إنما يحاسبهم على الأعمال الإدارية الاختيارية .

قـــال تعالى : **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** (1).

وعلـــى تلـــك الأعمـــال يكون الجزاء من ثواب وعقاب يوم القيامة ،وذلك بعد الصراط، حيث ينقسم الناس إلى قسمين .

قال تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الـــنَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُود . يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِـــه فَمِـــنْهُمْ شَـــقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَـــقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَـــهِيقٌ . خَالِدِيـــنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّـــالٌ لِّمَـــا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (2)﴾** (3).

والجـــنة والـــنار مخلوقتان من مخلوقات الله ،وهما خالدتان لا تفنيان ،وأهلهما أيضاً مخلدون لا يدركهم الموت.

ولا يعني ذلك أن أهل النار على درجة واحدة من العذاب ،بل إنهم على دركات متفاوتة؛ وذلك تبعاً لتفاوت أعمالهم ،وما كسبوا من خير أو شر في هذه الحياة الدنيا ، وذلك مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن يجزي كل نفس بما عملت .

وقـــد صرح الرسول -ﷺ- بهذه المعاني حين قال :**(إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه)** (4).

فهـــذا الحديـــث النبوي الشريف وغيره كثير مما يحمل نفس المعنى يدل دلالة واضحة على أن درجـــات العذاب متفاوتة ، منها الشديد ، ومنها الأهون ، على حسب

---

(1) النساء / 40 .

(2) أي نعيم مقيم غير منقطع . تفسير السعدي :820/1.

(3) هود / 103-108 .

(4) أخرجه (خ)،ك(الرقاق) ،ب/51 (صفة الجنة والنار)، 2052/4 ، ح(6561).

الأعمال ، وما اقترفت الأيدي.

وكمـــا أن درجـــة العذاب متفاوتة بين أهل النار ،فإن مدة بقائهم فيها متفاوتة ، ومنهم من يحاسب على قدر عمله السيئ ثم يخرج، ويدخل الجنة برحمة الله – تعالى- ومنهم من يبقى خالداً مخلداً فيها – والعياذ بالله- .

ولكـــن أهـــل التوحيد لا يخلدون في النار ،بل يعذبون على قدر معاصيهم ،ثم يخرجون برحمة الله –عزَّ وجل- إلى الجنة .

وهـــذا المعنى ذكره وأكده عدد من العلماء في كتبهم ،أسوق هنا جملة من هذه الأقوال :

1. يقـــول سيد سابق – رحمه الله- ((فأهل التوحيد لا يخلدون في النار، ولو ارتكبوا الكبائر ، فإن ارتكب المؤمن بعض الكبائر، ولم تُكَفَّر بحد ،أو توبة نصوح ،أو مصيبة أو مـــرض ،أو شيء من المكفرات ، فهو محاسب على عمله ،والله يوازن بين أعماله الصـــالحة ،وبين جميع معاصيه التي لم يتب منها، فإن رجحت حسناته ،أو تساوت مع سيئاته فهو في الجنة .

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (1).

أما من رجحت سيئاته فإنه يدخل النار ،فيعذب فيها بقدر ما ارتكب من إثم ،ثم يخرج منها بعد أن يتطهر ،وبعد أن يوفيه الله جزاءه بمقتضى عدله وحكمته)) (2).

2. ويقـــول الطحـــاوي :(وأهل الكبائر من أمة محمد –ﷺ- في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ،بعد أن لقوا الله عارفين ، وهم في مشيئته وحكمتـــه إن شـــاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ،كما ذكر –عزَّ وجل – في كتابه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (3). وإن شاء عذبهم في الـــنار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ،ثم يبعثهم إلى جنته (4).

---

(1) الأنبياء / 47 .

(2) العقائد الإسلامية ص295 بتصرف يسير .

(3) النساء / 48 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية ص369 ، 370 .

وقد دلَّ على خروج الموحدين من نار جهنم ،وعدم خلودهم فيها الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة .

فمن الكتاب :

1. قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ**﴾ [1].

يقول الطبري :(قال بعض أهل العلم هذا استثناء استثناه الله من أهل التوحيد أنه يخرجهم من النار إذا شاء بعد أن أدخلهم النار) [2].

2. وقال – جلَّ ذكره– ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ [3].

يقول الميداني : ((واستدل أهل العلم بهذه الآية على خروج عصاة المؤمنين من النار ، فقالوا: والإيمان خير ،فلا بد أن يُلاقي الأجر عليه ، ويجب أن يكون ذلك بعد تطهيره بالعذاب ؛ لأنه إذا أثيب على إيمانه قبل دخول النار فلا يكون ذلك إلا بدخول الجنة ،لكنه إذا دخل الجنة امتنع أن يخرج منها؛ لقوله تعالى ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا**﴾ [4]، فلزم من ذلك أن يسبق العقاب على العاصي دخول الجنة)) [5].

فيفهم إذن من جملة أقوال العلماء أن أهل التوحيد لا يخلدون في النار وإن ارتكبوا الكبائر ،ولم يتوبوا منها ،ولم يُقَمْ عليهم الحد ،ولم يُصابوا بأي شيء من مكفرات الذنوب ؛ بل إنهم يدخلون النار، فيعذبون فيها على قدر ما ارتكبوا من آثام ، أو على قدر ما كتب الله لهم من العذاب ،فربما لا يعذبون إلا القليل بالنسبة لما ارتكبوا من معاصٍ وآثام ،ثم يخرجون منها إلى الجنة – بإذن الله – ؛ ليتمتعوا بكل ما فيها ؛ لأنهم وإن ارتكبوا محرماتٍ فلا يمنع ذلك من فعلهم لمأمورات ،وبعدهم أيضاً عن بعض المحرمات الأخرى .

---

(1) هود / 106 ، 107 .

(2) جامع البيان للطبري :153/12.

(3) الزلزلة / 7 .

(4) المائدة /37 ، واستدل المؤلف – الميداني– بهذه الآية الكريمة على أن أهل الجنة لا يخرجون منها ، والصحيح أنها تعني عدم خروج أهل النار منها ، ويؤيد ذلك بقية الآية (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) وإن كان معنى ما قال صحيحاً .

(5) العقيدة الإسلامية ص660.

وأمـــا الأحاديـــث النبوية الشريفة التي تحمل تلك المعاني فهي كثيرة، وجميعها بمعانٍ متقاربة، منها :

عــن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :**(يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ،وفي قلبه وزن شعيرة من خير ،ويخرج من النار من قـــال لا إله إلا الله وفي قلبـــه وزن بُرة [1] من خير ،ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة [2] من خير)** [3].

أمـــا الإجماع : فحكاه القرطبي قائلاً : ((وقد أجمع أهل السنة على أنه لا يبقى في النار مؤمن ، ولا يخلد إلا كافر جاحد)) [4].

ثـمَّ وبعــد انقضاء مدة العذاب يشفع الرسول -ﷺ- للعاصي في الخروج من الـــنار ، وذلـــك ثابت في الأحاديث الصحيحة أن النبي -ﷺ- يشفع لأهل الكبائر بعد دخولهـــم النار ،فيقبل الله شفاعته فيهم ،ويخرجهم منها ،وتكون الشفاعة إظهاراً لكرامة الشافع عند الله – تعالى- ، وإظهاراً لفضله -ﷺ- ومن ذلك :

1. عــن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول :**(لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ،فأريد – إن شاء الله- أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)** [5].
2. وزاد الإمـــام مسلم :**(فهي نائلة – إن شاء الله- من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)** [6].
3. وكـــذا روى أبو هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال :**(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)** [7].

---

(1) حبة قمح – قمحة . فتح الباري : 131/1 .

(2) الذرة : هي أقل الأشياء الموزونة ، وقد سبق تعريفها ص 251 .
نفس المرجع : 132/1.

(3) أخـــرجه (خ) ،ك(الإيمان) ،ب/44 (زيادة الإيمان ونقصانه)، 38/1 ،ح(44) . وأخرجه (م) ،ك(الإيمان) 428/3 ،ح(125) بنحوه .

(4) التذكرة ص394.

(5) أخرجه(خ) ،ك(التوحيد) ،ب/31 (في المشيئة والإرادة) ،2333/4 ،ح(7474).

(6) أخرجه(م) ،ك(الإيمان) ،440/3 ،ح(338).

(7) أخـــرجه(د) ، ك(السنة) ،ب/23 (في الشفاعة) ،2024/4 ،ح(4739) وقال :حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيحه ، 691/1،ح(3714).

فعلى جميع المؤمنين أن يطلبوا دائماً هذا المقام المحمود للرسول -ﷺ- عقب كل أذان، فربما تحل بهم شفاعته -ﷺ- بسبب دعائهم له.

قال تعالى : ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [1].

يقول الطبري – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ((وعسى من الله واجـبة .....وقال أكثر أهل العلم إن ذلك هو المقام الذي هو يقوِّمه -ﷺ- يوم القيامة للشفاعة للناس ؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم)) [2] .

فليـتق الله كل من في قلبه ذرة من إيمان ،ويرتكب المعاصي والآثام ،فليرجع إلـى الله مـولاه تائباً ، نادماً على ما فرط في جنب الله ، وليعمل صالحاً عسى الله أن يغفر له ذنوبه ، ويبدل سيئاته حسنات .

قـال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا [3] مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [4].

ولـيعمل جـاهداً على أن لا يدخل النار مطلقاً ، فالتوبة النصوح تجب ما قبلها ويجب ألا يتكل على أحاديث الشفاعة ،والآيات المبشرة بالمغفرة ،فإن لحظة في العذاب كالدهر ،وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ،وإن النار الموجودة في الدنيا على شـدتها ،وحرارتها وقسوتها ما هي إلا عبارة عن جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم – والعياذ بالله – .

المطلب الرابع : عذاب الخلود في جهنم

مـن المعلوم أن النار هي دار العذاب والعقاب ،أعدها الله – سبحانه وتعالى– للكافرين ، والمنافقين والعُصاة والمستكبرين عن طاعته وعبادته .

وقـد ثبـت بالكتاب والسنة أن لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم ، والعـذاب فيها مختلف الأنواع والأشكال ،وهي موجودة الآن ،باقية لا تفنى ، والكفار وحدهم فيها مخلدون لا يموتون ، ولا يخفف عنهم العذاب.

(1) الإسراء / 79 .

(2) جامع البيان للطبري : 179/15 ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 56/3 .

(3) ساعات منه قريبه من النهار . كلمات القرآن ص155.

(4) هود / 114 .

قال الطحاوي واصفاً النار : ((إن الله تعالى يخرج منها من شاء ،كما ورد في السنة ، ويبقى فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له)) [1].

وقد ثبت خلود الكفار في النار بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة :

1. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [2].
2. وقال –عزَّ وجل–: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [3].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ،بالإضافة إلى الآيات التي تحمل معنى الخلود ، ومنها :

1. قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ [4].
2. وقوله عزَّ ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [5][6].
3. وقوله أيضاً: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ [7]فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [8]﴾ [9].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة ، سواء كانت باللفظ أم بالمعنى ،تدل دلالة لا شك فيها أن الكفار يدخلون النار ،ولا يخرجون منها ،فلا تنالهم رحمة الله – عزَّ وجل – ، كما لا تنالهم شفاعة أحد، لا الأنبياء بصورة عامة ،ولا الملائكة ،ولا العباد المقربون ، ولا حتى شفاعة الرسول –ﷺ– وما ذلك إلا جزاءً وفاقاً لما ارتكبت أيديهم ، ولإعراضهم عن دين الحق والهداية، بل وكرههم للإسلام والمسلمين ،وتمنى زوالهم وحلول الدمار بهم ، فيبقون في النار ليذوقوا وبالها بلا انقطاع، فلا يوجد حدٌّ فاصل

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ص427.

(2) البينة / 6 .

(3) البقرة / 217 .

(4) النساء / 56 .

(5) أي لا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً . تفسير السعدي : 663/2 .

(6) الجاثية / 35 .

(7) قيل الجمل على حقيقته ،وقيل الحبال الغلاظ .

انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير :219/2 ، وكلمات القرآن ص108.

(8) ثقب الإبرة. نفس المرجع ونفس الصفحة.

(9) الأعراف/40.

يُصْـــهَـــرُ بِـــهِ مَـــا فِـــي بُطُونِـهِـــمْ وَالْجُلُودُ . ولَـهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [1].

فمـــن قـــال إنهـــم يخـــرجون منها ،وأن النار تبقى خالية بجملتها ،خاوية على عروشها ، وأنها تفنى وتزول ، فهو خارج عن مقتضى المعقول ،ومخالف لما جاء به الرسول -ﷺ- ، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول)) [2].

وإما الإجماع : فقد حكاه أيضاً القرطبي قائلاً :((وأجمع أهل السنة على أن أهل النار مخلدون فيها ،غير خارجين منها ،كإبليس ، وفرعون ، وهامان ، وقارون ، وكل من كفر، وتكبر، وطغى ، فإن له جهنم لا يموت فيها ، ولا يحيا، وقد وعدهم الله عذاباً أليماً وأجمع أهل السنة أيضاً على أنه لا يبقى فيها مؤمن ، ولا يخلد إلا كافر جاحد)) [3].

وبهذا تتضح جميع المعاني السابقة وضوح الشمس في رابعة النهار أنه لا يخلد في النـــار إلا الكفار ومن شابههم من منافقين ، ومشركين ، ومتكبرين ، أما المؤمنون فلا يخلدون فيها أبداً ، بل يخرجون منها ، ولو بكلمة التوحيد – لا إله إلا الله – .

ويبيـــن سيد سابق سرَّ خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ((بأن كـــلاً مـــن الفريقين كان مصراً على ما هو عليه ، فأهل الجنة كانوا مريدين الإيمان والطاعـــة مهمـــا طالت لهم الحياة، وامتد بهم العمر ، وأهل النار كانوا مصرين على الكفر والعصيان ، ولو عاشوا ملايين السنين، فكان الجزاء للفريقين على الإرادة والنية وبمقتضى هذه الإرادة وهذا التصميم كان الخلود، إذ إن الإيمان والكفر ، وما يستتبعانه من الأعمال قد تمكنَّ في النفوس تمكناً لا يزول)) [4].

وكـــي يقطـــع القرآن الكريم كل طريق عودة على الخالدين في النار فقد صور حـــالهم وهم خالدون في النار ،لا يخفف عنهم العذاب ،ولا ينصرون ،بل هم في حزن وبكاء ،وعويل ، ومقاساة للشدائد ،والأهوال ،والعذاب الشديد ،وفي خضم ذلك يتمنون العودة للحياة الدنيا مرة أخرى كي يعملوا صالحـــاً غير الذي عـــملوا ،ويطيعـــوا الله – جلَّ وعلا – كل ذلـــك بعد صدق الإيمان، ولكنه أخبرهم بأنهم كاذبون في دعواهم ،

---

(1) الحج / 19-22 .

(2) التذكرة ، ص 398 .

(3) نفس المرجع ، ص 394 .

(4) العقائد الإسلامية ، ص 307 .

ولو عادوا للدنيا ، فلن يعملوا غير الذي عملوا في آيات كثيرة ؛ أذكر ثلاثاً منها :

1. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [1].

2. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ [2] فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [3] .

3. وقال – عزَّ ذكره – : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [4].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة توضح ندم الكافرين والخالدين في النار يوم القيامة مع بكائهم وعويلهم ،ولكن دون فائدة ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى– العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ،علم أنهم كاذبون في ندمهم ،وأن دموعهم ليست دموع ندم وتوبة ، بل هي دموع مقاساة العذاب، وعلم جيداً – جلَّ وعلا– أنهم لو عادوا للدنيا لما فعلوا غير ما فعلوا .

فإذا كان هذا حالَهم في الآخرة ،وهم يعرفون ذلك بالتأكيد ،إما عن طريق كتبهم الأصلية – غير المحرفة– أو عن طريق دستور الحياة – القرآن الكريم– فهم يعرفون ما به تماماً مثل المسلمين ،وربما أكثر ؛ لأنهم يدرسونه للتشكيك والطعن فيه دراسة المتمعن ، المتفحص، ورغم ذلك يصرون على الكفر ،والعناد ،والمعصية ،وكان الأجدر بهم أن يتركوا الكبر والعناد، ويرجعوا إلى خالقهم الواحد الديَّان ،تائبين ،نادمين داخلين في دين رسوله الكريم – ﷺ – الذي لن يُقْبَلَ دين سواه ،يوم لا ينفع مال ولا بنون .

1– قال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [5].

اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك ، وأجرنا من النار ،وأدخلنا الجنة مع الأبرار .

---

(1) الأنعام / 27 ، 28.

(2) يصيحون ويستغيثون من شدّة ما نابهم من شدة وجهد . انظر التحرير والتنوير لابن عاشور :318/22 .

(3) فاطر /37 .

(4) الفرقان / 27– 29 .

(5) آل عمران / 85 .

الفصل الثاني
عقوبات على المجتمع

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : عقوبات إهلاك .

ويشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطوفان

المطلب الثاني : الريح

المطلب الثالث : الصاعقة

المطلب الرابع : الحجارة

المطلب الخامس : الرجفة

المطلب السادس : الصيحة

المطلب السابع : المسخ .

المبحث الثاني : عقوبات دون الإهلاك .

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تسليط الظالمين

المطلب الثاني : ضيق في الرزق ، وظهور الفساد في الأرض

الفصل الثاني

عقوبات على المجتمع

إن الذنوب ، والآثام ، والمعاصي لا تقع آثارها على مرتكبيها فحسب ، بل قد يقع وبالها، ويتسرب شرها لغير المباشرين لها ،فقد تصيب الصالحين وأكابر أهل الله ، وقد يسري هذا الوبال إلى الحيوان ، الذي لا تكليف عليه بحال .

1. قال تعالى ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [1].
2. وقال أيضاً ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [2].

وقـد ورد في الأثر أن زينب بنت جحش – رضي الله عنها– سألت رسول الله –ﷺ– (**أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث** [3]) [4].

وليس أدل على ذلك من غزوة أحد ،فإن الذين خالفوا أمر رسول الله –ﷺ– هم الـرماة فقـط، ولكن الرعب ،والقتل ،والانكشاف ،كان لجميع المسلمين المشاركين في هـذه الغـزوة ، حـتى رسول الله –ﷺ– لم يسلم من شرِّ تلك المعصية ،فقد أصيبت رباعيـته [5] ، وشُجَّ [6] وجهه الشريف ،حتى سال الدم على وجهه الكريم ، وهو أكرم خلق الله على مولاه .

ولكنْ من حكمة الله تعالى، وعدله، أنهم يعذبون، أو يموتون في الدنيا بنفس الطريقة، ثمَّ يبعثون يوم القيامة على نياتهم، ويحاسبون على أعمالهم ،كلٌ حسب عمله ونيته.

إذن فقد يقع العذاب والعقاب على المجتمع كله إذا كثر الخبث ،والبعد عن الله ، وارتكاب معاصيه ونواهيه .

من أجل ذلك كان هذا الفصل ينقسم إلى مبحثين :

المبحث الأول : عقوبات إهلاك.   **المبحث الثاني :** عقوبات دون الإهلاك .

---

(1) الأنفال / 25 .

(2) النحل / 61 .

(3) أي : الفساد /فتح الباري :134/13.

(4) مـتفق عليه . أخرجه (خ) ،ك(الفتن) ،ب/28(يأجوج ومأجوج) ،2228/4، ح(7135). وأخرجه (م) ، ك(الفتن وأشراط الساعة) 339/18 ، ح(1).

(5) السن ما بين الناب والثنية . لسان العرب :119/5.

(6) أي جُرِحَ . انظر نفس المرجع :32/7 .

المبحث الأول

عقوبات إهلاك

يشتمل على سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطوفان

المطلب الثاني : الريح

المطلب الثالث : الصاعقة

المطلب الرابع : الحجارة

المطلب الخامس : الرجفة

المطلب السادس : الصيحة

المطلب السابع : المسخ .

المبحث الأول

عقوبات إهلاك

مـن المُسَـلم به أن الله – تعالى– أهلك أمماً وأقواماً قبلنا ،كانوا أشد منا بأساً ،وأكـثر أمـوالاً وأولاداً ،وأهنأ عيشاً ،فلم يعجزوه – تعالى– بل استأصلهم ،وأبادهم بالكلـية ،ولـم يُـبْقِ مـنهم أحداً ، وأصبحت قصتهم موضع عبرة وعظة لمن يعتبر ،وأصـبحت قصورهم المشيدة خاوية على عروشها ،وأورث مكانهم لغيرهم ،فما بكت عليهم السماء ،والأرض ،وما كانوا مُنْظَرين .

وفي هذا المعنى نقرأ العديد من الآيات ، ومنها :

1. يقول – عزَّ وجل– ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَـا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [1].
2. وقـال أيضـاً ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـئِدَةً فَمَـا أَغْـنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ [2].

وعذاب الله وعقابـه للأمم لا يختص بنوع واحـد ؛ بل اقتضـت حكمـة الله – عزَّ وجل – تنويعه ، وتغييره ،فقد يكون صاعقة ،أو غرقاً، أو ريحـاً ، أو خسفاً ، أو قحطاً ،أو أمراضاً ،أو مسخاً في الصُوَر كما حصل لبني إسـرائيل ،أو حجـارة ، أو رجفة ، أو غير ذلك .

وعندئذٍ يستيقظ العصاة ،ويهتفون باسم الله متضرعين ،متذللين ،ولكن هيهات !! فلا ينفعهم إيمانهم ،ولا تقبل منهم توبتهم ، ومن أدلة ذلك :

1. قـال تعـالى ﴿فَلَمَّـا رَأَوْا بَأْسَـنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْـرِكِينَ . فَلَـمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [3].

---

(1) الأنعام / 6 .

(2) الأحقاف / 26 .

(3) غافر / 84 ، 85 .

2. وقـال أيضاً عن فرعون ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [1] ،فأجابه الله تعالى منكراً عليه ،وراداً على مقولته ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [2].

ففـي تلـك اللحظة – لحظة وقوع العذاب – يعترف العصاة بذنوبهم ،ويُقرُّون علـى أنفسهم بسوء أعمالهم ،فيقولون كما قال تعالى عنهم ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [3].

وفي ذلك عبرة لمن يعتبر ،وزجر لمن ينزجر ،وما نزول مثل هذه الأنواع من العـذاب علـى هـذه الأمـة ببعيد أو بمستحيل ،فقد أسرفوا في أمرهم ،واقترفوا من المعاصـي ، والآثام ، والفجور ،والظلم ،مالا يعلمه إلا الله ،وابتعدوا عن نهج الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه –، مما يجعلهم بحق يستحقون وقوع أقصى أنواع العذاب عليهم بجدارة إن لم تنلْهم رحمة الله – عزّ وجل – ، وأسأل الله السلامة .

وأسـتعرض في هذا المبحث عذاب الأمم الغابرة علّها تكون عبرة وعظة لهذه الأمة ، بحيث يمثل كل نوع عذاب أو هلاك مطلباً ،فاحتوى على سبعة مطالب ، على النحو التالي :

المطلب الأول : الطوفان

نـوح هـو ابن آدم أبي البشر – عليهما السلام– ،وبينهما عشرة قرون – على أصح الأقوال–، وهو أول رسول بعثه الله – تعالى– إلى أهل الأرض بعد آدم – عليه السـلام –، فقـد أخبر النبي –ﷺ – كما جاء في حديث الشفاعة – **(أنَّ النَّاسَ يأتونَ نوحاً فيقولون : يا نوحُ أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أَهْلِ الأَرْضِ)** [4].الحديث

وقد كان الناس في هذه القرون العشرة على شريعة من الحق ،ثمَّ حدث بعد ذلك الشـرك، فبعـث الله إليهم نوحاً – عليه السلام– ؛ليدعوهم إلى التوحيد ،وترك عبادة الأصنام .

---

(1) يونس / 90 .

(2) يونس / 91 .

(3) الأنبياء / 97 .

(4) أخرجه(خ) ،ك(أحداديث الأبياء)، ب/33(قول الله عزّ وجل :"ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) ،2/1025 ، ح(3340).

قـــال تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا [1] بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْـــتَلَفُواْ فِـــيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2].

وقصـــة نـــوح – علـــيه السلام– مستقاة من القرآن الكريم في عدد من سوره العظيمة [3] ، وكذلك من السنة النبوية المطهرة .

قـــال تعالى حاكياً قصته – عليه السلام– مع قومه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَــلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّــن رَّبِّ الْعَالَمِيــنَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . أَوَعَجِبْــتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُــوهُ فَأَنجَيْنَـــاهُ وَالَّذِيـــنَ مَعَـــهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ [4]﴾.

– كما أسلفت – أن البشر مكثوا على الهدى بعد آدم قروناً طويلة ،ثم اختلفوا ، ووســـوس لهم الشيطان فاستمعوا له ،حين مات منهم أناس صالحون، فحزنوا عليهم ، فأمـــرهم الشيطان أن يصوِّروا لهم تماثيلاً ؛ليذكروهم ،فيخفف عنهم الحزن والعذاب ، فاســـتجابوا ،وصنعوا التماثيل، وكانت لنفس الهدف الذي وسوسه لهم الشيطان ،ثم لما هلك الذين صوروا التماثيل ،جاء مَن بعدهم ،فوسوس لهم الشيطان :أن هؤلاء التماثيل كان آباؤكم وأجدادكم يدعونها ،ويستشفعون بها؛ فَيُسقَوْنَ الغيث ،وتزول عنهم الأمراض ولم يزل بهم حتى صدقوه ،وانهمكوا في عبادتهم على الرغم من نصح الناصحين [5].

---

(1) أي : حسداً بينهم ؛ لتكالبهم على الدنيا .كلمات القرآن ص33.

(2) البقرة / 213 .

(3) وقـــد وردت قصـــة نـــوح فـــي ســـورة يونس/71–73 ،هود/25–49 ،الأنبياء/76–77 ،الشعراء/105–122 ، العنكبوت/14–15 ، الصافات/75–82 ، القمر/9–17 وسورة نوح بتمامها .

(4) الأعراف / 59–64 ، والعمين : عمى القلوب عن الحق والإيمان ،فلا يهتدون له .
تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 229/2 .

(5) انظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ،(ت)أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف/الرياض ط(1)1422هـ–2002م ، ص45 ، 46 .

قال تعالى حاكياً عنهم ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [1].

روى البخاري مُعلَّقاً عن ابن عباس – رضي الله عنهما – :(**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ،فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبّوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ، وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا ،فلم تعبد ،حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبدت**) [2].

فكان ذلك سبباً في إرسال الله – سبحانه وتعالى– نوحاً – عليه السلام– ليدعوهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة، وألا يعبدوا معه صنماً ،ولا تمثالاً ،ولا طاغوتاً ، وأن يعترفوا بوحدانيته ،وأنه لا إله غيره ،ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من جاء بعده من الرسل ،قال تعالى ﴿**فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [3].

وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**﴾ [4].

قال السعدي – رحمه الله– :(أخبر تعالى أنه بعث في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت) [5].

صور معاندة قوم نوح – عليه السلام– لدعوته :

دعا نوح – عليه السلام– قومه كما حكى القرآن الكريم بكل أنواع الدعوة ،في الليل والنهار ، وفي السر والجهر ،بالترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح ، ولم يؤتِ ثماره ؛ بل عاندوا دعوته بشتى الطرق والوسائل ، والتي منها :

أولاً : عدم الانصياع للحق

بالرغم من دعوته لهم باستمرار ، وبشتى الطرق إلا أنهم لم ينصاعوا للحق ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان ،وعبادة الأوثان ،وناصبوه العداوة في كل وقت وأوان .

---

(1) نوح / 23 .

(2) أخرجه(خ) ،ك(التفسير) ،ب/1 (وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق) ،1572/3 ،ح(4920).

(3) الأعراف / 59 .

(4) النحل / 36 .

(5) تفسير السعدي : 931/2 .

قـــال تعالى ﴿قَــالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا [1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَــرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [2] .

كما أنه رغَّبهم في خيرَي الدنيا والآخرة ،قال تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِيــنٌ . أَنِ اعْــبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [3].

أي رغــبهم إن أطــاعوه ،وأفــردوا الله وحده بالعبادة والتوحيد ،وابتعدوا عن الشــرك ،أن يغفر الله ذنوبهم ؛وبذلك تحصل لهم النجاة ،ويدفع عنهم الهلاك إلى وقت محدود ،مقدر بقضاء الله وقدره .

وهذا مما يجب أن يستفيد منه الدعاة ، فيأخذوا منه آداب الدعوة إلى الله ، بأن يدعــوا دون ملل ولا سأم ، ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهراً ، بكل وقت وبكل حالة يظنون فــيها نجاحــاً لدعوتهم ، كما يجب عليهم النزول عند حالة المدعو ، فيختاروا لكلٍّ ما يناسبه من أسلوب ، بالترغيب بالثواب العاجل ، والسلامة من العقاب ،والتمتع بالأموال والأولاد ، وإدرار الأرزاق تارة ، ويرهبهم ويحذرهم تارة أخرى من ضد ما رغَّبهم به إن هــم لم ينصاعوا للحق ، وأن يغايروا في أسلوب الخطاب ،باللين والكلام الرقيق ؛ بغــية جذب القلوب تارة ،والشدة والقسوة حين لا يجدي إلا هذا الأسلوب ،وأن يدعوا بالجهــر ، والعلن ،على حسب ما يقتضيه المقام ، فأحياناً الدعوة والنقد لشخص معين جهراً يؤتي ثماراً عكسية ، لذا يجب على الداعي أن يكون فطناً ، متمرساً ، يعرف أن لكل مقام مقالٌ ، ولكل مقال مقاماً .

ثانياً : عدم اتباع نوح -ﷺ- والتعجب من كونه بشراً

ولم يقف الأمر عند الإيمان فقط، فهذا أمر يخصهم وحدهم؛ بل إنهم انتقصوه ، ونالوا منه ، وبالغوا في ذلك ؛لدرجة أن قال السادة الكبراء منهم ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [4].

---

(1) أي تغطوا بها غطاءً يغشاهم ،بُعداً عن الحق ،وبغضاً له . تفسير السعدي :932/2 .

(2) نوح / 5 – 9 .

(3) نوح / 2–4 .

(4) الأعراف / 60 .

ثـم إنهـم طلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين – الفقراء– استكباراً منهم ووعدوه إن هو فعل ذلك أن يجلسوا معه ويسمعوه ،فأبى ذلك ،فقال لهم **﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** [1].

فقد تمسك –ﷺ– بأتباعه بالرغم من فقرهم ،ورثاثة حالهم،ولم ينخدع بالمظاهر الكاذبة، والأقوال المعسولة،لعلمه أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدَّقه العمل ،وليس أقوالاً تقال فقط .

رابعاً : الذين لم يؤمنوا من قوم نوح يوصون من بعدهم بعدم الإيمان

واسـتمرت الأيـام ،وتطاولت الأزمان ،والمجادلة بين نوح – عليه السلام – وقومه مستمرة ، قال تعالى **﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾** [2].

وخـلال هذه المدة الطويلة التي تعتبر أطول مدة لبث فيها رسول مع قومه ،لم يؤمن به إلا القليل منهم ،وبرغم ذلك لم يكتفوا بعدم إيمانهم هم ،بل كانوا يوصون من يأتي بعدهم بعدم الإيمان ، وعدم اتباع نوح – عليه السلام – ، وعدم ترك الشرك بالله والتمسك بالأوثان، وعدم ترك عبادتها أبداً.

قال تعالى على لسان نوح – عليه السلام – واصفاً حال قومه **﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾** [3].

قـال ابن كثير :((وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ، ومحاربـته ، ومخالفـته ،وكان الوالد إذا بلغ ولده ،وعقل عنه كلامه ،وصّاه فيما بينه وبيـنه ، ألا يؤمـن بنوح أبداً ما عاش ،ودائماً ما بقى ،وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ،ولهذا وصفهم تعالى على لسان نوح – عليه السلام – بقوله **﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** [4]**﴾**))[5] .

---

(1) هود / 29 .

(2) العنكبوت / 14 .

(3) نوح / 21–23 .

(4) نوح / 27 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ، مكتبة أبو بكر أيوب / نيجيريا ، ط1 1421هـ–2001م ، ص55 ، 56.

خامساً : طلب حلول العذاب الذي وَعِدوا به

واستمر جدالهم ،واستمر عنادهم ،بالرغم من استمرار دعوة نوح –عليه السلام– لهم بكافة الوسائل ،وكانت النتيجة عدم الإيمان ،وعدم ترك الشرك بالله، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إنه تعداه لدرجة أن وصل إلى تكذيبهم له –ﷺ– ،وعدم تصديق ما توعدَّهم به من عذاب؛ إن هم لم ينصاعوا للحق ،ورأوا أن الزمان قد امتدَّ بهم ،ولم ينزل شيء مما وعدوا به بالرغم من عدم إيمانهم .

قال تعالى على لسانهم ﴿**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ [1].

دعاء نوح – عليه السلام– عليهم ، واستجابة الله لدعوته :

حزن نوح – عليه السلام – حزناً شديداً لوصول قومه لهذه المرحلة من العناد والمكابرة ، ولكن بالرغم من ذلك بقى عنده أمل في إيمان البعض منهم ،فأوحى الله إليه : أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ؛تسلية له عما صَدَر منهم في حقه ، فقال له ﴿**فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [2].

يقول ابن كثير : ((أي : لا يسوءَنَّك ما جرى؛ فإن النصر قريب ،والنبأ عجيب فلا تحزن، ولا يهمنك أمرهم)) [3].

فتأكد نوح عندئذٍ أنه لن يؤمن معه أي شخص منهم غير من آمن – وهم قليل – وبذلك يَئِسَ من صلاحهم وفلاحهم ،ورأى أنه لا خير فيهم ،فهم الذين خالفوه ،وآذوه ، وكذبوه بكل الطرق من فعال ومقال ،فحينئذ دعا عليهم دعوة غضب بأكثر من صيغة ، وإنما يدل ذلك على ما في قلبه من أسى ،وغضب وثورة ، جَرَّاء عنادهم وتكذيبهم .

1. قال تعالى على لسانه ﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [4].

---

(1) هود / 32 ، 33 .

(2) هود / 36 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 454/2.

(4) الشعراء / 118 .

2. وقال أيضاً ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (1).

3. وقال أيضاً ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (2).

فهذا رسول الله –ﷺ– لم يطلب أجراً ،ولا أيَّ طلب دنيوي ،كل ما أمرهم به ، وطلبه منهم أن يعبدوا الله وحده ،وألا يشركوا به شيئاً ،فامتنعوا ،وعاندوه ،وآذوه هو وأتباعه ، بالأقوال ، والأفعال سنين طوالاً ،حتى غضب – عليه السلام – وهو الحليم ، والصابر عليهم كل تلك السنين، فتضرع إلى الله ،ودعا عليهم بأن يهلكهم ويبيدهم ؛ لأنه رأى أنه لا خير فيهم أبداً ،حتى المحتضر منهم لم تُنْسه سكرات الموت أن يوصي أبناءه ومن خلفه بعدم الإيمان ،فاستجاب الله له ، ولبَّى له دعوته ،ونصره عليهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؛ لأنهم جمعوا خطايا كثيرة من كفر وجحود ، ودعوة الرسول عليهم .

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (3).

معجزة نوح – عليه السلام– :

عندما وصل الحال لهذه الدرجة ،وعندما أراد الله – سبحانه وتعالى – نصرة رسوله وأتباعه أمره بصناعة الفلك – وهي سفينة عظيمة لم يكن لها نظير قبلها–، وأخبره تعالى أن هذا أمره ولن يرد أبداً ،كما أمره بألا يراجعه فيهم أبداً ؛ لأنه قد تدركه رقة على قومه حين يرى العذاب نازلاً بهم ؛لأن الخبر ليس كالمعاينة .

قال تعالى عن ذلك ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (4) وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (5).

وبدأ العمل فوراً ، ومرَّ عليه قومه فاستهزأوا منه ، قال تعالى ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (6) ، فيتوعدهم بالعذاب، ويخبرهم بأنه

---

(1) القمر / 10 .

(2) نوح / 26 .

(3) الصافات / 75 .

(4) أي : بعين الله ، وحفظه ، وحراسته . جامع البيان للطبري : 45/12 .

(5) هود / 37 .

(6) هود / 38 .

هـو وأتباعه مَنْ سوف يسخرون منهم ، قال تعالى **﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾** [1].

ثم أمره – تعالى – بأنه إذا جاء أمره ،وحلَّ بأسه ،أن يحمل في السفينة من كلِّ زوجين اثنين من الحيوانات ،وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها ؛ لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله – أي أهل بيته – ، إلا من سبق عليه القول منهم ،ممن كان كافراً فهؤلاء قد وجب عليهم حلول البأس ،ونزول العذاب .

قال تعالى **﴿فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ** [2] **فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾** [3].

واختلف المفسرون في معنى التنور ، فمنهم من أبقاه على حقيقته ،فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير ،وأنه علامة جعلها الله لنوح – عليه السلام – إذا فار الماء من تنوره علم أن ذلك مبدأ الطوفان ،فركب الفلك وأركب من معه .

ومنهم : من حمل التنور على المجاز، ففسَّره بسطح الأرض ،أي فار الماء من جميع الأرض، حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور [4].

ولكن المراد بالتنور عند السلف : وجه الأرض .

والمعنى : أي ((نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار)) [5].

ثم أمره – تعالى – أن يحمده على ما سخَّر له من هذه السفينة ،فنجاه ، واستجاب دعوته ، وفتح بينه وبين قومه ، وأقرَّ عينه ممن خالفه وكذبه ، قال تعالى **﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للَّه الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾** [6].

---

(1) هود / 38 .

(2) الفوران : غليان القدر ،ويطلق على نبع الماء بشدة ،تشبيهاً بفوران القدر إذا غلَى ،والتنور : اسم لموقد النار للخبز . التحرير والتنوير لابن عاشور : 70/12 ، 71 .

(3) المؤمنون / 27 .

(4) انظر المحرر الوجيز لابن عطية : 291/7 .

(5) قصص الأنبياء لابن كثير ص58 ، وانظر قصص الأنبياء للسعدي ص50 .

(6) المؤمنون / 28 ، 29 .

فأمـــر السماء أن تقلع ،وأنْ تمسك عن المطر ،وأمر الأرض أن تبتلع ماءها ، وانتهى أمر الكفار والمشركين بالموت غرقاً ،ونجّى نوحاً –عليه السلام– ومن معه .

قال تعالى واصفاً حال المشركين بعد الطوفان **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾** [1].

وقال تعالى **﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** [2].

وبذلـــك تكـــون قد تحققت استجابة الله – تعالى – لدعوة نوح – عليه السلام – فلم يُبق منهم أحداً ،بل استأصلهم بالكلية وهم ينظرون .

وهذا جزاء كل من يعصى الله ،ويتكبر عليه ،ويعثو في الأرض فساداً .

وما كان هذا العقاب إلا بسبب كفرهم الغليظ ،وعنادهم البالغ في الدنيا ، وهكذا سيكون طبعهم في الآخرة أيضاً الجحود والنكران .

عـــن أبـــي سعيد الخدرى – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله –ﷺ– : **(يجـــيء نوح عليه السلام وأمته ،فيقول الله تعالى :هل بلغت ؟ فيقول نعم أيْ رب ، فيقول لأمته :هل بلغكم؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي ،فيقول لنوح :من يشهد لك ؟ فـــيقول محمد –ﷺ– وأمته، فنشهد أنه قد بلغ ،وهو قوله – جلَّ ذكره – ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾** [3].

ثمَّ يُتِمُّ المولى – عزَّ وجل – قصة نوح – عليه السلام – بتضرعه لمولاه ،وهو يناشـــده فـــي ولده ،وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ،متضرعاً **﴿رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾** [4].

فقال له ربه **﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾** [5].

أي : قد سبق عليه القول ؛لأنه كافر ،وعمله غير صالح .

---

(1) الأعراف / 64 .

(2) الشعراء / 119–122 .

(3)أخرجه (خ) ،ك(أحاديث الأنبياء) ،ب/3(قول الله –عزَّ وجل– ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، 1025/2 ، ح(3339) ، والآية في البقرة /143.

(4) هود / 45 .

(5) هود / 46 .

وهـذا عـتاب مـن الله – سبحانه وتعالى – لرسوله -ﷺ- ،وتعليمه إياه أن الرابطة بين الخلق يجب أن تكون على اعتبار الإيمان ،وليس النسب والقرابة .

قـال تعـالى له : **﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** [1].

وسـرعان مـا عاد نوح – عليه السلام – إلى رشده وعقله ،وعلم خطأه ،ولم يجادل بالباطل أكثر؛ بل طلب العفو والمغفرة والرحمة من خالقه .

قال تعالى على لسانه **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [2].

وهـذا يجب أن يكون حال كل مسلم أن ينقاد ويستسلم للحق بمجرد أن يعلم أنه على خطأ، وأنه مخالف للصواب ،وينصاع فوراً للحق ،وألا يجادل، أو يكابر، أو يعاند لمجـرد أن يثبت أنه كان على صواب ،بالرغم من أنه في قرارة نفسه متأكد أنه على خطأ .

ثم جاء الأمر الإلهي بالهبوط من السفينة .

قـال تعـالى **﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [3].

قـال ابن كثير – رحمه الله – : ((خبر تعالى عما قيل لنوح – عليه السلام – حين أرست السفينة على الجودى من السلام عليه ،وعلى من معه من المؤمنين ،وعلى كـل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ،.... وكذلك يخبر عن العذاب لكل كافر وكافرة إلى يوم القيامة)) [4].

ويقـول أيضـاً : ((هـذا أمر لنوح –عليه السلام– لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكـن السـعي فيها ،والاستقرار عليها ،أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي ...اهبط سالماً مباركاً عليك ،وعلى

---

(1) هود / 46 .

(2) هود / 47 .

(3) هود / 48 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 459/2 .

أمم ممن سيولد بعد من أولادك ،فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نساءً ولا عقباً سوى نوح – عليه السلام – قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [1].

فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ، ينسبون إلى أولاده الثلاثة : سام – حام– يافث)) [2].

وبذلك انطوت هذه الصفحة ،وكان ذلك أولَ تدميرٍ لقرية كاملة ،انقرض منها جميع الكافرين ،والمشركين ،والعاصين ،ولم يبقَ غير المسلمين .

وكان من المفروض ،أن يكون ذلك أول تدمير وآخره، لو كانت هناك آذان تسمع، وعيون ترى ،وعقول تعقل ،ولكن لما صمت الآذان ،وعميت العيون ،وأقفلت العقول ،فإن الأسباب التي أدت للدمار أول مرة ،تكررت مرات أخرى ،فتكرر الانتقام مرات أخرى بصور مختلفة – والله المستعان – . [3]

المطلب الثاني : الريح

بعد إهلاك قوم نوح ، كان جميع البشر من أولاده الثلاثة – كما سبق آنفاً – .

وقد نسب كل من العرب وبني إسرائيل إلى ولده (سام) ، وكان هود عليه السلام من أحفاده .

وكان قومه يسمَّون عاداً الأولى ،ويسمون إرم ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [4].

وكانوا عرباً يتكلمون اللغة العربية، وكانوا يسكنون في منطقة تسمى الأحقاف [5] ، قال تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ [6].

---

(1) الصافات / 77 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص63 .

(3) القصة مستفادة بالإضافة إلى كتب التفسير القديمة والحديثة ،من البداية والنهاية : 1/93-112 .

(4) الفجر / 6 ، 7 .

(5) هي جبال من الرمل في اليمن ،بين عُمَان وحضرموت ،يقال لها : الشهر . انظر التحرير والتنوير لابن عاشور : 45/26 .

(6) الأحقاف / 21 .

وكانوا يتفننون في بناء المساكن والبيوت ،فقد كانوا ينحتونها في الجبال ،ولكن كان أحسنَها وأحبَّها إلى نفوسهم الخيام ،وهي ليست خيام عادية ،بل ضخمة فخمة ، قال تعالى ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [1].

يقـول ابـن كثـير – رحمـه الله – : (كانوا يسكنون بيوت الشعر التي تُرفع بالأعمدة الشداد) [2].

وكانت أجسامهم ضخمة ،طوال ،بيض ،قال تعالى على لسان هود وهو يخاطب قومـه ﴿وَاذكُـرُواْ إِذْ جَعَلَكُـمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [3].

بعد الطوفان بدأ العرب ينتشرون مرة أخـرى من المنطقة التي عاش فيها نوح – علـيه السلام– ،وهي شمال الشام ،وفلسطين ،وشمال الجزيرة ،ثم انتقلوا إلى جنوب الجزيـرة ،وكـانوا كلهم على التوحيد ،إلى أن انحرفت عاد ،ووسوس لهم الشيطان ، فبدأوا يعبدون الأصنام مرة أخرى ،فهم أول من عبد الأصنام بعد قوم نوح .

وقد وصف الله – تعالى– التطور العمراني والحضارة التي كانوا يتميزون بها علـى لسـان هود – عليه السلام – فقال تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ [4] آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [5].

أي : فكنتم تبنون علامات على كل طريق عالٍ ،وعلى كل مدخل بين الجبال ، وتصـنعون المصانع والمباني الشاهقة ؛ بغية الخلود ،والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد [6] ، فكانوا هم المسيطرين على كل البشر؛ حيث أمدهم الله – تعالى– بكل وسائل النعيم من أموال وجنات وأولاد، ووسائل القوة ،....وغيرها .

ولكـنهم لم يحمدوا الله ،ولم يقوموا بحقه من العبادة والطاعة ،بل استكبروا في الأرض بغير الحق – ودائماً كان الكبر أساس كل بلاء – .

---

(1) الفجر / 7 ، 8 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير :507/4.

(3) الأعراف / 69 .

(4) الريع : هو كل مكان مشرف من الأرض مرتفع ،أو طريق ،أو وادٍ . جامع البيان للطبري : 115/19 .

(5) الشعراء /128 ، 129 .

(6) انظر جامع البيان للطبري :115/19 ، وتفسير السعدي :226/2 .

أجـــراً علــــى ما يدعوهم إليه ، بل أجره على الله وحده -كما قال نوح عليه السلام- ؛ خشـــية أن يكون المال هو المانع، فقال **﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** [1].

وهـــــذا أيضـــاً ممـــا يجب أن يســـتفيد منـــه الدعـــاة والوعاظ ،فيجب عليهم التـــنوع في الأســـلوب حسب حـــال المخاطب والمدعـــو ،وعـــدم الاكتفـــاء بنـــوع واحـــــد فـــي الدعـــــوة ،حـــتـــى ولو كـــان هو الأصلحَ في نظرهـــم ،بل يجب أن يخوضـــوا جميع الطرق ،ويجربوا جميع الوسائل ؛ عسى الله أن يجعل القبول والهداية في واحدة منها .

ثانياً : اتهامه – عليه السلام – بالجنون

ولم يكتفـــوا بما رَمَوْه به من الســـفاهة والكذب ، بل قالوا له :إنه لا دليل على مـــا يقـــول ، وإنهم يرون أن بعض الآلهة غضب عليـــه ، فأصابه في عقله ،فاعتراه جنون بسبب ذلك .

قال تعالى**﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ﴾** [2].

فـــتحداهم قـــائلاً لهـــم جهـــاراً **﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّـــي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْـــرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [3].

أي قـــال لهـــم متحدياً : إن آلهتكم لا تنفع ولا تضر ،إنما هي حجارة ، جماد ، وإن كنتم كاذبين في أنها تنفع وتضر .

فهـــأنذا أمامكم قد كفرت بها ،ولا أبالي ،فاجعلوها وأنتم معها تضرني ،أو تكيد ليَّ ،ولن تستطيعوا ذلك أبداً ،فإني قد توكلت على الله ،وهو حافظي ،ومؤيدي.

فهذا الموقف يدل على قوته ،وصلابته ،ورسوخ قدمه -ﷺ- ،فقد سفه أحلامهم وسبَّ آلهتهم وهم أهـــل القوة والبطش ،والجبروت دون خوف منهم ،ولا من قوتهم ، ولا من آلهتهم ، لذا فإنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسوء .

---

(1) هود / 51 .

(2) هود / 54 .

(3) هود / 54-56 .

وهـذا أيضـاً يجـب أن يستفيد منه الدعاة ،وهو طالما أنهم على الحق ،وهم مؤمـنون بهذا الحق ،فلا ينبغي أن يثنيهم ثانٍ ،وألا يخافوا من تهديد أعدائهم، فصاحب الحق قوي ولو كان ضعيفاً .

ثالثاً : نفي النبوة عنه - ﷺ-

ولم يكتفوا بما وصفوه به سابقاً ،بل لجأوا إلى حيلة أخرى ،وعناد وجحود آخر فقالوا له: نحن نستبعد أن يبعث الله رسـولاً بشـرياً ،إنما نريد رسولاً من الملائكة ؛ كي نؤمن به .

قـال تعالى عنهم ﴿**وَقَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْـنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾ (1).

أي أنكروا أن يكون رسولاً لكونه يأكل ويشرب مثلهم ،ويمشي في الأسواق فهم يريدون رسولاً من الملائكة لا يفعل كل هذه الأمور.

رابعاً : إنكارهم للبعث

ومـا ذلـك إلا ليطعـنوا في صميم ما جاء به من الحق ،وحتى يسببوا إحباطاً لأتباعه ، بأنه لا جزاء لكم على ما تعانون معه .

قـال تعـالـى ﴿**أَيَعِدُكُـمْ أَنَّكُـمْ إِذَا مِتُّـمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**﴾ (2).

أي : أيعدكـم بعـد أن تموتـوا وتتمزقوا ،وتصبحوا تراباً وعظاماً ،أن الله سـوف يبعـثكم أحيـاءً مرة أخـرى ،وهذا – في زعمهم – بعيد جداً ،لأنهم قاسوا قـدرة الله علـى قدرتهـم ، ونسـوا أو تناسـوا خلقـه لهم أول مرة ، وأن الذي أنشـأهم مـن العـدم قـادر على إعادتهـم بعـد البِلـى ،وهـو أهـون عليـه ، وكلاهما عليه هين (3).

وهذا كله كذب ،وكفر ،وجهل ،وضلال ،وأقوال باطلة بلا برهان .

---

(1) المؤمنون / 33-35 .

(2) المؤمنون / 35 .

(3) انظر تفسير السعدي : 122/2 .

خامساً : إعلانهم عدم الإيمان صراحة ،وطلب ما وعدهم به من عذاب

وتمادوا أكثر وأكثر في غيهم وضلالهم ،وعنادهم ،فأعلنوا صراحة عدم إيمانهم وعدم تركهم ما كان يعبد آباؤهم من أصنام ، فقالوا له **﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** [1].

أي : أجئتنا لنعبد الله وحده ،ونخالف آباءنا وأجدادنا ،فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب ،والنكال ،فإنا لا نؤمن بك ،ولا نتبعك ،ولا نصدقك .

يقول القرطبي : ((ثم طلبوا العذاب الذي خوّفهم به ،وحذرهم منه)) [2].

فردّ – عليه السلام – عليهم حين طلبوا العذاب قائلاً: **﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾** [3].

أي : قال لهم : استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، وتوجه إليهم سائلاً : أتعارضون عبادة الله وحده بعبادة أصنام نحتموها ، وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، أنتم وآباؤكم ، ما نزّل الله بها من سلطان ، وأبيتم قبول الحق ، وتماديتم في الباطل ؛ فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذي لا يرد ، ونكاله الذي لا يُصد .

وبذلك يكونون قد نالوا منه ، لدرجة أنهم أخرجوه عن حلمه ، ولينه ،ورقته المعهودة عنه، فرفع يديه متضرعاً ، ودعا الله وحده ، وطلب نصرته ، ومعونته ، قائلاً : **﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾** [4].

وفعلاً استجاب الله –سبحانه وتعالى – لدعاء نبيه –عليه السلام – فانتقم منهم .

انتقام الله – عزّ وجل – من قوم هود – عليه السلام – :

عاقبهم الله – تعالى – على استهزائهم بنبيهم – عليه الصلاة والسلام – ، وإنكارهم وجحودهم لخالقهم ،واستكبارهم على عباد الله المؤمنين بنوعين من العذاب :

---

(1) الأعراف / 70 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :229/7 .

(3) الأعراف / 71 .

(4) المؤمنون / 39 ، 40 .

أولاً : العذاب بالصيحة

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(1).

يقول ابن كثير – رحمه الله – موفقاً بين نوعي العذاب : ((لا يمنع من اجتماع الصيحة ،والريح العاتية عليهم)) (2).

ويقول أيضاً ((فالظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد)) (3).

إذن لا تعارض بين هذه الأنواع من العذاب ،فإنهم لما خالفوا أمر الله – تعالى– وارتكبوا محارمه ومعاصيه ،غضب الله عليهم ،وأحلّ بهم لعنته .

قال تعالى ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (4).

وقد عاقبهم بالصيحة أولاً ، ثم بالريح العقيم التي اجتثتهم ،وقطعت رؤوسهم عن آخرهم، وأهلكتهم بالكلية .

ونجى الله هوداً – عليه السلام – ومن معه من المؤمنين ،بالرغم من وجودهم هناك ساعة الريح، التي دمرت كل مكان إلا المكان الذي به هود وأتباعه .

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (5).

يقول ابن كثير – رحمه الله – : ((اعتزل هود – عليه السلام – في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليهم الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ،وتدمغهم بالحجارة)) (6).

---

(1) المؤمنون / 41 .

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ص74 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير :252/3 ، 253 .

(4) هود /59 ، 60 .

(5) هود / 58 .

(6) قصص الأنبياء لابن كثير /ص74 ، وقصة هود :مستفادة من البداية والنهاية :113/1-123 باختصار .

وبذلك أهلكهم الله ، ولم يبقِ منهم أحداً ، وما أعجزه ذلك ، ولم يُنْظَروا لتوبة ، ولــم يمهلــوا لتدارك تقصيرهم ،فما حزنت عليهم السماء ،ولا الأرض، عندما أخذهم العذاب ؛ وما ذلك إلا لهوان شأنهم على الله – عزّ وجل – .

ثانياً : العذاب بالريح

عذبهم الله – سبحانه وتعالى – بريح ليست كمثلها ريح في التاريخ ،حيث انقطع عــنهم المطر، فبدأ الشجر يذبل ،والثمار تجف ،والحشائش تذبل ،والقحط والدمار يحلُّ بهم من كــل جانب ،فبدأوا يتلهفــون إلى المطر ، ويطمعون فيه ،وفي يوم من الأيام – وبعد هذه السنين الطوال – عندما جاء موعد العذاب ،أرسل الله السحاب في السماء فاستبشــروا وفــرحــوا وظنــوا أنه قــد جاء المطر ،والخير ،والحياة ،ولكن الحقيقة غير ما ظنوا .

ويصور لنا القرآن الكريم هذا المشهد في عدة آيات أكتفي بذكر أربعة منها :

1. قوله تعالى ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَــذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [1].

يقــول أبــو الســعود : ((جاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا بحيث لا يُرى إلا مساكنهم، فلو حضر أي أحد إلى بلادهم لا يرى إلا مساكنهم)) [2].

2. وقال – عزّ وجل – ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** [3]﴾ [4].

3. وقال – تعالى– ﴿**فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾ [5].

يقول ابن كثير – رحمه الله – : ((أرسل عليهم ريحاً باردة شديدة في يوم كان نحســه ودماره مستمراً؛ لأنه اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي....وأن الريح كانت تأتي أحدهــم فترفعــه حتى تغيبــه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ،فيسقط إلى

---

(1) الأحقاف / 24 ، 25 .

(2) تفسير أبي السعود :86/8 بتصرف يسير .

(3) أي : أصول بلا رؤوس ، كلمات القرآن :ص366 .

(4) القمر / 19 ، 20 .

(5) الحاقة / 7 .

الأرض ،فتلثغ رأسه ،فيبقى جثة بلا رأس)) [1].

4. وقـال أيضـاً **﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ [2] . مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [3]﴾** [4].

أي : أرسل الله تعالى عليهم ريحاً خالية من المنافع التي تُرجى من وراء الريح مـن إثـارة السـحاب ،وسوقه،ومن إلقاح الأشجار ،.. فهي ريح لا نفع فيها ،بل هي ضارة) [5].

المطلب الثالث : الصاعقة

مرت الأيام بعدما أهلك الله – تعالى – عاداً الأولى ،قوم هود – عليه السلام – وجاءت بعدهم ثمود – أو عادٍ الثانية – ، قوم صالح – عليه السلام – .

وكـانوا يقطـنون في اليمن ،ثم انتقلوا إلى شمال الجزيرة ،وسكنوا في منطقة تُسمى الحجر [6] ، قال تعالى **﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ [7] الْمُرْسَلِينَ﴾** [8].

وَرِثَـتْ ثمـود عـن عـاد صناعة نحت المساكن ، وبذلك كانوا خلفاءهم في الحضارة ، والعمران ،والقوة ،والبأس .

يقـول البيومي : ((فكانوا يبنون في الأرض قصوراً ،وينحتون في الجبال بيوتاً وكهوفاً يسكنون فيها ؛ لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم)) [9].

ويفهم من ذلك أنهم امتازوا بطول العمر .

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 264/4 .

(2) أي : المهلكة لهم ،القاطعة لنسلهم ، كلمات القرآن ص357 .

(3) أي : كالشيء البالي المفتّت الهالك ، نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) الذاريات / 41 ، 42 .

(5) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور :11/27 .

(6) الحجـر : هـو المعـروف بوادي القرى ،وهو بين المدينة والشام ،وهو المعروف اليوم باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك . التحرير والتنوير لابن عاشور : 72/14 ، 73 .

(7) وهـم : ثمود ،وكانوا ينزلون الحجر ،وهو المكان المحجور ،أي الممنوع من الناس ،بسبب اختصاص به ،أو شق من الحجارة ؛ لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتاً محكماً . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(8) الحجر / 80 .

(9) قصـص القـرآن (دروس وعـبر للدعوة والدعاة) لمحمد البيومي ،مكتبة الإيمان/المنصورة، ط(1) 1420هـ– 1999 م ، ص109 .

قـال تعـالى ﴿وَاذْكُـرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [1].

أي أن الله – تعالى – أنعم عليهم كما أنعم على عاد الأولى ، وجدّد لهم التجربة وأعطاهم الفرصة؛ لعلهم يتعظون بما حصل لعاد ،لكنهم كفروا رغم كل هذا ،وبطروا الـنعم ،وعبدوا غير الله ،فأرسل الله إليهم أخاهم [2]صالحاً من قبيلتهم ،يعرفون حسبه ونسبه ،وصدقه وأمانته ،وكان ذا عقل ،وعلم ،وفصاحة ،وكانوا يأخذون رأيه في كثير مـن الأمـور ،وكـانوا يتأملون أن يكون له شأن بينهم ،فلما دعاهم إلى الله ،وطالبهم بالإيمـان ، وعـبادة الله وحده ، وترك ما سـواه ، رفضـوا دعوته ، ونفروا منه ، واستكبروا عليه .

قال تعالى على لسانهم ﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [3].

وقصـــة صـــالح – عليه السلام – مع قومه ذكرت في عدد من سور القرآن الكــريم [4] قال تعالى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ

---

(1) الأعراف / 74 .

(2) أي : صاحبهم ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 228/7 .

(3) هود / 62 .

(4) وردت في سـور : الأعراف /73-79 ، الحجر/80 -84 ،الإسراء/59 ، الشعراء /141-159 ، القمر 3-32 ، الشمس /11-15 .

ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [1].

يخبرنا تعالى في كتابه العزيز أن صالحاً – عليه السلام – بدأ يدعو قومه بعبادة الله وحده، دون يأس أو ملل، كما هو حال جميع الرسل .

قال تعالى على لسانه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [2].

وأخبرهم بأنه لا يريد منهم أجراً على ما يدعوهم إليه ، وإنما يرجو الثواب من عند الله تعالى .

قال تعالى على لسانه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [3] ، ولكنهم لم يسمعوا له ، ولم يستجيبوا ، بل صمّوا آذانهم ، وأقفلوا عقولهم ، ورفضوا دعوته وعارضوها بشتى الطرق والوسائل .

مظاهر رفض الدعوة :

عارضت ثمود دعوة صالح – عليه السلام – كغيرها من الأمم السابقة ، بل زادت عليهم ، وتمادت أكثر منهم ، فكان من أهم مظاهر رفضهم ما يلي :

أولاً : وصفه –ﷺ– بالكذب

تعجبت ثمود من أن يكون صالح – عليه السلام – هو المختار من بينهم ، بالرغم من أنه كان عندهم مرجواً ، وكانوا يتوقعون له شأناً عظيماً بينهم ، ولكنه عندما جاءهم بالحق والهدى لم يصدقوه ، بل وصفوه بالكذب .

قال تعالى على لسانهم ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [4].

أي : استغربوا ،واستنكروا أن يكون قد خصه الله – تعالى – بينهم بالوحي والنبوة ، وفيهم – على رأيهم – من هو أحق منه بها ، ثم جزموا بأنه كذاب ،معجب بنفسه ، يرى لنفسه ما ليس لها [5].

---

(1) هود / 61-68 .

(2) هود / 61 .

(3) الشعراء / 145 .

(4) القمر / 25 . والأشر : أي المتكبر . كلمات القرآن ، ص 367 .

(5) انظر فتح القدير للشوكاني : 126/5 .

والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبهم ؛ ليؤمنن به ، وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح – عليه السلام – إلى صلاته ، ودعا الله – عزّ وجل – ، فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت [1] عن ناقة يتحرك جنينها كما سألوا ، فآمن البعض القليل ، ولم يؤمن الكثير.

فإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدل على الكبر، والعناد ، فهم قد رأوا أمام أعينهم ما طلبوا، وما طلبوه رغبة في اطمئنان قلوبهم لما يقول، ولكن طلبوه على وجه التحدي والتعجيز ، وحينما رأوا ذلك رأي العين ،آمنوا في قرارة أنفسهم لتأكدهم أنه رسول حق – بالرغم من تأكدهم من قبل ذلك –، ولكن منهم من استطاع أن يعلن ذلك للملأ، ومنهم من بقى أيضاً في موقف الضعف والعناد، والجبروت فجحدها بعد أن استيقنتها نفسه، ولو كانوا فعلاً لهم قلوب تعقل، لما استطاع أحد أن يصدهم عن اتباع الحق، وترك الباطل، ولكنه الكفر بكل عصر وأوان .

ثم قال لهم صالح – عليه السلام – هذه ناقة الله [2]، وهي دليل على صدق ما جئتكم به .

قال تعالى على لسانه **﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [3].

واتفق معهم على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ،ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم ،وكانت إذا وردت تشرب ماء البئر يومها ذلك ، وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء يومهم لغدهم ،وكانوا يشربون في يومها من لبنها كفايتهم .

قال تعالى **﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾** [4].

فلما طال عليهم هذا الحال ،اجتمع أشقياؤهم ،واتفق رأيهم على أن يعقروها ليستريحوا منها ،ويتوفر لهم ماؤها ،وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم .

---

(1) أي : انشقت /نفس المرجع ص358 .

(2) إضافة تشريف وتعظيم وتخصيص ،على جهة إضافة الخلق إلى الخالق ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 230/7.

(3) الأعراف / 73 .

(4) الشعراء / 155 .

قال تعالى ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [1].

وهذا قمة الجهل ،والعناد ،فالعهد بينهم وبين الأقوام السابقة المُبادة قريب ، وقد علمــوا أنهم لما استعجلوا العذاب استحقوه ،ونالوه ،ورغم ذلك كرَّروا التجربة ، وحقّ عليهم ما استحقوا.

وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال كثيرة ذكرها علماء التفسير ، أصحها ما جاء في **صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي زمعة أنه قال : (خطب رســول الله -ﷺ- ،فذكر الناقة وذكر الذي عقرها ،فقال :"إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم [2] منيع في رهطه [3])** وذكر الحديث .

ومفــاد القصة : أن القوم لما ضجروا من الناقة ،اتفقوا على قتلها ،ليستريحوا مــنها ، واســتعد لذلــك تسعة أشخاص ،وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [4].

ولا يعني ذلك أنهم هم المفسدون فقط في المدينة ،بل جميع أهل الكفر مفسدون وإنما خصّ هؤلاء التسعة بالذكر ؛لأنهم هم الذين سعوا لعقر الناقة ،وتعاونوا عليه ،وهم الذين تحالفوا على قتل صالح – عليه السلام – [5].

وهؤلاء التسعة قــد زينــوا وحســنوا لباقــي القبيلــة عقر الناقة ،فأجابوهم إلــى ذلــك وطــاوعوهــم ،وكــان أشــقاهم من قــام بعقرها بالفعل حيــن أمروه بذلــك فأتمــر لهــم ،وهو "قدار ابن سالف" وهو المذكور في عدد من آيات القرآن الكريم ، والتي منها :

1. قوله تعالى ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى [6] فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [7].

---

(1) الأعراف / 77 .

(2) أي : خبيث ، شرير ، مفسد . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :232/7 ، وصحيح مسلم بشرح النووي : 185/17 .

(3) أخرجه (م) ،ك(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ،317/17 ،ح(2855).

(4) النمل / 48 .

(5) انظر جامع البيان للطبري :209/19 .

(6) أي :طاوعهم على عقرها . التحرير والتنوير لابن عاشور :200/27 .

(7) القمر /29 ، 30 .

2. وقال –جلَّ ذكره– **﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ [1] رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا .وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾** [2].

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن عاقر الناقة ،وقد تبيَّن أن الذين اتفقوا وخططوا لقـــتلها تسعة أشخاص ،ولكن الذي نفذ بالفعل هو أحدهم ،وهو أشقى أهل الأرض على الإطلاق ؛ لأنه صَمَّ أذنيه عن تحذير صالح – عليه السلام – لهم ،حين قال : احذروا عقـــر الناقة التي جعلها الله لكم آيـــة عظيمـــة ، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بِسَقْي لبنها بأن تعقروها .

وقد قصّت لنا السنة النبوية المطهرة قصة هذا الرجل فيما رواه عمار بن ياسر – رضـــي الله عنه – أن رسول الله –ﷺ– قال له ولعلي بن أبي طالب – رضي الله عـــنه – **(ألا أحدثكما بأشقى الناس ، رجلين ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي)** [3] الحديث .

ولم يجزم المفسرون بسبب تسميته بأحيمر ثمود .

قال ابن عاشور : ((يريد أحمر ثمود ؛ لأن ثمود إخوة عاد ،ولم أقف على سبب وصفه بأحمر ، وأحسب أنه لبياض وجهه)) [4] .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة ، وقصصاً شتى في الكيفية والهيئة التي عقرت علـــيها الـــناقة ،ولكن يصف السعدي جميع هذه القصص بأنها من الإسرائيليات ، التي يجب أن تتنزه عنها كتب التفسير .

يقـــول السعدي – رحمه الله – : ((هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفســـير كتاب الله ، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه ،بل لو كانت صحيحة ، لذكرها الله تعالى ؛ لأن فيها من العبر والعجائب والآيات ما لا يهمله تعالى ،ويدع ذكره ،حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله ،بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات)) [5] .

---

(1) أي : أطبق عليهم العذاب . تفسير أبي السعود :165/9 .

(2) الشمس / 12–15 .

(3) أخرجه (حم) ، 360/4 ، ح(18283) ، وصححه الألباني في صحيحه ،505/1 ،ح(2589) .

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور : 201/27 .

(5) تفسير السعدي / 595/1 .

ورغم قرب الموعد إلا أنهم استمروا على جحودهم ، وتكذيبهم للرسول -ﷺ- ففكروا بالخلاص منه ، وقرروا أن يُلحقوه بالناقة .

قال تعالى واصفاً حالهم ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [1].

أي أن هؤلاء التسعة نفر اتفقوا على وجه الخفية حتى من قومهم ،وأقسموا فيما بينهم لبعضهم البعض أن يقتلوا صالحاً – عليه السلام – وأهله ليلاً ، ثم يحلفوا لأوليائهم إذا طالبوهم بدمائهم أنهم لم يقتلوهم ، فينكروا ذلك ،وينفوه ، وبذلك يتخلصون منه ، ولا يمسُّهم سوء .

ولكن سبحان من وسع سمعه كل شيء ،وتبارك الله وهو خير الماكرين ،فجعل – تبارك وتعالى – كيدهم في نحورهم .

قال تعالى﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [2].

قال الطبري – رحمه الله – : ((غدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح بمسيرهم إليه ليقتلوه ،وصالح لا يشعر بذلك ،..... فاجتمعوا ،وقالوا لبعضهم : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ،فنحن نفرغ منه وأهله قبل ذلك)) [3].

فانتقم الله – تعالى – منهم ،وأهلكهم عن آخرهم ،وقيل في كيفية إبادتهم أيضاً روايات إسرائيلية كثيرة ننأى عنها، وكل ما يهمنا معرفته أنهم مكروا مكراً بصالح وأهله ، ومكر الله تعالى مكراً ، لنصرته -ﷺ- وتيسير أمره ،وإهلاك أعدائه ،وكان مكر الله هو الغالبَ، فأبادهم جميعاً، والجزاء من جنس العمل .

أما باقي القوم فحينما أشرقت الشمس ،جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، فلما صاح الملك من السماء ،رجفت بهم الأرض من أسفلهم من شدة الصيحة ،ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ،وسكنت الحركات ،وخشعت الأصوات وحقَّت الحقائق

---

(1) النمل / 49 .

(2) النمل / 50-52 .

(3) جامع البيان للطبري : 211/19 .

فأصـــبحوا فـــي دارهم جاثمين ، جثثاً لا أرواح فيها ، ولا حراك بها [1] ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [2] .

وبذلـــك انطوت هـــذه الصفحة الســـوداء من فوق الأرض ،وأُهلك قوم صالح – علـيه السلام– كما أُهلكت الأقوام الطاغية الكافرة ، الجاحدة قبلهم ،ولم يعجزوا الله – عـــزَّ وجل – حينما ســـاروا على نفس نهج من كـــان قبلهـــم ، بل زادوا عليهم ، فقوم صالح – عليه السلام – هـــم أول قبيلة يســـألون رســـولهم أن يأتيهـــم بمعجزة ، أو أمر خارق يدل على صدقـــه ؛كي يؤمنوا به ويتبعـــوه ، وتطمئن قلوبهـــم ،وجاءهم مـــا طلبوا ،فلما رأوه رأى العيـــن ،كفـــروا به ،وكذبـــوه أيضـــاً ،وتجـــاوزوا ذلـــك بـــأن قضـــوا علـــى معجـــزة الله فـــي أرضـــه ،وحاولـــوا قتـــل نبيهـــم –ﷺ– فاســـتحقوا بذلـــك العذاب كما استحقه من كـــان قبلهـــم ،بل وأكثر منهم لأنهم طغوا أكثر ،وجحدوا أكثر .

نوع العقاب الذي حلَّ بثمود :

ورد نوع الهلاك والعقاب الذي حلَّ بثمود في القرآن الكريم بعدة أسماء .

1. قـــال تعالى ﴿هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [3] .
2. وقال تعالى ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [4] .
3. وقال – عزَّ وجل – ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [5] .
4. وقـــال – عزّمـــن قـــائل– ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [6].
5. وقال ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [7].

---

(1) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 243/2 ، وتفسير السعدي : 595/1 .
(2) النمل / 51 .
(3) الأعراف / 73 .
(4) هود / 64 .
(5) الأعراف / 78 .
(6) هود / 67 .
(7) الشعراء / 157 .

6. وقـــال أيضـــاً ﴿وَأَمَّـــا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (1).

يقــول عبد الوهـــاب النجار موفقاً : ((وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة ، وقد عبّر الله تعالى عنها تارة بالرجفة ،وتارة بالطاغية ،وتارة بالصيحة ،وكلٌ صحيح ؛لأن الصـــاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم ،وقد تكون مصحوبة برجفة أشبهَ بالزلزال ، وقد تكون في مكان ، ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر)) (2) .

ولا تعارض بين هذه التسميات ،فإضافة إلى ما قاله النجار أقول : وهذا العذاب الـــذي حلَّ بهم كان عذاباً أليماً شديداً عليهم ،كما كان قريباً حيث جاءهم بعد ثلاثة أيام فقط من جريمتهم وعقرهم للناقة ،وكان يوم العذاب يوماً عظيماً ،لشدة هوله .

أمـــا صالح – عليه السلام – ، والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب ،ثمَّ تولى عنهم حزيناً ،وقال مخاطباً إياهم ،وموبخاً ،ومعاتباً لهم : إنني أبلغتكم رسالاتِ ربي وأوامرَه ،وحاولت إصلاحكم وإنقاذكم من العذاب بكافة الطرق والوسائل وحرصت على هدايتكم ،واتباعكم الحق ،وترك الكفر والباطل ،ولكنكم لم تستمعوا لي ، ولم تتبعوني ،بل اتبعتم طرق الشيطان ،فاستحققتم ما حاق بكم .

قـــال تعالى على لسانه وهو يخاطبهم ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (3).

المطلب الرابع : الحجارة

حكى لنا القرآن الكريم قصة إبراهيم – عليه السلام – حينما كسرَّ أصنام قومه فغضـــبوا لذلك غضباً شديداً ،وقرَّروا أن يلقوه في النار ؛كي يقضوا على دعوته ،وتمَّ لهم ذلك ،ولكن قوة الله تعالى غلبتهم ،فكانت النار معجزة له –ﷺ– ،فلم تمسَّه بسوء ، بل كانت برداً وسلاماً عليه، كما كانت سبباً في دخول كثير ممن شاهد الحادثة في دينه وكان أهمَّ أتباعه لوطٌ ، وهو ابن أخيه – عليهما السلام – .

---

(1) فصلت / 17 .

(2) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ، دار إحياء التراث العربي /بيروت ط(3) – بدون تاريخ – ص66 والقصة مستفادة من البداية والنهاية :1/152-159 .

(3) الأعراف / 79 .

قال تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [1].

وقد توفى أبوه وهو صغير ، فتربى في بيت جده مع عمه إبراهيم – عليه السلام – ، وهاجر معه.

قال تعالى على لسانه ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2] .

ولما رجعوا من مصر أمره عمه إبراهيم –عليه السلام– أن يذهب إلى المؤتفكة – سدوم – [3] ؛ ليدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما دونه ،ولكن لم يؤمن له أي أحد قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [4].

يعني بيت لوط – عليه السلام – [5].

أي حينما أراد الله – تعالى – إهلاكهم أخرج المؤمنين منها ،فلم يكن فيها غير بيت واحد مؤمن بالله ،هو بيت لوط – عليه السلام – فقط ، باستثناء زوجته ،فقد كانت على دين قومها .

أما باقي القوم فكانوا كافرين ، فجرة ، ومن أشد الناس فسقاً ،حيث إنهم ابتدعوا فاحشة ، لم يسبقهم إليها ،ولم يفعل مثلها، أحد من بني آدم ،وهي إتيان الذكور شهوة من دون النساء ، وهو ما يسمى باللواط .

وقد وردت قصة لوط مع قومه في عدد من سور القرآن الكريم [6].

قال تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

---

(1) العنكبوت /26 .

(2) العنكبوت / 26 .

(3) سدوم : هي بلدة من أعمال حلب ،وهي مدينة من مدائن قوم لوط ،كان قاضيها يقال له سدوم .
انظر معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ،(ت) فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية ،بيروت/لبنان ،ط(1) 1410هـ–1990م ،226/5 .

(4) الذاريات / 35 ، 36 .

(5) جامع البيان للطبري :4/27 ، وتفسير السعدي :742/2 .

(6)مثل سورة هود/69–83 ،الحجر /51–77 ،الشعراء/160–175 ،النمل/54–58 ،العنكبوت/28–35 ، الصافات/133–138 ،الذاريات/31–36 ،القمر /33–40 .

وَمَــا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْــنَاهُ وَأَهْلَــهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [1] . **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾** [2].

بــدأ لوط – عليه السلام – بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،ونهاهم عــن ارتكاب الفواحش جميعها ،فضلاً عن الفاحشة التي ابتدعوها ،ولم يسألهم أجراً ، ولا حتى ثناء ، إنما طلب أجره من خالقه – جلَّ وعلا – ، قال تعالى على لسانه **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [3] .

ولكنهم لم يستجيبوا له ،ولم يؤمنوا به ،ولا حتى رجل واحد منهم ،بل استمروا على حالهم ، وساروا على نهج الأمم السابقة، من مقاومة الدعوة ،ومحاربة الرسول .

صور مقاومتهم للدعوة :

أولاً : هموا بإخراج الرسول -ﷺ- وأهله

بالإضافة إلى عنادهم وعدم إيمانهم ،لم تستطع أعينهم أن ترى إنساناً يوحد الله – تعالى –، ولا آذانهم أن تسمع ذكر الله – عزَّ وجل– ؛ لذا قرَّروا إخراج لوط – عليه الســلام – ومــن آمــن معه من أهل بيته – وهم قلة – من بين أظهرهم ، وما كانت جريمتهم إلا أنهم أناس لا يرتكبون الفواحش والآثام .

قال تعالى **﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾** [4] .

وهــذا يدلــل علــى أن كــل دعوة حق لابد وأن تبدأ غريبة ،منبوذة ،فهؤلاء المجــرمون أرادوا إخراج المؤمنين – على قلتهم – لأنهــم أناس لا يحبون الفاحشة ، ولا يرتكــبونها ، ويوحدون الله – عزَّ وجل – ، فهؤلاء جريمتهم أنهم أناس يسيرون علــى طريق الحق والصواب ، والبعد عن الفواحش ، وكان الأصل أن يكون العكس تمامــاً فــيكون الإخراج لمن حارب دين الله جهاراً نهاراً، وارتكب الآثام والفواحش ، والمنكرات ، والله نسأل أن تكون العزة له ولدينه ، ولرسوله، ولسائر المؤمنين .

---

(1) أي : من الباقين في الهلاك . أضواء البيان للشنقيطي :27/3 .

(2) الأعراف / 80-84 .

(3) الشعراء / 164 .

(4) النمل / 56 .

ثانياً : استعجال حلول العذاب

وهذا يتضمن تكذيبهم له -ﷺ- ،فبالإضافة إلى كونهم لم يؤمنوا ،ولم يستمعوا للنصائح ، بل عاندوا، وهموا بإخراج المؤمنين ،أضافوا لذلك أنهم كذبوا ما تَوَعَّدَهم به لوط -عليه السلام- من عذاب إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم ،فطلبوا أن يأتيهم بما وعدهم من عذاب إن كان صادقاً .

قال تعالى على لسانهم: ﴿**ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (1).

يقول السعدي - رحمه الله - :((أرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم ، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور ،وقطع السبيل ،وأَفْشَوْا المنكرات في مجالسهم ، فنهاهم لوط عن هذه الأمور، وبيَّن لهم قبائحها في نفسها ،وما تؤول إليه من العقوبة البليغة فلم يرعووا ،ولم يذَّكروا، وما كان جوابهم إلا أن طلبوا حلول العذاب بهم))(2).

دعاء لوط - عليه السلام - على قومه :

عندما وصل بهم الحال لهذا الحد ، أيس منهم لوط - عليه السلام -، وعلم أنه لا خير فيهم أبداً ، وغضب منهم غضباً شديداً ، فدعا رب العالمين ، وإله المرسلين ، أن ينصره على القوم المفسدين .

1. قال تعالى ﴿**قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (3).
2. وقال أيضاً ﴿**رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ**﴾ (4).

استجابة الله - تعالى- لدعوة نبيه -ﷺ- ومراحلها :

عندها استجاب الله - تعالى - لدعوة رسوله الكريم - عليه السلام - ، فبدأ الانتقام على مراحل :

1. أرسل - تعالى - ملائكته العظام لإبراهيم - عليه السلام - ؛ ليبشروه أولاً بإسحق ، وليخبروه ثانياً بما جاءوا من أجله ،وهو تدمير قوم لوط - عليه السلام- وإهلاكهم .

---

(1) العنكبوت / 29 .

(2) تفسير السعدي : 311/2 .

(3) العنكبوت / 30 .

(4) الشعراء / 169 .

قـــال تعـــالى على لسان إبراهيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً [1] عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ [2]﴾ [3] .

2. وبـــدأ إبراهـــيـــم – عليه السلام – يجادلهم ، سائلاً إياهم عن مصير لوط – عليه السلام – .

قـــال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾[4] .

3. وحينما استمر جدال إبراهيم – عليه السلام – جاءه الأمر بالإعراض عن الجدال ؛ لأن إهلاك قرية لوط أمر الله تعالى ، غير مردود .

قـــال تعالى﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [5] .

ثمَّ طمأنته الملائكة بأن لوطاً وأهله لن يمسَّهم سوء أبداً .

قـــال تعالى ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [6] .

وبذلـــك اســـتحقت هذه القرية العقاب ،وحان وقته ، الذي لا يؤجل ،جزاءً بما كسبت أيديها .

4. ثـــمَّ فَصَلَتِ الملائكة – عليهم السلام – من عند إبراهيم – عليه السلام – ، حتى أتـــوا أرض سدوم عند غروب الشمس في صورة شبان حسان ؛ اختباراً أخيراً من الله لقوم لوط ؛ ولإقامة الحجة عليهم ،وسماع شهادة نبيهم عليهم .

5. وصـــلت الملائكـــة إلى لوط – عليه السلام – ، وطلبوا منه أن يُضَيِّفهم فساء بهم ووقع في حيرة، وخشي إن لم يُضَيِّفْهم هو أن يُضَيِّفهم غيره ،وخشي عليهم من قومه ؛

---

(1) أي مُعَلَّمَه ، جامع البيان للطبري : 3/27 .

(2) يعني : للمتعدين حدود الله ،الكافرين به من قوم لوط ، نفس المرجع ونفس الصفحة .

(3) الذاريات / 31-34 .

(4) العنكبوت / 31 ، 32 .

(5) هود / 76 .

(6) العنكبوت / 32 .

لأنه يظنهم بشراً .

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [1] .

يقول الشنقيطي واصفاً الحال : ((ذكر الله – جلَّ وعلا – في هذه الآية الكريمة أن لوطـــاً – علــيه وعلـــى نبينا الصلاة والسلام – لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة ضاق صدره بها ،وسبب استيائه ،وضيقه بهم ذرعاً ، وقوله هذا يوم عصيب ؛أنه ظن أنهم ضيـــوف من بني آدم ،كما ظنهم إبراهيم – علـــيهما الصلاة والسلام – ، وظن أن قومه سينتهكون حرمة ضيوفه ،فيفعلون بهم فاحشة اللواط)) [2] .

6. ثـــم ذهب بهم إلى بيته دون أن يُعلِمَ بهم أحداً ،فخرجت امرأته، وأخبرت قومها ، فجاءوا يهرعون إليه مستبشرين .

7. قال تعالى ﴿وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [3].

حاول لوط – عليه السلام – صدهم عن ضيوفه ،وطلب منهم الزواج الشرعي العفيف الطاهر ، فهو خير لهم من ارتكاب الفاحشة والمنكر.

قال تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ [4] .

وقال أيضاً في موضع آخر ﴿قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [5] .

معنى قول لوط – عليه السلام – ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي﴾

اختلف العلماء في المراد بقول لوط – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لقومه ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي﴾ على أقوال :

أحدها : أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط ،ولم يُرد إمضاء ما قال .

أي أنـــه أراد فقط أن يشغلهم عن ضيفه بقوله هذا ،دون نية منه بتنفيذ ما قال ، وهذا نظير عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد ،فقال ائتوني بالسكين أَشُقَّه

---

(1) هود / 77 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 24/3 بتصرف .

(3) هود / 78 .

(4) هود / 78 .

(5) الحجر / 71 .

بيـــنكما ، ومن المؤكـــد أنه لم يرد شَقَّ الطفل، وورد ذلك في صحيح البخاري : عن أبـــي هريـــرة – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله –ﷺ– يقول : **(كانت امرأتان معهمـــا ابناهما ،جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها ،إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى ،إنما ذهب بابنك ،فتحاكمتا إلى داوود، فقضى به للكبرى ،فخرجتا على ســـليمان بن داود ،فأخبرتاه ،فقال : آتوني بالسكين أشقَّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ،هو ابنها فقضى به للصغرى)** [1] .

الثاني : أن المراد بناته لصلبه، والمعنى دعوا فاحشة اللواط، وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكافر من المسلمة كان جائزاً في شرعه .

وهـــذا لـــيس مستغرباً ، فقد كانت آسية بنت مزاحم زوجة لفرعون ، وهي من النســـاء الأربـــع اللآتي كمل إيمانهنَّ ، وفي المقابل فإن زوجة لوط نفسه ، وكذا امرأة نـــوح كانتا كافرتين بل إن النبي –ﷺ– قد زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكـــان كافـــراً ، وقـــد أُسِرَ يوم بدر والسبب في ذلك أن تحريم زواج الكافر بالمسلمة والمســـلم بالكافرة لم يكن نازلاً ، كما لم يكن في شريعة الأولين، ولا عجب في هذا ، فقد قال تعالى : **﴿لِكلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجَاً﴾** [2] .

الثالث : أن المراد بالبنات :جميع نساء قومه ؛لأن نبي القوم أبٌ ديني لهم .

مناقشة الآراء :

الـــرأي الثانـــي : أي المـــراد بـــناته لصلبه – لا يمكن أن يكون مراداً بأي حال من الأحوال ؛ لأنه كما حكى لنا القرآن الكريم أن رجال قوم لوط – عليه السلام – جاءوا يهرعون إليه ، وهذا يدل على الكثرة ،ومن المعلوم أن لوطاً – عليه السلام – ليس له بـــنات بعدد الرجال ،فهل يعقل أن يكون المراد أن يزوج بناته لعدد كبير من الرجال ، هذا لا يعقل .

ولو كان مراده أن تتزوج كل واحدة رجلاً منهم ،فباقي الرجال ماذا يفعـــلون ، لا بد وأن يظل الباب مفتوحاً أمامهم لارتكاب ما جاءوا من أجله – والعياذ بالله – .

(1) أخرجه (خ) ،ك(أحاديث الأنبياء) ،ب/40(قول الله تعالى(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب).....)، 1065/2،ح(3427).

(2) المائدة / 48 .

أمـــا الـــرأي الثالث : وهو أن المراد بالبنات : جميع نساء قومه ،فهو أيضاً بعيد من وجهين :

(أ) إن النبي أب ديني للمؤمنات ،وليس أباً للكافرات ،كما يدل عليه قوله تعالى **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** (1) .

وهذا ما اختاره الإمام الطبري – رحمه الله – (2).

وقد صرح تعالى في الذاريات : أن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد هم أهل بيت لوط – عليه السلام – .

قال تعالى **﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** (3).

(ب) ومما يدل على بُعد هذا الرأي أيضاً : أنه – عليه السلام – أشار قائلاً : هؤلاء بناتـــي ،ممـــا يدلل على وجودهنَّ أمامه ،وكما يروي المفسرون أن الرجال هم الذين هرعوا إليه ، لا النساء ، فالنساء إذن ظلت في البيوت بعيداً عنهم ،ولا يجوز أن يقول هؤلاء لشيء غائب (4).

وعلـــيه فإن أقرب رأي للصواب هو الرأي الأول ،وهو أنه ما قال لهم ذلك إلا مـــراوغة لهم؛ حفاظاً على ضيوفه ،لعلمه أن بناته ممتنعٌ منالُهن ،ولا حق لهم فيهنَّ ، ولهـــذا قالوا له فيما حكاه القرآن :**﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾** (5) ، أي الفاحشة (6).

8. عندما شهد عليهم بأنه لا يوجد فيهم رجل واحد فيه خير ،وعنده عقل ،بل جميعهم ســـفهاء ، فجرة ،كفرة، كماقال تعالى: **﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُـــلٌ رَّشِـــيدٌ﴾** (7). لـــم يؤثر فيهم هذا الكلام ،ولم يصرفهم عما جاءوا من أجله،بل استمروا في المحاولة والجدَّ فيها.

---

(1) الأحزاب / 6 .

(2) انظر جامع البيان للطبري :110/12.

(3) الذاريات / 36 .

(4) انظر أضواء البيان للشنقيطي : 26/3 ، 27 ، وقصص الأنبياء للسعدي ص132 ، 133 .

(5) هود / 79 .

(6) انظر تفسير السعدي : 811/1 .

(7) هود / 78 .

9. عندئذٍ شعر لوط – عليه السلام – بضعفه ،وقلة عشيرته ،وتمنى أن تكون له قوة وعشيرة ينصرونه عليهم ؛ ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب .

قال تعالى على لسانه : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [1].

أي : لأحللت بكم العذاب ، وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، أن يأوي الإنسان إلى من هو أقوى منه ،ومعلوم أن أقوى الأركان هو الله [2].

10. فلما رأت الملائكة – عليهم السلام – ضيقه ،وكربه ،وهمه ،أخبرته بأنهم رسل الله – تعالى – ؛ وأنهم جاءوا لينتقموا منهم على أفعالهم ،وينصروه عليهم كما تمنى .

قال تعالى على لسان الملائكة ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ﴾ [3].

أي : لن يصلوا لك بسوء ،ولن يضروك أبداً ،بل أنت من سترى عذابهم .

بداية حلول العقاب الرباني بالفعل :

1. إذا اشتد الكرب جاء الفرج ،فحينما ضاق صدر لوط – عليه السلام – واشتد كربه وهمه ، فرَّج الله تعالى عنه ،فطمأنته الملائكة – عليهم السلام – أنهم لن يصلوا إليه بسوء ،إضافة إلى ذلك أنهم سوف يدمرونهم بالكلية بناءً على أمر الله – جلَّ وعلا –، وبدأ العقاب يحل بالفعل.

خرج جبريل – عليه السلام – أو أحد الملائكة الذين يقفون بالباب ليمنعهم من الدخول على لوط ، فضرب وجوههم بطرف جناحه ،فطمس أعينهم ،فكان هذا عذاباً معجلاً لمن حضر منهم إلى لوط ليراودوه عن ضيوفه .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[4].

2. ثم أمرته الملائكة أن يسري هو وأهله من آخر الليل ،وقت السحر .

---

(1) هود / 80 .

(2) انظر تفسير السعدي : 811/1 .

(3) هود / 81 .

(4) القمر / 37 .

قال تعالى ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [1] ، وأمروه أن يمشي من ورائهم ، وهم أمامه .

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [2] .

ويبين القرطبي – رحمه الله – السر في ذلك قائلاً : ((أي كن من ورائهم؛ لئلا يتخلف منهم أحد، فيناله العذاب)) [3].

3. كما أمروه عند سماع صوت العذاب الذي يحل بالعصاة الفاسقين ،أن لا يلتفت منهم أحد ، وليكن همهم النجاة ،ووعدوه بأن ينجو هو وأهله إلا امرأته ، فإنه مصيبها من العذاب ما أصابهم ، لأنها شاركتهم في الإثم ، ودلتهم على أضياف لوط – عليه السلام – .

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [4] .

أما البغاة ،العصاة ،العتاة فسوف يهلكهم الله أجمعين ،ويقطع دابرهم.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [5] .

يقول السعدي : ((فكأن لوطاً استعجل ذلك" فقيل له ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾))[6] ، [7] .

فعذاب قوم لوط – عليه السلام – كان في الصبح ،ويشهد لذلك بالإضافة للآية السابقة عدد من الآيات :

(أ) قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [8].

---

(1) القمر / 34 .

(2) الحجر / 65 .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 43/10 .

(4) هود / 81 .

(5) هود / 81 .

(6) هود / 81 .

(7) تفسير السعدي / 811/1 .

(8) الحجر / 66 .

(ب) وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [1] .

يقـول الشـنقيطي – رحمه الله – : ((أي أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق ،وهو وقت طلوع الشمس)) [2].

4. استجاب لوط – عليه السلام – للأوامر ،فخرج هو وأهله ،ولم يتبعهم من قومه رجل واحد ، وحينما أشرقت الشمس جاءهم من أمر الله ما لا يُرد ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصَدّ .

قـال تعـالى : ﴿ **فَلَمَّـا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[3] مَنْضُودٍ [4] * مُسَوَّمَةً [5] عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ [6] .

يقول المفسرون : اقتلعهن جبريل – عليه السلام – بطرف جناحه من قرارهنَّ – وكنَّ سبع مدن – بمن فيهنَّ من الأمم ، ثم أُمْطِرت عليهم الحجارة (7) .

وقـد وردت قصـة إهلاكهـم بالحجـارة في غير موضع من القرآن الكريم بالإضافة لما سبق .

1. قـال تعـالى : ﴿**لِنُرْسِـلَ عَلَـيْهِـمْ حِجَـارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**﴾ [8] .

2. وقـال –عـزَّ وجل – ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى**﴾ [9] .

يعني أنه قلبها ، فأهوى بها منكسة عاليها سافلها ،وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة ، مسومَّة ، مرقومة ، على كـل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من

---

(1) الحجر / 73 .

(2) أضواء البيان للشنقيطي : 29/3 .

(3) أي : حجارة من النار الشديدة الحرارة .

(4) أي : متتابعة ، تَتْبَعُ مَنْ شَذَّ عن القرية .

(5) أي : معلَّمة ، عليها علامة العذاب والغضب . تفسير السعدي : 811/1 .

(6) هود / 82 ، 83 .

(7) انظـر القصة في جامع البيان للطبري :105/12–128 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :76/9–87 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 463/2–466 ، وتفسير السعدي :810/1 ، 811.

(8) الذاريات / 33 ، 34 .

(9) النجم / 53 – 55 .

الحاضرين منهم في بلدهم ،والغائبين عنها من المسافرين ،والنازحين والشاذين منها[1].

أي أنه لم يسلم منهم أحد ،حتى المسافرين ،والمهاجرين ،والنازحين عن الديار لم يشفع لهم ذلك ، ولم يعصمهم من العذاب؛ لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا رسوله ،وآذوا أتباعه من أهل بيته ،إضافة لارتكابهم تلك الفاحشة ، وبذلك يكونون قد استحقوا العذاب بجدارة ، فالأقوام السابقة لهم عذبت ،ودمرت لكفرها بالله ،وتكذيبها الرسول فقط، أما هؤلاء فارتكبوا ما ارتكب سابقوهم ،وزادوا ،فاستحقوا ما حاق بهم .

أما بالنسبة لزوجة لوط – عليه السلام – فقد أصابها ما أصاب قومها ؛ لأنها كانت على دينهم ،وكانت عيناً لهم تخبرهم بمن عنده من الضيفان .

1. قال تعالى عنها: ﴿ **إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** ﴾ [2].

2. وقال تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾ [3].

أجمع المفسرون على أن الخيانة هي الخيانة في الدين ، أيْ لم يتبعا زوجيهما في الإيمان ، لا خيانة النسب والفراش – حاشا وكلا – فإنه ما بغت امرأة نبي قط ، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغياً .

ويؤكد ذلك تحريم التزوج من نساء النبي –ﷺ– بعده ؛ لأن ذلك يؤذيه ، قال تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾ [4].

فإذا كان سؤالهن من غير حجاب يؤذيه– ﷺ– ،وإذا كان نكاح زوجاته من بعده يؤذيه ، وهو عند الله عظيم ، فكيف إذا كان الأمر غير السؤال ، وغير الزواج الشرعي ، وحصل في حياته ، وأمام سمعه وبصره ؛ فإن ذلك لا يمكن أن يكون أبداً ، فإن مكانة الأنبياء عند الله أعظم من ذلك [5].

---

(1) انظر تفسير السعدي : 772/2 .

(2) هود / 81 .

(3) التحريم / 10 .

(4) الأحزاب / 53 .

(5) انظر جامع البيان للطبري :216/28 ، 217 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :192/18 ، وأضواء البيان للشنقيطي : 236/9 ، وتفسير السعدي : 896/2 .

ولهذا يكون قوم لوط عذبوا بأكثر من نوع من العذاب :

1. **طمس الأعين :**

قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ [1].

2. **الصيحة :**

وقال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ [2].

ولا يوجد تعارض في ذلك ، فإن الذين جاءوا يهرعون إلى لوط – عليه السلام – يريدون فعل الفاحشة مع ضيوفه ،هم الذين طمس الله أعينهم خاصة ، وأما باقي القوم ،فإنهم عذبوا بالصيحة أولاً ، ثم بالحجارة .

يقول ابن كثير – رحمه الله – موضحاً : ((جاءهم صوت قاصف عند شروق الشمس ،مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها ،وجعل عاليها سافلها ،وإرسال حجارة السجيل عليهم)) [3].

وهكذا دمرت سدوم ، وتركت أثراً للعالمين ؛ليحذروا عذاب الله، وقد ورد ذلك في عدد من الآيات :

1. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** [4] . **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** [5]. **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ**﴾ [6].
2. وقال – جلَّ ذكره – : ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [7] .
3. وقال أيضاً: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [8].

---

(1) القمر / 37 .

(2) الحجر / 73 ، 74 .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 571/2 .

(4) أي : المتأملين ، المتفكرين .

(5) أي : طريق ثابت معلَّم مسلوك . انظر تفسير السعدي : 914/1 .

(6) الحجر /75-77 .

(7) الصافات / 137 ، 138 .

(8) الذاريات / 37 .

عـن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – قال : أقبل علينا رسول الله –ﷺ– فقال : **(يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن ،وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قطٌ حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون ،والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)** (1) **الحديث .**

المطلب الخامس : الرجفة

ظل الوضع بعد أن أهلك الله قوم لوط – عليه السلام – هادئاً مستقراً ، إلى أن جـاء قومٌ عرب، فسكنوا مدينة مدين (2) ،وسموا باسمها ،أهل مدين ، وكانوا في رغد من العيش؛ حيث إن الله – سبحانه وتعالى – قد منَّ عليهم من فضله، فكانوا أهل تجارة وأمـوال ،ولكـن بـدلاً من أن يشكروا لله فضلـه ،فقد عبدوا معه غيره ،حيث عبدوا الأيكة (3) من دونه – جلَّ وعلا – .

ويحكـي لنا الله – سبحانه وتعالى – قصة أصحاب الأيكة في أكثر من موضع فـي كـتابه العزيـز (4)، قال تعالى **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُـعَيْبٌ أَلا تَـتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَـيْهِ مِـنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِـي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّـةَ الأَوَّلِينَ (5) . قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِـنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ (6) إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ**

---

(1) أخرجه (جه) ، ك (الفتن) ب/22 (العقوبات) ، 370/2 ، ح(3246) ، وصححه الألباني في صحيحه ، 1321/2 ح(7978) .

(2) مدينة مدين :مدينة على بحر القلزم ، محادية لتبوك ، بين المدينة والشام ، قريبـاً من بحيـرة قوم لوط – علـيه السـلام – ، وبـه البئـر التي استقى منها موسى– عليه السلام – لبنات شعيب . انظر معجم البلدان : 92/5 .

(3) يعني: الشجر الملتف . فتح القدير للشوكاني :114/4 .

(4) وردت القصة في الأعراف/85–93 ، هود/84–95 ،الحجر/78–79 .

(5) يعني : الأمم المتقدمة . نفس المرجع ص115 .

(6) أي : جانباً من السماء وقطعة منها . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 146/13 .

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ [1] إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [2] .

تمـــادى أهل مدين في كفرهم وشركهم ، فأرسل الله – سبحانه وتعالى – إليهم شعيباً – عليه السلام – .

أصول دعوة شعيب – عليه السلام – :

إن حاصل ما أمر به شعيب – عليه السلام – قومه ينحصر في أربعة أصول :

أولاً : الأمر بالتوحيد

بدأ شعيب – عليه السلام – يدعو قومه إلى توحيد الله – عزّ وجل – ،وينهاهم عـــن الشـــرك به ، مبيناً وموضحاً لهم سوء عاقبة ما هم عليه من شرك ، وتكذيب ، وجحود .

قـــال تعالى على لسانه **﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾** [3].

يقول ابن كثيـــر – رحمه الله – : ((أي يا قـــوم هـــذه دعـــوة الرســـل كلهـــم قــــد جاءتكـــم بينـــة من ربكـــم ، وقـــد أقـــام الله الحجج والبينـــات علـــى صـــدق ما جئتكم به)) [4] .

ثانياً : المحافظة على المعاملات المالية

لـــم يقـــف قـــوم شعيب – عليه السلام – عند شركهم بالله – عزّ وجل – ،بل وبالرغم من أن الله – سبحانه وتعالى– قد وسَّع عليهم في رزقهم ،وأعطاهم من فضله الكثـــير ،إلا أنهـــم لم يشكروه، بل كانوا يظلمون الناس بأخذ أموالهم دون أدنى حق ، وكـــانوا يَغُشُّونهم في المعاملات فيبخسونهم أشياءهم، ولا يستوفون لهم الكيل ،فأمرهم شعيب – عليـــه السلام – بشكر الله – عزّ وجل – ، وبالعدل في المعاملات ،وترك ما في أيدي الناس .

---

(1) الظلة : السحاب . فتح القدير للشوكاني : 115/4 .

(2) الشعراء /176–191 .

(3) الأعراف / 85 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 237/2 بتصرف يسير .

قال تعالى على لسانه: ﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ [1] .

ويوضح القرطبي – رحمه الله – معنى هذه الآية الكريمة قائلاً: ((البخس : النقص ، وهو يكون في السّلعة بالتعييب والتزهيد فيها ،أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة على ألسنة الرسل – صلوات الله وسلامه على جميعهم –)) [2].

وهذا الأصل يجب أن يكون أصل التعامل بين المسلمين في تجارتهم ،وجميع معاملاتهم المادية ،وبذلك تروج الأموال وتزداد ؛لأنه إذا طُبق هذا الأصل تشيع الأمانة بين الناس ، وتزداد الثقة تبعاً لذلك ،فيكون لذلك الأثر الإيجابي في زيادة المنتوجات ، وتحسين الدخل، وإذا حصل ذلك تولدً منه الحب والود ،والإخاء بين الناس ،مما يكون له الأثر الطيب في تحسين وضع جميع الأمة ، لا الأفراد فقط .

فما أحوجنا لتطبيق مثل هذا الأصل في مجتمعنا هنا خاصة ،في ظل أوضاعنا السياسية والاقتصادية الصعبة – والله المستعان – .

ثالثاً : حفظ نظام الأمة ومصالحها

كما نهى –ﷺ– قومه عن كل ما يؤدى إلى إفساد ما هو صالح على وجه الأرض ، وأمرهم بالصلاح ، والإعمار فيها .

قال تعالى ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [3].

يقول ابن عاشور – رحمه الله – : ((فذكّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزّهاً عن أن يخالطه فساد ، فإنهم إن أفسدوا في الأرض أفسدوا مخلوقاتٍ كثيرةً ، وأفسدوا أنفسهم في ضمن ذلك الإفساد .....، والبعدية في قوله ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ بعدية حقيقية ؛ لأن الأرض خلقت من أول أمرها على صلاح ،قال الله – تعالى – ﴿وَجَعَلَ

(1) الأعراف / 85 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 239/7 .

(3) الأعراف / 85 .

فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [1] ، أي : على نظام صالح بما تحتوي عليه ،وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض ،وخلق له ما في الأرض ،وعزّز ذلك النظام بقوانين وضعها الله على ألسنة المرسلين ،والصالحين ،والحكماء من عباده ،الذين أيدّهم بالوحي والخطاب الإلهي ،أو بالإلهام والتوفيق ، والحكمة، فعلّموا الناس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع ،وإزالة ما في بعض النافع من الضر، وتجنب ضُرِّ الضارّ ، فذلك النظام الأصلي ، والقانون المعزّز له ،كلاهما إصلاح في الأرض ؛ لأن الأول إيجاد الشيء صالحاً ،والثاني جعل الضار صالحاً بالتهذيب أو بالإزالة)) [2] .

رابعاً : حرية الفرد في اختيار عقيدته

كما نهاهم – عليه الصلاة والسلام – عن القعود بالطرقات ،والصدِّ عن سبيل الله من أراد الدخول فيه ،حيث إنهم كانوا يجلسون بالطرقات ،ويرون الداخل على شعيب – عليه السلام – فيتوعدونهم بالعذاب الشديد ،إن هم آمنوا به ،واستجابوا له .

قال تعالى **﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** [3].

يقول ابن عاشور : ((نهى عن التعرّض للناس دون الإيمان ، فإنه بعد أن أمرهم بالإيمان بالله ، وما يتطلبه من الأعمال الصالحة ، وفي ذلك صلاح أنفسهم ،أيْ أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه ؛ ذلك أنهم كانوا يصدون وفود الناس عن الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب – عليه السلام – لئلا يؤمنوا به ، فالمراد بالصراط الطريق الموصلة إلى شعيب – عليه السلام–)) [4].

ثمَّ يستطرد السعدي – رحمه الله – موضحاً ،ومبيناً الأصل والواجب ، المفروض أنهم كانوا فعلوه قائلاً: ((وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ،

---

(1) فصلت / 10 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 174/8 ، 175 .

(3) الأعراف / 86 .

(4) نفس المرجع السابق : 246/8 .

ورحمهـــم بها أعظم رحمة ، وتتصدون لنصرته ،والدعوة إليها ، والذب عنها ، لا أن تكونوا أنتم قطاعَ طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر بنعمة الله ، ومحاداة لله وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة ، وتشنعون على من سلكها)) [1] .

وهـــذا ما حصل بين المسلمين اليوم ،ولكن بصورة مغايرة قليلاً ، فنرى بعض المغرضـــين يجلســون في الطرقات ، محاولين تلويث سمعة أهل الدين ،وأهل العلم ، والوعاظ والخطباء بشتى الوسائل ،دون خوف ولا حياء ، وما ذلك إلا لهدم الدين ؛لأن العامـــة إن فقدت الثقة بمن يرونه أهلاً ومحلاً للدين والعلم الشرعي ،فإن ثقتهم بالدين كله تتزعزع تبعاً لذلك .

هذه هي أصول دعوة شعيب – عليه السلام – التي دعا لها قومه ليلاً ونهاراً ، وفي كل الأحوال ،ولكن دون مجيب ، وصدق القائل :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

لـــذا حـــاول – عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام – أن يغاير في أسلوب دعوته لعلّ إحداها يفلح في إصلاحهم ،وفلاحهم .

أساليب دعوة شعيب – عليه السلام – :

انـــتهج – عليه السلام – كما أسلفت عدة أساليب ،محاولاً أن يصل من خلالها إلى قلوبهم ، فاستخدم أسلوب الترغيب تارة ،وأسلوب الترهيب تارة ،ودَمَجَ الأسلوبين سوياً تارة أخرى .

أولاً : أسلوب الترغيب [2]

بـــدأ – علـــيه السلام – دعوته بالترغيب ؛ لتيقنه أن الترغيب له آثار إيجابية أكثر، وتمثل هذا الأسلوب في عدد من المواقف :

1. حينما أمرهم بالعدل في المعاملات ،وزجرهم عن البخس فيها ،ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، وبيَّن لهم أن ذلك هو الأفضل ، إذْ به الخير والصلاح ، والفلاح .

قال تعالى على لسانه **﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [3].

---

(1) تفسير السعدي : 597/1 .

(2) سيأتي تعريفه في بداية الباب الثالث – بإذن الله – .

(3) الأعراف / 85 .

ويوضح ابن عاشور – رحمه الله – وجه الخيرية في ذلك قائلاً : ((وإنما كان مـــا ذُكـــر خيراً ؛لأنه يوجب هناء العيش ، واستقرار الأمن ،وصفاء الوُدِّ بين الأمة ، وزوال الأحقاد المفضية إلى الخصومات والمقاتلات ، فإذا تمَّ ذلك كثرت الأمة ،وعزت وهابهـــا أعداؤهـــا ،.... وكثر مالها بسبب رغبة الناس في التجارة والزراعة ؛ لأَمْنِ صاحب المال من ابتزاز ماله .

وفـــيه خير الآخرة ؛لأن ذلك إن فعلوه امتثالاً لأمر الله تعالى ،بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب ،وسكنوا دار الثواب)) [1].

إذن فالخيرية في الآية الكريمة تشمل خيري الدنيا والآخرة . ولكنهم قابلوا ذلك الخـــوف عليهم ،والحب والحنان لهم ،والعطف والشفقة، بالكره والبغض ،وردوا عليه بالاستهزاء والتنقص والتهكم .

قـــال تعالى ﴿**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ [2] .

يقول الطبري – رحمه الله – : ((فإنهم أعداء الله قالوا ذلك استهزاءً به ، وإنما سفَّهوه وجهّلوه بهذا الكلام)) [3].

2. حيـــنما استمر تحقيرهم له ،واستهزاؤهم به وتكذيبهم إياه – عليه السلام – ،بقولهم له فيما حكاه القرآن عنهم ﴿**وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**﴾ [4].

ظـــناً منهم أن القوة ميزان الصدق في القول ،وحينما هددوه بالرجم لولا خوفهم من قومه ، وممن خلفه،قائلين فيما حكاه عنهم القرآن الكريم ﴿**وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [5] .

لـــم يغضـــبه – علـــيه السلام – ذلك كله ،بل تلطف معهم في العبارة ،وحاول ترغيـــبهم بأمر آخر ، وهو أنه سوف يلتزم ويفعل كل ما يأمرهم به ،وينتهي ويبتعد ، ويترك كل ما ينهاهم عنه دون ترفع عليهم .

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور : 245/8 .

(2) هود / 87 .

(3) جامع البيان للطبري : 135/12 .

(4) هود / 91 .

(5) هود / 91 .

قـــال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [1] .

يقول عبد الوهاب النجار : ((ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء ؛لحسن مراجعة قومه ، وبراعته في إقامة الحجة عليهم ،ودحض حججهم)) [2].

وهذا يجب أن يكون دستور الحياة ،وسنن ومنهاج الدعوة لدى الدعاة ،والوعاظ من ناحيتن :

(أ) أن الداعـــي إلى الله – تعالى – ، يجب أن يتحلى بالصبر ، والحلم ،وحسن الخلق ، فيقابل إساءة المسيئين بالصفح ، والتسامح ،وحسن التصرف والرد .كما يجب ألا تمنعه هــــذه الإســـــاءة من الاستمرار في الوعظ ،والتبيين .وليعلم جيداً أنه كلما أوذي في سبيل الله ، كلما كان أجره عند الله أعظم ،وفرصة مشابهته بالصالحين أكبر .

(ب) كمـــا يجب على الدعاة أن يلتزموا بما يأمرون الناس به من أقوال وأفعال ،فإن مـــن أكبر دواعي نجاح الدعوة أن يكون الداعي قدوة للمدعوين ،إن أمرهم بشيء كان أول الملتزمين به ، وإن نهاهم عن شيء يكون أول المنتهين عنه . قال الشاعر :

فإنك إذْما تأتِ ما أنت آمر ... به تُلْفِ من إياه تأمر آتيا [3]

أما إن خالفت أفعاله أقواله فإنه ينال مقت الله – عزَّ وجل – .

قـــال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [4].

كمـــا يكون سبباً في نفور الناس منه ،حتى ولو كان كلامه كله صحيح ،وبذلك يحكم على دعوته بالفشل ، وبالتالي يهدم مصداقيته ،ويشتت أتباعه .

وقد ذمَّ الله – تعالى– هؤلاء الذين تخالف أقوالهم أفعالهم ،ووصفهم بعدم العقل.

قال تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [5].

---

(1) هود / 88 .

(2) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص 145 .

(3) نقلاً عن أضواء البيان للشنقيطي : 35/3 .

(4) الصف / 2 ، 3 .

(5) البقرة / 44 .

كما ورد في الصحيحين عن أسامة بن زيد أن رسول الله -ﷺ- قال : **(يؤتى بالـــرجل يـــوم القـــيامة فيلقى في النار فتنذلق أقتاب بطنه [1] ، فيدور بها كما يدور الحمـــار بالـــرحى ،فيجـــتمع إلـــيه أهل النار فيقولون :يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ،كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ،وأنهى عن المنكر وآتيه)** [2] .

وقد أحسن الشاعر حين قال :

لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتي بمثله عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

وقد أجاد من قال :

وَغيْرُ تَقِّيٍّ يأمـــرُ الناسَ بالتُقـــى طبيبٌ يداوي الناسَ وهو مريضُ [3]

ثانياً : مزج أسلوبي الترغيب والترهيب معاً

حيـــنما لـــم يُجدِ معهم أسلوب الترغيب ،حاول أن يشدّ معهم قليلاً ، فانتقل إلى أســـلوب آخر، وهو مزج الترغيب بالترهيب ، عسى أن يكون به الخير ، ومن ورائه الإجابة ، وذلك في عدة مواقف ،أذكر منها :

1. حـــاول – عليه السلام – استقطاب قلوبهم ، فذّكرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة ، وحذرهم نقمة الله – تعالى – بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه .

قـــال تعـــالى على لسانه **﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾** [4].

أي ذكـــرهـــم بـــأن الله – ســـبحانه وتعـــالـــى – نَمَّاهـــم بما أنعم عليهم من الـــزوجـــات ، والنســـل ، والصـــحـــة ، وأنـــه ما ابتلاهـــم بوبـــاء أو مـــرض من الأمـــراض المقللـــة لهـــم ، ولا ســـلَّط عليهـــم عـــدواً يهلكهـــم بأنـــواع الشـــدائد ، ولا فَـــرَّقهـــم فـــــي الأرض ،بـــل أنعـــم عليهـــم باجتماعهـــم ، وإدرار الـــرزق ، وكثـــرة النسل .

---

(1) أي : تخرج أمعاؤه من بطنه . انظر صحيح مسلم بشرح النووي : 111/18.

(2)أخـــرجه(خ) ،ك(بدء الخلق) ،ب/10(صفة النار وأنها مخلوقة)،1007/2 ،ح(3267) ،و(م)،ك(الزهد) ، 417/18،ح(51) واللفظ له .

(3) نقلاً عن أضواء البيان للشنقيطي :35/3.

(4) الأعراف / 86 .

ثـــمَّ ذكـــرهم بالمقابل بحال العاصين ،الكافرين ،الجاحدين ،فإنهم لا يكونون إلا متفرقيـــن ، متشتتين ،ولا يورثون ذِكراً حسناً ،وسيكون لهم في هذه الدنيا لعنة ،ثمَّ يوم القيامة يلتصق بهم الخزي والفضيحة [1].

وكأنه يقول هذا حال المؤمن ،المطيع ،وهذا حال العاصي ،الجاحد ،فلكم الخيار إن عملتم عمل هؤلاء نلتم رضا الله وجنانه ،وحسن ثوابه ،وإن عملتم عمل هؤلاء حق عليكم ما حاق بهم من عذاب وتدمير .

2. أيضـــاً حينما حاول أن ينهاهم عن بخس الكيل والميزان ،خاطبهم بدمج الأسلوبين معـــاً ،قال تعالى على لسانه **﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾** [2].

حاول أولاً أن يرغبهم بذكر فضل الله عليهم ، من نعم كثيرة ، وصحة ، وكثرة أمـــوال وبنين ، فالمفروض أن يشكروا الله على ما أعطاهم ، حتى يزيدهم مما هم فيه من خير ونعمة ، أما إن كفروا بنعمة الله عليهم ، فإنه سيزيلها عنهم ، ويحل بهم عذاب يحيط بهم ، ولا يبقي منهم أحداً [3].

هـــذه نماذج فقط من استخدام هذا الأسلوب ، ولكنها أيضاً لم تُجدِ ، ولم تنفع ، ولم تؤتِ الثمار المرجوة من ورائها .

ثالثاً : أسلوب الترهيب :

حيـــنما لم ينفع معهم أسلوب الترغيب ،ولا الترغيب والترهيب معاً ، انتقل إلى أســـلوب آخر هو أسلوب الزجر ، والوعيد ،والتهديد ، ألا وهو أسلوب الترهيب متمثلاً في عدد من المواقف، أذكر منها :

1. حينما لم ينقادوا له ، ولم يؤمنوا به ،ولم يسمعوا كلامه ، بل عادوه ، وأبغضوه ، وأصروا على ما هم عليه من شرك بالله ، وبخس الناس أموالهم ، والصد عن سبيل الله – تعـــالى – ، هدَّدهم وتوعدهم إن هم استمروا على ما هم عليه ، أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأقوام قبلهم من دمار، وهلاك ، وفناء .

---

(1) انظر تفسير السعدي : 597/1 .

(2) هود / 84 .

(3) انظر جامع البيان للطبري :129/12 ، وتفسير السعدي :812/1 .

قال تعالى على لسانه : ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (1) .

أي أنه توجه إلى قومه مهدداً ،مرهباً قائلاً : يجب ألا تحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر وعبادة الأوثان والفساد ، وبخس الناس في المكيال والميزان ، وترك الإنابة والتوبة ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود، وقوم صالح ، وقوم لوط من النقمة ، والعذاب (2).

ثمَّ ذكرهم بأقرب الأقوام منهم ، وهم قوم لوط – عليه السلام – الذين أهلكهم – جلَّ وعلا – بالحجارة ، فيقول : وقوم لوط ما زالوا حديثي عهد بكم ، فإن العهد الذي بينكم وبينهم قريب ، فاعتبروا يا أولي الألباب .

وكان الأجدر بهم أن يعتبروا بمن سبقهم ، فقد زاد عدد الأمم المبادة قبلهم ، وتنوعت أساليب عذابهم وهلاكهم ،وعلموا أنهم لن يعجزوا الله،وأن دعوة الرسول مجابة عند الله تعالى،فلو كانت لهم قلوب واعية وعقول سليمة ، لما احتاجوا حتى لتذكير الرسول لهم ؛ لأن المدة قريبة، والآثار باقية .

ولكنه –ﷺ– حينما رأى أنهم لا يعقلون خوَّفهم، وذكرهم بمن سبقهم ، وما حلَّ بهم ، عسى أن يعودوا لرشدهم ، فيؤمنوا بربهم ،ويتركوا ما سواه ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

2. أضاف قوم شعيب – عليه السلام – إلى الكفر ، وعدم الانصياع للحق ، والعناد الشنيع قلة الأدب في الخطاب مع من جاء لإنقاذهم – عليه السلام – فحينما دعاهم إلى الهدى ، والصلاح، والتقوى، بدلاً من أن يستجيبوا له ، ويتبعوه ، قالوا له فيما حكاه القرآن الكريم عنهم ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (3).

عندئذٍ بدأ التهديد الصريح، الشديد ،والوعيد الأكيد ، بأنهم إن استمروا على حالهم وطريقتهم ،ومنهجهم ، فسوف تكون عاقبتهم وخيمة ، وسيحل بهم الهلاك

---

(1) هود / 89 .

(2) انظر جامع البيان للطبري :136/12 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير :468/2 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :93/9 .

(3) هود / 91 .

والبوار في الدنيا والآخرة .

قــال تعــالى علــى لسانه ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (1).

أي أنه لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ،توعدهم ،وقال لهم :اعملوا غاية ما في استطاعتكم من الكفر ، وأخبرهم بأنــه ســيعمل ما يُقدِرُه ربه عليه من خير ، ثم بالغ في التهديد والوعيد ، فقال لهم : ســوف ترون عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله ، والإضرار بعباده وسوف تعلمون مــن سيحل عليه العذاب المخزي الذي يتولد عنه الذل ، والفضيحة ، والعار – والعياذ بالله – (2) .

دعاء شعيب – عليه السلام – على قومه ،واستجابة دعوته :

بالــرغم من تنوع أُســلوبه – عليه السلام – في الدعــوة ، إلا أنــه لــم يَجْنِ إلا اســتمرار الكفــــر ، وزيــادة العناد والتحدي ، والجرأة ، فطلبوا منه أن يرتدَّ هو ومــن معـــه من المؤمنين إلى ملتهــم ، فانتصب – عليــه السلام – محاجًّا عمن معه قــائلاً : إنهم لا يمكن أن يعودوا إلى الكفــر اختياراً ، ولو قُدِّر لهم وعادوا ، سيكون ذلـــك اضــطراراً وإكراهــاً ؛ لأن الإيمـــان إن خالطت بشاشته القلوب لا يمكن أن يرتد صاحبه أبداً .

قال تعالى في ذلك ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِيــنَ آمَــنُواْ مَعَــكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدِ افْتَرَيْــنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا﴾ (3) .

عندئذٍ بلغ الصبر منتهاه ، وما عاد – عليه السلام – يحتمل أقوالهم ،وتفاهاتهم، فاســتفتح علــيهم ،واستنصر بالله ، وعاد وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقونه من العذاب .

---

(1) هود / 93 .

(2) انظر فتح القدير للشوكاني : 521/2 .

(3) الأعراف / 88 ، 89 .

البيوت ، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أرسلها الله عليهم ناراً .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فذلك عذاب يوم الظلة ،إنه كان عذاب يوم عظيم)) [1] .

والملاحظ تنوع العذاب الذي حلَّ بقوم شعيب وقد أشار ابن كثير – رحمه الله- إلى هذه الأنواع فقال : ((ذكر تعالى أنه أهلكهم مرة بالرجفة ،ومرة بالصيحة ،ومرة بعذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة ،اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ،وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ،ففي الأعراف ،لما قالوا **﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾** [2] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة ،فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ،وأرادوا إخراج نبيهم منها وههنا [3] لما أساءوا الأدب في مقالتهم مع نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما طلبوا كسفاً من السماء، أرسل الله عليهم عذاب يوم الظلة)) [4].

((كما أرجفوا بنبي الله ،وأصحابه ،وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ،أو ليعودون في ملتهم، قابل تعالى الإرجاف بالإرجاف ،والإخافة بالخيفة ،فعذبهم بالرجفة ولما استهزأوا بنبي الله ،وتهكموا به وبمن معه ،عذبهم الله بالصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي الكلام القبيح فأسكتتهم ،مع رجفة أسكنتهم .

وأما عذاب يوم الظلة ،فكان ذلك إجابة لما طلبوا [5] ، وتقريباً لما رغبوا)) [6].

وبذلك دُمرت مدين بكاملها ،كما دُمرَّ من كان قبلها من الكفار والمشركين ، وبذلك انطوت هذه الصفحة السوداء من التاريخ ،ولكن لا يزال في الكتاب صفحات .

أما شعيب والذين آمنوا معه ، فقد نجاهم الله تعالى برحمته .

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (جامع البيان): 134/19 .

(2) الأعراف / 88 .

(3) يعني العذاب الوارد في سورة هود ،وهو العذاب بالصيحة .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 469/2 بتصرف يسير .

(5) حين قالوا له "أسقط علينا كسفاً من السماء: الشعراء /187 .

(6) قصص الأنبياء لابن كثير ص160 بتصرف .

قـــال تعالى – وهو أصدق القائلين – : ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا﴾ (1) .

مخاطبة شعيب – عليه السلام – لهالكي أمته :

يذكر لنا القرآن الكريم أن شعيباً – عليه السلام – أعرض عنهم بعد هلاكهم ، ونعاهم إلى أنفسهم موبخاً ، ومؤنباً ، ومقرعاً، قائلاً لهم : لقد أديتُ ما كان يجب عليَّ إبلاغــه لكــم ، ونصــحت لكم النصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم أشد النصح ، واســتعملت معكم كافة الوسائل التي قدرت عليها ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدي الضال ، فبعد ذلك لا يمكن أن أأسف عليكم ، ولا أحزن ؛ لأنكم لم تسمعوا النصيحة ، ولم تخافوا الفضيحة .

قـــال تعالى ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (2) .

المطلب السادس : الصيحة

أهلــك الله – سبحانه وتعالى – بالصيحة أصحاب القرية (3) ، وقصة أصحاب القرية وردت في القرآن الكريم .

قال تعالـــى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَـاءهَا الْمُرْسَــلُونَ . إِذْ أَرْسَــلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْــنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَــا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَــن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم

---

(1) هود / 94 .

(2) الأعراف / 93 .

(3) قـــال القرطبي : (هذه القرية هي أنطاكية في جميع أقوال المفسرين). انظر جامع البيـــان للطبـــري : 186/22 ،تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 585/3 ،وتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 18/15 . ولكـــن الســـعدي – رحمه الله – يرى أن تعيين هـــذه القريـــة خـــلاف الأولى ، فيقول : (وتعيين تلـــك القـــرية لـــو كـــان فيه فائدة لعيّنها الله ،وهذا ما أشبهه من التكليف) وهو الأولى– والله أعلم – . تفسير السعدي : 455/2 .

بَـلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَـلِينَ . اتَّـبِعُوا مَـن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئًا وَلاَ يُـنقِذُونِ . إِنِّـي إِذًا لَّفِـي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْـمَعُونِ . قِـيلَ ادْخُـلِ الْجَـنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُـنَّا مُنزِلِينَ . إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَـا يَأْتِـيهِم مِّـن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [1] .

ذكــر – تعالى – قصة أصحاب القرية كمثل ،وطلب من رسولنا الكريم محمد – عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم – أن يقصها على قومه الذين كذبوه ،وعاندوه ؛كي يعتبروا بها ، وتكون لهم عبرة وموعظة .

وأصــحاب القــرية هــم القوم الوحيدون الذين مَنَّ الله عليهم بأن أرسل إليهم رسولين كريمين ؛ كي يأمروهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين كله له وينهوهم عن الشرك والمعاصي، فكذبوهما ،ولم يسمعوا لهما .

قال تعالــى : **﴿وَاضْرِبْ لَهُـم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾** [2] .

فقواهما – سبحانه وتعالى – وشدَّ أزرهما بآخر ،فصاروا ثلاثة رسل .

وإن دلَّ ذلــك علــى شيء فإنما يدلّ على شدة كفر أهل هذه القرية ، وعنادهم وجحودهم كما يدل على مدى عناية الله – عزَّ وجل – بهم ،وإرادة إقامة الحجة عليهم بتوالي الرسل إليهم .

بدأ الرسل بالعمل فوراً ، فدعوهم إلى توحيد الله – عزَّ وجل – وأخبروهم أنهم رسل ربهم إليهم ؛ كي يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولكنهم كابروا ، وعاندوا ، وقاوموا دعوتهم – شأنهم شأن كافة الأمم الكافرة قبلهم ، بكافة الوسائل وبكل الصور .

---

(1) يس / 13-31 .

(2) يس / 13 ، 14 .

أي : لو كنا كاذبين لأظهر الله كذبنا ،وأخزانا ،ولبادرنا بالعقوبة .

ثـمَّ بيَّنوا لهم أنهم ما أرسلوا إليهم إلا لمصلحتهم ،من أجل البلاغ المبين الذي يحصـل بـه توضـيح الأمور المطلوب بيانهـا ، وإيضاحها ، وليس لهـم أيُّ هدف دنيوي آخر.

قال تعالى على لسانهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (1) .

يقـول ابن عاشور – رحمه الله – : ((ذلك وَعْظٌ وعظوا به القوم ؛ليعلموا أنهم لا مـنفعة تـنجرّ لهـم من إيمان القـوم، وإعلان لهم بالتبرؤ من عُهدة القوم على الشرك)) (2).

وهذا نظير أقوال الرسل السابقين لهم بأنهم لا يريدون من أقوامهم أجراً من مال ولا من غيره ، ولا حتى الشكر ،إنما أجرهم يطلبونه من الله – عزَّ وجل – وحده .

ثالثاً : التشاؤم من الرسل – عليهم الصلاة والسلام–

حيـنما أعلن الرسل الكرام – عليهم السلام – أنهم لا يريدون أجراً ،ولا يوجد لهـم هدف ، ولا حاجة سوى تبليغ الدعـوة التي أرسـلوا بهـا ،وحينمـا بَيَّنـوا لهم أن أملهـم الوحيد ،أن يروهـم قـد انصاعوا للحـق الذي جاءوهـم به ؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، علم الكفرة الفجرة ،أنهم لم يستطيعوا أن يطعنوا فيهم من خلال هــذه الشــبهة ؛ لأن صــدق الرسـل واضح، وبدلاً من الانصيـاع للحق الذي جــاءوا بــه بعـد إخافتهـم ، ذهبـوا ليبحثوا عن شبهة أخرى يخفون بها فشلهم، وإخفــاقهم فــي ترويج الشبهة السابقة، فأعلنوا على الملأ، وزعموا أنهم تطيروا بهم، ولحقهم منهم شؤم .

قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (3) .

أيْ : قالوا لهم : إنهم تشاءموا بهم ،ولم يروا على قدومهم عليهم ،واتصالهم بهم إلا الشر .

وهذا تماماً مثل ما قال من قبلهم .

---

(1) يس / 17 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 362/22 .

(3) يس / 18 .

فـــردَّ عليهم الرسل – عليهم السلام – قائلين : فيما حكـــاه القرآن على لسانهم ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [1] .

أي أنهـــم أجابوهم بقولهم : شؤمكم وحظكم من الخير والشر معكم ،ولازم في أعناقكم ،وليس هو من شؤمنا ((ولا طيرة فيما زعمتم ،ولكنكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام ،فظننتم ما فيه نفعكم ضراً لكم ،وأنطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر ،وفساد الاعتقاد ،ومن إسرافكم واعتقادكم بالشؤم والبخت))[2].

رابعاً : مطالبة إنهاء الدعوة

لما يئسوا من إنجاح جميع الأمور والشبه السابقة ،انتقلوا إلى وسيلة أخرى من وسائل محاربة الدعوة ،وهي مطالبة الرسل بالانتهاء كلياً عن الدعوة ،والابتعاد عنها ، وتوعدوهـــم إذا لم تنتهوا ، ويكفوا عما يدعون إليه ليقتلُنَّهم رجماً بالحجارة ،وليذيقُنَّهم أشد العذاب .

قال تعالى على لسانهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

ولكـــن من أين لصاحب الدعوة السليمة ،وصاحب النهج المستقيم ،بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن يتركه تحت أي ضغط ،أو أي تهديد مهما كان ؟! وبذلك لم يجنوا أيَّ ثمار الأمر الذي قادهم إلى التعنت والجبروت .

خامساً : محاربة الداخلين في الدعوة

حينما لم ينجحوا في محاربة الرسل – عليه السلام – أو النيل منهم ،أو تشويه سمعتهم ،ولما لم يستطيعوا صَدَّهم عن الاستمرار في طريق الدعوة يئسوا ،وعلموا في قرارة أنفسهم أن الدعوة لا بد وأن تنتشر ؛ لذا حاولوا القضاء على الدعوة ، من خلال القضاء على الداخلين فيها، والمنتسبين إليها ،وفعلاً حاولوا تنفيذ ذلك .

إيمان رجل من أهل القرية ، ومحاربة قومه له ، وقتلهم إياه

فـــي ظل هذه الأوضاع الصعبة قدَّر الله – سبحانه وتعالى – أن يُسلم رجل من طـــرف المدينة ،– أي بعيداً عن المتكبرين ،الجاحدين ،الكافرين ، الذين يقطنون وسطَ

---

(1) يس / 19 .

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور : 364/22 .

(3) يس / 18 .

المديـــنة وقلبَها غالباً – ، ويقع الإيمان في قلبه ،ويجد حلاوته ،فيأتي مسرعاً؛ حرصاً على نصح قومه حين علم بما ردوا به على الرسل الكرام – عليهم السلام – ، وأمرهم باتباعهم ،وشهد للرسل بالرسالة.

قال تعالى ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

ثـــم ذكـــر لهـــم تأييداً لما شهد به من صدق الرسل الكرام ،فقال : اتبعوا مَنْ نَصَـــحكم نُصْحاً يعود عليكم بالخير ،ولا يريد منكم أجراً على نصحه لكم ،ويدعو إلى الرشد والهدى ، والسداد.

قال تعالى على لسانه ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [2] .

ولكن قومه لم يقبلوا نصحه ،بل لاموه على اتباعه الرسل ،فردَّ عليهم قائلاً فيما حكاه القرآن على لسانه ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [3].

أي : ما المانع من عبادة من هو مستحق وأهل للعبادة ،وكيف تطلبون مني أن أعبد من لا يملك نفعاً ولا ضراً لنفسه ،فضلاً عن غيره .

قال تعالى على لسانه ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [4] .

يقـــول الســـعدي – رحمه الله – : (فجمع بحديثه معهم بين نصحهم ،والشهادة للرســـل بالرســـالة، والاهتداء ، والإخبار بتعيُّن عبادة الله وحده ، وذكر الأدلة عليها ، وبيَّـــن لهم أن عبادة غيره باطلة ، وذكر البراهين على بطلانها ، والإخبار بضلال من عبدها) [5].

ثـــمَّ إنه أعلن إيمانه جهراً على الملأ ، دون خوف لما سوف يصيبه من وراء هذا الإعلان .

قال تعالى على لسانه ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [6].

---

(1) يس / 20 .

(2) يس / 21 .

(3) يس / 22 .

(4) يس / 23 ، 24 .

(5) تفسير السعدي : 458/2 بتصرف يسير .

(6) يس / 25 .

يقــول ابن كثير : ((الخطاب للرسل ،أي استمعوا مقالتي ،واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل الخطاب للقوم ،ومعناه :اسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة)) [1].

ولا مانع من إرادة المعنيين ،فهو خاطب الرسل الكرام – عليهم السلام – ؛كي يشهدوا له عند ربه بالإسلام ،وفي نفس الوقت أراد أن يُسمع الكفرة ويعلمهم بإيمانه ؛ كي يعرفوا أنه آمنَ بالله العلي العظيم ،علّهم يقتدون به ،ويسيرون على دربه .

ولكــن الكفر هو الكفر ،والعناد هو العناد ،على طول الأيام والأزمان، فما إن سمعوا منه أنه دخل في الإسلام حتى قتلوه فوراً .

وهذا هو حال ومآل كثير من المنتسبين للحق في كل عصر وأوان .

وعندئذٍ أدخله الله الجنة ،جزاءً على ما قدمه في سبيل إعلاء كلمة الله ،ومحاولة نشـر الدعـوة الصحيحة ، مضحياً في سبيله بأغلى ما يملك الإنسان ، دون خوف ، أو تردد ، فلم يكن له جزاء عند الملك العدل إلا الجنة ،جزاءً وفاقاً .

فلمـا دخــل الجنــة ،ورأى ما فيهـا من نعيـم ،تمنى لو علِمَ قومه بما في الجـنــة من نعيـم ؛ لعلهـم يؤمنون بما آمن هو به ،فيحصل لهم مثل ما حصل له ؛ ومـا ذلـك إلا لشـدة حبـه لهـم ،وطلبـه مصلحتهم ،فهـو لم يحقـد عليهم لأنهم قتلـوه ،وأنهوا حياته ،بل بالعكس تمنى أن يكونوا معه ، وبذلك يكون قد نصح لقومه حياً وميتاً .

قال تعالى ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [2] .

ومــن هــنا يجب على جميع الدعاة إلى الله – عزَّ وجل – أن يتعلموا درساً ، ويجعلــوه دستورَ حياتهم ،ونهج دعوتهم ،يجب أن يترفَّعوا عن الأحقاد ، والضغائن ، يجــب ألا يغضبوا لأنفسهم أبداً، بل الغضب لا بد وأن يكون لله وحده ، كما يجب ألا يدفعهــم كــرههم لإنســان للــتخاذل عن نصحه ،ودعوته ،فإن هذا الأسلوب – وهو الإحســان لمن أساء إليك – كفيل بأن يرقق القلوب – إن كان هناك قلوب تنبض – ، ويجعل العدو من أعز الأصدقاء .

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 215/3 .

(2) يس / 26 ، 27 .

وفي معنى ذلك قال تعالى ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [1] .

حلول العذاب بهم :

كـــان قـــتلهم لذلك الرجل المؤمن سبباً في دمارهم وهلاكهم جميعاً ،فكما أنهم أهـــدروا دماً ، وأزهقوا روحاً بلا سبب مشروع إلا أن يقول ربي الله ،كذلك أزهق الله أرواحهـــم جمـــيعاً ،ولكن بسبب ، فما أن قتل ذلك المؤمن حتى عَجَّل الله بحلول النقمة علـــى قومـــه ، فأمر جبريل – عليه السلام – ، فصاح بهم صيحة ،فماتوا عن آخرهم حيـــث تقطعـــت قلوبهـــم في أجوافهم ،وهلكوا من تلك الصيحة ،فأصبحوا خامدين ،لا صـــوت ولا حـــركة ،ولا حياة ،بعد ذلك العتو والاستكبار ،ومقابلة أشرف الخلق بأبذأ الألفاظ وأقبحها، وتجبرهم ،وتكبرهم على الرسل وأتباعهم .

قال تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [2] .

وقـــد كانوا على قوتهم ،وكفرهم ،وعنادهم ضعفاء أمام قوة الله – عزَّ وجل – فما احتاجوا غير صيحة واحدة ،أصبحوا بعدها جميعاً جثثاً بلا حراك .

قال تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [3] .

يقـــول السعدي – رحمه الله – : ((أي ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم ،فننزل جنداً من السماء لإتلافهم ؛ لعدم الحاجة إلى ذلك ،وعظمة اقتدار الله – تعالى – ، وشدة ضعف بني آدم ،وأن أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم)) [4] .

وبعد هذا الموت ، والدمار الجماعي يتحسر المولى – عزَّ وجل – عليهم قائلاً ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ [5].

أي مـــا أعظـــم شقاءهم ،وأطول عنادهم ،وأشد جهلهم ،حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة ، التي هي سبب لكل شقاء ،وعذاب ،ونكال !!.

---

(1) فصلت / 34 .

(2) يس / 29 .

(3) يس / 28 .

(4) تفسير السعدي : 458/2 .

(5) يس / 30 .

وبهذا يكون قد قُضِيَ على أصحاب هذه القرية ،وذهبوا كما ذهب من قبلهم ،فما بكت عليهم السماء؛ لأنهم ارتكبوا أمراً لم يَرتكبه أي قوم قبلهم ، وهو أن جميع الأقوام السابقة لهم كذبت رسولاً واحداً ،وهؤلاء كذبوا ثلاثة رسل ، كان الحَرِيُّ بهم أن يؤمنوا بهم ، ويصدقوهم ، ويتبعوهم ، معتبرين بما حلَّ بالأمم السابقة المبادة قبلهم ،ولكنهم لما نسوا الله أنساهم أنفسهم .

قال تعالى معقباً على عدم إدراكهم ،وعدم اعتبارهم ممن سبقهم: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾** (1) ، (2) .

المطلب السابع : المسخ

انتقم الله – عزَّ وجل – كما مرَّ – من الأمم السابقة الكافرة الجاحدة ، المعاندة المكذبة لرسله الكرام – عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام – ، بالإهلاك ، والإبادة بالكلية ،حتى لم يبقَ منهم أحد ،بالرغم من اختلاف طرق الإهلاك والتدمير .

ثــمَّ دارت الأيــام والأزمان ،وجاء كفرة بني إسرائيل – عليهم لعنة الله– ، فلم يعتــبروا بما حصل لمن قبلهم ، بل ساروا على دربهم ،واهتدوا بهديهم ،فدارت عليهم الدائــرة ،وسُــقُوا من نفس الكأس الذي سُقوا منه ؛ لأن سنة الله – سبحانه وتعالى – واحدة ،وهي تدمير جميع الكفرة والفجرة وإبادتهم .

قال تعالى **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾** (3).

ولكن كان إهلاك قوم من بني إســرائيل بنوع آخر من أنواع العذاب والتدمير ،فإن الله – سبحانه وتعالى – لم يهلكهم ويُمِتْهم ويُبِدْهم ، ويُخلِّصْ البشرية من شرورهم بل انتقم منهم بشيءٍ أصعب بكثير من الإهلاك والإبادة ، والموت دفعة واحدة .

ويصور لنا القرآن الكريم الجريمة التي اقترفها بنو إسرائيل ، وطريقة إهلاكهم وإبادتهم ، وتخليص البشرية منهم في عدد من سوره العظيمة، منها :

---

(1) يس / 31 .

(2) انظــر تفاصيل القصــة في جامع البيان للطبري : 22/186–194، 23/443 ، وتفسير القرآن العظيم لابــن كثير :3/584–588 ، وتفســير الســعدي : 2/455–459 ، و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 15/18–26 ، والبداية والنهاية :1/214–216 باختصار .

(3) فاطر / 43 .

1. قـال تعـالى : ﴿ولَقَـدْ عَلِمْتُمُ الَّذِيـنَ اعْتَـدَواْ مِنكُـمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُـــواْ قِـرَدَةً خَاسِـئِينَ . فَجَعَلْـنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (1) .

2. وقـال – عـزَّ وجل – : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾ (2).

3. وقـال – عـزَّ من قائل – : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (3).

4. وقـال أيضاً: ﴿واسْـأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَـةِ الَّتِـي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِـي السَّـبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُـرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِـمْ كَذَلِـكَ نَـبْلُوهُم بِمَـا كَـانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُـمْ أَوْ مُعَذِّبُهُـمْ عَذَابًـا شَـدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّـا نَسُـواْ مَـا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَـذَابٍ بَئِـيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (4)﴾ (5).

يحكي لنا المفسرون هذه القصة قائلين :كان أهل هذه القرية (6) يهوداً متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان،حيث كان يحرم عليهم الاصطياد في هذا اليوم، فكانت الحيتان تكثر وتظهر في البحر يوم السبت ؛ لأنها أَلِفَتْ منهم السكينة في مثل هـذا اليوم ، فكانت تأتي من هينا ، وهينا ظاهرة ، آمنة ،مسترسلة ،فلا يهيجونها ولا يذعرونها .

---

(1) البقرة / 65 ، 66 .

(2) النساء / 47 .

(3) المائدة / 60 .

(4) أي : ذليلين خاسئين . تفسير السعدي :626/1 .

(5) الأعراف /163 –166 .

(6) الصواب أن يقال : هي قرية حاضرة البحر ،دون تحديد ،لأن المدن الحاضرة البحر كثيرة ،ولو كان من تحديدهـا فـائدة ،وزيادة منفعة لحددها الله – سبحانه وتعالى– ، انظر جامع البيان للطبري : 123/9، وتفسير السعدي :624/1 .

قـــال تعـــالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً [1] ﴾ [2] .

أما في غير يوم السبت –أي في الأيام المباح لهم فيها الصيد – لا تأتيهم ،بل تذهب داخل البحر .

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾ [3] .

وقـــد بيَّـــن الله – سبحانه وتعالى – السبب في ذلك قائلاً: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [4] .

أي : لنختـــبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ،وما ذلك الاختيار ،والامتحان ، إلا بســـبب فســـقهم، وعصيانهم ،وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله ، ولما عَرَّضهم للبلاء والشر [5].

حيلة بني إسرائيل لصيد الحيتان :

حيـــنما استمرت الحيتان على هذه الحال ،ضجر بنو إسرائيل ،ولم يحتملوا ذلك الوضـــع ، فذهـــبوا إلى حيلة يحتالون بها على اصطيادها في يوم السبت ، ظناً منهم لجهلهـــم ،وتعلقهم بالدنيا وزينتها أن عملهم هذا جائز ،ولا غبار عليه ، فنصبوا الحبال والشـــباك ،وحفـــروا لهـــا الحفـــر ، وأعدوا لها المصائد ،فإذا جرى الماء نحو الحفر والمصائد ،وقع السمك فيها ،وإذا دخلها لا يستطيع أن يخرج منها ، وكانوا يفعلون ذلك يـــوم الجمعـــة ،فإذا جاء يوم السبت ،وجاءت الحيتان مسترسلة ،علقت بهذه المصائد ، ووقعـــت في تلك الحفر والشباك ،فإذا جاء يوم السبت لا يأخذوها، وتركوها في الحفر والشباك ،حتى إذا جاء يوم الأحد أخذوها ،وكثر فيهم هذا الفعل ، وانتشر .

مواقف بني إسرائيل من هذه الحيلة :

انقسم أهل القرية حيال هذه الحيلة إلى ثلاث طوائف :

---

(1) شرعاً : أي ظاهرة على وجه الماء ،قريبة من الساحل . تفسير أبي السعود : 284/3.

(2) الأعراف / 163 .

(3) الأعراف / 163 .

(4) الأعراف / 163 .

(5) انظر فتح القدير للشوكاني : 257/2 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير :263/2 .

الطائفة الأولى : وهي معظمهم ،وهم الذين اعتدوا في السبت ،وقاموا بالصيد ،وتنفيذ الحيلة بالفعل ،وتجرأوا ،وجاهروا ،وأعلنوا بذلك ،دون خوف أو حياء .

الطائفــة الثانية : وهي جماعة من صُلاَّحهم الذين ركبوا في عظتهم متن كل صعب وذلول ،حتى يئسوا من احتمال القبول ،فاعتزلوا .

الطائفــة الثالثة : وهي الجماعة التي نهت عن ذلك الفعل الشنيع ،وجاهرت بالنهي ، واستمروا لا يقلعون عن التذكير ،رجاءً للنفع والتأثير ،مُبالغةً في الاعتذار ،وطمعاً في فائدة الإنذار .

وحيــنما استمر وعظهم وتذكيرهــم بدون فائدة ،قالت لهم الطائفة الثانية ،فيما حكــاه القــرآن الكريم على لسانهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ (1).

أي قالوا لهم : لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ،ولم يُصغِ للناصحين ،بل اســتمر علــى اعتدائه وطغيانه ،فإنه لا بد أن يعاقبهم الله ،إما بهلاك وإبادة بالكلية ، فــيطهر الأرض مــنهم ،أو يعذبهم عذاباً شديداً دون الاستئصال ،فيخزيهم في الدنيا ، ويعذبهم العذاب الشديد في الآخرة .

فــردَّ عليهم الواعظون فيما حكاه القرآن على ألسنتهم ﴿**قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (2) .

أي أنهــم بيَّنــوا ووضَّحوا لهم سبب استمرارهــم فــي الدعوة ،والنصح بأن ذلك لسببين :

(أ) أنهم يعظونهم ،وينصحونهم ، وينهونهم ؛ ليعذروا فيهم ،خوفاً من عذاب الله إن هم لــم يقومــوا بأعــباء تلك الدعوة ،وتقديم النصيحة ،فيحل بهم ما سيحل بالمعتدين من العذاب والعقاب .

(ب) وأنهم يعظونهم لعلَّ الوعظ والإرشاد ،والنصيحة ،تنجح فيهم ،فيتركوا ما هم فيه من المعصية ،وبذلك يقيهم الله عذابه ،ويعفو عنهم .

لذا فقد استمروا في الدعوة ،والنصح دون سأم ، ولا ملل .

---

(1) الأعراف / 164 .

(2) الأعراف / 164 .

إذن الهدف وراء تكرار الدعوة والنصيحة هو خوفهم على أنفسهم من عقاب الله وعذابه إذا هم قصروا في واجبهم ،وكذا خوفهم على قومهم إن استمروا في المعصية أن ينزل بهم العذاب ، والدمار ، والهلاك .

وهكذا يجب أن تكون حالة الداعية المسلم ،دائماً عنده أمل متجدد فلا ييأس ، ولا يقنط من الله في هداية المدعو ، مهما كانت درجة عناده وفسقه ، أو حتى كفره ، لأن الله – تعالى – هو الهادي وحده .

قال تعالى ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [1] .

و يجب أن يحرص على مصلحة المدعو ،كحرصه على مصلحته تماماً .

كما يجب على الدعاة لله أن يجعلوا حديث رسول الله -ﷺ- منهاجاً لهم ، ونصب أعينهم ،فقد روى أن رسول الله -ﷺ- قال : **(فإن الرجل منكم ليعمل حتى يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة)** [2] .

وتستمر القصة ،ويزداد الكفر والعناد ،حيث إنهم لم يسمعوا الموعظة ،ولم يستسلموا للنصيحة ،ولم ينتهوا عن فعلتهم الشنيعة ،الفظيعة ،بل استمروا على غيِّهم واعتدائهم ، عندئذٍ جاء انتقام رب العالمين ،وإله المنزلين ،على المخادعين .

أحوال طوائف بني إسرائيل عند حلول العقاب والعذاب :

اختلفت أحوال بني إسرائيل عند بداية حلول العذاب ،تبعاً لأحوالهم ،وتغاير مواقفهم ، من الحيلة التي احتالوا بها على شرع الله – تعالى – .

1. فالطائفة التي أمرت بالمعروف ،ونهت عن ارتكاب تلك المعصية الخبيثة ، واستمرت على الدعوة والنصح دون كسل أو ملل ،أو يأس ، فقد أنجاهم الله – جلَّ وعلا – .

قال تعالى ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [3] .

---

(1) يوسف / 87 .

(2) أخرجه (خ) ، ك(بدء الخلق) ، ب/6(ذكر الملائكة) ، 993/2 ، ح(3208) ، وأخرجه(م) ، ك(القدر) ، 151/16 ،ح(11) بنحوه .

(3) الأعراف / 165 .

2. وأمـــا الفـــرقة الثانـــية : التي أمرت ثم يئست من صلاحهم ،واستجابتهم للحق ، فاعتزلت ، وتوقفت عن الدعوة ،فالقول الراجح أنهم كانوا من الناجين .

ويبين السعدي – رحمه الله – الدليل على نجاتهم فيقول : ((إن الله تعالى خصَّ الهـــلاك بالظالمين ،وهو لم يذكر أنهم ظالمون ،فدّل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت ؛ ولأن الأمر بالمعروف ،والنهي عن المنكر فرض كفاية ،إذا قام به البعض ســـقط عن الآخرين ، فاكتفوا بإنكار أولئك ؛ ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً**﴾)) [1] .

أي أنهم بكلامهم هذا أظهروا غضبهم الشديد ،وبيَّنوا أنهم كارهون لفعلهم أشد الكـــراهة ، وأكدوا حلول العقاب والعذاب بهم ؛ بسبب ما ارتكبوه من معاصٍ ، فبذلك يكونـــون ، قـــد أثبـــتوا أنهم ليسوا على ملتهم ، ومذهبهم ، فمن باب العدل الإلهي ألا يعاملهم كالعاصين المجرمين .

ورغم ذلك إلا أن الله – سبحانه وتعالى – لم يذكرهم ضمن الناجين ، ويوضح سبب ذلك ويعلله ابن كثير قائلاً : ((لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم هذه الفاحشة ،إلا أنهم كـــان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث ، التي أعلاها : الإنكار باليد ، وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها : الإنكـــار بالجـــنان [2] ، فلمـــا لم يُذْكروا نجوا مع الناجين ، إذ لم يفعلوا الفاحشة ، بل أنكروها)) [3] .

3. وأما الفرقة الثالثة : وهم الذين اعتدوا في السبت ، فقد غضب الله عليهم ، ولعنهم لمـــا احتالوا على خلاف أمره ، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي في الظاهر انصياع لأوامر الله – تعالى – وهي في الباطن مخالفة محضة .

مـــن أجل ذلـــك انتقـــم الله – عـــزَّ وجـــل – منهـــم ، وأنـــزل بهـــم عذابـــاً لـــــم يُذِقــْهُ لأحـــد قبلهـــم حيث عذبهـــم ، وقلبهـــم بإذنـــه ، وقدرته قردة ،وأبعدهم من رحمته .

---

(1) تفسير السعدي : 625/1 .

(2) يشـــير إلـــى حديث رسول الله ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ،فإن لم يستطع فبقلبه ،وذلك أضعف الإيمان) . أخرجه (م) ،ك(الإيمان) ،217/2 ،ح(78) .

(3)البداية والنهاية : 112/2 .

1. قال – تعالى – : ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [1].
2. وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [2].
3. وقال – عزّ وجل – : ﴿مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [3] .

مسخ الذين اعتدوا في السبت :

ويذكر لنا المفسرون – رحمهم الله جميعاً – تفاصيل قصة بني إسرائيل ،وقلبهم قردة وخنازير قائلين : قيل إن الناهين والآمرين بالمعروف حينما لم يسمع منهم الطاغون ، ولم يلتزموا بأوامر الله ،قالوا لهم : لا نساكنكم ،فقسموا القرية بينهم بجدار فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ،ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقال الناهون : إن لهم لشأناً ، فعَلْوا على الجدار ، فنظروا ،فإذا هم قردة ، ففتحوا ، ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة ، فجعلت القردة تأتي نسيبها من الأنس ،فتشم ثيابه وتبكي، فيقول لها : ألم ننهكم ؟ فتقول برأسها : نعم. وقيل : إن الشباب صاروا قردة ،والشيوخ خنازير [4] .

وهكذا أوقع الله – سبحانه وتعالى – بهم عقاباً استحقوه ،لم يعاقب به أحداً قبلهم فهم تميزوا بنوع عذاب خاص ومنفرد ،كما أنهم تميزوا بالاحتيال على الله ،وأوامر الصالحين .

فليحذر الذين يخالفون أوامر الله ، ويحتالون على الدين ، أن يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل ،وما ذلك على الله بعزيز .

وأما القول بأن الله قد مسخ قلوبهم ،ولم يمسخ أجسادهم فهو مردود على أصحابه [5] .

---

(1) الأعراف / 165 .

(2) الأعراف / 166 .

(3) المائدة / 60 .

(4) انظر القصة في : جامع البيان للطبري : 136/9 ، والدر المنثور للسيوطي :250/3-253 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 262/2-265 ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 290/7-294 ، وتفسير السعدي : 624/1-626 ، وفتح القدير للشوكاني : 256/2-259 ، وتفسير أبي السعود :284/3-287 ، والبداية والنهاية : 111/2-113 ولكن هذه القصة أيضاً تعتبر من الإسرائيليات التي لا يجب تصديقها ولا تكذيبها ، وكل ما يهمنا من الأمر أنهم قلبوا قردة وخنازير بغض النظر عن الكيفية والتفاصيل .

(5) انظر تفاصيل ذلك في جامع البيان للطبري : 472/1 ، 473 .

ومن باب تتمة الفائدة نذكر بأن هؤلاء الممسوخين لم يُعقِبُوا [1] ، بل عاشوا مدة بسيطة جداً ، ثم ماتوا .

وبهـــذا يصبح واضحاً أن هؤلاء لم ينجبوا ، ولم يتناسلوا ، ولم يتكاثروا ؛ لذا لا يجـــوز لـــنا علـــى الرغم من شـــدة كرهنا لهم ،وحقدنا عليهم ،واشمئزازنا منهم ، وبالـــرغم مـــن شدة النار التي تؤجج في صدورنا منهم ،وبالرغم من كل أفعالهم التي يفعلونها في أبناء شعبنا خاصة ،وأبناء الأمة العربية والإسلامية عامة ،إلا أنه لا يجوز أن نقـــول عنهم : أنهم أبناء ، أو أحفاد القردة والخنازير ،بالرغم من أن ذلك الوصف يروق لنا ، ولكن الحق أحق أن يتبع .

عن عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رجل : يا رسول الله القـــردة والخنازير ممَا مُسِّخ ، فقال النبي –ﷺ- : (إن الله عزَّ وجل لم يهلك قوماً ، – أو يعذب قوماً – فيجعل لهم نسلاً ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك) [2] .

وفـــي روايـــة (إن الله لـــم يجعـــل لمســـخ نسلاً ،ولا عقباً ،وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك) [3] .

كمـــا يتـــناول التلـــيدي هذا الموضوع قائلاً : ((يظن كثير من الناس . أن هذه القردة والخنازير الحالية هي من بقايا ما مُسخ من بني إسرائيل ، والواقع خلاف ذلك ؛ لأن الممسوخ لا يعيش ،ولا يكون له نسل ..، وبهذا قال الجمهور ،وهو المعتمد))[4] .

وبذلـــك أصبح واضحاً أنه لا يجوز أن نصف بني إسرائيل بأنهم أبناء أو أحفاد القـــردة والخنازير، ولكن يجوز لنا أن نصفهم بأنهم إخوان القردة والخنازير ، كما قال لهـــم عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – عندما أرسله رسول الله –ﷺ- إلى خيبر ليجمع ثمارها كي يأخذ المسلمون نصفه ، وهم نصفه ، فأرادوا أن يُرْشُوه ليخفف عنهم في الخرص [5] ، فقال لهم ، – رضي الله عنه – : ((يا أعداء الله تطعموني السحت[6]،

---

(1) أي : لم ينجبوا ،ولم يتكاثروا . انظر مختار الصحاح ص444 .

(2) أخرجه (م) ،ك(القدر) ،162/16، ح(33).

(3) أخرجه (م) ،ك(القدر) ، 161/16 ، ح(32).

(4) أســباب هــلاك الأمــم ،وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين ،للشيخ عبد الله التليدي ،دار البشائر الإسلامية بيروت/لبنان ، ط(2) 1418هـ–1998م ،ص110.

(5) أي في تقدير الثمار ، فيأخذوا أكثر من النصف .انظر لسان العرب : 62/4 .

(6) أي : الحرام ، مختار الصحاح ص288 .

والله لقــد جئــتكم مــن عند أحب الناس إليَّ ، وأنتم أبغض إليَّ من عدتكم من القرود والخنازير ،......)) [1] .

هذه هي أسباب وصور إهلاك الأمم السابقة وإفنائها ،ولكن تلك العقوبات ليست خاصـــة بها؛ بل هذه الأمة ، أمة محمد -ﷺ- ليست بعيدة عن الهلاك والإبادة كالأمم السابقة إذا فعلت أفعالها.

بــل قــد ورد على لســان خير البشرية -ﷺ- أن الله سيهلك أصنافاً من هذه الأمـــة ؛ لارتكـــابهم مخالفاتٍ ، ومعاصيَ ،يستحقون عليها أنواعاً من الهلاك، كالمسخ والخسف ،والقذف ، وغيرها في عدة أحاديث، أكتفي بذكر اثنين منها :

1. ورد في الصحيح أن رسول الله قال : **(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر** [2] **والحريــر، والخمــر ،والمعــازف** [3] **، ولينزلنَّ أقوام إلى جنب عَلَم** [4] **يروح عليهم بسارحة لهم** [5] **يأتيهم – يعني الفقير – لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً ،فيُبَيِّتُهم الله** [6] **، ويضع العَلَم** [7]**، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة)** [8] .

يقول ابن حجر العسقلاني – رحمه الله – : ((وفي هذا الحديث وعيد شديد على مـــن يتحـــيل في تحليل ما يحرم بتغيير اسمه ، وأن الحكم يدور مع العلة ،والعلة في تحريم الخمر الإسكار ، فمتى وجد الإسكار وجد التحريم ، ولو لم يستمر الاسم)) [9].

2. **وعن أبى مالك الأشعري –رضي الله عنه– أن رسول الله -ﷺ- قال : (ليشربن أنـــاس مـــن أمتـــي الخمر يسمونها بغير اسمها ، ويعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ،ويجعل منهم القردة والخنازير)** [10].

---

(1) انظر البداية النهاية : 200/4 ، 201 .

(2) الحاء المهملة المكسورة ، والراء الخفيفة ،يعني الفرج .

(3) يعني : آلات الملاهي ، ويطلق على الغناء .

(4) بفتحتين ،يعني : الجبل العالي ، وقيل رأس الجبل .

(5) يعني : الماشية التي تسرح بالغداة ،وترجع بالعشي .

(6) يهلكهم ليلاً .

(7) أي : يوقعه عليهم . فتح الباري :69/10،68 .

(8) أخرجه (خ) ،ك(الأشربة) ،ب/6(ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه)، 1794/4 ،ح(5590).

(9) فتح الباري : 69/10 .

(10) أخرجــه (جه) ،ك(الفتــن) ،ب/22(العقوبات) ،371/2 ،ح(4020) ،وصححه الألباني في صحيحه ،959/2 ، ح(5454).

فلـيحذر الذين يخالفون أوامر الله عزَّ وجل وأوامر رسوله -ﷺ- ، ويرتكبون محــارم الله ، ويتركون أوامره، ويتعدون حدوده، أن يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ، وما ذلك على الله بعزيز ؛ لأن هذه الأحاديث وغيرها تفيد إمكانية وجود المسخ والخسـف ، والقـذف – وهي أنواع من العذاب والهلاك – في هذه الأمة إذا وجدت أسـبابها، والتـي مـنها: شرب الخمر ، وانتشار الفاحشة ،والاستماع إلى الأغاني ، والمغنيات ، ولبس الحرير للرجال ،....إلى غير ذلك من المحرمات .

إمكانية حلول العقوبات التي حلت ببني إسرائيل في هذا الزمان :

وكل هذا قد يتحقق على أرض الواقع في هذا الزمان – والله المستعان – ، كما أن بعض هذه العقوبات قد بدأ في الوقوع بالفعل .

أولاً : المسخ : – من خلال ما مرَّ بنا – يعني : تحويل الخِلْقة ،والصورة ،وتغييرها من حالة إلى حالة ، وهذا بدأ حدوثه في هذا الزمان ،ولكن بصورة مغايرة قليلاً ، فبدأ مسخ الباطن .

(أ) إن الله – سـبحانه وتعـالى – مسـخ قلـوب العصـاة والمسرفين ، والمبتدعة ، والمنحرفين ، فجعلها كقلوب الحيوانات ، فظاهرهم ظاهر آدمي ،وباطنهم باطن حيوان لا يشعر أحدهم ،ولا يفقه ما يدور حوله .

(ب) كمـا أن مسخ الهيئـة وتغييرهـا تبعـاً للموضـة ، ومشـابهة الغـرب قد يكـون مسـخاً ، والمسـخ بمفهومـه الحقيقـي آتٍ – إن شـاء الله – لمن يستحقه ؛ ونسأل الله العافية – .

ثانياً : الخسف : وهو يعني : ذهاب المكان ومن عليه في باطن الأرض ، كما حصل لقارون ، وهذا قد وقع في هذا الزمان .

(أ) يقـول التلـيدي : (وهـذا الخسف قد حصل في عصرنا مرات متعددةً في جميع الأقطار ، وكل أنحاء المعمورة ؛ بل لا تمرُّ بضعة أشهر بدون أن يقع في بعض البلاد ولعـلَّ ما نزل بمدينة أكادير بمغربنا الأقصى العربي سنة 1380 من أعظم الخسوفات التـي شاهدتها الإنسانية في عصرنا الحاضر ،وما ذلك إلا لما كان ، ولا يزال في تلك المدينـة من الفجور ، وأنواع الفسوق، واللعب ،واللهو ، ولقد حُدِّثْنا عنها أنها فاقت ، أو كادت تفوق كـل مدن الغرب في تلك الميادين المجونية ،ولذلك أنزل الله تعالى بها

الخلاصة

بعـد هـذا العـرض الممتع لقصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – مع أقوامهم هذا العرض الممتع ، المفعـم بالحـزن والأسى على ما لاقاه وعاناه أنبياء الله الكرام – عليهم الصلاة والسلام – نلاحظ وجود تشابه كبير بينهم في طريقة الدعوة ، وفي صداها على المدعوين .

1- فجميعهم كانت دعوتهم إخلاص العبادة لله وحده ، وترك ما سواه ، وتأصيل العقيدة السـليمة فـي السـنفوس والصدور ، فنوح عليه السلام دعا قومه قائلاً : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْـبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [1] . وهود – علـيه السـلام – قال لقومه: ﴿ **يَا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَـتَّقُونَ** ﴾[2] . وصالح – عليه السلام – قال : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَـيْرُهُ** ﴾ [3] . ولوط – عليه السلام– قال : ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِـيعُونِ** ﴾ [4] . وشعيب – عليه السلام – قال لقومه : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾[5] .

2- جميعهم عانى وقاسى من استهزاء أقوامهم بهم ، وتنقصهم إياهم وأتباعهم . فالكفر هـو الكفـر ، والعـناد هو العناد على مرِّ الأزمان ، وكأن الأقوام كانت توصي بعضها البعض بما تقوله أو تفعله بأنبيائهم الكرام – عليهم الصلاة والسلام – .

كمـا أنهم تعجبوا من أن يبعث الله – سبحانه وتعالى – نبياً أو رسولاً بشرياً ، وإنما أرادوا أن يكون ذلك الرسول ملكاً من الملائكة ؛ وما ذلك إلا تعنتاً وجحوداً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً لما استجابوا له ، ولما انصاعوا لأوامره ؛ بحجة أنه مخلوق مغاير لهـم في أصل الخلقة ، وإن دل ذلك على شئ إنما يدل على حقدهم الدفين ، وكرههم العميق لكل من يخالف ضلالهم .

---

(1) الأعراف / 59 .

(2) الأعراف / 65 .

(3) هود / 61 .

(4) الشعراء / 162-163 .

(5) الأعراف / 85 .

فقوم نوح – عليه السلام – قالو له : ﴿ **مَا نَرَاكَ إلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ**﴾ (1) .

وقوم هود – عليه السلام – قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُون * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ** ﴾(2) .

وقوم صالح – عليه السلام – قالوا له: ﴿ **مَا أَنْتَ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾(3) .

وأصحاب القرية كذبوا رسلهم الكرام وقالوا لهم : ﴿ **قَالُوا مَا أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إلا تَكْذِبُون** ﴾ (4) .

وكذا كفار قريش والمشركين تنقصوا رسول الله محمد- ﷺ- وتمنوا لو أن القرآن الكريم نزل على رجل عظيم قال تعالى على لسانهم : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾(5) .

3- أيضاً قاسى الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – من رمي أقوامهم لهم بالكذب ، وعدم تصديقهم فيما يقولونه ، أو يدعون إليه .

فقوم هود – عليه السلام – قالوا له : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (6) . وقوم صالح – عليه السلام- قالوا عنه : ﴿ **أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِر** ﴾ (7) .

وأصحاب القرية كذبوا رسلهم الكرام قال تعالى : ﴿ **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُون * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا**

---

(1) هود / 27 .
(2) المؤمنون / 33 ، 34 .
(3) الشعراء / 154 .
(4) يس / 15 .
(5) الزخرف / 31 .
(6) الأعراف / 66 .
(7) القمر / 25 .

وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ ﴾ [1] .

ولكن بالرغم من شدة معاداة كفار قريش والمشركين للرسول محمد – ﷺ – إلا أنهم لم يرموه بالكذب بل كانوا على يقين من صدقه ، فقد كانوا يسمونه الصادق الأمين قال تعالى : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾[2] .

4- ولم يقف الحد عند ذلك ، بل لما رأوا عدم نجاح دعواهم السابقة ، حاولوا إختلاق تهمة جديدة ، فرموا الأنبياء السابقين بالسحر والجنون – حاشاهم – .

فقوم نوح – عليه السلام – رموه بالجنون . قال تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾ [3] .

وقوم هود – عليهم السلام – قالوا : ﴿ **إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾ [4] . وصالح – عليه السلام – وصفوه بالسحر قال تعالى : ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** ﴾[5] . وكذا قوم محمد – ﷺ– رموه بالسحر والجنون قال تعالى : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾[6] .

5- طلب حلول العذاب :

اتفقت معظم الأقوام على الجهل والعناد ، والجحود ، وتكذيب الآيات المسموعة بل والمرئية منها ، فبالرغم من علمهم بما حلّ بمن سبقهم بسبب تكذيبهم لرسلهم وأنبيائهم ، إلا أنهم جميعاً خاضوا نفس التجربة فاشترطوا شرطاً للتأكد من صدق الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام – ، وهو حلول العذاب بهم ، والانتقام الرباني الذي وعدوهم إياه .

فقوم نوح قالوا له : ﴿ **يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [7] .

---

(1) يس / 14 ، 15 .
(2) الأنعام / 33 .
(3) القمر / 9 .
(4) هود / 54 .
(5) الشعراء / 153 .
(6) المدثر / 24 .
(7) هود / 32 .

وكذا قوم هود – عليه السلام – طلبوا العذاب وقالوا : ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (1) .

وقوم صالح – عليه السلام – عقروا الناقة وطلبوا حلول العذاب إن كان صادقاً قـال تعالى : ﴿ **فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (2) .

وكذا قوم لوط – عليه السلام – كذبوه وطلبوا حلول العذاب قال تعالى : ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (3).

6- من أجل كل ما سبق من معاناة ، واستهزاء ، وتنقص ، واحتقار ، ووصف الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بأوصاف هم أكثر الناس بعداً عنها ، بلغ الصبر منتهاه فاتجـه كثـيـر مـنهم إلى الله – عزّ وجل – متضرعين مستفتحين على أقوامهم الكافرة .

فنوح – عليه السلام – دعا ربه قائلاً : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (4) .

وقـال أيضاً : ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً** ﴾ (5) .

ودعا أيضا ربه قائلا : ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** ﴾(6) .

وهـود – عليـه السلام – تضرع إلى مولاه ، ورفع كفيه إلى السماء قائلاً : ﴿ **رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** ﴾ (7) .

وشـعيب – علـيه السلام – استفتح على قومه ، واستنصر بالله قائلاً : ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ (8) .

---

(1) الأعراف / 70 .

(2) الأعراف / 77 .

(3) العنكبوت / 29 .

(4) الشعراء / 117 ، 118 .

(5) نوح / 26 ، 27 .

(6) القمر / 10 .

(7) المؤمنون / 39 .

(8) الأعراف / 89 .

ولكن بالمقارنة بينهم وبين نبينا محمد – صلوات ربي عليهم أجمعين – نجد أنه بالرغم من شدة ما لاقاه من قومه إلا أنه لم يدع عليهم ، فحينما ذهب إلى الطائف كي يدعوهم إلى الإسلام ويطلب منهم النصرة والمعونة ، ما وجد منهم إلا كل جفوة وغلظة وكفر وعناد ، فلم يدع عليهم بل دعا لهم قائلاً : " **اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم** " .

وكذلك حينما اشتد أذى أجلاف مكة عليه – ﷺ – وعلى أتباعه جاءه جبريل – عليه السلام – يخيره إن أراد أن يطبق عليهم الأخشبين ، فلم يوافق – ﷺ – ، راجياً أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده ويعزّ به الإسلام وذلك دليل على شدة عطفه وحبه وحنانه – ﷺ – على قومه ، فهو لم يغضب لنفسه قط ، فكل ما لاقاه في شخصه وأهله لم يخرجه عن طوره ، ولم يؤدِ إلى دعائه على قومه بل دائماً كان يرجو الله أن يهديهم ويخرج من أصلابهم من يوحده ، وفعلاً حصل ما تمنى .

المبحث الثاني

عقوبات دون الإهلاك

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تسليط الظالمين

المطلب الثاني : ضيق في الرزق ، وظهور الفساد في الأرض.

المبحث الثاني

عقوبات دون الإهلاك

إن الذنوب على اختلافها عبارة عن أمراض تُحدث خللاً في الدين ، وفساداً في الأخـلاق، وبالتالي تؤدي إلى فساد المجتمع ، والذنوب كلها شؤم ، وعواقبها وخيمة ، فما يصيب الناسَ شيءٌ من بلاء وشقاء ، وما يحل بهم كِفْلٌ من نقم وعذاب ، إلا جراء ما اقترفت أيديهم .

قال تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (1) .

ولكـن عواقب الذنوب وآثارها ليست على نفس الدرجة ، بل منها ما هو أهون مـن بعـض ، وقد مرَّ كيف أن الله – تعالى – قد أهلك أقواماً بالكلية ، وجعلهم عبرة وعظة على مرّ التاريخ ؛ بسبب طغيانهم ، وارتكابهم الفواحش وتعديهم حدود الله .

ولكـن هـناك عقوبـات أقل ، لذنوبٍ أخفَّ ، فلا يُهلك أصحابها ، ولا يُبادون بالكلية ، ولكن يصيبهم وبال ما ارتكبوا .

وهذا هو مضمون هذا المبحث ، والذي يشتمل على مطلبين .

المطلب الأول : تسليط الظالمين

يعتبر الظلم من المعاصي التي يستحق صاحبها العقاب من الله – عزَّ وجل – ، ومن ضمن العقوبات التي يستحقها الظالم تسليط الظالمين عليه .

فالظلم ظلمات على أصحابه ، في الدنيا والآخرة ، كما أنه يظلم القلب ، ويجعله في حيرة دائمة، ويبعده عن الهداية والبصيرة .

وقد وردَ بيان سوء عاقبة الظلم في عدد من الآيات الكريمة، أكتفي بذكر ثلاثٍ منها :

1. قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (2).
2. وقـال – عزَّ وجل – : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (3).

---

(1) النساء / 147 .

(2) الكهف / 59 .

(3) هود / 102 .

3. وقال – عزّ وجل – : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا [1] مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [2].

فهـذه الآيات الكريمة بمجموعها تبين أن الظالم لا بد أن يُجازى على ظلمه إما بالهلاك كلية ، أو بالعذاب الشديد .

ولكـنْ للظلـم بصورة خاصة ، أو لارتكاب المعاصي والآثام بصورة عامة ، جـزاء آخـر ، ألا وهو تسليط الظالمين على هـؤلاء المعتدين ، وقد ورد ذلك في كتاب الله – عزّ وجل – .

قال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [3].

يقول االسعدي – رحمه الله – عند شرحه للآية الكريمة : ((أي : إن من سنتنا أن نولـي كـلَّ ظالم ظالماً مثلَه ، يؤُزُّه إلى الشر ، ويحثه عليه ، ويزهده في الخير ، ويـنفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة ، الشنيع أثرُها ، البليغِ خطرُها .والذنب ذنـب الظـالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى روحه جنى ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [4].

ومـن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ، ومنعهم الحقوقَ الواجبة ، وُلِّي عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ، على وجهٍ غيرِ مأجورين فيه ، ولا محتسبين .

كمـا أن العباد إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصَاف ، لا ولاة ظلم واعتساف)) [5].

أي أن الظالم إذا ظلم العباد ، واسـتولى على ما يملكون ظلماً وجوراً وعدواناً لا بد أن ينتقم الله – تعالى – منه بأحد أمرين :

(أ) إمـا بـأن يسـلط عليه من هو أقوى ، وأظلم منه، يـسومه سـوء العـذاب ، ثم يظلمــه ويـأخذ مـنــه ، ما استـولى عليــه بطريق الظلم والجور ، تحت شعار الحيـاة للأقـوى .

---

(1) أي : أهلكنا ، كلمات القرآن ص222.

(2) الأنبياء / 11 .

(3) الأنعام / 129 .

(4) فصلت / 46 .

(5) تفسير السعدي : 544/1 .

وبذلك يكون قد ظلم ،واستحق العقوبة عند الله ،ثم ما استولى عليه لم يبق له ، فهو بذلك يكون قد ظلم نفسه بأن حقَّ عليها العقاب دون عائد، إضافة إلى ظلمه لغيره بأخذ أموالهم دون وجه حق .

(ب) أو أن يسلط الله عليه ، ويبعث له ظالماً آخر ، فيتفقا ، ويتصاحبا، ويصبحَ كل منهما قريناً للآخر ، يحثه على فعل الشر وظلم الخلق ، ويبعده عن الخير بكافة الوسائل ، ويزين له القبيح ، وبذلك ينغمس في الشر ، والبعد عن الله ، ويصبح الظلم صفة لازمة له وهو لا يدري .

ويوضح الطبري – رحمه الله – معنى (نولي) الوارد في الآية الكريمة سابقة الذكر ؛ فيقول : ((أي إنما يولي الله بين الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن ، أين كان ، وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، وليس الإيمان بالتمني ولكن بالتحلي)) (1).

وصدق الشاعر حين قال :

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم (2)

فالآية إذن تحمل تهديداً لكل ظالم إن لم يمتنع عن ظلمه ، بأن الله سيسلط عليه ظالماً آخر، سواء ظلم نفسه ، أو ظلم غيره إن كان والياً بأن يظلم الرعية ، أو كان تاجراً فيظلم الناس في تجارتهم ، وكذا السارق فإنه يظلم الناس بأخذ أموالهم (3).

1. ويؤكد الرازي على كل ما سبق بقوله : ((إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم ، وقد قيل ما ظالم إلا سيُبلى بظالم)) (4).

وكأنه يقصد أن الله – سبحانه وتعالى – قد سلط على هذه الرعية والياً ظالماً بسبب ظلمهم لأنفسهم، أو لغيرهم ، بحيث أصبح الظلم صفة لازمة لهم، فاستحقوا عليها أن يُسلط عليهم والٍ ظالم ، وإذا ضَجِروا من ظلم الوالي ، وأرادوا التخلص منه فما عليهم إلا أن يصلحوا أنفسهم أولاً بترك الظلم ، ونشر العدل بينهم بدلاً منه ، فحينئذٍ يخلصهم الله – جلَّ وعلا – من ظلم ذلك الوالي أو الأمير وجوره .

---

(1) جامع البيان للطبري : 46/8 .

(2) نقلاً عن الجزاء من جنس العمل : 249/2 .

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 86/7 ، والتحرير والتنوير لابن عاشور :74/8 .

(4) مفاتيح الغيب للرازي : 194/13 .

فالظـــالم إذن هو المسئول الأول عما يحصـــل له مـــن انتقام ، وتسليط غيره علـــيه ؛ لأن مـــن سنـــة الله تعـــالى في خلـــقه أن يعاملـــهم حســـب أعمالـــهم ، إن خـــيـــراً فخيـــر ، وإن شـــراً فشـــر ، وقـــد بـــيَّن الله تعـــالى ذلـــك المـــعنى فـــي عـــدد من الآيـــات .

2. قـــال تعـــالى : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَـــلْ مِثْقَـــالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ (1).

3. وقال أيضاً:﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾(2).

4. وقـــال – عـــزَّ مـــن قـــائل – : ﴿**وَإِن تُصِبْهُـــمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ (3).

وقـــد أكـــدَّ – جـــلَّ وعلا – عدمَ اتصافه بالظلم أبداً ، بل العباد هم الظالمون لأنفسهم ، فما أصابهم من تسليط الظالمين عليهم هو جزاء ما اقترفت أيديهم .

قال تعالى :﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ (4).

وأمـــا الســـنة النبوية فقد أكدت على أن الظلم ظلمات ، وأن عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة ، في عدد من الأحاديث ، أكتفي بذكر ثلاثة منها :

1. عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي -ﷺ- قال : (**الظلم ظلمات يوم القيامة**) (5).

2. وعن أبي معبد مولى ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي -ﷺ- بعث معاذاً إلى اليمن فقال : (**اتقِ دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**) (6).

3. كمـــا ورد عـــنه -ﷺ- أنه قال : (**من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**) (7).

---

(1) الزلزلة / 7 ، 8 .

(2) الشورى / 30 .

(3) الروم / 36 .

(4) الأنفال / 51 .

(5) أخرجه (خ) ،ك(المظالم) ،ب/8 (الظلم ظلمات يوم القيامة) ، 734/2 ،ح(2447).

(6) أخرجه (خ) ،ك(المظالم) ،ب/9(الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم) ،734/2 ،ح(2448).

(7) أخرجه (خ)، ك(بدء الخلق) ،ب/2(ما جاء في سبع أرضين) ، 987/2 ،ح(3196).

فهذه الأحاديث النبوية الشريفة – وغيرها كثير مما يحمل نفس المعنى – تحذر أشد التحذير من الظلم ؛ لأن عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة .

وأختم هذا المطلب بذكر قول الشاعر في بيان عواقب الظلم الوخيمة :

وإيــاك والظلــمَ مهمــا اســتطعت	فظلــمُ العبــادِ شــديدُ الوخــم
وســافرْ بقلــبك بيــن الــورى	لتبصــرَ آثــارَ مَــنْ قــد ظَلَــم
فــتلك مســاكنُهم مــن بعدهــم	شــهودٌ علــيهم ولا تُــتَّهم
ومــا كــان شــيءٌ علــيهم أضــر	مــن الظلــمِ وهــو الذي قد قصم
فكــم تــركوا مــن جــنان ومــن	قصــورٍ ، وأخرى عليهم أُطُم [1]
صُــلُوا بالجحــيم وفــاتَ النَّعــيمُ	وكــان الــذي نــالهم كالحلم [2]

المطلب الثاني : ضيق الرزق ، وظهور الفساد في الأرض

خلــق الله – سبحانه وتعالى– خلقه ، وتكفل برزقهم ، والإنعام عليهم ، وضمن لهــم العافية، والنعمة ، والرخاء ، والهناء ، وأمرهم مقابل ذلك بالعبادة ، فهي الهدف الأول الذي من أجله خلقوا .

قال تعالى :﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [3].

ولكــن منهم من كفر ، وفجر ، وارتكب الفواحش والآثام ، واستحل المعاصي والمحــرمات ، وتجــاوز الحــدَّ في الإجرام ، فبدَّل الله ما هم فيه من نِعَم إلى آلام ، وأمراض ، ونوازلَ ، وحوادثَ ، وفتن ، وضروب من العذاب .

قال تعالى :﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [4].

وقــال – عزَّ وجل – :﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [5].

---

(1) أي : القصر ، وكل حصن مبني بالحجارة ، وكل بيت مربع مسطَّح . لسان العرب : 160/1 .

(2) نقلاً عن الجواب الكافي ص 103 ، 104 .

(3) الذاريات / 56 .

(4) الأنفال / 53 .

(5) الرعد / 11 .

فكل ما حصل ، وسيحصل من بلاء وحوادث ، وكوارث ؛بسبب ذنوب بني آدم ومعاصيهم ، وليت آثار ذنوب الإنسان قاصرة عليه فقط ، بل إنها تتعداه إلى الحيوان ، والطيور، حتى الجمادات لم تسلم من هذه الذنوب والمعاصي ، فآثارها سادت الأرض بما عليها من مياه ، وهواء ، وزرع وثمار ، ومساكن ،...... وغير ذلك .

قـال تعـالى :**﴿ظَهَـرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [1] بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [2].

يقـول الطـبري : (ظهرت المعاصي في برّ الأرض ، وبحرها ؛ بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه) [3].

صور الفساد الذي ظهر في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس :

وذكـر المفسـرون عدة معانٍ ، وصور للفساد الذي ظهر في البر والبحر بما اقترفت أيدي الناس من ذنوب ، ومعاصٍ، منها :

1. القحط ، وقلة النبات ، وذهاب البركة .
2. قلة المطر .
3. قلة الصيد .
4. كساد الأسعار ، وقلة المعاش .
5. قطع السبل ، وانتشار الظلم [4].

فالآيـة الكـريمة تدل على انتشار الفساد في البر والبحر ، وحلول الآفات في الأرض ، وانتشار الأمراض والوباء ، وكل ذلك بسبب ما قدمت أيدي الظلمة ، العتاة من الأعمال الفاسدة .

---

(1) المقصـود به البحار والأنهار ؛ لأن الله سمى الماء العذب بحراً ، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر /12

(2) الروم / 41 .

(3) جامع البيان للطبري : 58/21 .

(4) انظـر أقوال العلماء في جامع البيان للطبري : 59/21 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 450/3 ، والجـامع لأحكـام القرآن للقرطبي :43/14 ، والمحرر الوجيز لابن عطية :463/11-465 ، وتفسير النكت والعيون لأبي الحسـن علـيّ بن محمد بن حبيب الماوردي ، دار الكتب العلمية ،بيروت/لبنان ، ط[1]/1412هـ-1992م ، 317/4 ، 318.

بالنظر في المجتمعات المعاصرة نجد أن هذه الأمور قد ظهرت بالفعل على أرض الواقع :

فالمطر قلت نسبته في كثير من البلدان ، لدرجة أن يمرَّ فصل الشتاء وكأنه صيفٌ ، مما يضطرهم دائماً لصلاة الاستسقاء باستمرار ، وبالتالي ترتب على قلة الأمطار أمور كثيرة كقلة النبات ، وانتشار القحط ، وغلاء الأسعار ، ونزع البركة من الأشياء كلها ، فيقل دخل السكان ، وينخفض بالتالي الاقتصاد بصورة عامة ، وتنتشر البطالة ، مما يؤدي إلى انتشار السرقة ، والظلم ، وقطع الطرق ، وغيرها من آثار التدمير .

وإذا أرادت الشعوب أن يتغير هذا الحال ، ويعم الخير والرخاء ، فلا بد من محاسبة الأنفس قبل أن تُحاسب ، لا بد من مراجعة جميع الأعمال والتصرفات ، ومحاولة إصلاح الأنفس بقدر الإمكان ، بعد ذلك يتوقعون تغيير الأحوال ، أما أن يبقى حال الناس على ما هو عليه ، وينتظروا تغيير حال الكون ، ويتمنوا زوال الفساد فهذا لا يمكن أن يحدث .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (1) .

وقد ضرب لنا – جلَّ وعلا – مثالاً حياً يُتلى إلى يوم القيامة ، يوضح أن الكفر والمعاصي ، والذنوب ، والآثام تغير الحال ، وتقلبه رأساً على عقب من نعيم ، وخير ورخاء ، ورغد عيش ، إلى جحيم ، وشر ، وقلة مال .

قال تعالى :﴿ **وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (2).

هذه الآية الكريمة عبارة عن مثل ضربه الله – عزَّ وجل – عن أهل مكة ، التي كانت آمنة مطمئنة ،لا يُهاج أهلها ، ولا يُغار عليهم ، ولا يصيبهم خوف ، ولا جزع ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء ، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه ، فلا يزعجه ولا يثيره ، مع شدة الحمية فيهم ، فحصل بذلك في مكة من الأمن التام

---

(1) الرعد / 11 .

(2) النحل / 112 .

ما لم يحصل في سـواها ، وكذلـك كـان رزقها واسعاً جداً ، لدرجة أن أهلها كانوا لا يحـتاجون إلى الانتقال عنها للإنتاج ، كما كان يفعل سائر العرب، بالرغم من أنها كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق ، يأتيها من كل مكان ، من سائر بقاع الأرض .

ومن تمام النعمة عليهم أن أرسل الله – تعالى – إليهم رسولاً هو محمد –ﷺ– يعرفون أمانته وصدقه ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطلب منهم ألا يشركوا به شيئاً ، فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم .

قال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ**﴾ [1].

فحيـنما قـابلوا الدعوة والنصيحة بالجحود ، والكفران ، والظلم ، والإفساد ، والإجـرام ، انتقم الله منهم ، وأذاقهم ضد ما كانوا فيه ، حيث ابتلاهم بالجوع ، لدرجة أن أكلوا الجيَف ، وسلط الله عليهم الخوف في قلوبهم ، والجزع في نفوسهم .

قال تعالى:﴿ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ [2] .

وبذلك انتقم الله – تعالى – من هذه القرية ، وغيَّر أحوالها ، بما اقترفت أيديهم بسبب كفرهم ، وعدم شكرهم .

قال تعالى :﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [3]، [4] .

وهكـذا يفعل الله – سبحانه وتعالى – بكل من حذا حذو أهل هذه القرية المفسـدين المتمردين ، فقد اقتضت سنة الله – عزَّ وجل – أن يعاقب كل من حادَ عن شرعه ، وأوامره ، وارتكب نواهيه .

---

(1) النحل / 113 .

(2) النحل / 112 .

(3) النحل / 33 .

(4)انظر القصـة فـي جامـع البيـان للطبـري : 14/242-245 ، وتفسـير القرآن العظيم لابن كثير : 2/607 ، 608 وتفسير السعدي :1/950 ، 951.

الباب الثالث

منهج القرآن الكريم في الترغيب بالصالحات والتنفير من المحبطات

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : الترغيب بالصالحات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص

الفصل الثاني : الترهيب من المحبطات

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص

الفصل الأول

الترغيب بالصالحات

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثـــال

المبحث الثاني : ســـرد القصص .

الفصل الأول

الترغيب بالصالحات

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [1].

إن الله تـبارك وتعـالى خلـق الخلائق لعبادته وحده دون شريك ؛ حتى ينالوا رضى الله في الدنيا ، ثم دخول الجنة بكرمه ورحمته .

مـن أجل ذلك لم يوجز في بيان الصالحات ، بل حرص على توضيحها لهم ، وترغيبهم فيها ؛ ليستحقوا الجزاء عليها، بالتزامها والوقوف عند حدودها.

لـذا كـان هذا الفصل لبيان كيفية ترغيب القرآن الكريم بالصالحات علماً بأنه يحتوي على مبحثين .

---

(1) الذاريات / 56 .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

واشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : معنى المثل لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : معاني المثل في القرآن الكريم

المطلب الثالث : أهمية المثل في القرآن الكريم

المطلب الرابع : موضوعات أمثال القرآن الكريم .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

يدور هذا المبحث حول أربعة مطالب ، تبدأ بتعريف المثل ، وأثنى بذكر معانيه في القرآن الكريم ، ثم أتحدث عن أهميته ، وأختم بموضوعاته في القرآن الكريم .

المطلب الأول : معنى المثل لغة واصطلاحاً

(أ) الأمثال لغة :

جمع مثل ، وهو ما يضرب به من الأمثال ، أي ما جعل مثالاً : أي مقداراً لغيره يُحذى عليه [1] .

قال ابن فارس : الميم والثاء واللام ، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء ،وهذا مثل هذا :أي نظيره ،والمثل والمثال في معنى واحد ، ومثيل : كشبيه[2].

(ب) الأمثال اصطلاحاً :

للمثل تعريفات كثيرة متقاربة ، أذكر منها :

1. تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسَيْن من الآخر ، واعتبار أحدهما بالآخر [3].
2. قال المبرِّد : المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يُشَبه به حال الثاني بالأول [4].
3. وقيل : المثل هو عبارة موجزة متداولة ، تتضمن فكرة حكيمة في مجال الحياة البشرية وتقلباتها ، وتصاغ عادة بأسلوب مجازي يستميل الخيال ، ويسهل حفظه [5].

---

(1) انظر الصحاح : 1816/5 ، وتاج العروس: 110/8.

(2) معجم مقاييس اللغة : 296/5.

(3) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، دار المعرفة، بيروت/لبنان،(ت) سعيد محمد نمر الخطيب ط(2) 1403 هـ-1983م، ص173 ، 174.

(4) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ، دار القلم/بيروت ، - بدون تاريخ - 506/1.

(5) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبة، وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ط(2) 1404هـ-1984م ، ص332.

المطلب الثاني : معاني المثل في القرآن الكريم

ورد لفظ المثل في القرآن الكريم بعدة معانٍ ، منها :

1. بمعنى السُنَن :

قـــال تعالى : **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾** (1).

يعني سنن الذين مضوا (2).

2. بمعنى العبرة :

قال تعالى :**﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾** (3).

يعني عبرة وعظة يتعظ بهم من بعدهم من الأمم (4).

3. بمعنى الصفة :

قال تعالى : **﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾** (5).

يعني صفتهم (6).

4. بمعنى العذاب :

قال تعالى : **﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾** (7).

يعني : وصفنا لكم العذاب (8).

---

(1) البقرة / 214 .

(2) انظر جامع البيان للطبري : 56/2 .

(3) الزخرف / 56 .

(4) نفس المرجع : 109/25 .

(5) الفتح / 29 .

(6) نفس المرجع : 145/26 .

(7) إبراهيم / 45 .

(8) قـاموس القـرآن ، أو إصـلاح الوجـوه والنظائـر فـي القـرآن الكريم للحسين بن محمد الدامغاني (ت)عبد العزيز سيد الأهل ، دار العلم للملايين/بيروت ، ط(3) 1400هـ- 1980م ، ص428 ، 429 .

المطلب الثالث : أهمية المثل في القرآن الكريم

اهتم المولى – عزَّ وجل – كثيراً بضرب الأمثال في القرآن الكريم ؛ لأنها لون مـن ألوان الهداية الإلهية ، تُغري النفوس بفعل الخير ، وتحضها على البر ، وتدفعها إلـى الفضيلة ، كما أنها أوقع في النفس ، وأبلغ في الوعظ ، وأقوى في الزجر ، وقد أكثر الله – تعالى – منها في القرآن الكريم للتذكرة والعبرة ، كما ضربها النبي -ﷺ- فـي حديثه ، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة ، ويستعين بها المربون ، ويتخذونها من وسائل التوضيح والتشويق ، ووسائل التربية في الترغيب، أو التنفير من المدح أو الذم .

قـال الزمخشـري : ((ولضـرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل والـنظائر ، شأن ليس بالخفي في إبراز خَبِيَّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تُرِيَكَ المُتَخيل في صورة المحقق ، والمُتَوهَم في معرض المُتَيقَن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسَوْرَة الجامح الأبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثالَه)) [1].

وقال إبراهيم النَّظَّام : ((يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ،وإصابة المعنى ،وحسن التشبيه ،وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة)) [2].

وقـال ابن المقفع : ((إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضحَ للمنطق ، وآنقَ للسمع ، وأوسعَ لشعوب الحديث)) [3].

فالأمـثال فـي القرآن الكريم إنما هي لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ولأخذ العـبـرة والعظـة منها، والعاقل من يستفيد من ضرب الأمثال ، وقد بيَّن – سبحانه وتعالى – أنه لا يدرك المغزى والغاية من هذه الأمثال إلا العلماء دون غيرهم ، فقال تعـالى : **﴿وَتِلْـكَ الأمْـثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾** [4] ، وقال سبحانه : **﴿وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [5].

---

(1) الكشاف للزمخشري : 195/1 .

(2) مجمع الأمثال للنيسابوري : 6/1 .

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(4) العنكبوت / 43 .

(5) إبراهيم / 25 .

لذا يجب على المسلم أن يستمع إلى أمثال القرآن الكريم ، وأن ينقاد لما تأمر به وتنهى عنه ، وأما الإعراض عنها فهو إعراض عن الحق ، وعن رسالات المولى – عزّ وجل – ، مما يستوجب عقوبته في الآخرة ، وقد يذوق من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر .

قال الزركشي : ((وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه في أمور كثيرة : التذكير والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، وتقريب وترتيب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحسّ وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح ، والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره ، وعلى تحقيق أمر ، أو إبطال أمر ، **قال تعالى :﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾** [1].

فامتن علينا بذلك لِمَا تضمنت الأمثال من هذه الفوائد)) [2] .

المطلب الرابع : موضوعات أمثال القرآن الكريم

تناولت الأمثال في القرآن الكريم موضوعاتٍ كثيرةً ومهمة ، ومن ضمن هذه الموضوعات الترغيب بالصالحات .

وباستقراء أمثال القرآن الكريم التي ترغب بالصالحات ، نجد أنها تحث الإنسان على فعل الخيرات ، كما نجد أنها تتحدث إلى النفس البشرية ، بعد أن تعرفت على طبيعتها ، وما جبلت عليه من حب الخير ، فنراها تتحدث عن تلك الصالحات ، وتحث عليها ، من خلال تصوير ما يترتب عليها من خير كثير ، وفوائدَ جمةٍ عظيمة بصورة رائعة محببة للنفس .

كما أنه وباستقراء تلك الأمثال نجد أنها تناولت بالحث ، والتحريض والترغيب كثيراً من الصفات التي حرص القرآن العظيم على ترغيب المسلمين بها ، وتصويرها لهم بصورة رائعة مغرية ، تحبب للناس فعلها .

---

(1) إبراهيم / 45 .

(2) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، (ت)محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط مكتبة دار التراث/القاهرة – بدون تاريخ – 486/1 ، 487.

وسأتناول – إن شاء الله – بعض هذه الصفات موضحة كيفية ترغيب القرآن الكريم بها ، متمثلة في الفروع الثلاثة الآتية :

الفرع الأول : الترغيب بالإيمان واتباع الرسول -ﷺ-

رغَّب القرآن الكريم بالإيمان ، واتباع جماعة المسلمين ، وصوَّر ذلك بصورة جميلة ، مغرية ، بحيث تؤثر في النفس الإنسانية ، فتنجذب ، وتميل وتنصاع إليها وتدخل في تلك الجماعة ، إذا سمعتها بقلبها ، ووعتها بأذن واعية ، حيث صور جماعة المسلمين تحت جناح رسول الله -ﷺ- في نفعهم للخلق ، واحتياج الناس إليهم ، وقوة إيمانهم وحسن أعمالهم ، بمنزلة قوة عروق الزرع وسُوقه ، بحيث إن تلك القوة تغيظ أعداءهم .

أ- فقال تعالى :**﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (1) فَآزَرَهُ (2) فَاسْتَغْلَظَ (3) فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ (4) يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾** (5).

قال القرطبي – رحمه الله – : ((هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي -ﷺ- ، يعني أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي -ﷺ- حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً ، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى يغلظ نباته وأفراخه ،... فالزرع محمد -ﷺ- ، والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقووا)) (6).

رأينا كيف رغَّب المولى – عزَّ وجل – عباده المؤمنين بالدخول في الإسلام ، واتباع جماعة المسلمين ، من خلال تصوير الدخول بصورة حسنة قوية ، محببة إلى النفس ؛ لتغريها بالدخول في الإسلام ؛ حيث إن قوة الزرع الذي يُخْرِجُ براعمه

---

(1) أي : فراخه المتفرعة في جوانبه .

(2) أي : فَقَوَّى ذلك الشطء الزرع .

(3) أي : فصار غليظاً .

(4) أي : فاستقام على أصوله وجذوعه . كلمات القرآن ص 350 .

(5) الفتح / 29 .

(6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 281/16 ، 282.

ويغذيها ، فما تلبث أن تكون قوية تعجب الزراع ، وتغيظ الكفار .

وكــذا نــراه يتبع طريقاً آخر غير مباشر في الدعوة للإسلام من خلال وصفه للجــنة وما فيها من نعيم ، أعده للمسلمين ، فيكون ذلك دافعاً قوياً في دخول الناس في الإسلام ؛ لنيل ما في الجنة من نعيم – بإذن الله تعالى – .

قــال تعالى واصفاً ذلك النعيم :﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[1].

وقــال أيضــاً :﴿ مَــثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ[2] **وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾** [3].

يقــول السعدي – رحمه الله – : ((فهذه الجنة التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا ســخطه ، واتــبعوا رضوانه ، من نعتها وصفتها الجميلة أن فيها أنهاراً من ماء غير متغــير لا بوخــم [4] ، ولا بريح منتنة ولا بحرارة ،ولا بكدورة ، بل هو أعذب المياه وأصفاها ،وأطيبها ريحاً ،وألذها شراباً .

كمــا أن فيها أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه بحموضة ولا غيرها ، وأنهاراً من خمر يُلتذ بها لذة عظيمة ، لا كخمر الدنيا التي يكره مذاقها ، وتصدع الرأس ، وتغتال العقول ، وأنهاراً من عسل مصفى من شمعه ، أو سائر أوساخه .

كمــا أن لهــم فــيها مــن كل الثمرات : من نخيل وعنب ، وتفاح ، ورمان ، وأُتْرُجٍّ[5] ، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا)) [6].

الفرع الثاني : الترغيب بالإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته

حــثَّ الله – تعالى – في القرآن الكريم عباده المؤمنين كثيراً على الإنفاق في سبيله ، ابتغاءً لمرضاته، وبَيَّن لهم أن ذلك هو سبيل الوصول إليه، كما بَيَّنَ – تعالى–

---

(1) الرعد / 35 .

(2) أي : غير متغير ولا منتن . انظر التحرير والتنوير لابن عاشور : 96/26 .

(3) محمد / 15 .

(4) أي شيء ثقيل وقع فيه. انظر لسان العرب :245/15 ، ومختار الصحاح ص714.

(5) فاكهة تشبه البرتقال ، انظر لسان العرب: 25/2 ، 26 .

(6) تفسير السعدي : 684/2 ، 685.

أنـــه يجـــازي المنفق بالخير الكثير، فالحسنة عنده ليست بمثلها ، بل مضاعفة أضعافاً كثيرة ، لمن يستحق المضاعفة .

وفي بيان ذلك قال تعالى :**﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَـبَّةٍ أَنبَتَـتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** [1].

وقال أيضاً :**﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِـهِمْ كَمَـثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [2].

شبَّه – سبحانه وتعالى – نفقة المنفق في سبيلِهِ ، سواءً كان المراد به الجهاد ، أو جميع سبل الخير من كل برٍّ ، بمن بَذَر بذراً ، فأنبتتْ كل حبة سبع سنابل ، اشتملت كـل سنبلة على مائة حبة ، والله يضاعف بحسب حال المنفق ، وإيمانه ، وإخلاصه ، وإحسانه، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص عند الـنفقة ، كمـا شبه – سبحانه – الإنفاق بالبذر ، فالمنفقُ مالَه الطيبَ – لله لا لغيره – بـاذر ماله في أرض زكية مُغلَّةٍ ، بحسب بذره وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي ، ونفي الدغل [3] ، والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ، ولم تحرق الزرع نـار ، ولا لحقـته جائحة [4]، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوة ، وهي المكان المرتفع ، والذي تكون الحبة فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية ، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر ، متتابع ، فرواها ونمَّاها ، فآتت أكلهـا ضـعفي مـا تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل ، وإن لم يصبها وابل [5] فطلٌّ [6]

(1) البقرة / 261 .

(2) البقرة / 265 .

(3) الدَغَـل : محـركة : دَخَـل من الأمر مفسد، والشجر الكثير الملتف، واشتباك النبت وكثرته . القاموس المحيط : 387/3 .

(4) جائحـة : الجوح الإهلاك والاستئصال ، كالإجاحة والاجتياح ، ومنه الجائحة للشدة، لمجتاحة للمال . نفس المرجع : 227/1 .

(5) الوابل : المطر الشديد القاسي العاتي . نفس المرجع : 64/4.

(6) الطل : المطر الضعيف . نفس المرجع : 7/4.

صـــغير القدر ، يكفيها لكرم منبتها ، تزكو على المطر ، وتنمو عليه ، مع أن في ذكر نوعـــي الوابـــل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل ، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً، والله لا يضيع مثقال ذرة [1] .

الفرع الثالث : الترغيب بالكلمة الطيبة

إن مـــن مظاهـــر اهتمام الخالق – جلَّ وعلا – بالترغيب بالصالحات أنه حتى الكلمة الطيبة اهتم بها؛ لما لها من أثر طيب في الحياة الدنيا .

آثار الكلمة الطيبة :

1. فـــإن لهـــا وقـــعٌ شديدٌ في النفس ، وبها يتقارب الناس ، وتمحو آثار البغض من النفوس .

قال تعالى :﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [2].

2. كما أنها تجعل أشد الناس عداوة لك أكثرهم محبة لك ، وقرباً منك ، **قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسْـــتَوِي الْحَسَـــنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [3].

3. وهي أساس الدعوة إلى الله – جلَّ وعلا – ؛ قال تعالى مخاطباً نبيه –ﷺ-:**﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [4].

وقـــال أيضـــاً واصفاً لها ، مرغباً فيها ، بياناً لفضلها وفائدتها :**﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَـــرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [5].

فقد شبه – سبحانه وتعالى– الكلمة الطيبة – وهي على رأي جمهور المفسرين شـــهادة أن لا إله إلا الله – بالشجرة الطيبة، وهي المؤمن ؛ لأن الكلمـــة الطيبة تثمر جمـــيع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مُرضٍ لله – عزَّ وجل – هـــو ثمـــرة هـــذه الكلمة ، تماماً كالشجرة الطيبـــة أصلهـــا ثابـــت في قلب المؤمن

---

(1) انظر الأمثال لابن القيم ص253–255.

(2) آل عمران / 159 .

(3) فصلت / 34 .

(4) النحل / 125 .

(5) إبراهيم / 24 ، 25 .

– وهو التوحيد – ، وفرعها في السماء ، يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهذه الكلمة الطيبة ، تثمر كَلِماً كثيراً طيباً ، يقارنه عمل صالح ، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب ، كما قال تعالى :**﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** (1).

فقد أخبر تعالى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها كل وقت عملاً صالحاً لكل وقت (2).

---

(1) فاطر / 10 .

(2) انظر : (الدر المنثور للسيوطي : 4/142-145 ، وتفسير الخازن المسمىَ لباب التأويلَ في معاني التنزيل لعلاء الدين على بن محمد البغدادي الشهير بالخازن ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي مصر ط2 1375هـ-1955م ،5/299 ، ومعالم التنزيل للبغوي :4/40.

المبحث الثاني

سرد القصص

واشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : معنى القصص القرآني

المطلب الثاني : مزايا أسلوب السرد القرآني

المطلب الثالث : أنواع القصص القرآني

المطلب الرابع : فوائد القصص القرآني

المطلب الخامس : موضوعات القصص القرآني .

المبحث الثاني

ســـرد القصـــص

أتناول في هذا المبحث مفهوم القصص عامة وقصص القرآن خاصة ، ثم أذكر مزايا هذا الأسلوب ، وأنواع القصص القرآني وفوائده في المطالب الخمسة التالية :

المطلب الأول : معنى القصص القرآني

قصص القرآن :

هــو إخــبار القــرآن وسياقه عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة [1].

وقــيل : هــي تتبع أخبار الأمم الماضية وآثارها ، وإيراد مواقفهم وأعمالهم ، وبخاصــة مع رسول الله -ﷺ- إليهم ، مع إظهار آثار الدعوات فيهم، بأسلوب حسن جميل مع التركيز على مواطن العبرة والعظة [2].

المطلب الثاني : مزايا أسلوب السرد القصصي

كما أن الأمثال أحد أساليب القرآن الكريم في معالجة كثير من القضايا المهمة ، وكذلــك القصص القرآني هو أحد هذه الأساليب ، فكثير من القضايا المتنوعة والمهمة عالجهــا القــرآن الكريم عن طريق سرد القصص ، وهو أسلوب تصغي إليه الآذان ، وتمــيل إلــيه النفوس ، وترتاح إليه الأفئدة ، وتتأثر بما فيه من عبر وعظات ، وبذلك يــؤدى الغرض الذي سيق من أجله ، وهو الإقناع والتأثر ؛ وذلك لأن النفس البشرية تمــيل بطــبعها دائمــاً للقصص ، وترسخ الحكمة والعظة المستفادة منها أكثر من أي أسلوب آخر .

وقصص القرآن الكريم هي أحسن القصص على الإطلاق، قال تعالى :﴿ **نَحْنُ نَقُــصُّ عَلَــيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ [3] ؛ لأنها جزء من القرآن الكريم المعجز ؛ ولأنها

---

(1) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، مؤسسة الرسالة ،ط12 1403هـ-1983م ، ص306 .

(2) القصــة فــي القرآن الكريم د.مريم عبد القادر السباعي ، مكتبة مكة ، جدة/الرياض ط(1) 1407هـ-1987م، ص30.

(3) يوسف / 3 .

تتضمن من العبر والحِكَم والعظات ما لا يوجد في غيرها ، فهي ليست قصصاً عابرةً ، بل هي قصص واقعية مفيدة ، تتوفر فيها الفائدة والمتعة والتشويق ، والمصداقية .

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم سرد لنا كثيراً من القصص ؛ إلا أنه لا يعتبر كتاب تاريخ ، هدفه وهمه سرد القصص ، بل يسرد موطن الشاهد ، والعظة ، والعبرة فقط، بالإضافة إلى أنه لا يروي أكثر الأمور ، حتى الأنبياء والسابقون لم يقصّ علينا أخبارهم جميعاً ، بل اختار منهم ما تتحقق الفائدة بمعرفة قصته ، قال تعالى : **﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾** [1].

كما أنه لا يعرض جميع أحداث القصة بالتفصيل ، بل يعرض الخطوط العريضة الأساسية من القصة ، ويركز على موطن الشاهد والعظة الذي سيقت القصة من أجله .

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله – : (لا يراد بالقصص سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس ، كما قال تعالى في سورة هود بعدما ذكر موجزاً عن سيرة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – مع أقوامهم :**﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [2].

ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا يراد منها الاستقصاء ، وليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخاً أن التاريخ شيء باطل ضار يُنَزه القرآن عنه ، كلا ، إنَّ قصصه شذور من التاريخ تعلّم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ) [3] .

المطلب الثالث : أنواع القصص القرآني

القصص في القرآن الكريم أنواع ،وكان الغرض من تنوعها أو مجيئها بكل أنواع القصة هو تحقيقَ الأغراض الدينية بجميع أنواعها .

---

(1) النساء / 164 .

(2) هود / 120 .

(3) قصة التفسير لأحمد الشرباصي ، دار الجيل/بيروت ط(2) 1978م ، ص40.

2. تثبيت قلب رسول الله -ﷺ- ، وقلوب الأمة المحمدية على دين الله ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله ، قال تعالى :﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (1).

3. تصديق الأنبياء السابقين ، وإحياء ذكراهم ، وتخليد آثارهم .

4. بيان صدق محمد -ﷺ- ، في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

5. مقارعة أهل الكتاب بالحجة ، فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحديهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ؛ كقوله تعالى :﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (2).

6. القصص ضرب من ضروب الأدب ،يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره في النفس قال تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (3).

المطلب الخامس : موضوعات القصص القرآني

عالج القصص القرآني كثيراً من القضايا والموضوعات الهامة ، ومن أهمها ما يلي :

الفرع الأول : إثبات قضايا العقيدة

وهو الهدف الرئيسي في القصص القرآني كله ومثال ذلك في قصة خلق آدم – عليه السلام – .

قال تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ

---

(1) هود / 120 .

(2) آل عمران / 93 .

(3) أساليب البيان : ص 108 ، والآية في يوسف / 111 .

يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [1].

الفرع الثاني : تثبيت قلب الرسول محمد -ﷺ- ، وقلوب أمته

وذلك عن طريق بيان حسن خاتمة الأنبياء والمؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين المكذبين على مرّ الأزمان والأجيال .

قال تعالى :**﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

الفرع الثالث : إظهار إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه واختراقه لحاجز الزمن الماضي

فالقرآن الكريم تظهر بلاغته ، وبيانه في جميع سوره وآياته ، ففي سورة يوسف – مثلاً – يسوق القصة ، ثم يأتي من خلالها بالعظات البالغة ، ويسوق البراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة .

قال تعالى في فصول تلك الرواية الرائعة :**﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾** [3].

فقد قوبلت في هذه الآية الكريمة دواعي الغواية الثلاثة ، بدواعي العفاف الثلاثة مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان [4].

فهذه المحنة التي تعرض لها يوسف – عليه السلام – ، هي أشد وأعظم على النفس من محنته ، مع إخوانه ، ولكنه صبّرَ عليها ، اختياراً وامتثالاً لأمر الله ، وقابل دواعي الغواية بدواعي العفاف والطهارة .

---

(1) البقرة / 30-34 .

(2) هود / 120 .

(3) يوسف / 23 .

(4) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ط1 ، 1416هـ-1996م ،337/2.

فحيـــنما راودتـــه عـــن نفســـه ، وعرضت عليه نفسها ، وهي في قمة الجمال والأنوثة ، امتنع تقوى لله – عزّ وجل – ، بالرغم من كونه غلامها ، والمسكن واحد ، وإمكانية وقوع المكروه دون شعور من أحد.

وحينما غلقّت الأبواب إغلاقاً محكماً ، فأصبح أسيرها ، إضافة لكونه غلامها ، إلا أنـــه صبر عن معصية الله ، وقال لها أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل الشنيع ، القبيح لأنه مما يسخط الله ، ويبعد عنه ، فهو خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي ، أي أنه امتنع مراعاة لحق سيده .

فحاولت بعد ذلك إغراءه بكل الوسائل ، فعرضت نفسها عليه عرضاً صريحاً ، فقالت له: هأنذا، ولكنه خاف ربه ، وفرّ باتجاه الباب هارباً .

كما أن القرآن العظيم قد مزق حاجز الزمن الماضي ، وأخبرنا بما حدث للأمم السابقة ، وروى لنا قصص الرســل السابقين ، وحكى لنا على لسان نبيه الأمي الذي لا يقــرأ ولا يكتــب أســرار الماضي التي لا يعرفها أحد في قومه ، أو في العالمين المعاصرين له ولم يشاهدها الرسول –ﷺ–، متحدياً بذلك المكذبين .

قـــال تعـــالى :**﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** (1).

فقولـــه تعالى **﴿وَمَا كُنتَ﴾** وتكرارها في كثير من الآيات دليل على أنه –ﷺ– لم يكن هنالك ، ولكن الذي أخبره ، ومزّق له حجاب الزمن الماضي، هو الله تعالى(2).

الفرع الرابع : تحذير بني آدم من غواية الشيطان

قال تعالـــى فـــي ســـورة الأعراف بعد ذكر قصة آدم وإبليس :**﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَـــنَّكُمُ الشَّـــيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا**

---

(1) آل عمران / 44 .

(2) والنماذج على ذلك كثيرة ، أذكر منها أربعة نماذج على سبيل المثال ، لا الحصر :

أ- قال تعالى :**﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾. هود/49**

ب- وقـــال تعـــالى :**﴿وَمَـــا كُنـــتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. القصص/44 .**

ج- وقال تعالى :**﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. القصص/45 .**

د- وقال عزّ وجل :**﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾**. القصص/46 .

سَـــوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (1).

الفرع الخامس : بيان أساليب الأنبياء في الدعوة إلى الله ، أو محاجتهم لأقوامهم لإثبات قضايا العقيدة

وتتمثل هذه الأساليب فيما يلي :

1. أســلوب الــتدرج :ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْـنَامًا آلِهَــةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِــيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ .فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَــالَ هَــذَا رَبِّــي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْــتُ وَجْهِــيَ لِلَّــذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَآجَّــهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَــاء رَبِّــي شَــيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَــقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْــنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (2).

فقــد تمثل التدرج بدعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه أولاً ؛ لأنه أقرب قومه إلــيه ، ثم دعا قومه، وكذلك تدرج معهم في إثبات ما يدعو إليه ، وهو الإيمان بالله ، ونــبذ كل ما يعبدون من دونه ، فجعل يسايرهم في الظن بالمعبودات ،ثم ينقض صحة ربوبيتها ؛ ليصل في النهاية إلى الإيمان بالله وحده، والكفر بكل ما سواه ؛ لأنه لا شيء سوى الله يستحق العبادة .

---

(1) الأعراف / 27 .

(2) الأنعام / 74-83 .

ومـــن فوائـــد دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه أن يقيم الحجة على قومه ؛ حتى لا يقولوا لماذا يَدَعُ أقاربه في ضلالهم ويدعونا ؟ أليس من اللائق أن لا يفرق بين قريب وبعيد إذا كان ما يقوله حقاً؟!.

فلكي تنقطع أعذارهم دعا أباه إلى عبادة الله وحده كما دعا قومه .

ولعـــل هذا هو السر في تكليف نبينا محمد -ﷺ- بإنذار عشيرته الأقربين قبل إنذاره لقومه ، وقد صَدَع بالأمر ، وأخذ يجمعهم ويخوفهم من الله ، ويريهم أنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئاً إذا هم خالفوه [1].

2. **أسلوب الترغيب والترهيب :**

اســتخدم الرسل الكرام – عليهم أفضل الصلاة والسلام – أسلوب الترغيب في الدعــوة إلـــى الله تعالى وكان هذا الأسلوب هو السمة المميزة لهم جميعاً ، سواء كان الترغيب في طاعة الله ، أو في الخلق الحسن ، وأتناول حديث الأنبياء مع أقوامهم في البنود الآتية :

أولاً : نوح عليهم السلام

فقد رَغَبَ نوح – عليه السلام – قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من مغفــرة الله تعـــالى لذنوبهم ، ومن إطالة أعمارهم ؛ ليزدادوا من فعل الخير ، وبذلك تــتحقق لهــم المغفــرة في الآخرة ، قال تعالى مخبراً عن نوح –عليه السلام– :﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّـــي لَكُـــمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [2].

فقـــد أمـــرهم نـــوح – عليه السلام – بثلاثة أشياء : أن يعبدوا الله ، ويتقوه ، ويطـــيعوه فيما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه ، ورغبهم في هذه الأشياء الثلاثة ، بأنهم إن فعلوها غفر الله لهم من ذنوبهم ، وأطال أعمارهم ، وفي ذلك خير مؤكد ، ومنفعة لهم في الآخرة ، ثم وعدهم نوح – عليه السلام – إن استجابوا لدعوته ، وعبدوا الله وحده وتابوا إليـــه واســـتغفروه ؛ فإن الله تعالـــى سيسبغ عليهم نعمه في الدنيا ، وييسر لهم

---

(1) انظر دراسات في طريق الدعوة الإسلامية ، ص169.

(2) نوح / 1-4 .

ما يحبونه من منافعها ، وهذا تشجيع من نوح لهم على الدخـــول في الدين قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (1).

أي إذا تبتم إلى الله ، واستغفرتموه ، وأطعتموه كثَّر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بـــركات السماء ، وأمدكم بأموال متنوعة وبنين ، وجعل لكم جنات وبساتين فيها أنواع الثمار ، وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها (2).

ثانياً : هود – عليه السلام –

كما سلك هود – عليه السلام – مع قومه مسلك الترغيب بما يحبون من نزول المطر الذي ينبت لهم الزرع، ومن أنواع القوة التي يحبونها إن هم استجابوا لدعوته ، فقـــال تعـــالى على لسانه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (3).

فقدأمـــرهم هـــود – عليه السلام – بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، والـــتوبة عمـــا يســـتقبلونه، وإن من يتصف بهـــذه الصفات ، فإن الله تعالى ييسر لهم رزقهـــم ويرســـل علـــيهم المطر متتابعاً يتلو بعضـــه بعضاً ، ومثل هذا المطر كان ضـــرورياً لهـــم ؛ لأن أرضـــهم رملـــية (4)، وتحتاج إلى مطر كثير لسقي زروعهم وبساتينهم ، ومع إرسال السماء بالمطر المتتابع ، فإن الله تعالى يزيدهم قوة إلى قوتهم وشدة إلى شدتهم(5).

ثالثاً : موسى – عليه السلام –

كما سلك موسى – عليه السلام – نفس الطريق ، حيث دعا قومه إلى الاستعانة بـــالله ، وإلى الصبر ، ووعدهم بأنهم إن فعلوا ذلك ، واستجابوا له فإن الله – تعالى – سوف يورثهم الأرض، بحيث يصبحون هم المتصرفين بها .

---

(1) نوح / 10-12 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 425/4 ، ومفاتيح الغيب للرازى : 138/30.

(3) هود / 52 .

(4) ربما لأن الأحقاف هي الكثبان الرملية ، انظر مختار الصحاح ص146.

(5) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 53/9 ، 54 ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : 460/2.

قـــال تعـــالى حاكياً عنه :﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1).

قـــال لهم موسى – عليه السلام – حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم، فجزعوا مـــنه وتضجروا، فأراد موسى – عليه السلام – أن يسكِّنهم ويسلِّيهم ، ويعدهم النصرة على أعدائهم – فرعون وقومه –، وتوريثهم أرضهم وديارهم ، وأن العاقبة دائماً وأبداً للمتقيـــن فـــي الدنـــيا والآخـــرة، فهم أصحاب العاقبـــة المحمـــودة ؛ لإيمانهم بالله ، واستعانتهم به ، وصبرهم على ما يصيبهم في سبيل الله (2).

رابعاً : يونس – عليه السلام – ، وقومه

(أ) قوم يونس – عليه السلام – :

قال علماء التفسير : بعث الله يونس – عليه السلام – إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، فكذبوه ، وأبوا عليه ، وظلوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال عليه أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلـــول العذاب بهم بعد ثلاث، فلما تحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابـــة ، وندمـــوا علـــى ما كان منهم ، فلبسوا المسوح (3) ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثمَّ عجوا إلى الله – عزَّ وجل – وصرخوا ، وتضرعوا إليه ، وبكى الرجال والنســـاء والبـــنـــون والبـــنات والأمهات ، وكانت ســـاعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظـــيم – بحوله وقوته ، ورأفته ، ورحمته – عنهم العذاب ، الذي كان قد اتصل بهم سببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم (4).

ولهـــذا قال تعالى :﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (5).

أيْ : فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها ، وعدم إيمانها برسولها آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته – كما فعل فرعون – ،

---

(1) الأعراف / 128 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 244/2 ، والكشاف للزمخشري : 105/2 .

(3) جمع مِسْح : وهو الكساء من الشعر . لسان العرب : 101/13 .

(4) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير :442/2 ، 443.

(5) يونس / 98 .

﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ لما آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله عنهم العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا [1].

فقد آمنوا قبل وقوع العذاب بهم فعلاً ، أو قبل معاينته ، إذ بمجرد أن خرج نبيهم –عليه السلام– غاضباً علموا بقرب وقوع العذاب بهم ، فآمنوا بالله ، وتابوا إليه ، وأخلصوا النية لله، فقبل الله – تعالى – ذلك منهم ، وغفر لهم ، ورفع عنهم العذاب الذي كان محققاً نزولُه بهم لو لم يؤمنوا .

وبذلك تكون هذه القرية قد نجت من عذاب محقق بسبب الإيمان بالله ، والتوبة على ما فات ، والندم على العصيان ، والمداومة على الاستغفار .

وهذا مَثَلٌ حي يضرب لكل عاصٍ أو كافر ترغيباً لهم في الإيمان .

(ب) يونس عليه السلام :

وننتقل من قوم يونس – عليه السلام – إلى يونس نفسه ، فإنه لما خرج مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر ، فلجّت بهم واضطربت ، وماجت ، وكادوا يغرقون ، فتشاوروا فيما بينهم أن يقترعوا ، ومن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ، فوقعت القرعتة على نبي الله يونس – عليه السلام – فلم يسمحوا به ، وأعادوها ثانية وثالثة فوقعت عليه أيضاً فألقوه ؛ لِمَا يريده الله به من الأمر العظيم .

وبعث الله عزّ وجل حوتاً عظيماً من البحر فالتقمه ، وأمره ألا يأكل له لحماً ، ولا يهشم له عظماً ، فليس له برزق ، قال تعالى :﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ [2] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[3] . فَسَاهَمَ [4] فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[5] . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ [6].

---

(1) انظر الكشاف للزمخشري : 254/2 ، ومحاسن التأويل للقاسمي : 3398/9 .

(2) أي : هرب .

(3) أي : المملوء .

(4) أي : قارع من في السفينة .

(5) أي : المغلوبين بالقرعة . انظر جامع البيان للطبري : 117/23 ، 118 .

(6) الصافات / 139-142 .

فسمع دواب البحر تسبح الله فسبح مثلهم، واستمر على ذلك، فكان ذلك التسبيح سبباً في نجاته من هذه المحنة ، حيث استجاب الله تعالى لدعائه وتسبيحه ، ونجّاه من الغم ، وعفا عنه ، وكل ذلك بسبب العودة والإنابة إلى الله – عزّ وجل – ، وعدم الاستمرار على المخالفة – ولو كان بدون قصد – .

1. قال تعالى :﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (1).
2. وقال تعالى :﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾(2).

وعلى هذا فينبغي للناس بصورة عامة ، الإكثار من العمل الصالح وقت الرخاء ، والفراغ والصحة ، ومحاولة التقرب إلى الله تعالى بكافة الوسائل من دعاء وصلاة وصيام ، والتقرب إليه تعالى بالنوافل ؛ لأن هذه الأعمال رصيد نافع لهم ، يفيدهم في وقت الشدائد والكروب ، وتكون سبباً في كشف ما يحلّ بهم .

وكما رغّب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أقوامهم بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، وهو الغاية الأولى التي أرسلوا من أجلها ، كذلك رغّبوهم بالأخلاق الفاضلة ؛ لأن الأخلاق هي شطر الإيمان ، ولا يكمل إيمان عبد إلا إذا كانت أخلاقه حسنة ، قال تعالى :﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (3).

كما دعا رسولَه الكريمَ -ﷺ- إلى اللين في الدعوة إلى الله ، ومخاطبتهم بالحسنى ؛ لأنها قد تكون بعد إرادة الله سبباً في هدايتهم ، وهو لون من الترغيب الذي يستميل القلوب .

قال تعالى :﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (4).

وكما أن الأخلاق اللفظية مطلوبة ، فكذلك الأخلاق والسلوكيات الفعلية هي سمة للإنسان المسلم ، وختم على جبينه تميزه عن غيره .

---

(1) الأنبياء / 87 ، 88 .

(2) الصافات / 143 ، 144 .

(3) آل عمران / 159 .

(4) النحل / 125 .

خامساً : شعيب – عليه السلام–

إن شعيباً – عليه السلام – لم تقف دعوته لقومه عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده،ونبذ عبادة ما سواه ،وإنما دعاهم إلى الإقلاع عن المفاسد والمنكرات التي فشت فيهم ، وانغمسوا فيها.

قال تعالى مخبراً عما نهاهم عنه :﴿ **فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ (1).

فشعيب – عليه السلام – أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، وهذا يتضمن نهيهم عن التطفيف فيها ، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم ؛ أيْ أكل أيِّ حق لا يجوز لهم.

كما أنه نهاهم – عليه السلام – عن الإفساد في الأرض بالكفر والظلم بعد ما أصلح لها أمرَها الأنبياءُ وأتباعُهم الصالحون .

وقد رغبهم في ترك هذه الأشياء بأن ذلك خير وأفضل لهم ، وأنه علامة لإيمانهم ، قال تعالى على لسانه – عليه السلام – :﴿ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾(2).

أي أن ما آمركم به ، وأنهاكم عنه هو خير لكم في دينكم ودنياكم ؛ لأن ما آمركم به وأنهاكم عنه هو مما أمرني الله به ، والله ربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم ، ولا ينهاكم إلا عما ضار بكم ، وإنما تتحقق هذه الخيرية لكم بما أمرتكم به ونهيتكم عنه بشرط الإيمان والتوحيد ، وإلا فلا ينفع عمل بدون إيمان (3).

---

(1) الأعراف / 85 ، 86 .

(2) الأعراف / 85 .

(3) انظر المحرر الوجيز لابن عطية :574/5، ومحاسن التأويل للقاسمي : 2811/7، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 527/8.

الفصل الثاني
الترهيب من المحبطات

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضرب الأمثال

المبحث الثاني : سرد القصص .

الفصل الثاني

الترهيب من المحبطات

وســـأتناول فيه الحديث عن أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم ، في علاج كثير من القضايا سواء العقائدية ، أم الأخلاقية ، ألا وهو الترهيب .

المبحث الأول

ضرب الأمثال

كمـــا أن الأمـــثال تناولـــت الترغيب بالصالحات ، كذلك تناولت الترهيب من المحبطات ، عن طريق تمثيلها بشيء تكرهه النفس ، وتنفر منه .

باســـتقراء الأمـــثال المرهبة في القرآن الكريم ، نجد أنها رهّبت من كثير من الصفـــات والأخـــلاق التـــي لا ينبغـــي أن يتصـــف بها الإنسان ، سأذكر بعضاً منها – إن شاء الله – بحيث تمثل كل صفة مطلباً من المطالب التالية .

المطلب الأول : الترهيب من الكفر

الكفر من أخطر القضايا التي عالجها القرآن الكريم ، ورهّب منها عباده ، حين صـــوّره بأبشـــع الصور والأمثال ؛ لتكون زاجراً ، وسبباً في الإقلاع عنها مباشرة ، فكانـــت – بعد إرادة الله – سبباً في هداية كثير من الناس ، كما أن كثيراً منهم كأن في آذانهم وقراً .

وصدق الشاعر حين قال :

قد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد صوّر الله – تعالى – الكفار في جهلهم ، وعدم استماعهم للحق ، واتباعهم له بالبهائم التي لا تعقل شيئاً ، ولا تهتدي .

قـــال تعالـــي :**﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** (1).

---

(1) البقرة / 171 .

يقـــول ابـــن الجوزي : ((فالبهائم لا تعقل شيئاً ، وهي المثل في الجهل وعدم المعـــرفة ؛ ولذلك ضربها الله – تعالى – مثلاً للكفار حيث شبههم بها ، وشبه داعيهم إلى الإيمان بمن ينعق بها .

وهذا المثل يرسم صورة مزرية مهينة للكفار ؛ ذلك أنهم كانوا لا يسمعون من دعـــاء الداعي إلى الإيمان ، وهو محمد -ﷺ- ، إلا جرس النغمة ، ودويَّ الصوت ، من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار ، ولا تعقل .

وكذلـــك البهائم لا تسمع من دعاء راعيهـــا والناعق بها إلا الصوت والزجر ، ولا تفقه شيئاً مما يقول ، ولا تعقل عنه شيئاً .

إنهم كما وصفهم الله – سبحانه وتعالى – : **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** هم لهـــم آذان وألسنة ، وعيون ، ولكن ما فائـــدة كـــل ذلـــك إذا لم ينتفعوا به ، وإذا لـــم يهـــتدوا ؛ لقـــد عطّلوا وظائف آذانهم وألسنتهم وعيونهم ، وهي منافـــذ المعرفة والهدايـــة ، فأصـــبحوا كالبهائم لا تعلم شيئاً، ولا تعقل شيئاً ، وذلك هو مصير كل من يغلق نوافذ العلم والمعرفة والهداية)) [1].

وكما شبّههم سبحانه وتعالى بالبهائم بشكل عام ، كذلك صوّرهم في إعراضهم ، وعدم استجابتهم ونفورهم عن القرآن بنوع خاص من البهائم ، وهي حُمُرُ الوحش حال فرارها ممن يريد صيدها ورميها كأسد ونحوه .

قال تعالى :**﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾** [2].

قال ابن القيم – رحمه الله – ((شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ، ففرت منهم ، وهـــذا من بديـــع التمثيل ، فإن القوم في جهلهم بمـــا بعـــث الله – سبحانه – رسوله -ﷺ- كالحمر ، فهي لا تعقل شيئاً ، فإذا سمعت صـــوت الأســـد أو الرامي نفرت منه أشد النفور ، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها)) [3].

---

(1) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ، ط المكتب الإسلامي/دمشق – بدون تاريخ – : 287/3.

(2) المدثر / 49 ، 50 .

(3) الأمثال لابن القيم ص 212 .

فهـم إذن أسوأ حالاً من الحمر ، وأقلّ إدراكاً ووعياً ، وفهماً للحقائق ، فهي قد فرّت مما فيه مضرتها وهلاكها ، وهم فرُّوا مما فيه نجاتهم وحياتهم .

ولقد ضرب – سبحانه وتعالى – مثلاً حياً يُتلى إلى قيام الساعة ، مرهباً فيه من الكفر وعاقبته، ومبيناً أنه يقلب الحال ، ويجر على صاحبه الدمار والوبال في الدنيا قبل الآخرة .

قـال تعالى :﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا [1] مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا [2] . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا [3] فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [4].

وكمـا أن الكفـر يدمر حياة الأفراد ، ويغيِّر أحوالها ، فهو كذلك يقضي على القـبائل والقـرى بأكملها ، يغيّر حالها ، ويقلب اطمئنانها وهدوئها إلى جوع وخوف واضطراب .

قال تعالى :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [5].

---

(1) أي : عذاباً بمطر عظيم ، أو غيره .

(2) أي : اقتلعت أشجارها ، وتلفت ثمارها ، وغرق زرعها ، وزال نفعها .

(3) أي غائراً في الأرض . تفسير السعدي : 1011/1 .

(4) الكهف / 32–42 .

(5) النحل / 112 .

ولا يقــف الحــال عــند تغيير الحال ، بل يتعداه إلى الدمار والهلاك ، والفناء بالكلية .

قال تعالى :﴿ وَاضْــرِبْ لَهــُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَــلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَــا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَــمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنــتُمْ قَــوْمٌ مُّســرِفُونَ . وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَــلِينَ . اتَّــبِعُوا مَــن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِــي وَإِلَــيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَــامِدُونَ . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [1].

مصير عمل الكافرين :

بيَّــن – سبحانه وتعالى – أن عمل الكافر مردود غير مقبول ، فلو عمل الكافر عملاً صالحاً بشتى أنواعه ، فلن يقبل منه شيء –بأمر الله تعالى– مهما بلغت كثرته .

قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾ [2].

وقد شبه – سبحانه وتعالى – ما ينفقه الكافر من أموال في أوجه الخير بالريح القوية الشديدة التي تصيب الزرع فتهلكه .

قــال تعــالى :﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَــابَتْ حَــرْثَ قَــوْمٍ ظَلَمُــواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

يقول القرطبي – رحمه الله – : ((ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها ، كمثل زرع أصابــه ريح بــاردة ، أو نار فأحرقته وأهلكته ،

---

(1) يس / 13–31 .

(2) الفرقان / 23 .

(3) آل عمران / 117 .

فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه، قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّـهُ﴾ بذلك، ﴿ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية، ومنع حق الله تعالى، وقيل: ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة، أو في غير موضعها، فأدبهم الله تعالى ؛ لوضعهم الشيء في غير موضعه)) [1] .

قال ابن القيم – رحمه الله – : ((هذا مثل ضربه الله – تعالى – لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته ، فشبه – سبحانه – ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر ، وكسب الثناء، وحُسن الذكر ، لا يبتغون به وجه الله ، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله ، واتباع رسله – عليهم الصلاة والسلام – بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره ، فأصابه ريح شديدة البرد جداً ، يحرق بردها ما يمرّ عليه من الزرع [2] ، والثمار فأهلكت هذا الزرع وأيبسته)) [3] .

وكذا شبّه أعمالهم بالرماد الذي هبّت عليه ريح شديدة فذرته ، ولم يبق منه شيئاً .

قال تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [4].

يقول ابن القيم – رحمه الله – : ((شبه – سبحانه وتعالى – أعمالهم في ذهابها وبطلانها لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان ، وكونها لغير الله – عزّ وجل – وعلى غير أمره برمادٍ طيّرته الريح العاصف ، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدّة حاجته إليه ، فلذلك لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون لها أثراً من ثواب ، ولا فائدة

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 187/4.

(2) قول ابن القيم – رحمه الله – : (...يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع ...الخ) قد يبدو متناقضاً في الظاهر ؟ لأن الذي يحرق هو الحرّ لا البرد .

والجواب : إن الريح الباردة جداً تؤدي إلى تجميد المياه الموجودة على أوراق الزرع ، فإذا جمدت سدّت الخلايا أو المنافذ التي يتنفس منها النبات ، وهي التي يكون منها ما يعرف (بالنّتح) ، عندئذٍ يختنق النبات لانسداد تلك المنافذ فيموت ، ويجف ، فيبدو كما لو كان محترقاً .

(3) الأمثال لابن القيم ص258 ، 259.

(4) إبراهيم / 18 .

نافعة ؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه)) [1] .

وكذا شبهها – سبحانه وتعالى- بالسراب الذي لا حقيقة له ، وبالظلمات الداهمة المتراكمة، الشديدة ، وما كلُّ ذلك التشبيه إلا لبيان خطورة المسألة ، فربما تُعْجِبُ الكافرَ أعمالُه الصالحة ، ويظنُّ أنها تنفعه يوم القيامة ، وربما يغترُّ غيره من ضعاف النفوس من المسلمين، ويظنون أن أعماله سوف تنفعه، وتشفع له ، وتنجيه من النار، وربما تحدثهم نفوسهم بمحاكاته .

قال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ [2] يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾** [3] .

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أعمال الكفار باطلة ، وأنها لا شيء ومن المعلوم أن عمل الكافر الصالح ينفعه في الدنيا دون الآخرة.

يقول ابن القيم – رحمه الله – : ((ذكر سبحانه للكافرين مثلين ، مثلاً بالسراب ومثلاً بالظلمات المتراكمة ؛ وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان ، **أحدهما :** من يظن أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنُّه ، وهذه حال أهل الجهل ، أهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم ، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسرابٍ يُرَى في أعين الناظرين ماءً ، ولا حقيقة له ، وهكذا الأعمال التي لغير الله – عزَّ وجل – ، وعلى غير أمره ، يحسبها العاقل نافعةً له ، وليست كذلك ، وهذه هي الأعمال التي قال الله – عزَّ وجل – فيها : **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾** [4].

---

(1) الأمثال لابن القيم ص 227 .

(2) أي : عميق كثير الماء . كلمات القرآن ص 244 .

(3) النور / 39 ، 40 .

(4) الفرقان / 23 .

وتأمل جَعْل الله – سبحانه – السراب بالبقيعة – وهي الأرض الخالية المقفرة من البناء والشـــجر والنـــبات ، فجعل السراب أرضَ قفرٍ لا شيء فيها، والسراب لا حقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ما تحت قوله : ﴿ **يَحسَبْه الظَمآن ماءً** ﴾ ، والظمآن الذي اشتد عطشه ، فرأى السراب ، فظنه ماء ، فتبعه ، فلم يجده شيئاً ، بل خانه وهو أحوج ما يكون إليه فكذلـــك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غيرِ طاعة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ، ولغير الله ، جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا إليه ، وأحوجَ ما كانوا إليها ، فلم يجدوا شيئاً ، ووجدوا الله سبحانه، ثم جازاهم بأعمالهم ، ووفاهم حسابهم، فهذا مثل الضالّ الذي يحسب أنه على هدى.

وأمـــا الـــنوع **الثاني** : وهم أصحاب مَثَل الظلمات المتراكمة ، وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، متراكمة عليه ظلمة الطبع ، وظلمة الـــنفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا [1] بعلمهم فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغـــيّ والهوى ، فحالهم كحال من كان في بحر لجيّ لا ساحل له ، وقد غشيه موج ، ومـــن فوق ذلك الموج موج ، ومن فوقه سحاب مظلم ، فهو في ظلمة البحر ، وظلمة المـــوج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ما فيه من الظلمات ، التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان)) [2] .

المطلب الثاني : الترهيب من الشرك بالله – تعالى –

وكما حذر – سبحانه وتعالى – ورهّب من الكفر ، كذا رهّب عباده من الشرك به ؛ لأن ضرر الشرك وخطره لا يقل عن ضرر الكفر ، فالشرك يحبط العمل الصالح تماماً مـــثل الكفـــر ، قـــال تعالى :﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [3].

وقال أيضاً :﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ [4].

---

(1) في الأصل يعلموا ، وهو خطأ طباعي .

(2) الأمثال لابن القيم ص195 ، 196 ، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير 305/3.

(3) الزمر / 65 .

(4) الأنعام / 88 .

وقد بيَّن – سبحانه وتعالى – ان من أشرك به فقد ضل ضلالاً مبيناً ، وافترى علـــى الله إثماً عظيماً، وبذلك يستحق أن يُحرم من الجنة ؛ ويكفي المشرك خسارة أن رحمة الله – تعالى – تشمل جميع العباد يوم القيامة إلا هو .

قـــال – تعالى – : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ [1] .

وقـــال – جلَّ وعلا – : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا** ﴾ [2].

وقال – تبارك وتعالى – : ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ [3] .

من أجل ذلك رهَّب – سبحانه وتعالى – من الشرك به ، ومثّل له بأبشع الصور وأرعبها، حين مثّل حال المشرك بحال الذي يهوى من السماء ، أيْ من مكان بعيد جداً إلى مكان سحيق ، مع ما يلازم ذلك من خوف وخشية ، وإيقان بالهلاك .

قال تعالى واصفاً ذلك :﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [4].

وفي هذا التشبيه أمران :

أحدهما : شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب في هلاك نفسه هلاكاً لا يُرجى معه نجاة ، فصوَّر حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الهُوُيِّ ، فتمزق فرقاً ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة .

والثانـــي : أن يكـــون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوِّه وسعته ، وشرفه بالسماء التي هـــي مصعده، ومهبطه ، فمنها يهبط إلى الأرض ، وإليها يصعد ؛ وشبَّه تارك الإيمان والتوحـــيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين ، من حيث التضيُّق الشديد ، والآلام المتراكمة ، والطير الذي تتخطف أعضاءه ، وتمزقه كل ممزق [5].

---

(1) النساء / 48 .

(2) النساء / 116 .

(3) المائدة / 72 .

(4) الحج / 31 .

(5) الأمثال لابن القيم ص245 ، وانظر تفسير أبي السعود : 104/6.

كما أنه من باب الترهيب من الشرك ، شبه – تعالى – المشركين بما هو غاية فـــي الضعف والوهن ، فقد شبههم بالعنكبوت ،وشبه آلهتهم التي يعبدونها مع الله ببيت العنكبوت في ضعفها .

قال تعالى :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (1) .

يقـــول د.أحمــد بــدوي : ((وكثر في القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة الضوء ، تغمرها فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وَهْنَ ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله ، وهذا لن يفيدهم فائدة ما فهــم يعــبدون ويـــبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدي ، فوجد في العنكبوت ذلك الحــيوان الذي يتعب نفسه في البناء ، ويبذل جهــده في التنظيــم وهو لا يبني سوى أوهـــن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي ، فزادته وضوحاً وتأثيراً)) (2).

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ ، فلا يعقل صحتها ولا يــدرك حســنها وبلاغــتها إلا الراسخون في العلم ؛ لأن الأمثال والتشبيهات هي الطــرق المؤديـــة إلى المعاني المحتجبة في الأستار ، حيث تبرزها ، وتكشف عنها ، وتصوّرها للأفهام ، كما صوّر هذا المثل الفرق بين حال المشرك وحال الموحد .

المطلب الثالث : الترهيب من الإعراض عن دين الله – عزّ وجل–

حــذّر – سبحانه وتعالى – من التكذيب والإعراض عما نزّل من آيات بينات ، وشبّه المعرضين بأحقر تشبيه وأخسه ؛ ليكون أشدّ في الردع ، وأرجى في الإصلاح ، فقــد وصف اليهود وهم أصحاب كتاب سماوي كالمسلمين ، غير أنهم ناصبوا الإسلام والمســلمين العداء والدسّ ، والخديعة ، وتعاونوا مع المشركين – عبدة الأصنام – ، ولم ينتفعوا بكتابهم هذا ، لذا وصفهم – سبحانه وتعالى– بأذلّ الحيوانات ، وأجهلها .

---

(1) العنكبوت / 41–43 .

(2) من بلاغة القرآن ص 193 .

قـال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

(فالحمـار حيوان بليد مهين ذليل ، يضرب به المثل في الذلّ ، إذْ قال العرب في أمثالهم :" أذلُّ من حمار مقيد) [2].

كما يضرب به المثل في الجهل والغفلة ، وفي قلة المعرفة ، وغلظ الطبيعة [3].

ولهذا مثّل الله – عزّ وجل – به اليهود ، كلفوا بالتوراة ، وتدبر آياتها ، والعمل بمـا فيها ، ودعوة الناس إليها، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك ، وكان همهم قراءتَها وحفظها ليس غير ، فلم ينتفعوا منها بشيء ، ولم يحملوها حقَّ حَمْلِها ؛ لأن حملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ، وينتهي بالعمل بما فيها ، وتطبيق ذلك على أنفسهم ، وعلى من حولهم من الناس .

ألا يكـون هـؤلاء الـيهود كالحمار الذي يحمل الكتب الكبار من كتب العلم ، ويمشي بها جاهلاً كل الجهل بما فيها ، غير مميز بينها وبين سائر الأحمال التي ليست مـن العلوم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل سوى أنه ثقيل عليه ، ويكد مَتْنه؟! [4].

وكما شبههم بالحمار ، فقد شبه بعضهم بما هو أذلّ وأحقر ، وأنجس ، فقد شبه حـال الـذي آتـاه الله من آياته ، وأنعم عليه بنعمة العلم ، فلم يشكر تلك النعمة ؛ بل جحدهـا ، وانسـلخ منها ، وأخلد إلى الأرض ، وظل يلهث وراء الدنيا ، بحال الكلب الذي من أخص صفاته وأخسها اللهاث الدائم المتصل ، سواء حُمل عليه أو لم يُحمل .

قـال تعـالى : ﴿وَاتْـلُ عَلَـيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ فَمَـثَلُهُ كَمَـثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُـواْ بِآيَاتِنَـا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ

---

(1) الجمعة / 5 .

(2) الدرة الفاخـرة لحمزة الأصبهانـي ، (ت) د.عبد المجيـد قطامس ، ط/ القاهرة 1391هـ – 1971م ، 415/2.

(3) انظر الحيوان للجاحظ ، (ت) عبد السلام هارون ، ط/ القاهرة 1945م ، 255/2 ، 38/4.

(4) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، ط/ القاهرة، 1939م ، ص80 ، 81 .

كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [1] .

وكل ما يعنينا من حقيقة هذا الرجل ، هو وأمثاله ، ومن سار على دربه ، أنه كان رجلاً آتاه الله من آياته ، وأنعم عليه نعمةَ العلم ، حتى صار العالم الكبير ، والحبر النحرير ، ثم جحد النعمة ولم يشكرها ، أو انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله ، وترك كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق ، التي يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس ، فلما انسلخ منها تسلط عليه الشيطان ، وأغراه بالمعاصي ، ودفعه إليها ، وبذلك صار إلى أسفل سافلين ، ولو شاء الله لرفعه ، ولكنه أخلد إلى الشهوات السفلية ، والمقاصد الدنيوية ، وترك طاعة مولاه ، فهذا مثله في شدة حرصه على الدنيا ، وانقطاع قلبه إليها بالكلب الذي لا يزال لاهثاً في كل حال .

يقول السعدي – رحمه الله – : ((وفي هذه الآيات ، الترغيب في العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعةٌ من الله لصاحبه ، وعصمة من الشيطان ، والترهيب من عدم العمل به وأنه نزولٌ إلى أسفل سافلين ، وتسليط للشيطان عليه ، وفيه أن اتباع الهوى ، وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان)) [2] .

المطلب الرابع : الترهيب من النفاق

إن خطر النفاق وضرره لا يقل جُرْماً عن خطر الكفر والشرك ، بل هو أشدُّ وأنكى ، فالمنافق هو العدو الحقيقي للمسلمين ؛ لأنه مستور الحال ، مختلط مع المسلمين ، يجلس في مجالسهم ، ويستمع لأحاديثهم ، ويعرف أخبارهم ، ويتمنى في قرارة نفسه مضرتهم وهلاكهم ، بعكس العدو الظاهر – الكفار والمشركين – ، فهؤلاء أمرهم مكشوف ، وحالهم معروف ، يستتر منهم المسلمون عند الحديث ، ولا يجالسونهم ، ولا يخالطونهم .

من أجل ذلك حذَّر – تعالى – عباده المؤمنين منهم ، من مخالطتهم ؛ لأنهم على ملة الكفر ، وقد وصفهم تعالى بأنهم إخوة للكفار ، قال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [3] .

---

(1) الأعراف / 175–177 .

(2) تفسير السعدي : 630/1 ، 631 .

(3) الحشر / 11 .

كما قرن – عزّ وجل – بينهما في العقوبة ، فقال :﴿ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [1].

وقال أيضاً :﴿ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [2].

وكـذا طلب من الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – عدم إطاعتهم ، بل أوجب مجاهدتهم كالكفار.

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [3] .

وقال أيضاً :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [4] .

ومـن أجـل القضاء على النفاق ، أو الحدّ منه ، رسم – تعالى – ، له صورة مرعـبة مخيفة ، ترهيباً وتنفيراً منه ؛ لعل المنافقين يستيقظون من غفلتهم ، ويعودون إلى رشدهم ، ويخلصون النية لله ، بعد أن يدخلوا في دائرة الإسلام بحق .

قـال تعـالى واصفاً حال المنافقين :﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَـوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ . اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُـمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَـارَتُهُمْ وَمَـا كَـانُواْ مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَـهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَـرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِـم مِّـنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [5].

ضرب تعالى في هذه الآيات للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلاً نارياً ، ومثلاً مائياً ؛ لما في المـاء والنـار من الإضاءة والإشراق والحياة ، فإن النار مادة النور ،

---

(1) النساء / 140 .

(2) التوبة / 68 .

(3) التوبة / 73 .

(4) الأحزاب / 1 .

(5) البقرة / 14-20 .

والماء مادة الحياة .

((فقـد ضـرب الله تعالى في هذه الآية المثل لما يعتري الكفار والمنافقين من الشُبه والشكوك في القرآن ، فهؤلاء المنافقون مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي كـان فـي ظلمـة عظيمـة ، وحاجة إلى النار شديدة ، فاستوقد ناراً من غيره ، فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بتلك النار ، وقرت بها عينه ، فبينما هو كذلك ، إذْ ذهب الله بـنوره ، فـزال عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقي في الظلمة العظيمة ، والنار المحرقة ، فذهب ما فيها من الإشراق ، وبقي ما فيها من الإحراق ، وبقي في ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف ؛ فكذلك هؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن لهم صفة ، واستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا ، فَحُقِنَتْ بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوعٌ من الأمن في الدنيا ، فبينما هم كذلك إذْ هجم عليهم المـوت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كلُّ همٍّ وغمٍّ وعذاب ، وحصل لهم ظلمات متراكمة ، ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار [1] ، وبئس القرار .

ثـم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي ، فشبههم بأصحاب المطر الذي ينزل مـن السماء بكثرة ، وهذا المطر فيه ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، بالإضافة إلى الرعد، وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب ، والبرق ، وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب ، فإذا أضاء إليهم البرق تلك الظلمات مشوا ، وإذا أظلم وقفوا مكانهم .

فهكـذا حالة المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، جعلـوا أصابعهم في آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعـيده ، وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيِّب الذي يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة .

---

(1) قوله : (وظلمة النار) قد يبدو متناقضاً ؛ إذ النار تطرد الظلمة ، فكيف يكون لها ظلمة ؟!

والجـواب : أن نار جهنم قد جاء في الحديث أنه أُوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضَّت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة.

وأمـــا المنافقون فأنى لهم السلامة ، وهو تعالى محيطٌ بهم ، قدرة وعلماً ، فلا يفوتونه ، ولا يعجزونه ؛ بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها أتمَّ الجزاء))[1] .

أي أن حـــال المشـــبه به الموجود في الظلمات المادية ربما تحصل له النجاة ، والســـلامة ، ولكنَّ هؤلاء المنافقين لا يمكن أن تحصل لهم النجاة أبداً ، فهم قد خسروا الدنـــيا والآخـــــرة ، وستعتصر قلوبهم ندماً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

يقول الشنقيطي – رحمه الله – : ((ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تقرع الآذان ، وتزعج القلوب ، وذكر بعضاً منها في آياتٍ أُخَرَ كقوله : **﴿ فَـإِنْ أَعْرَضُــوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾** [2] ، وكقوله :**﴿نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾** [3].

وضرب تعالى المثل بالبرق لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة ، والبراهين الســـاطعة ، وقد صرّح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك ، كما تكشـــف بالنور الحسي ظلمات الدجى ، كقوله :**﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾** [4].
وقوله :**﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ﴾**))[5] .

وقد أوضح -ﷺ- هذا المثل المشـــار إليـــه في الآيتين في حديث أبي موسى – رضـــي الله عنه – حيث قال -ﷺ- : **(إن مثل ما بعثني الله به – عزَّ وجل – من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة نقيةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب [6] أمسكت الماء فَنَفَع الله بها الناس فشربوا مـــنها ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قِيعان [7] لا تمسك ماءً ولا تنبـــت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه الله بما بعثنى به ، فَعَلِم**

---

(1) تفسير السعدي : 40 ، 41 بتصرف .
(2) فصلت / 13 .
(3) سبأ / 46 .
(4) النساء / 174 .
(5) أضواء البيان للشنقيطي : 41/1 ، 42 ، والآية في الأعراف / 157 .
(6) الأرض التي لا تنبت كلأ .
(7) المستوية التي لا نبات فيها . صحيح مسلم بشرح النووي : 51/8 .

وعلَّم ، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرْسِلْتُ به)[1].

المطلب الخامس : الترهيب من الرياء

إن الــرياء هــو الشرك الأصغر – كما مرّ – ، ولا يقل ضرراً أو خطراً عن الشرك الأكبر، فهو يحبط العمل الصالح ويبطله ، ويمنع انعقاد ثوابه .

مــن أجــل هذا حذّر الله تعالى ، ورهّب منه ،حين مثّل المرائي وبطلان عمله كمــثل حجــر أملس عليه تراب ، أصابه مطر شديد ، فتركه لا شيء ، وكذا المرائي يعمــل أعمالاً صالحة ، ثم يأتي الرياء فيدحضها ، ويأكل أجرها، ولا يبقي منه شيئاً ، فتصبح كأن لم تكن .

قــال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُــنفِقُ مَالَــهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [2].

يقول الطبري – رحمه الله – : ((ثم رجعَ تعالى ذكرهَ إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم ، فقال : فكذلك أعمالهم بمنزلة الصفوان الذي كان عليه تراب ، فأصابه الوابل من المطر ، فذهب بما عليــه من التراب ، فتركه نقياً لا تراب عليه ، ولا شــيء ، يــراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالاً ، كما يُرى التراب على هذا الصــفوان بما يراؤونهم به ، فإذا كان يوم القيامــة ، وصاروا إلى الله ، اضمحل ذلك كله ؛ لأنه لم يكن لله ، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب ، فتركه أملس لا شيء عليه ، فذلك قوله : ﴿**لاَّ يَقْدِرُونَ**﴾، يعني به الذين ينفقون أموالهم رئــاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، يقول : لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شــيء مما كســبوا في الدنيــا ؛ لأنهم لم يعملوا لمعادهم ، وحظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها...ثم قال – تعالى ذكره – للمؤمنين : لا تكونوا كالمنافقين الذين هــذا المــثل صفة أعمالهم فتبطلوا أجور صدقاتكم بمَنّكم على من تصدقتم بها عليه ،

---

(1) أخرجه (خ) ، ك (العلم) ، ب/20 (فضل من علِم وعلَّم) ، 53/1 ، ح (79) وأخرجه (م) ، ك (الفضائل) ، 420/15 ، ح (15) ، بنحوه .

(2) البقرة / 264 .

وأذاكم لهم ، كما أبطل أجر نفقة المنافق الذي أنفق ماله رئاء الناس ، وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر عند الله)) (1) .

يقـول ابـن القيم – رحمه الله – : ((وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها علـى أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائـي ،.... فقلـبه فـي قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر ، فـالعمل الـذي عملـه لغـير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر، فقوة ما تحته وصلابته تمنعه من الثبات والنبات عند نزول الوابل ، فليس له مادة متصلة بالذي يقبل المـاء ، وينبـت الكـلاء ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضـاء والقدر ، فإذا نزل عليه وابل الوحي ، انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه ، فبرز ما تحته حجراً صلداً لا نبات فيه ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيءٍ منه ، أحوجَ ما كان إليه)) (2).

المطلب السادس : الترهيب من الغيبة

مـرَّ أن الغيبة شديدة الخطورة على حسنات العبد المؤمن ، فهي تحبط عمله ، وتجعله هباءً منثوراً (3) .

وقد حذر الله – جلَّ شأنه – عباده المؤمنين منها ، ونفّر منها غاية التنفير بأبشع الصـور علـى الإطلاق ، حين صوّر المغتاب الذي يخوض في عرض أخيه المسلم بـالذي يأكل لحم إنسان ميت، فهو أكلٌ أولاً لحمَ إنسان ، وأكلُ لحم الإنسان لا يجوز ، وثانياً فإن ذلك الإنسان ميت ، وأكلُ الميتة لا يجوز حتى في الحيوانات التي يجوز أكل الحي منها ، وهو ثالثاً أخوه، والأخوة تقتضي الرحمة .

قال تعالى :﴿ **وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (4) .

---

(1) جامع البيان للطبري : 92/3 ، 93.

(2) الأمثال لابن القيم ص257 ، 258.

(3) انظر ص 122 .

(4) الحجرات / 12 .

فقــد شبه – سبحانه وتعالى – في هذه الآيات الكريمة تمزيق عرض الأخ عن طريق الغيبة بتمزيق لحمه ، فكان المغتاب الذي يمزق لحم أخيه في غيبته ، بمثابة من يقطــع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت ، وكذا المغتاب خالف مقتضى الأخوة ، وهي التراحم والتناصر ، وجعل مكانها الذم والعيب والطعن [1].

يقــول القرطبي – رحمه الله – : ((مثّل الله الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقــال ابن عباس – رضي الله عنه – : (إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين ، وقبيح في النفوس) .

وقــال قتادة : (كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؛ كذلك يجب أن يمتنع عــن غيبــته حــياً ، فشبّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم ، فمن تنقّص مسلماً أو ثَلَم عرضه ، فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً)) [2] .

وبذلــك تُعرف خطورة الغيبة ، وبهذا التصوير والتمثيل المرعب ، لا بد وأن يَنصاع المسلمون لهذا ، ويتركوا الغيبة فوراً ، لأن أكل لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً .

هــذه من أهم الأمور التي رهّب منها القرآن الكريم ، وإن كان هناك كثير من الصفات الأخرى .

ولكن اقتصرت على بعضها ؛ لأهميتها وخطورتها ، ولمخافة الإطالة .

---

(1) انظر الأمثال لابن القيم : ص 225 .

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 319/16 .

المبحث الثاني

سرد القصص

واشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : الترهيب من الكفر والشرك

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق الذميمة .

المبحث الثاني

سرد القصص

وكمـــا أن القصص القرآني سيق من أجل الترغيب بالصالحات ، فكذا سيق من أجل التنفير من المحبطات .

وهـــذا أيضاً أسلوب من أساليب جميع الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – في الدعـــوة إلى الله تعالى، فكثيراً ما نجدهم يستخدمون هذا الأسلوب في التنفير والترهيب ممـــا ينهون عنه ، وعلى رأس هذه القضايا الترهيب من الكفر والشرك ، ثم الترهيب من الأخلاق الذميمة .

المطلب الأول : الترهيب من الكفر والشرك :

وأكتفي هنا بسوق ثلاثة أمثلة لقيام الأنبياء بالترهيب من الكفر أو الشرك ، مع بيان ألوانٍ من العذاب الذي حاق بأقوامهم .

أولاً : نوح – عليه السلام –

هذا نوح – عليه السلام – لم يقتصر على أسلوب الترغيب في تبليغ دعوته إلى قومـــه ، وحثهم على الاستجابة لها ، وإنما أخذ أيضاً بأسلوب الترهيب ؛ أيْ التخويف من العذاب في الدنيا والآخرة ، إن هم عصوه ، ولم يستجيبوا لدعوته .

قـــال تعالى :**﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [1] .

قال مقاتل : يعني الغرق بالطوفان [2] .

وهذا ترهيب لهم من عصيانه بعذاب الدنيا بالغرق .

وقـــال تعالى أيضاً :**﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِـــهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** [3] .

أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري ، ولقيتم الله وأنتم مشركون به [4].

---

(1) نوح / 1 .

(2) مفاتيح الغيب للرازي : 134/10 .

(3) الأعراف / 59 .

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 228/2 .

وهذا ترهيب لهم بعذاب الله يوم القيامة إن خالفوه ، ولم يستجيبوا لدعوته .

وقال تعالى عما قاله نوح لقومه : ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [1].

قال ابن عباس – رضي الله عنه – :(ما لكم لا تعظمـون الله حق عظمته :أي لا تخافون من بأسه ونقمته) [2] .

ثانياً : هود – عليه السلام –

كما سار على نفس الدرب هود – عليه السلام – ، فقد أنذر قومه ، وخوّفهم من عذاب الله تعالى، إن هم خالفوا أمره ، ولم يستجيبوا له .

قال – تعالى– : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وقال أيضاً في موضع آخر :﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [4].

أي اذكر هوداً – عليه السلام – ، فهو أخوهم في النسب لا في الدين ، إذْ أنذر قومه، وقال لهم :إني أخاف عليكم إن كذبتم وبقيتم مصرين أن يصيبكم عذاب الله [5].

ثالثاً : شعيب – عليه السلام –

كمـا كـان الترهيب من أسلوب شعيب – عليه السلام – في الدعوة ؛ فقد أنذر قومه من العذاب الشديد الشامل إن هم عصوه ، ولم يتبعوا سبيله.

قـال تعـالى على لسانه : ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [6].

أي إني أراكم بخير وسعة في معيشتكم ورزقكم ، فلستم في حاجة إلى التطفيف وإني أخاف عليكم أن تُسلبوا ما أنتم فيه بعصيانكم شرع الله ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، أي في الدار الآخرة .

---

(1) نوح / 13 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 425/4 .

(3) الأحقاف / 21 .

(4) الشعراء / 135 .

(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 197/16 ، 198 .

(6) هود / 84 .

وقـد رهَّب الله – تعالى – عباده من عدم الإيمان به ، وعدم الاستجابة لرسوله – ﷺ– بذكـر عاقبة الأقوام المكذبين السابقين ، وكأنه يقول : إن فعلتم مثل ما فعلوا حـلَّ بكـم مـثل ما حلَّ بهم ، وهذا غاية في الزجر والوعيد ، فعاقبتهم جميعاً كانت متشـابهة ، ولكن اختلف الأسلوب ، وهذه طائفة من ألوان العذاب الذي أخذهم الله به أخذ عزيز مقتدر .

1. **قوم نوح – عليه السلام – :**

قـال تعـالى فيهم :﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُـواْ بِآيَاتِـنَا إِنَّهُـمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ** ﴾ [1] ، وكان غرقهم بماء منهمر ، وتفجير الأرض عيوناً ، وجرت سفينة نوح عليه السلام في موج كالجبال .

2. **وقوم هود – عليه السلام – :**

قـال تعـالى فـيهم : ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [2] ، وقـد كـان قطـع دابرهم بالريح العقيم التي ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

3. **وقوم صالح – عليه السلام – :**

قال تعالى فيهم : ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ [3] ، حيث أهلكوا بالصيحة التي جعلتهم كهشيم المحتضر .

4. **وقوم شعيب – عليه السلام – :**

قال تعالى فيهم : ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ [4] ، حيث أهلكوا بعذاب يوم الظلة والصاعقة التي نزلت بهم فأخمدت أنفاسهم .

5. **فرعون وجنوده :**

قـال تعـالى فيهم : ﴿**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [5] .

---

(1) الأعراف / 64 .
(2) الأعراف / 72 .
(3) الأعراف / 78 .
(4) الأعراف / 91 .
(5) الأعراف / 136 .

يقـــول ابـــن كثير – رحمه الله – : ((يخبر تعالى عن فرعون وقومه ، ومنهم جنوده ، أنهم لما عَتَوْا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات واحدة بعد واحدة [1] ، انتقم الله منهم بإغراقه وإغراق جنـــوده معـــه في البحـــر الذي فرقـــه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم جاء فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما صاروا فيه أطبقه الله عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وإعراضهم وتغافلهم عنها)) [2].

6. إهلاك أصحاب القرية – قوم الرجل المؤمن – :

قـــال تعالى :﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ . إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ [3] ، فكان مصيرهم كعاقبة ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .

7. قوم لوط – عليه السلام – :

قـــال تعالى : ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ [4] .

بيّن تعالى أنه أهلك كل قوم بصورة تختلف عن الأخرى ، بناءً على ما اقتضته الحكمـــة ، وأوجبته المعاملة بالمثل ، وحتى لا يكون نوع العذاب متوقعاً لدى الشعوب اللاحقة .

قـــال تعـــالى : ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا**﴾ [5].

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق الذميمة

وكمـــا رَهَّـــب الله – سبحانه وتعالى – عباده من عدم الإيمان به ، وإخلاص العبادة له ، وكذا رَهّب – تعالى – من الصفات الذميمة التي لا يحبُّها الله ، ولا يرضى عنها .

---

(1) هي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم، والسنين والقحط ، ونقص الثمرات والأموال ، واليد البيضاء ، والعصا . انظر جامع البيان للطبري :46/9 .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 248/2.

(3) يس / 28 ، 29 .

(4) الحجر / 73 ، 74 .

(5) العنكبوت / 40 .

ومن أهم الصفات التي رَهَّب تعالى منها صفة الكبر .

قـال تعالـى على لسـان لقمان في وصيته لابنه : **﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾** [1] .

أي لا تعـرض بوجهـك عـنهم إذا كلمـتهم أو كلموك ؛ احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ، ولكن ألِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث النبوي الشـريف عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله -ﷺ- قال : **(كل معـروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إنائه)** [2] .

وقوله تعالى : **﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾** [3] ، أي : خيلاء متكبراً .

ثـم خوّف – سبحانه وتعالى – من رفع الصوت، وأخبر أنه يقبح بالرفع حتى يـنكره الناس، ثم شبّه هذه الأصوات المرتفعة بأحقر صورة ، حين شبهها بأنها تشبه صوت الحمير [4] .

تعقيب وتحذير لهذه الأمة :

وبذلـك أصـبح واضـحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن الإعراض عن شريعة الله عاقبته هلاك المعرضين لشرع الله سنةً ثابتةً لا تتغير ولا تتبدل ، وإن كان موعد حلول العذاب غيرَ معروف ، وكذا نوع الهلاك مجهول .

وقد أشار تعالى إلى سنته هذه بآيات كثيرة ، فقال – عزَّ من قائل – : **﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِـنْهُـمْ قُـوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾** [5] .

---

(1) لقمان / 18 ، 19 .

(2) أخرجه (حم) ، 437/3 ، ح(14692) ،وقال : صحيح بطرقه وشواهده ، وحسّنه الألباني في صحيحه ، 837/2 ، ح(4557).

(3) الإسراء 37 .

(4) انظر محاسن التأويل للقاسمي : 4802/13.

(5) غافر / 21 .

أي هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ، أو لم يسيروا وينظروا كيف كان عاقبة الذيـــن كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبيائهم ، وما حلَّ بهم من العذاب ، مع أنهم كانوا أشدَّ من هؤلاء قوة وآثاراً في الأرض ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أخذهـــم الله بذنوبهم ، وهي كفرهم برسلهم ، وإعراضهم عن شريعة ربهم التي أرسل رسله بها ، وما دفع عنهم عذابَ الله أحد [1] .

من أجل ذلك يجب ألا يغترَّ المعرضون بقوتهم ، وألا يطمئنوا إلى تأجيل حلول العـــذاب والهـــلاك بهـــم رغم عصيانهم ، وليعلموا جيداً أن ذلك إمهال من الله العزيز الحكيم ؛ لأن الله يمهل ولا يهمل ، وأنه إذا أراد أن يأخـــذ أحـــداً فلن يعجزه ، ويجب ألا يغتروا أيضاً بكفاءاتهم ومُعدَّاتهم، وآلاتهم ، ولا يركنوا إلى أنهم الأقوى في زمانهم فـــإن مـــن حكمـــة الله العلي العظيم أن يجعل نهاية الظالم ، المغتر ، المتكبر على يد ضعاف الناس ؛ لأن الطغـــاة دائماً يقومون على باطـــل ، فقال تعالى موضحاً ذلك : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [2] .

وكـــان داود علـــيه السلام جندياً في جيش طالوت ، بينما كان جالوت هو قائد القوم الجبارين .

تنبيه : استخدام أسلوب الترغيب والترهيب معاً

ولم تقف طريقة الأنبياء – عليهم السلام – على استعمال أسلوب الترغيب على حـــدة ، وأســـلوب الترهيب على حـــدة ، بل كثيراً ما دمجوا الأسلوبين معاً ؛ تبعاً لحالة المدعو .

فهـــذا شـــعيب – عليه السلام – ذكـــرَّ قومه بنعم الله عليهم ، وما تقتضيه من الشكر ؛ لتبقى لهم وليزيدها الله عليهم ، وشكرها يكون بعبادة الله وحده ، وبطاعته فيما أمر به ، ونهى عنه ، كما حذرهم إن ظلوا على كفرهم وضلالهم أن يصيبهم ما أصاب الكفرة قبلهم ، فقال تعالى مخبراً عما رغبهم فيه شعيب ، وعما حذرهم منه :

1. ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [3].

---

(1) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 76/4.

(2) البقرة / 251 .

(3) الأعراف / 86 .

أيْ وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ، فكثركم الله تعالى بما بارك فـــي نســلكم ، فاشكروا له ذلك بأن تعبدوه وحده ، وتتبعوا أوامره في الحق والعدل ، ولتقلعوا عن الفساد في الأرض ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من قبلكم ، وكيف أهلكهم الله تعالى بكفرهم وظلمهم وفسادهم ، فيجب أن يكونوا لكم عبرة [1] .

وكما استخدم – عليه السلام – أسلوب الترغيب والترهيب ، حيث ذكرهم بنِعَمِه عليهم ، ثم خوفهم من عاقبة العصيان والتمرد ، استخدم أسلوب الترهيب والترغيب ؛ أي أنه قدم الترهيب والتخويف ، ثم ثنّى بالترغيب .

قـــال تعـــالى على لسانه :**﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾** [2] .

أي لا تحملنكم عداوتكم وبغضكم لي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، وعلى عدم الإيمان بي والاستجابة لدعوتي ، فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم : قـــوم نـــوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، أو قوم لوط ، واستغفروا ربكم من سالف الذنـــوب ، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ، إن ربي رحيم ودود لمن تاب ، وهذا فضل من الله عظيم [3] .

لـــذا يجب على الداعية المسلم أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح ، وأن يسعى لتحقيق هذه الإرادة في الواقع بتغيير المنكرات والمفاسد والانحرافات ، وعليه أن يعلم جيداً أن الإصلاح ليس شيئاً واحداً ، فهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فليس كل الأشخاص يلزمهم نوع واحد من أنواع الدعوة ، فبعضهم لا يصلح له إلا الترغيب وبعضـــهم لا يصـــلحه إلا الترهيـــب، وبعضهم يلزمهم الاثنان معاً ، لذا فعلى الداعي الواعـــي أن يكون ثاقب البصر والبصيرة ، يختار لكلٍ ما يناسبه من الأساليب ، حتى يجني ثمار دعوته ، ويحقق غايته .

---

(1) انظر تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 532/8.

(2) هود / 89 ، 90 .

(3) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 468/2 ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 93/9 ، 94.

الملخص

هذه الرسالة تتناول موضوعاً من أكثر الموضوعات أهمية وخطورة في حياة الإنسان وهــو موضــوع عقائدي بالدرجة الأولى ، ولكني قمت جاهدة بإضفاء ثوب التفسير عليه ، ليصبح موضوعــاً عقائدياً تفسيرياً ، ولقد تحدثت فيها عن عدد كبير جداً من الموضوعات ، من خلال تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبوب وخاتمة .

ومن هذه الموضوعات :

- الحديث عن محبطات العمل الصالح ، والتي تنقسم إلى ثلاثة أقسام كلية .
- محبطات عقائدية تتعلق بالقلب والوجدان والتي تنقسم بدورها إلى محبطات تخرج من الإسلام كالكفر والشرك وغيرها وهي أخطر المحبطات على الإطلاق ، ومحبطــات لا تخرج من الإسلام كاليأس والرياء والكبر .
- محبطات قولية تتعلق باللسان ، وتنقسم أيضاً إلى محبطات تخرج من الإسلام كسبِّ كل ما يتعلق بالعقيدة أو الاستهزاء به ، وادعاء النبوة وغيرها ، ومحبطات لا تخرج من الإسلام كالغيبة والنميمة ، وأذية المسلمين وبيان خطورة هذه الصفات بالرغم من كثرة انتشارها بين الناس .
- ومحبطات فعلية تتعلق بالجوارح والأركان والتي تنقسم أيضاً إلى محبطات تخرج من الإسلام كالشرك في العبادة والاستهانة بالمصحف وغيرها ، ومحبطات لا تخرج من الإسلام كالزنا واللواط وشرب الخمر والربا - والعياذ بالله - .

كما احتوى البحث على محبطات فعلية مختلف في الحكم عليها بين الكفر ودون ذلك تــبعاً لاختلاف حال فاعلها كترك الصلاة والحكم بغير ما أنزل الله والسحر وبما أن الذنوب التــي يرتكبها المخالفون ل ابد وأن تكون لها آثار سلبية على مرتكبيها ، فقد بين البحث آثار هذه الذنوب على الفرد وعلى المجتمع التي تحصل في الدنيا وفي الآخرة .

هــذه العقوبــات الدنيوية التي فيها ما لا يزول حتى بالتوبة كالحدود فإنها لا يجوز الشفاعة فيها متى بلغت السلطان ، أما العفو والشفاعة فيها قبل الوصول إلى السلطان فجائز كالقتل والسرقة والحرابة والزنا وغيرها .

وكذلــك تحدث البحث عن العقوبات الدنيوية التي تزول بالتوبة الصادقة والتي تؤدي إلي الإهلاك بالكليــة إن أصر الإنسان عليها كما حصل لقارون ، وبعض العقوبات التي دون الإهــلاك وبما أن الإنسان محاسب ومجازى عما تقترف يداه فإنني تحدثت عن آثار الذنوب في الآخــرة ابتــداءً مــن عذاب القبــر وانتهــاءً بالخلــود في جهنــم والعيــاذ بالله لمــن

يستحق – هذا كله على الفرد – .

أمـــا المجتمعات فهي أيضاً لم ولن تسلم من الوقوع في العذاب والهلاك والدمار إما بالكلية كما حصل للكثير من الأمم السابقة حين عصت الله وتعدت حدوده فعاقبهم الله بالإهلاك بأنواع شتى من العذاب كالطوفان والريح والصاعقة وغيرها .

وإمـــا عقوبـــات دون الإهلاك كتسليط الظـــالمين علـــى المذنبين وتضييق رزقهـــم – والعياذ بالله – .

وبما أن القرآن الكريم هو دستور الحياة ونهجها ، وبما أنه يصلح لإصلاح البشر في كـــل زمان ومكان فقد بين هذا البحث منهج القرآن الكريم في الترغيب بالصالحات من خلال ضرب الأمثال التـــي ترغب بالأعمـــال الصالحـــة كالإيمان بالله واتباع الرسول ، والإنفاق في سبيل الله ، والترغيب بالكلمة الطيبة .

ومـــن خـــلال سرد القصص التي توضح أهمية اتباع الحق ، وسردتُ عدداً من نهج الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام – مع أقوامهم .

وكذا منهج القرآن الكريم في التنفير والترهيب من محبطات الأعمال كالكفر والشرك والإعراض عن دين الله – عزّ وجل – والنفاق ... وغيرها .

وكذا عن طريق سرد القصص القرآني الذي يوضح آثار ارتكاب بعض الذنوب عن طريق ســـرد بعض قصص الأنبياء – عليهم السلام – مع أقوامهم لترهيبهم من المحبطات ، مـــع ذكر أساليبهـــم – ﷺ – في الدعـــوة إلى الله – عزّ وجـــل – ومدى تحملهم في سبيل إعلاء كلمة الله ليكون ذلك منهجاً ودستوراً وعبرة وعظة لكل الدعاة إلى يوم الدين .

لنتوصل من خلال ذلك إلى عدد من النتائج المرضية ، لتكون سبباً للتوصل إلى عدد من النتائج القيمة – بإذن الله تعالى – .

الخاتمة

أولا : أهم النتائج :

بعـد هـــذه الرحلة الطويلة مع هذا البحث الشاق الممتع توصلت إلى النتائج التالية :

1- تنقســم المحــبطات إلـــى ثلاثـــة أنواع كلية وهي : محبطات قلبية تتعلق بالقلب محبطات قولية تتعلق باللسان ، محبطات فعلية تتعلق بالجوارح والأركان .

2- كما تنقسم المحبطات بصورة إجمالية إلى محبطات مخرجة من الملة ، ومحبطات غير مخرجة متفق عليها ، ومحبطات مختلف فيها .

3- إن أخطر أنواع المحبطات المحبطات القلبية التي تخرج من الإسلام .

4- الحبوط نوعان : عام وخاص

العــام : وهـــو يعني حبوط الحسنات كلها وذلك بالردة متمثلاً في المحبطات التي تخرج من الإسلام .

والخاص : حبوط بعض الحسنات ببعض الذنوب التي تؤدي إليها وذلك متمثل في المحبطات التي لا تخرج من الإسلام .

5- المحــبطات كثيرة ، لا يمكن حصرها وجمعها ، لذا اكتفيت بأشهرها ، وبأصحها دليلاً .

6- خطر النفاق الإعتقادي على الآخرين أشد من خطر الكفر والشرك .

7- خطر الرياء على الأعمال شديد ، لذا سماه الرسول – ﷺ – بالشرك الخفي ، لأنه لا يتبين ، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى .

8- إن الكـــبر ينقســـم بالنسبة للمتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام هي : التكبر على الخالق والتكـــبر علـــى الرسول – ﷺ – وهما كفر يخرج من الملة ، والتكبر على العباد وهذا قد يؤدي إلى الكفر إن أدى إلى رفض ما جاء به الرسل من علم ودين ، أما إن لـــم يـــؤدِ إلى الكفر ، بل كان مجرد تكبر على العباد فإنه يكون محرماً شرعاً يستحق صاحبه بسببه عذاب الله . كما أن النتيجة الحتمية التي يجنيها المتكبر أن لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة ، وإنما يحصل له نقيض ذلك .

9- يجب على العباد دعاء الله عزَّ وجل ، ولكنه لا يجب على الله الاستجابة لأنه لا يجب على الله شئ للعباد .

10- إن الحكم والعقاب الذي ينطبق على قاذف النساء ، ينطبق أيضاً على قاذف الرجال بلا خلاف وإنما خصت النساء بالذكر في القرآن الكريم إما للتغليب ، أو لأن القذف في حقهن أشنع .

11- الغيبة والنميمة وإن كانتا توأمان إلا أنهما متغايرتان ، فالنميمة أعم من الغيبة ، حيث إنها تحمل معنى الغيبة وزيادة .

12- إن سبَّ أي نبي من الأنبياء ، أو الاستهزاء بأي منهم يخرج من الملة تماماً كسبِّ الرسول – ﷺ – .

13- إن سبَّ أي كتاب رباني سابق كالتوراة والإنجيل الغير محرفة أو الاستهزاء به له نفس حكم الاستهزاء بالقرآن الكريم وهو الكفر .

14- إن العبرة في الأحكام الشرعية بالعلل والنتائج لا بالأسماء والمسميات فالخمر هي الخمر ، والربا هو الربا وإن اختلفت الأسماء فالحكم يدور مع العلة .

15- يختلف حكم تارك الصلاة تبعاً لحاله فمن تركها جاحد لوجوبها ، مستهيناً بها ، فهو كافر ، حابط العمل بلا خلاف ومن تركها تهاوناً وكسلاً مع اعتقاد وجوبها فالراجح أنه غير كافر بل هو مسلم عاصٍ فاسق ، وهو في مشيئة الله .

16- كما يختلف حكم الحاكم بغير ما أنزل الله تبعاً لحاله ، فإن حكم بغير ما أنزل الله معتقداً حل ذلك ، ضارباً بحكم الله عرض الحائط ، فإنه كافر كفراً أكبر أما إن حكم مع علمه أن ذلك لا يجوز ، ومع تأكده من أفضلية حكم الله – عزَّ وجل – ولكنه انصرف هوىً ومعصية فهو مسلم فاسق عاصٍ مرتكب كبيرة .

17- كذا السحر منه ما يكون كفراً أكبر إن استعان الساحر بالشياطين ومنه ما يكون معصية وكبيرة من الكبائر إن استخدم الأدوية والعقاقير .

18- إن أجر العمل المحبط مردود – بإذن الله تعالى – بالتوبة الصادقة .

19- إن الحدود الشرعية ممكن أن تسقط قبل وصولها للحاكم ، ولكن بعد وصولها فإنها لا تقبل عفواً ولا إسقاطاً ولا صلحاً .

20- إن الحدود الإسلامية وإن كان ظاهرها القوة والشدة إلا أنها تحمل في طياتها الأمن والأمان والاستقرار .

21- عــدم ذكــر حــد المحصــن في القرآن الكريم والاقتصــار في بيانه على السنة المطهـــرة ؛ لأن القرآن الكريــم افترض أن هذه الفاحشة لا تقع بين المحصنين إلا نادراً لدرجة أنه كاد أن لا يفترض لها وجوداً .

22- إن عذاب القبر ونعيمه حقيقة ثابتة لن ينجو منها أحد سواء قبر أم لم يقبر .

23- أهــل التوحــيد لا يخلدون في النار ، بل يعذبون على قدر معاصيهم ثم يخرجون برحمة الله – عزَّ وجل – إلى الجنة ؛ ولا يخلد في النار إلا الكفار والمنافقون .

24- اقتضت حكمة الله – عزَّ وجل – بتنويع عذابه وإهلاكه للأمم ، فقد يكون غرقاً ، أو صـــاعقة ، أو ريحاً، أو خسفاً ، أو قحطاً ، أو أمراضاً ، أو مسخاً ، أو رجفة ... أو غير ذلك.

25- يجــب دراسة قصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بتمعن وروية ، لأخذ العبرة ،العظة ،من حياتهم ولجعلها دستوراً للحياة ومثلاً أعلى وخصوصاً الدعاة .

26- بيان فضل سيدنا محمد – ﷺ– حيث إنه لم يدعو على أمته بالإهلاك كباقي الرسل الكرام بل دعـــا لهم راجياً من الله العلي القدير أن يخرج من أصلابهم من يوحده – جلَّ وعلا – .

27- بــيان أن الكفــر هــو الكفر، والعناد هو العناد على مر الأيام والأزمان ، فجميع الرسل لا قوا من كفر وتكذيب أقوامهم ما استحقوا بسببه الهلاك والدمار والإبادة .

28- جمــيع الأقــوام السابقة استعجلت العذاب ، وطلبته ولم يستفد أي منهم بما حصل لغيره .

29- لــم يقصـــد لوط – عليه السلام – بقوله : **(هؤلاء بناتي)** تزويجهن للكفار ، إنما قصد المراوغة حفاظاً على ضيوفه .

30- إن أقوى أنواع القرابة هي قرابة الدين لا النسب ، فهذا نوح – عليه السلام – أمر بترك ابنه الكافر وكذا لوط – عليه السلام – ترك زوجته الكافرة .

31- إن المـــراد بالخـــيانة فـــي قوله تعالى : **(فخانتاهما)** التحريم / 10 ، تعني خيانة عقائديـــــة دينــية ، أي لم يتبعا زوجيهما في الإيمان ، لا خيانة النسب والفراش حاشا وكلا .

32- لا يجوز وصف بني إسرائيل الحاليين بأنهم أبناء أو أحفاد القردة والخنازير ، لأنهم حين مسخوا لم ينسلوا ، ولم يعقبوا ، ولكن يجوز وصفهم بإخوان القردة والخنازير .

33- إن حلول أنواع الدمار والهلاك على هذه الأمة ليس ببعيد إن استمرت في ارتكاب محارم الله وتعدى حدوده ، ولكن لا يستلزم أن يكون بنفس الطريقة القديمة التي حدثت للأمم السابقة .

ثانياً : أهم التوصيات :

بعد التوصل لهذه النتائج ونظراً لخطورة محبطات الأعمال أصبح ضرورياً اقتراح بعض التوصيات والتي منها :

1- التركيز على هذه المحبطات من خلال خطب الجمعة ، ودروس المحاريب ، ومناهج التربية والتعليم .

2- إصدار نشرات موجزة تحذر الناس من المحبطات وتوزيعها بأكبر قدر ممكن من خلال وزارات الأوقاف والجمعيات الخيرية والمدارس ، وشبكات الإنترنت .

3- الحرص على تعليم هذه المحبطات للأبناء والجيل الصاعد من السن المبكر ، بحيث يلمون بها من الصغر ، كي يبتعدوا عنها إضافة لكل ما يقرب منها ؛ كي لا تحبط أعمالهم .

4- استغلال الإعلام الإسلامي بكافة الطرق والوسائل الممكنة والمشروعة للتنبيه على المحبطات ، وتبيين شدة خطورتها ، كي يشاهد الناس أمام أعينهم ، ويسمعوا بآذانهم كيفية تدميرها للإنسان ؛ وكيفية الخلاص منها .

5- اهتمام الآباء والأمهات والمربين ببيان معنى وأنواع المحبطات ، وعدم التهوين من خطورة ارتكابها .

6- اقتناء الأشرطة الإسلامية التي تتحدث عن بعض المحبطات ومحاولة سماعها بإنصات وتمعن .

7- البدء دائماً بالنفس يجعل الإنسان مقبول الدعوة . لذا يجب على الدعاة والمربين ، والمسؤولين خاصة الابتعاد عن المحبطات كي لا تخالف أفعالهم أقوالهم ، وبذلك

تفقـد مواعظهم أهميتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وفي الختام : اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم ، صائباً وفق كتابك وسنة نبيك محمد – ﷺ – ﴿ رَبَّـنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْـراً كَمَـا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

([1]) البقرة ، من الآية 286 .

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

1- سورة البقرة

2- سورة آل عمران

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
3	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني........................	31	4
4	قل أطيعوا الله والرسول	32	152
5	ذلك من أنباء الغيب	44	382
6	فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين	63	155
7	وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب	80 – 78	112
8	ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً..........................	85	265
9	كيف يهدي الله قوماً كفروا	90 – 86	211 – 72
10	كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل	93	380
11	يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً	100	158
12	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	102	ت
13	مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا	117	394
14	والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم	136–135	212 – 34
15	قل إن الأمر كله لله	154	43
16	ولو كنت فظاً غليظ القلب	159	374 – 285 388
17	وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا	167	57
18	لقد سمع الله قول الذين قالوا	181	75
19	وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب	187	76
20	فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل	195	5

3– سورة النساء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم	1	ت
2	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده...............	14	193 – 179
3	يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل	29	178
4	لا تقربوا الصلاة وأنت سكارى	43	172
5	إن الله لا يظلم مثقال ذرة	40	256

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
31	إن الذين يكفرون بالله ورسله	150	103 – 75
32	فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم	161–160	180
33	ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل	164	378
34	وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً	174	404
35	فسيدخلهم في رحمة منه وفضل	175	19

4- سورة المائدة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ورضيت لكم الإسلام دينا	3	21
2	حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير............	3	140
3	ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله	5	– 67 – 49 211 – 189
4	وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم	9	16
5	إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله	33	222
6	إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم	34	219
7	وما هم بخارجين منها	37	258
8	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	38	225
9	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون	44	197 –195
10	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون	45	197
11	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك الفاسقون..........	47	197
12	لكل جعلنا منكم فيكم شرعة ومنهاجاً	48	308
13	فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم	49	155
14	أفحكم الجاهلية يبغون	50	195
15	يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى	51	161
16	ومن يتولهم منكم فإنه منهم	51	157
17	ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا	53	118 – 57
18	إنما وليكم الله ورسوله	55	156
19	قل هل أنبئكم بشر من ذلك	60	338

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
20	وقالت اليهود يد الله مغلولة	64	75
21	إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون	69	16
22	لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح	72	398-75
23	إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة..........	72	190 – 46
24	لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة...............	73	92
25	ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا	81 – 80	156
26	يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر...............	90	172
27	قل لا يستوي الخبيث والطيب	100	180
28	ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله	117	75
29	ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا	139-138	159

5- سورة الأنعام

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن	6	269
2	وقالوا لولا أنزل عليه ملك	8	63
3	ومن أظلم ممن افترى على كذباً أو كذب بآياته	21	105 – 104
4	انظر كيف كذبوا على أنفسهم	24	112
5	ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا	28 – 27	265
6	فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون	33	351 – 48
7	قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله	41 – 40	109
8	إن الحكم إلا لله	57	192
9	وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو	59	207 – 198
10	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر	83 – 74	383
11	ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون	88	143 – 46 397
12	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي	93	105

6- سورة الأعراف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
39	والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة	147	112 – 99
40	قال الملأ الذين استكبروا	76 – 75	294
41	ورحمتي وسعت كل شئ	156	79
42	واتبعوا النور الذي أنزل معه	157	404
43	واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر	163	339
44	لم تعظون قوماً الله مهلكهم	164	340
45	أنجينا الذين ينهون عن السوء	165	343 – 341
46	فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم	166	343
47	واتل عليهم نبأ الذي آتيناه	177–175	400
48	قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً	188	43
49	إن الذين عند ربك لا يستكبرون	206	144

7- سورة الأنفال

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وما النصر إلا من عند الله	10	43
2	يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله	24	192
3	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	25	267
4	وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون	33	35
5	ويجعل الله الخبيث بعضه على بعض	37	180
6	قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم	38	143 – 45
7	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة	51 – 50	358 – 243
8	ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة	53	359 – 237

8- سورة التوبة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم	5	46
2	وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم	12	195
3	فقاتلوا أئمة المفر إنهم لا أيمان لهم	12	50
4	ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون	23	157

9- سورة يونس

10- سورة هود

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم	3	237 - 37
2	ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت	7	70
3	إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات	11	16
4	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها	16 - 15	هـ - 39
5	أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار	16	118
6	ما نراك إلا بشر مثلنا	27	274
7	وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا	27	350
8	وما أنا بطارد الذين آمنوا	29	275
9	قالوا يا نوح قد جادلتنا	33 - 32	351 - 276
10	فلا تبتئس بما كانوا يفعلون	36	276
11	واصنع الفلك بأعيننا	37	277
12	واصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ	38	277
13	قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم	38	278
14	وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها	41	279
15	سآوي إلى جبل يعصمني من الماء	43	279
16	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	44	280
17	رب إن ابني من أهلي	45	280
18	إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح	46	281
19	فلا تسئلن ما ليس لك به علم	46	281
20	قال رب إني أعوذ بك أن أسألك	47	281 - 36
21	قيل يا نوح اهبط بسلام	48	410 -281
22	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك	49	382
23	يا قوم لا أسألكم عليه أجراً	51	286
24	ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه	52	37 - 35 385
25	يا هود ما جئتنا ببينة	53	284

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
53	وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل	120	380 -378 381

11- سورة يوسف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	نحن نقص عليك أحسن القصص	3	377
2	إن الشيطان للإنسان عدو مبين	5	32
3	وراودته التي هو في بيتها	23	381
4	إن كان قميصه قدّ من قبل	27 – 26	112
5	خلصوا نجياً	80	23
6	ولا تيأسوا من روح الله	87	341
7	ورفع أبويه على العرش وخروا	100	145
8	وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين	103	142
9	وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون	106	43
10	لقد كان في قصصهم عبرة	111	380

12- سورة الرعد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإن تعجب فعجبٌ قولهم أإذا كنا تراباً	5	69
2	إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا	11	359 -237
3	ويسبح الرعد بحمده والملائكة	13	144
4	مثل الجنة التي وعد المتقون	35	372

13- سورة إبراهيم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم	7	ظ
2	مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد	18	106 – 50 395
3	وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات	23	8
4	ألم تر كيف ضرب الله مثلا	25 – 24	374

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
5	ويضرب الله الأمثال للناس	25	369
6	وضربنا لكم الأمثال	45	370 -368

14- سورة الحجر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا	3	31
2	إنا نحن نزلنا الذكر	9	148
3	لم أكن لأسجد لبشر	33	88
4	قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم	40 – 39	25
5	قال ومن يقنط من رحمة ربي إلا الضالون	56	80
6	فأسر بأهلك بقطع من الليل	65	311
7	وقضينا إليه ذلك الأمر	66	311
8	قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين	71	307
9	فأخذتهم الصيحة مشرقيين	74 – 73	314 – 312 412
10	إن في ذلك لآيات للمتوسمين	77 – 75	314
11	ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين	80	291

15- سورة النحل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم	26	د
2	وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم	33	362
3	ولقد بعثنا في كل أمة رسول	36	138 – 24
4	وأقسموا بالله جهد أيمانهم	38	70
5	ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم	61	267
6	نسقيكم مما في بطونه	66	22
7	ومن ثمرات النخيل والأعناب	67	171
8	ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً	73	44

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
9	من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن	97	11 – 5 237
10	إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان	106	41
11	وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة	112	361-51 393 -362
12	ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه	113	362 -357
13	ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب	117-116	73
14	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة	125	374 -285 388

16- سورة الإسراء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ونخرج له يوم القيامة كتاب يلقاه منشوراً	13	253
2	ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها	19	11
3	ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة	32	166 – 164 168
4	ولا تمشِ في الأرض مرحاً	37	413
5	عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً	79	261
6	قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا	88	150 -146
7	فأبى أكثر الناس إلا كفوراً	89	142
8	ومن يهده الله فهو المهتد	98 – 97	252

17- سورة الكهف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات	2	4
2	وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن	29	ث
3	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع	30	13-10
4	أولئك لهم جنات عدن	31	14
5	واضرب لهم مثلاً رجلين	42 – 32	393
6	ودخل جنته وهو ظالم لنفسه	38 – 35	52

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
7	المال والبنون زينة الحياة الدنيا	46	224
8	وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً	47	248
9	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها	57	154
10	وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا	59	355
11	وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى	88	12
12	قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً	105-103	ث – 68 99- 210

18- سورة مريم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة	60 – 59	187
2	إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً	61 -60	34
3	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم	96	13

19- سـورة طـــه

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فقولا له قولا ليناً	44	285
2	يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى	66	204
3	ولا يفلح الساحر حيث أتى	69	202
4	يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له	108	249
5	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن	112	17
6	ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً	126-124	238 -155

20- سورة الأنبياء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة	11	351
2	وما أرسلنا من قبلك من رسول	25	379 – 24
3	ونضع الموازين القسط ليوم القيامة	47	257 – 254
4	وذا النون إذ ذهب مغاضباً	88 – 87	388
5	فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن	94	15

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
6	حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج	96- 98	250 - 270
7	يوم نطوي السماء كطي السجل	104	248
8	ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	105	20

21- سورة الحج

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم تر أن الله يسجد له	18	141
2	فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار	19- 22	263
3	ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء	31	398
4	الله يصطفى من الملائكة رسلاً	75	104
5	يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم	77	142

22- سورة المؤمنون

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قد أفلح المؤمنون	1 - 7	166- 186
2	ثم إنكم بعد ذلك لميتون	15 - 16	67
3	فإذا جاء أمرنا وفار التنور	27	278
4	فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك	28 -29	279
5	وقال الملأ من قومه الذين كفروا	33 - 35	287
6	ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً	34 - 37	69-350
7	أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً	35	287
8	قال رب انصرنى بما كذبون	39 - 40	288- 352
9	فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء	41	290
10	فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا	47	87
11	يأيها الرسل كلوا من الطيبات	51	8
12	أيحسبوا أنما نمدهم به من مال وبنين	55 - 56	31
13	قل من بيده ملكوت كل شئ	88- 89	43
14	أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً	115-116	69

23- سورة النور

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما	2	229 – 166 230
2	والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا	4	115
3	إن الذين يرمون المحصنات الغافلات	23	117 -115
4	وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون	31	33
5	والذين كفروا أعمالهم كسراب	39	396 -50
6	ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا	47	151
7	وإذا دعوا إلى الله ورسوله	50 – 48	193
8	وعد الله الذين آمنوا منكم	55	21
9	وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً	55	21
10	فليحذر الذين يخالفون عن أمره	63	179

24- سورة الفرقان

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده	1	146
2	وقال الذين لا يرجون لقاءنا	21	87 – 63
3	وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا .	23	394 -29 396
4	ويوم يعض الظالم على يديه	29 – 27	265
5	قالوا وما الرحمن	60	87
6	والذين لا يدعون مع الله إلها آخر	70 – 68	45 -17 165 -143 212
7	إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً	70	د

25- سورة الشعراء

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن	116	274

26- سورة النمل

27- سورة القصص

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي	16	36
2	وما كنت بجانب الغربي	44	382
3	وما كنت ثاوياً في أهل مدين	45	382
4	وما كنت بجانب الطور	46	382
5	إن قارون كان من قوم موسى	76	233
6	فخسفنا به وبداره الأرض	81	87

28- سورة العنكبوت

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم	7	17
2	فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين	14	275
3	فآمن له لوط	26	303
4	إني مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم..........	26	303
5	ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين	29	352 - 305
6	قال رب انصرني على القوم المفسدين	30	305
7	ولما جاءت رسل إبراهيم بالبشرى	32 - 31	306
8	قالوا نحن أعلم بمن فيها	32	306
9	فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً	40	412
10	مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء	43 - 41	399
11	وتلك الأمثال نضربها للناس	43	369
12	وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون	47	74
13	كل نفس ذائقة الموت	57	242
14	وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو	64	30
15	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله	65	25

29- سورة الروم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون	12 - 14	247
2	ومن آياته أنا خلقنا لكم من أنفسكم أزواجاً	21	228
3	وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم	36	358
4	وما أتيتم من ربا ليربوا	39	180
5	ظهر الفساد في البر والبحر	41	360

30- سورة لقمان

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن الشرك لظلم عظيم	13	212
2	ولا تصعر خدك للناس	18	413
3	ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن	22	6

31- سورة السجدة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فلا تعلم نفس ما أخفي	17	14
2	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها	22	154

32- سورة الأحزاب

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها النبي اتقِ الله ولا تطع الكافرين	1	402
2	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	6	100 - 309
3	ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم	40	105
4	وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله	53	313
5	إن الذين يؤذون الله ورسوله	57	95
6	يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا	70	ت
7	يصلح لكم أعمالكم	71	4
8	والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات	85	125

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
2	وجعلنا ذريته هم الباقين	77	282
3	وإنكم لتمرون عليهم مصبحين	138-137	315
4	وإن يونس لمن المرسلين	142-139	387
5	فلولا أنه كان من المسبحين	144-143	388

37- سورة ص

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً	35	36
2	قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين	83 - 82	25

38- سورة الزمر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين	15 -11	5
2	الله نزل أحسن الحديث	23	146
3	قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله	38	198
4	قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم	53	- 45 - 33 212 -79 260 - 235
5	لئن أشركت ليحبطن عملك	65	211 -144 397 -
6	ونفخ في الصور فصعق من في السموات	68	246
7	وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة	74	20

39- سورة غافر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فادعوا الله مخلصين له الدين	14	108
2	أولم يسيروا في الأرض فينظروا	21	413
3	من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها	40	ث
4	النار يعرضون عنها غدواً وعشياً	46	243

رقم الصفحة	رقمها	طرف الآية	الرقم
108	60	وقال ربكم ادعوني أستجب لكم	5
24	65	وهو الله لا إله إلا هو فادعوه	6
269	85 - 84	فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا	7

40- سورة فصلت

رقم الصفحة	رقمها	طرف الآية	الرقم
36	6	فاستقيموا إليه واستغفروه..........................	1
319	10	وجعل فيها رواسي من فوقها	2
404 -154	13	فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة	3
284	15	فأما عاد فاستكبروا في الأرض	4
302	17	وأما ثمود فهديناهم فاستجابوا العمى	5
336 -274 374	34	ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن	6
143	37	ومن آياته الليل والنهار والشمس	7
144	38	فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له	8
100	42	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	9
356	46	وما ربك بظلام للعبيد	10

41- سورة الشورى

رقم الصفحة	رقمها	طرف الآية	الرقم
4	21	أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين	1
358 -237	30	وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم	2

42- سورة الزخرف

رقم الصفحة	رقمها	طرف الآية	الرقم
64	19	وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن	1
350 - 87	31	لولا نزل هذا القرآن على رجل	2
236	36	ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً	3
368	56	فجعلناهم سلفاً ومثلاً	4

43- سورة الجاثية

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها	9	98 -149
2	وإذا قيل إن وعد الله حق	32	70
3	وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا	35 – 34	98 -149
4	فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون	35	262 -98

44- سورة الأحقاف

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ومن أضل من يدعوا من دون الله	6 – 5	109
2	وأصلح لي في ذريتي	15	4
3	واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه	21	410–282
4	فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم	25– 24	289
5	ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه	26	269

45- سورة محمد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وأصلح بالهم	2	4
2	والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا	2	17
3	فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب	4	50
4	مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار	15	372
5	واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	19	36

46- سورة الفتح

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	محمد رسول الله والذين معه أشداء	29	371
2	ذلك مثلهم في التوراة	29	368

47- سورة الحجرات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم	2	102 - 118

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
2	يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ	6	124
3	ولكن الله حبب إليكم الإيمان	7	41
4	وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا	9	51
5	إنما المؤمنون إخوة	10	132 – 51
6	يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم	11	133
7	ولا يغتب بعضكم بعضاً	12	406 –120
8	ولما يدخل الإيمان في قلوبكم	14	41
9	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله	15	54

48- سورة الذاريات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قال فما خطبكم أيها المرسلون	34 – 31	312 – 306
2	فأخرجنا ما كان فيها من المؤمنين	36 – 35	303
3	فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين	36	309
4	وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب	37	315
5	وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم	42 – 41	290
6	وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	56	359 – 66 365

49- سورة النجم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة	27	64
2	والمؤتفكة أهوى	55 – 53	312

50- سورة القمر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	كذبت قبلهم قوم نوح	9	351
2	فدعا ربه أني مغلوب فانتصر	10	352 –277
3	إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً	20 – 19	289
4	أءلقي الذكر عليم بينة	25	350 – 293

58- سورة التحريم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً	8	34
2	ضرب الله مثلاً للذين كفروا	10	313

59- سورة القلم

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ولا تطع كل حلاف مهين	11 – 10	124
2	وأملي لهم إن كيدي متين	45	31

60- سورة الحاقة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فترى القوم فيها صرعى	7	289

61- سورة المعارج

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والذين هم على صلاتهم يحافظون	35 – 34	186

62- سورة نوح

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه	4 – 1	409 -384
2	قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً	9 – 5	273
3	فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفاراً...............	12 -10	-36 – 35 385
4	ما لكم لا ترجون لله وقاراً	13	410
5	قال نوح رب إنهم عصوني	23 - 21	275
6	وقالوا لا تذرن آلهتكم	23	272
7	وقال نوح رب لا تذر على الأرض	26	352
8	ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً	27	275

63- سورة الجن

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن	2 – 1	66
2	وإنه كان رجال من الإنس يعوذون	6	66
3	وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم	17 – 16	240
4	عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً	26	207

64- سورة المزمل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فكيف تتقون إن كفرتم يوماً	18– 17	247

65- سورة المدثر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إن هذا إلا سحر يؤثر	24	351
2	عليها تسعة عشر	30	98 -63
3	ما سلككم من سقر	43 -42	187
4	فما لهم عن التذكرة معرضين	50 – 49	392 -154

66- سورة النازعات

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فقال أنا ربكم الأعلى	24	87

67- سورة عبس

الرقم	طرفة الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يوم يفر المرء من أخيه	37 – 34	134

68- سورة الانشقاق

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فأما من أوتي كتابه بيمينه	15– 7	254

69- سورة الطارق

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	يوم تبلى السرائر	9	81

70- سورة الفجر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ألم تر كيف فعل ربك بعاد	6 – 8	282
2	إرم ذات العماد	7 – 8	283

71- سورة الشمس

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إذ انبعث أشقاها	12 – 15	298

72- سورة الليل

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فأنذرتكم ناراً تلظى	14 – 16	152

73- سورة البينة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وما أمروا إلا ليعبدوا الله	5	5
2	إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين	6	262

74- سورة الزلزلة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره	7 – 8	159 – 251 252 – 258 358

75- سورة العصر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	والعصر إن الإنسان لفي خسر	1 – 3	8

76- سورة الهمزة

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	ويل لكل همزة لمزة	1	121

77- سورة الماعون

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	فويل للمصلين الذين عن صلاتهم ساهون	5 – 4	187

78- سورة الكوثر

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	إنا أعطيناك الكوثر................................	1	254

79- سورة المسد

الرقم	طرف الآية	رقمها	رقم الصفحة
1	وامرأته حمالة الحطب	5 – 4	125

ثانياً : فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ثالثاً : فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أ -

1- إحكام الأحكام ، لابن دقيق العيد ، دار الكتب العلمية / بيروت ، - بدون تاريخ - .
2- أحكام الحدود في الشريعة الإسلامية ، لمحمود فؤاد جادالله ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط 1984م .
3- أساليب البيان في القرآن والسنة ، جمع الأستاذ خالد السعيد ، ط الجامعة الإسلامية / غزة ، 1405هـ .
4- أسباب النزول لأبي حسن الواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1402هـ-1982م .
5- أسباب هلاك الأمم ، وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين ، للشيخ عبد الله التليدي دار البشائر الإسلامية ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1418هـ- 1998م .
6- أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ط / القاهرة ، 1939م .
7- أصول الدين ، لعبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلمية / بيروت ط1 ، 1346هـ .
8- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي مصر ، ط 1381هـ-1961م .
9- آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة ، لسعيد بن علي القحطاني ، مكتبة أبي بكر الصديق / القاهرة - بدون تاريخ - .
10- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، للحافظ ابن بطة العكبرى ، (ت) رضا معطي ، دار الراية / الرياض ، ط1 ، 1409هـ .
11- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط3 ، 1415هـ-1995م .
12- الأخلاق الإسلامية أسسها ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / دمشق ، والدار الشامية / بيروت ، ط5 ، 1420هـ-1990م .
13- الأذكار للنووي ، دار ابن حزم ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1412هـ-2000م .
14- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ، د. علي عبد الواحد وافي ، دار النهضة مصر ، ط 1996م .

29- تحكيم القوانين ، لمحمـــد بن إبراهيم آل الشيخ ، مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة ، ط 1380هـ .
30- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي ، مكتبة أبي بكر الصديق / كانو ط1 ، 1421هـ-2001م .
31- التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ، لعبد القادر عودة ، دار الكتاب العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
32- الـتعريفات ، للجرجانـي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1403هـ-1983م .
33- تفسـير أحكـام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله ، المعروف بابن العربي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1402هـ-1992م .
34- تفسـير إرشـاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
35- تفسـير الأساس في التفسير لسعيد حوى ، دار السلام / القاهرة ، ط2 ، 1409هـ-1998م .
36- تفسـير أضـواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1421هـ-2000م .
37- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للقاضي ناصر الدين أبي سعد عبد الله بن عمر ابـن محمـد الشـيرازي البيضـاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1408هـ-1988م .
38- تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ الطاهـر بن عاشـور ، دار سحنـون / تونـس ، ط 1997م .
39- تفسـير تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط3 ، 1397م .
40- تفسـير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للعلاّمة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 ، 1415هـ-1995م .
41- تفسـير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام ابن جرير الطبري ، دار الفكر ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1415هـ-1995م .

42- تفسير الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الحديث / القاهرة ، ط2 ، 1416هـ-1996م .
43-تفسير حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - المسمى بالكشاف - ، لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي / مصر - بدون طبعة - .
44- تفسير الخازن - المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل - لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي ، الشهير بالخازن ، ط2 ، 1375هـ-1955م .
45- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1411هـ-1990م .
46- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلاّمة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ، دار الفكر / بيروت - بدون تاريخ - .
47- تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي ابن محمد الشوكاني ، ط عالم المعرفة - بدون تاريخ - .
48- تفسير القرآن الجليل - المسمى بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل - للنسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
49- تفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار - لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1393هـ-1973م .
50- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، المكتبة القيّمة / القاهرة ، ط1 ، 1411هـ-1991م .
51- التفسير القيم ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
52- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام محمد الرازي ، دار الفكر ، لبنان / بيروت ، ط 1401هـ-1981م .
53- تفسير محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار إحياء الكتب العربية / القاهرة - بدون تاريخ - .
54- تفسير المحرر الوجيز ، لابن عطية أبي محمد عبد الحق الأندلسي ، (ت) عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد / عبد العال إبراهيم ، ط1 ، 1403هـ-1983م .
55- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، أ. د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1418هـ-1998م .

56- تفسير النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1412هـ-1992م .

57- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لأبي عمر بن عبد البر ، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / المغرب - بدون تاريخ - .

58- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي ، - بدون نشر - .

59- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف / الهند ، ط 1326هـ .

60- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، ط1 ، 1415هـ-1995م .

61- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للحافظ جمال الدين المزي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط1 ، 1413هـ-1992م .

62- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، (ت) أ. عبد الكريم الغرباوي مكتبة بن تيمية ، مطابع سجل العرب / الدار المصرية - بدون تاريخ - .

63- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد الوهاب المكتب الإسلامي / بيروت ، ط3 ، 1397م .

- ج -

64- جامع العلوم والحكم في شرح 50 حديثاً من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي ، (ت) أبو معاذ ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، 1415هـ-1995م .

65- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - المسمى بالداء والدواء - لابن قيم الجوزية ، جمعية إحياء التراث العربي / الكويت ، ط1 ، 1421هـ-2000م .

- ح -

66- الحدود في الإسلام ، حكمها وأثرها في الأفراد والجماعات والأمم ، لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي - بدون تاريخ - .

67- الحيوان ، للجاحظ ، (ت) عبد السلام هارون ، ط / القاهرة ، 1945م .

- د -

68- دراسات في طريق الدعوة ، د. محمد عبد السميع جاد ، دار الطباعة المحمدية ، درب الأتراك / الأزهر ، ط1 ، 1399هـ-1979م .

69- الدرة الفاخرة ، لحمزة الأصفهاني ، (ت) د. عبد المجيد قطامس ، ط / القاهرة ، 1391هـ-1971م .

70- الــدرة فــيما يجب اعتقاده ، لابن حزم ، (ت) أحمد الحمد ، وسعيد القزقي ، مكتبة التراث / مكة المكرمة ، ط1 ، 1408هــ .

71- الذنــوب وقــبح آثارها على الأفراد والشعوب ، لمحمد بن أحمد سيد أحمد ، مكتبة السواري ، مكة المكرمة ، ط3 ، 1413هــ-1993م .

- ر -

72- الرســالة ، للشافعي ، (ت) أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث / القاهرة ، ط2 ، 1399هــ- 1979م .

73- الــرعاية لحقــوق الله ، للحارث المحاسبي ، دار الكتب الحديثة / القاهرة ، ومكتبة المثنى / بغداد - بدون تاريخ - .

74- روضـــة الطالبيــن وعمــدة المفتين ، للنووي ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط2 ، 1405هــ-1985م .

75- روضة الناظر ونزهة الخاطر في الجزاء من جنس العمل ، د. سيد حسين العفاني ، المطبعة العمرانية للأوفست / الجزيرة ، ط5 ، 1421هــ-2001م .

- ز -

76- زاد المســير في علم التفسير ، لابن الجــوزي ، (ط) المكتب الإســلامي / دمشــق - بدون تاريخ - .

77- زاد المعــــاد في هــدي خير العباد ، لابن قيم الجوزية ، (ت) شعيب الأرناؤوط ، عبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، 1421هــ-2000م .

78- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للشيخ ابن حجر الهيثمي ، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة / الرياض ، ط1 ، 1417هــ-1996م .

- س -

79- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، للألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط 1405هــ-1985م .

80- الســلوك الاجتماعي في الإسلام ، لحسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ، بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .

81- سنن ابن ماجه ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1407هــ-1986م .

82- ســنن أبــي داود ، (ت) السيد محمد السيد ، دار الحديث / القاهرة ، ط 1420هــ-1999م .

83- سنن الترمذي ، دار الحديث / القاهرة ، ط1 ، 1419هـ-1999م .
84- سنن النسائي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1411هـ-1991م .
85- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة / بيروت ، ط 1409هـ .
86- السيرة النبوية ، لابن هشام ، (ت) مصطفى السقا ، شركة ومكتبة ومطبعة البابلي الحلبي وأولاده ، ط2 - بدون تاريخ - .

- ش -

87- شأن الدعاء ، للخطابي ، دار المأمون / دمشق ، ط1 ، 1404هـ .
88- شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز ، (ت) جماعة من العلماء خرّج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط8 ، 1404هـ-1984م .
89- شرح فتح القدير ، للإمام كمال الدين محمد عبد الواحد السيواسي ، دار الفكر ، بيروت / لبنان ، ط 1397هـ-1977م .
90- شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ، المكتب الإسلامي / دمشق ، ط1 ، 1394هـ .
91- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ، (ت) علي محمد البجاوي ، مكتبة الإمام - بدون تاريخ - .

- ص -

92- الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، لوحيد عبد السلام بالي ، مكتبة الصحابة / جدة ، ط 1412هـ .
93- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرّاني الدمشقي ، المعروف بابن تيمية ، المكتبة العصرية ، صيدا / بيروت ، ط 1411هـ-1990م .
94- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لإسماعيل حماد الجوهري ، دار العلم للملايين بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
95- صحيح البخاري ، المكتبة العصرية ، صيدا / بيروت ، ط1 ، 1417هـ-1997م .
96- صحيح الجامع الصغير وزياداته - المسمى بالفتح الكبير - لمحمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي / جمعية إحياء التراث الإسلامي ، ط3 ، 1421هـ-2000م .

97- صحيح مسلم ، دار المنار للطبع والنشر ، ط1 ، 1418هـ-1998م .
98- صـــحيح مسلم ، بشرح النووي ، (ت) رضوان جامع رضوان ، مؤسسة المختار / القاهرة ، ط1 ، 2001م .
99- الصفديـــة ، لابن تيميـــة ، (ت) محمـــد رشـــاد ســـالم ، مكتبة ابن تيمية / القاهرة - بدون تاريخ - .
100- الصـــلاة وحكم تاركها ، للإمام ابن قيم الجوزية ، (ت) مصطفى بن العدوي ، دار ابن رجب / المنصورة ، ط1 ، 1423هـ-2002م .

- ض -

101- ضعيف الجامع الصغير وزياداته ، المسمى بالفتح الكبير ، للشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي / بيروت ، ط 1408هـ-1988م .
102- الضـــيـــاء الشـــارق في رد شـــبهات الماذق المـــارق ، لســـليمان بن سحمـــان ، (ت) عـــبد الســـــلام بن برجس عبد الكريم ، ط دار عليان ، دار العاصمة - بدون تاريخ - ط2 ، 1412هـ .

- ع -

103- العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت / لبنان - بدون تاريخ - .
104- عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها ، أو ينقضها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والـــبدع وغـــير ذلـــك ، للشيخ الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، دار العاصمة ، السعودية / الرياض ، ط1 ، 1420هـ-1999م .
105- عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي ، بشرح الإمام ابن العربي المالكي ، دار الكتاب العربي - بدون تاريخ - .
106- العقيدة الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم / بيروت ، ط2 ، 1399هـ-1979م .
107- عـــالم الجـــن والشياطين ، د. عمر سليمان الأشقر ، المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة / القاهرة - بدون تاريخ - .
108- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 1410هـ-1990م .

122- قصص الأنبياء ، للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، (ت) أشرف عبد المقصود ، مكتبة أضواء السلف / الرياض ، ط1 ، 1422هـ-2002م .

123- قصص الأنبياء ، لابن كثير ، مكتبة أبو بكر أيوب / نيجيريا ، ط1 ، 1421هـ-2001م .

124- قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار ، دار إحياء التراث العربي / بيروت ، ط3 - بدون تاريخ - .

125- قصص القرآن (دروس وعبر للدعوة والدعاة) ، لمحمد البيومي ، مكتبة الإيمان / المنصورة ، ط1 ، 1420هـ-1999م .

126- قصة التفسير ، لأحمد الشرباصي ، دار الجيل / بيروت ، ط2 ، 1978م .

127- القصة في القرآن الكريم ، د. مريم عبد القادر السباي مكتبة مكة ، جدة / الرياض ط1 ، 1407هـ-1987م .

128- القواعد الحسان لتفسير القرآن ، لعبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف / الرياض ط 1400هـ .

129- القول السديد في مقاصد التوحيد ، لعبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف / الرياض ، بدون تاريخ - .

130- القول المفيد في كتاب التوحيد ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي السعودية ، ط4 ، 1421هـ .

- ك -

131- الكبائر للإمام الذهبي ، دار ابن المبارك للنشر والتوزيع ، ط4 ، 1416هـ .

132- كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، مطبعة مسعودي / القوس ، ط6 ، 1399هـ-1979م .

133- كشاف القناع عن متن الإقناع ، لمنصور البهوتي ، مطبعة الحكومة / مكة ، ط 1394هـ .

134- كلمات القرآن تفسير وبيان ، لحسنين محمد مخلوف ، مكتبة أيوب / نيجيريا ، ط 1420هـ-2000م .

- ل -

135- لسان العرب ، لابن منظور ، مؤسسة التاريخ العربي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت / لبنان ، ط2 ، 1413هـ-1993م .

136- لوامـع الأنوار البهية شرح الدرة المضية ، لمحمد السغاريني ، المكتب الإسلامي / بيروت – بدون تاريخ .

– م –

137- مباحـث في علوم القرآن ، لمناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، ط12 ، 1403هـ-1983م .

138- الميسـوط ، لشـمس الديـن السرخسي ، دار المعارف ، بيروت / لبنان ، ط3 ، 1398هـ-1972م .

139- مجمـع الأمـثال ، لأبـي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ، دار القلم / بيروت ، – بدون تاريخ – .

140- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، أحمد بن تيمية – بدون نشر – ط2 ، 1399هـ .

141- معـالم التـنزيل للبغوي ، (ت) خالد العك ومروان السوار ، دار المعرفة ، ط1 ، 1406هـ .

142- مختار الصحاح ، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، دار القلم بيروت / لبنان – بدون تاريخ – .

143- مجموعة التوحيد (عشر رسائل) ، لابن تيمية ، ابن عبد الوهاب وأئمة الدعوة ، دار الإفتاء / السعودية .

144- مدارج السالكين بن منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن قيم الجوزية ، (ت) عماد عامر ، دار الحديث / القاهرة ، ط1 ، 1416هـ-1996م .

145- مراتـب الإجمـاع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان – بدون تاريخ – .

146- المسـائل التـي خالـف فيها رسول الله أهل الجاهلية لشيخ الإسلام الإمام محمد عبد الوهاب ،(ت) يوسف بن محمد السعيد ، دار المؤيد ، ط1 ، 1416هـ-1996م .

147- المسـتخلص فـي تزكيـة الأنفس ، لسـعيد حـوى ، دار الأرقم / كان ، ط1 ، 1403هـ-1983م .

148- مسـند الإمـام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت / دمشق ، ط1 ، 1413هـ-1993م .

149- مستدرك الحاكم ، دار المعرفة ، بيروت / لبنان ، ط1 – بدون تاريخ – .

150- مشكل الآثار للطحاوي ، دار الصادر / بيروت ، – بدون تاريخ – .

151- المصباح المنير ، للعلاّمة أحمد بن محمد بن علي الغيومي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، ط2 ، 1408هـ-1997م .
152- معجم البلدان ،لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، (ت) مزيد عبد العزيز الجندي ،دار الكتب العلمية ،بيروت / لبنان ، ط1 ، 1410هـ-1990م .
153- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت) عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل / بيروت ، ط1 ، 1411هـ .
154- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط1 ، 1400هـ-1980م .
155- المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس وجماعة ، دار المعارف / مصر ، ط2 ، 1392هـ-1972م .
156- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط1 - بدون تاريخ - .
157- المغني ، لابن قدامة ، (ت) د. عبد الله التركي ، د. عبد الفتاح الحلو ، هجر / القاهرة ، ط1 ، 1413هـ-1992م .
158- مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للنووي ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ، 1387هـ-1958م .
159- مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين ، د. عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس الكويت ، ومكتبة الفلاح / بيروت ، ط2 ، 1411هـ-1991م .
160- مفردات ألفاظ القرآن ، للعلامة الراغب الأصفهاني ، (ت) صفوان عدنان داوؤي ، دار القلم / دمشق ، الدار الشامية / بيروت ، ط1 ، 1412هـ-1992م .
161- مقالات الإسلاميين ، لأبي الحق الأشعري ، (ت) محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ، ط2 ، 1389هـ .
162- الملل والنحل ، للشهرستاني ، (ت) محمد سيد الكيلاني ، شركة مصطفى الحلبي / القاهرة ، ط 1396هـ .
163- مناهل العرفان في علوم القرآن ، للشيخ عبد العظيم الزرقاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 1416هـ .
164- منهاج المسلم ، لأبي بكر الجزائري ، مكتبة الإيمان / المنصورة ، ط 1384هـ-1964م .
165- ميزان العمل للغزالي ، دار المعارف / مصر ، ط1 ، 1964م .

رابعاً : فهرس الموضوعات

رابعاً : فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

الباب الأول

محبطات العمل الصالح في القرآن الكريم (38 - 213)

الفصل الثاني

المحبطات القولية (91- 134)

Thesis Summary

Nullifiers of Good deeds and Their Consequences as Described in the *Holy Quran*

The following thesis has been organized into an introduction, three sections, and a conclusion.

The Introduction:

The introduction is comprised of the following:

The significance of the subject researched and its importance.
Motive behind the selection of the subject.
Aim of the thesis.
Topics of previous researches.
Difficulties encountered in the writing of the thesis.
Personal research methodology.
Materials used in this thesis.
Thesis planning.
Reference and acknowlegement

An Overview of the Thesis:

This thesis has been divided into two relating sub-parts:

Sub-part I: In this sub-part, the following topics have been examined: an introduction and explanation of good deeds in terms of Al-Dawa, along with their result on both the individual and group of individuals in terms of the necessity of faith.

Sub-part II: In this sub-part I have introduced both the ways in which good deeds may be performed along with the reasons behind which one may sin, while also introducing means through which one may expiate his/her sin upon completion.

Section I: Nullifiers of Good Deeds Mentioned in the *Holy Quran*

Chapter I: In this chapter I have discussed the heart in terms of the nullifiers of good deeds which take their perpetrators out of Islam.
Disbelief of Allah (SWT)

Joining partners to Allah (SWT)
Disbelief/doubt in any of Allah (SWT) arbitrators on earth.
Disbelief /doubt in the angels and jinn.
Denial of our ressurection from the grave and of The Last Day.
Disbelief of any aspect of faith.

Also included are nullifers that nullify good deeds **without** taking one out of Islam.

Desperation, leading one to doubt Allah (SWT) mercy.
Insincerity and hypocrisy.
Feeling / behaving in a superior manner towards other Muslims.

Chapter II: In this chapter I have discussed the nullifiers of the tongue which take the sinner out of Islam.

Insulting and/or mocking Allah (SWT), His angels, His prophet, His signs, falsely claiming prophethood, making what Allah (SWT) has ordained unlawful to be lawful (and vice-versa), and lying in the name of Allah (SWT) .

Also included are the nullifers of the tongue which **do not** take its perpetrators out of Islam.

Slander and backbitting
Gossip.
Harming other Muslims.

Chapter III: In this chapter I have discussed the nullifiers which are violating any of the five pillars of Islam, therefore bringing its perpetrators completely out of Islam.

Paganism and otheism.
Mockery of the *Holy Quran.*

Also included are the nullifers which **do not** take its perpetrators out of Islam.

Fornication and adultery
Sodomy
Alcohol consumption
Usury

Further included are the nullifers which doubt the perpetrators Islam:

Missing prayer.
Judging Allah (SWT) message.
Magic and sooth saying.

Section II: Punishment and Consequences of Sinning

The above subject is divided into the following two chapters:

Chapter I: This chapter discusses the punishment of sins committed by both the individual and by a group of individuals- some of which may repent at some instance of their lifetime and others which may never seek forgiveness.

Chapter II: This chapter discusses punishments which affect on the society as a whole (due to their sins). It also explains how Allah (SWT) has destroyed previous transgressing nations, such as the children of Noah (pbuh) and the children of Israel for the mischief they have spread on the earth. Further examined is the methodology of punishments.

Section III: How the *Holy Quran* encourages its reader to perform good deeds and how it draws the readers awareness to the nullifiers:

This section contains two chapters:

Chapter I: This chapter describes how the *Holy Quran* makes its reader like performing good deeds through examples taken from various parables.

Chapter II: This chapter describes how the *Holy Quran* makes its reader afraid of the nullifiers through examples taken from various parables.

Conclusion:

The conclusion highlights of the nullifiers and gives the reader certain final recommendations.